هنري ميللر

مدار السرطان

ترجمة : أسامة منزلجي



رواية

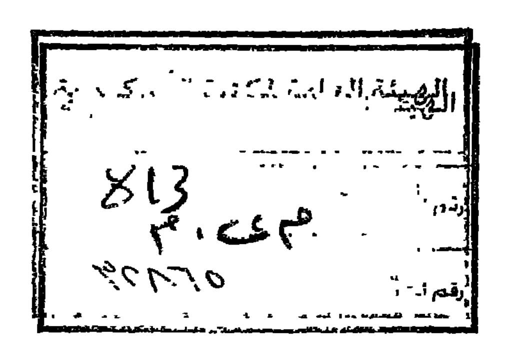


مدار السرطان



هنري ميللر

مدار السرطان



ترجمة: أسامة منزلجي

مدار السرطان

أرثر ميللر

ترجمة: أسامة منزلجي

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧

دار الكنوز الأدبية

بيروت ـ ص.ب: ١١/٧٢٢٦ ـ هاتف: ٦٥٣٥١٤

«هذه الروايـات سـوف تفسـح المجـال، شـيئاً فشـيئاً، للمذكرات أو للسير الذاتية ـ وهي كتــب آسـرة، إذا عـرف الانسان كيف ينتقي من بين ما يسمّيه تجاربه وكيف يدوّن الحقيقة بصدق»

رالف والدو امرسون



قبل المقدمة

المقدمة التي ستلي هي مقتطفات من الصفحات الأولى لكتاب ألّفه الكاتب الأميركي الشهير نورمن ميلر Mailer عنوانه "العبقرية والشبق"، ويحاول فيه أن ينصف هنري ميللر، ويعيد إليه اعتباره المفقود نسبياً في وطنه الولايات المتحدة. ويعتبر نورمن ميلر تلميذاً نجيباً لهنري ميللر ومناصراً كبيراً لأدبه. وهو يقيم في كتابه هذا دراسة مقارنة بين تأثير ميللر في جيل كامل من الكتاب المعاصرين، وتأثير كتّاب آخرين، ويورد في هذا المجال مقتطفات طويلة وطويلة جداً من معظم مؤلفات هنري ميللر. وقد قمت بترجمة هذا الكتاب مع إيراد قسم من المقتطفات الموجودة في الكتاب، هي تلك التي لم يسبق ترجمتها إلى اللغة العربية.* وسوف يصدر هذا الكتاب في مستقبل قريب.

ورواية "مدار السرطان" هي العمل الأول والأبرز لهنري ميللر، وفيه تتمثل كل مقومات أدب هنري ميللر. بل إن أجود ما كتبه هذا المؤلّف وأسوأه موجودان جنباً إلى جنب في الكتاب، وبذلك يكون ميللر قد حقق ما نادى به دائماً وهو أن يقدم الحياة كما عرفها دون تشذيب أو زخرفة، وأن يترك نفسه على سجيتها لكي تنطلق وتعبّر عن ذاتها في شطحات تحتوي الغث والنفيس.

أسامة منزلجي

اللاذقية في ١٨/٧/١٩٩٦

*الجدير بالذكر أني كنت قد ترجمت ونشرت ثلاثة من كتب هنري ميللر الرئيسية إلى العربية وصدرت في أوائل الثمانينات، وأرجو أن أتمكن من إصدار طبعات أخرى منها قريباً. وهي "ربيع أسود" و"مدار الجدي" و"عملاق ماروسي". وهناك ترجمات أخرى لكتب أخرى للمؤلف ستصدر تباعاً بإذن الله.

مقدمة

هنري ميللر

إعادة اعتبار

لقد تـرك النقـد الأدبي مسـافةً فارغـةً حـول هـنري ميـللر. وكثـيرٌ مـن الضحيج أثير عنه، بعضه فخم، والبعض الآخر براق - وكان ميلـلر يستجلب لنفسه قدراً من النقد المنوّع - ومع ذلك ظلت مكانته المرموقة يحيط بها فراغ. وبعد ذلك بسنين عديدة كتب كارل شابيرو إلى دريل يقول إن عليهما أن "يجمعا كتاباً مقدساً يضم مؤلفات ميللر" يكون بديلاً عن نسخة غديون للكتاب المقدس في كل غرفة فندق في أميركا. وقد قرر دريل بدوره أن "الأدب الأميركي اليوم يبدأ وينتهي بمغزى ما أنجزه ميلـلر". وبدأت أنـاييس مقدمتها لرواية "مدار السرطان" بإعلانها:

«ها هنا كتاب قد يعيد إلينا، إذا أمكن، شهيتنا إلى الحقائق الجوهرية».

نعم، لقد نال ميللر نصيبه من التفريط، وقد أدلى مهراجات الأدب أمثال إليوت وباوند وإدموند ويلسون بدلائهم. واكتفى باوند بـإيراد ملاحظـة مـن الشرج:

"هـاكم كتـاب قـذر يستحق القـراءة"، وإليوت، الـذي كـان يـرى أن الشاعر شيللي شيطاني، أصبح مع ذلك نصيراً سرياً لكتاب ميللر، حتى أنـه بعث رسالة إلى المؤلف (كبديـل للتصريـح العلـني). وكتـب ويلسـون إحـدى مدائحه المبكرة (والمنشّاة) المنشورة عن كتاب "مدار السرطان". وقال جورج

أورويل، في مقالة رائعة:"إنه كتاب إنسان سعيد" ـ ما أقرب السعادة بالنسبة إلى أورويل إلى الفضيلة الأولى! ثم يضيف:"إنه كاتب النثر البارع في تصويره الوحيد ذو القيمة بين الأمم المتكلمة باللغة الإنكليزية منذ سنين عديدة".

ذاك كان في الثلاثينات. و لم يفتقد ميللر التزلف منذ ذلك الحين. فقد اعتبره قطاع صغير ولكن يعتدّ به أعظم كاتب أميركي على قيد الحياة على امتداد العقود الأربعة الأخيرة، وهذا صحيح، فبعد رحيل بقية الكتّاب الأميركيين، وغياب همنغواي، وفوكنر، وفيتزجيرالد، وولف، وشتاينبك، ودوس باسوس، وسينكلير لويس منذ زمن بعيد، ووفاة درايزر وخمول ذكر فاريل الجزئي، عمن نستطيع أن نتحدث بوصفه المؤلف الأميركي العظيم؟ زيادة على ذلك، إن ميللر مزود بمؤهلاته الهائلة. وعلينا أن نعود إلى ملفيل لنعثر على فن نثري يثبت أنه راق بكل معنى الكلمة. والحق إن علينا أن نتساءل إن لم يكن باستطاعة ميللر أن يبزّ ملفيل في مجال وصف عاصفة بحرية. إن ميللر في أحسن حالاته كتب نثراً أعظم من نثر فوكنر، وأشد منه جموحاً ــ والقارىء الجيد يدور داخل خليط من النور بكلمات وافرة كالمخمل، متلألئة كالجواهر، وتغطي الصفحة تفجرات فكرية. وكأنما داخل دوامة إحدى محارق ترنر المحيطية حين تسطع الشمس في مركز العاصفة. لا، لا شيء يتفوق على هنري ميللر حين يتدفق. إن أصحاب الأساليب الأدبية الخصبة كأسلوب هوثورن يبدون بالمقارنة مجردين من لغتهم الغنية... وعلى المرء أن يعيد اللغة الإنكليزية إلى مارلو وشكسبير قبل أن يقابل ثروة من قوة المخيلة تعادلها في كثافتها.

لكن لا يمكن القول أن المؤسسة الأميركية تتنقل وفي ذهنها أن هنري ميللر هو عبقري أدبنا، أو أحد رموز الثروة الإنسانية في أميركا. وبما أنه قد ولد في عام ١٨٩١، فسوف يبلغ الخامسة والثمانين بحلول ٢٦ كانون أول (ديسمبر) من عام ١٩٧٦، وهو فنان ذو أبعاد أضخم بما لا يقارن مما لدى روبرت فروست، ولكن من يتصور رئيس جمهورية يدعوه ليقرأ شيئاً من مؤلفاته في يوم توليه سدة الرئاسة، لا، إن مما يثير السخرية من السياسيين الصالحين والأذكياء ربما، حيث يرتبكون قليلاً حول ما إذا كان الحديث

يدور عن أرثر ميللر أم هنري ميللر. وقد يقولون في آخر المطاف "آه، نعم، هنري ميللر، ذاك الذي يؤلف كتباً قذرة". وفي أميركا من التنوع بحيث أن الأمر ينتهي بالجميع إلى أن يعرفوا بلقب مميز. ولقب هنري العجوز هو صاحب الكتب القذرة.

طبعاً ثمة اعتراض يقول إن المرء لا يلجأ إلى أحكام أحد السياسيين للحصول على رأي نقدي أدبي متين. ولكن حتى في عالم الأدب تعيش سمعة ميللر وسط فراغ. وهذا لا يعني أنه يفتقر إلى قوة التأثير. بل ليس من الجور أن نقول إن هنري ميللر قد أثر على أسلوب نصف الشعراء الأميركيين المجيدين وعلى الكتاب الأحياء اليوم: إن من الإنصاف أن نتساءل هل كانت كتب ممنوعة مثل "الغداء العاري" و"شكوى بورتنوي" و"الخوف من الطيران" و"ماذا نفعل في فييتنام؟" استقبلت استقبالاً حسناً (أو كانت ذات أسلوب متحرر مثلها) لو لم يقم هنري ميللر بريّ النثر الأميركي. وحتى كاتب أبعد ما يكون عن ميللر في مراميه مثل شاؤول بيلو يُظهر دَينه في رواية "أوغي مارتش". لقد ترك ميللر تأثيره. وقبل ثلاثين عاماً فإن الكتّاب الشباب يتعلمون الكتابة من خلال قراءة كتبه، إلى جانب أعمال هيمنغواي وفوكنر، وولف وفيتزجيرالد. وباستثناء هيمنغواي، ربما كان له أكبر تأثير في الأسلوب من أي كاتب أميركي في القرن العشرين. ومع ذلك فلا يزال هناك ذاك الفراغ النقدي. وما كتب عنه لم يخرج عن نطاق التزلف أو الرفض. فالمرء لا يتناول نقداً أدبياً عنوان مقالته "إرنست هيمنغواي وهنري ميللر ــ سنواتهما في باريس" أو "المحيطان الاجتماعيان لكل من ف. سكوت فيتزجيرالد وهنري ميللر" ولا تعليقات على "الرؤيا الكشفية لهنري ميللر وتوماس وولف كما يعكسها فنهما النثري": ولا دراسات صغيرة عن أوجه التشابه في المكان والزمان في كتاب أورويل "فقير ومتبطل في باريس ولندن" وفي "مدار السرطان"، لا، وحتماً ليس سير حياة ميللر أو النساء اللواتي التقاهن في حياته. فإذا كان سكوت لديه زيلدا، وهي كانت دون شك كفؤاً لسيرة حياة رسمية، فقد كان لميللر جون أديث سميث، وهي أيضاً يمكن أن تستأهل أن تعامل بالمثل. لا أحد يبدو متعجلاً للاقتراب. ولا يبدو في الأفق عمل عنوانه "هنري ميللر وجيل الغضب" أو "هنري ميللر وثورة الستينات". إن

الشبان لا يشعرون أنهم يموتون من الداخل لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بالطريقة التي عاش بها هنري ميللر ذات يوم. ومع ذلك لا نجد كاتباً أميركياً واحداً، ولا حتى هيمنغواي، اقترب بالضرورة من النعيم المجنون في أن يكون وحيداً في مدينة غريبة ولا يحتكم على قرش واحد في جيبه، ولا على طعام في معدته، وثمة انتصاب في قضيبه قد بدأ لتوه، وهو انتصاب "شخصي" (كما يصفه أحد شخصيات ميللر بشكل محبّب).

لذا فإن المفارقة تلح. إنها لمعجزة إن اختيار مجموعة من مؤلفات ميللر معناه أن تقرأ كل شيء له. وأن تقرأ كل هذا القدر من أعماله معناه أن تستوعب حجمه شئت أم أبيت. إنه كاتب أعظم مما يظن به. فإذا كانت "مدار السرطان" هي أفضل أعماله بما لا يقاس وكل من قرأ ميللر تقريباً قد قرأها، فإن تلك الرواية لا تقدم مع ذلك إلا فكرة ناقصة إلى حد كبير عن بقية موهبته المستقبلية. وبمقارنته بملفيل يبدو عمل ميللر الثانوي أبلغ تأثيراً وأكثر تنوعاً بمراحل. وليس هناك فقط هنري ميللر واحد، بل عشرون، وخمسة عشر من أولئك المؤلفين جيدون جداً. طبعاً، عندما يكون ميللر رديئاً فهو ربما أراد أعظم كاتب وجد على الإطلاق وقد يكون نقده الأدبي طناناً وفارغاً بشكل محرج من المفاهيم الجديدة. فكتابه عن رامبو "زمن القتلة" مخيِّب للآمال. وقد لا يكون لديه ما يستحق الذكر ليقوله عن لورنس وبلزاك. ومقالاته الجدلية تبدو كالوحول. وفي أسوأ حالاته تبدو كتابته افتتاحية صحفية في بلدة صغيرة. بل إن في وسعه أن يكون سخيفاً ومبتذلاً.

غير أنه في أفضل حالاته الأدبية، كما في "جابر فورل كرونستادت" يمكنه أن ينجز محاكاة ساخرة - "دودي وubisquishous" على غرار "يقظة فينيغان" والتي يمكنها أن تشكل معياراً لكتابات جويس الساخرة. وفي عام آخر - ويمكن أيضاً أن تكون حياة أخرى - يستطيع أن يكتب سرداً يفتقر إلى البراعة لمحاولته الاعتناء بسيارته المريضة في مرائب في ألبوكويرك يتصف بكل سحر وقابلية للنشر وفنائية من النوع الذي دائماً تحاول مجلة نيويورك صنداي تايمز أن تعثر عليه ولا تنجح قط في ذلك. أو يكتب مذكرات متينة، "شيطان في الجنة" وتحكي عن منجّم معقد لا يخلو من شر، وتتفوق على قصة توماس

مان، "ماريو والساحر" وتكاد تبلغ قامة "موت في البندقية". وبإمكانه أن يبدع جمهوراً من الشخصيات في ثلاثيته "الصلب الوردي" تقارع أي مجموعة معادلة لها من أعمال توماس وولف، وحيوية إبداعاته ليست مضطرة إلى أن تفسح الطريق لبلزاك. إنه عازف بارع ومن المحتمل أننا لم نحصل على بهلوان في الأدب مثله...

إن نطاق موهبته يتبدى في أنه عرض كل هذه الأنماط الأدبية والأساليب خلال الثلاثين سنة ونيف التي مارس خلالها الكتابة بعد تأليفه "مدار السرطان"، مع أنه لم يكن حتى قد بدأ بتأليف ذاك الكتاب حين ناهز الأربعين من العمر. كان، وقد قارب منتصف العمر، ولا يكاد يملك بنساً واحداً، فاشلاً من الطبقة الوسطى وقد استنفد ثقة أصدقائه فيه. ولدى مغادرته نيويورك قاصداً أوروبا بالكاد استطاع أن يقترض عشرة دولارات لمصروفه على متن السفينة. وذاك فشل زف بكل مظاهر التهليل. إنه بعيشه في باريس معتمداً على قدراته الخاصة، مع التعريف الفعال لما يعنيه العيش بمعية القدرات الخاصة، نجح في تأليف المخطوطة "مدار السرطان" وهي واحدة من عشر أو عشرين رواية عظيمة في قرننا، وهي ثورة في الأسلوب والوعي تعادل رواية "لا تزال الشمس تشرق". لا يمكنك أن تجتاز الصفحات العشرين الأولى منها دون أن تدرك أن أعجوبة أدبية تحدث ـ لم يكتب أحد قط من قبل بهذه الطريقة، وقد لا يتقن أحد أبداً الكتابة بهذا الأسلوب. ثمة زمان معين ومكان معين قد تركزا في صوت كاتب. إنه مثل الوقوع على قطعة أثرية. ولو وُهبنا عدداً كافياً من مثل هذه الروايات، لما ضاع تاريخ قرننا إلى الأبد: لكان توفر لدينا عدد كاف من النقاط المرجعية المنفصلة الواضحة أمام أعيننا إلى الأبد.

.... إن "مدار السرطان" هي خيال أكثر منها حقيقة. وهذا، طبعاً، لا ينتقص مقدار ذرة من قيمتها. بل لعلها حتى أضحت أعلى قيمة. فقبل كل شيء، نحن لا نكتب لنستعيد تجربة، بل نكتب لنقترب منها قدر استطاعتنا. وأحياناً لا نقترب كثيراً، ومع ذلك، ويا للمفارقة، نكون أقرب مما لو اقتربنا فعلاً، ونحن لا نقترب بالضرورة من واقع ما حدث، وإنما من الواقع الغامض

لما يمكن أن يحدث على صفحة الورق. إن الألوان الزيتية لا تخلق سحباً وإنما صورة السحب، وصفحة من المخطوط يمكنها فقط أن تثير ذاك النوع الخاص من الواقع الذي يحيا على صفحة ورقة الكتابة، قوس قزح على فقاعة صابون. إن ميللر متهم دائماً وأبداً من قبل أناس يعرفون شخصياته الروائية بأنه يرسمها كاريكاتيريا، وأي قارىء جيد يعرف بقدر كاف عن مميزات الشخصية كم يسقط من صفات أهله. ومع ذلك، فأي واقع متراكم يمنحوننا. إن شخصياته تكوّن صورة لمدينة باريس أكثر واقعية من حجارة رصفها إلى أن تتبدى لنا فجأة أعجوبة ممانعة ـ لا يوجد كاتب فرنسي واحد مهما كان عظيماً، ولا حتى رابليه، ولا بروست، ولا دوموباسان، أو هوغو، أو هويسمن، أو زولا، أو حتى بلزاك، ولا حتى سيلين أبرز لنا باريس بصورة أكثر حيوية. متى، في السابق، استطاع إنسان أجنبي أن يصف بلداً بشكل أفضل مما فعله كتابها المقيمون فيها؟ لأن ميللر، في "مدار السرطان" نجح في إنجاز عمل أدبي راق واحد: لقد أبدع نبرة في كتابة النثر تناغمت ونبرة فترة زمنية معينة ومكان معين. فإذا لم تكن الشخصية الرئيسية في "مدار السرطان" التي اسمها هنري ميللر موجودة في الحياة، فهذا لا يهم البتة ــ إنه صوت روح كانت موجودة في ذلك الوقت. لعل الأرواح في الأدب هي أشد ما نصادفه قرباً إلى الحقيقة التاريخية.

لقد ثبت أن التاريخ يقف إلى جانب ميللر. لقد كانت الحياة في القرن العشرين تغادر عالم الجهد الشخصي، والكحول، والجراح المأساوية، إلى تنكة زبالة المدينة الكبرى الملأى بالرضوض، وآلام الشقيقة، والشوّاس، وعقاقير الكيف، وفقدان الذاكرة، والعلاقات العبثية والسرطان. وداخل مجارير الوجود حيث السرطان ينضج كان ميللر يقفز مرحاً. وكان دائماً يقول: أنظر، ليس من الضروري أن تموت في هذه الحثارة. يمكنك أن تستنشقها، أو تأكلها، أو تمصها، أو تنيكها، وتظل تثب مرحاً استعداداً للانتقال إلى اليوم التالي. وإذا استطعنا أن نتحمل الرائحة، يكون فينا شيء لا يقدر بثمن.

بالنظر إلى الجهة التي كان العالم يذهب إليها ــ مباشرة إلى مجرور معسكرات الاعتقال الذي يبلغ اتساعه اتساع العالم برمته ــ فإن ميللر كان

صاحب رسالة تمنح من الحياة أكثر مما فعل هيمنغواي. "إن السبب الوحيد لتركيزي الشديد على اللاأخلاقيين، والأشرار، والقبيحين، والقساة، في أعمالي يعود إلى رغبتي في تعريف الآخرين بمدى قيمة هؤلاء، وكيف أنهم يتعادلون مع الأخيار في الأهمية، إذا لم يكونوا أكثر أهمية.... لقد كنت أحصل على السم من جسمي. والغريب أن هذا السم كان له أثر مغذ على الآخرين. وكأني منحتهم ما يشبه المناعة".

غير أن الأسطورة لم تتطور قط. فبمعية أصابعه وأنفه وأظافر قدميه، غاص في غائط أرض السرطان ـ كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يبقى هناك، شيطاناً ساخراً أعجف، قاسياً كالأظافر، براقاً كالراديوم. ولكنه كان قبل ذلك قد عاش حياة قبل هذه مأساوية، مشوهة، شبه ضامرة، في بعض أجزائها الحية، وكان هو نفسه أشد قرباً إلى الحثارة مما كان يُعتقد. لذا كان عليه أن يكتب حتى يستنزف نفسه عن سجونه الخاصة واستهلك كل العمل الذي سيلي "مدار السرطان" وبعض أسرار شخصيته الفذة، الغامضة، والفريدة، في خصوصيتها موجودة في أعماله الأخيرة ونحن لم نعش معه هناك بعد، أو نحاول أن نفهمه ـ ببحث حيوي. سوف نعرفه جميعاً أكثر إذا استطعنا أن نعثر عليه.

أما الآن فهيا نستمتع بقراءة "مدار السرطان"......



قطنٌ في فيلابورغيز. لا توجـد ذرة واحـدة مـن الغبـار في أي مكـان، لا كرسي في غير مكانه. وحيدون نحن هنا وأموات.

في الليلة الفائتة اكتشف بوريس أنه قَمِل، وتوجَّب قصُّ شعر تحت ابطه، ولكن الحكّ لم يتوقف حتى بعد القصّ. كيف يمكن للمرء أن يقمّل في مكان جميل كهذا؟ ولكن لا يهم، فلم يكن بالامكـان التعـرف علـى بعضنـا معرفة حميمة، بوريس وأنا، لو لم يتعلق الأمر بالقمل.

أعطاني بوريس لتوّه ملخّصاً لآرائه. فهو متنبىء طقس. يقول إن الطقس سيستمر على رداءته. سيقع المزيد من الكوارث. المزيد من الموت، المزيـد مـن اليأس. وليس ثمة بارقـة أمـل في حـدوث أدنـى تغيـير في أي مكـان. سـرطان الزمن ينهشنا حتى يفنينا. أبطالنا قتلوا أنفسهم، أو هم يقتلـون أنفسـهم الآن. إذن، فالبطل ليس الزمن، بل اللازمن. يجب أن نتخذ خطـوة، خطـوة الختـام، نحو سجن الموت. لا مفر، فالطقس لن يتغير.

* * *

الوقت هو خريف العام الثاني لوجودي في باريس. لقد أُرسِلْتُ إلى هنـا لسبب لم أسبر غوره بعد.

لا أملك أية نقود، لا موارد، لا آمال، أنا أسعد إنسان على قيـد الحيـاة. قبل عام، قبل ستة أشهر، كنت أظن أني فنان. لم أعد أفكر في هذا، فأنا فنان فعلاً. كل ما كان أدباً سقط مني. ولا مزيد لكتبٍ تُكتَب، فشكراً لله.

فما هذا إذن؟ هذا ليس كتاباً، هو تشهير، افتراء، تشويه سمعة. هذا ليس كتاباً، ليس بالمعنى العادي للكلمة. لا، هو إهانة مطوّلة، بصقة على وجه الفن، رفسة على قفا الله، والانسان، والقدر، والزمن، والحب، والجمال..... وكل ما تريد. سأغني لكَ، ربما بشيء من النشاز، لكني سأغني، سأغني بينما أنت تنعق، سأرقص فوق جثتك القذرة.....

من أجل أن تغني عليك أولاً أن تفتح فمك. ويجب أن تكون لديك رئتان، وقليل من المعرفة بالموسيقى. ليس من الضروري أن يصحبك أوكورديون، أو قيثارة. الشيء الأساسي هو "إرادة الغناء". وعليه فهذا أغنية، وأنا أغني.

* * *

أغني لكِ يا تانيا. أتمنى لو أستطيع الغناء بشكل أفضل قليلاً، بغنائية أكثر، لكنكِ عندئذٍ ربما ما كنت وافقتِ على سماعي. لقد سمعتِ الآخرين يغنّون وقد أشاعوا فيكِ البرودة؛ فقد غنّوا بجمال فائق، أو ليس بما يكفي من الجمال.

الوقت هو العشرون - من شيء ما من شهر تشرين الأول (أكتوبر). لم أعد أحفظ تسلسل التاريخ. هل يناسبكِ القول - حلمي الواقع في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) الفائت؟ ثمة فواصل، لكنها موجودة بين الأحلام، ولم يبق شيء من الوعي بها. العالم من حولي يتحلّل، تاركاً هنا وهناك بقعاً من الزمن. العالم سرطان ينهش نفسه حتى الهلاك....

يخطر لي أن الصمت الأعظم سيهبط على كل إنسان وكل شيء سيبقى، النصر الأخير للموسيقى. بعد أن ينسحب كل شيء إلى رحم الزمن من جديد سيعود العماء، والعماء هو السجل الذي يحوي الحقيقة. أنتِ عمائي يا تانيا. وهي سبب غنائي. وأنا لست أنا، أنا العالم المحتضر، يسلخ جلد الزمن. لا أزال حياً، أرفسُ داخل رحمكِ، حقيقة تستقبل ما يُكتَب عليها.

أنعس. علم وظيفة الحب. الحوت بعضوه ذي الستة بوصات في حالة راحة. والوطواط ـــ ذو القضيب الحر Penis libre. حيوانات بعضو ذي

عظمة. إذن فانتصابه عظمي..... يقول غورمون: "لحسن الحظ أن الشكل العظمي مفقود لدى الإنسان". أيقول لحسن الحظ؟ نعم، من حسن الحظ. تصوَّر سلالة بشرية تتجول بعظمة منتصبة. للكينغارو عضو مزدوج ــ واحد لأيام الأسبوع وواحد لأيام العطل. أنعس. رسالة من أنثى تسأل إن كنتُ وجدتُ عنواناً لكتابي. عنوان؟ تأكدي أنه: "السحاقيات الفاتنات".

"يا لحياتك المفعمة بالنوادر!" إنها إحدى عبارات م. بوروفسكي. في أيام الأربعاء أتناول طعام الغداء مع بوروفسكي. زوجته، البقرة العجفاء، ترأس قداساً. وهي الآن تدرس اللغة الإنكليزية ـ وكلمتها المفضلة هي "بذيء". ويمكنك أن تدرك في الحال أي ألم في المؤخرة هم آل بوروفسكي. ولكن انتظر.....

يرتدي بوروفسكي بذلات قطنية ويعزف على الأوكورديون. هو مركّب لا يُقهَر، خاصة إذا أخذت في حسابك أنه ليس فناناً رديئاً. هو يدَّعي أنه بولندي، وهذا غير صحيح، طبعاً. فصاحبنا بوروفسكي يهودي، وأبوه كان جامع طوابع بريدية. والحقيقة هي أن سكان مونبرناس كلهم تقريباً من اليهود، وهذا أسوأ. هناك يقطن كارل ولولا وكرونستاد وبوريس وتانيا وسيلفستر ومولدورف ولوسيل. كلهم ما عدا فيلمور. وهنري جوردان أوزفولد اتضح أيضاً أنه يهودي. لويس نيقول يهودي. وحتى فان نوردن وشيري يهوديان. فرانسيس بليك يهودي، أو بالأحرى يهودية. تيتوس يهودي. إذاً كما ترى فاليهود ينهمرون عليَّ حتى يغمروني. أنا أكتب هذا إكراماً لوالد صديقي كارل اليهودي. ومن المهم أن نفهم كل هذا.

وأحبّهم إليّ تانيا، وإكراماً لها سأصبح يهودياً. ولم لا؟ لقد بدأت لتوي أتحدث كاليهود. وأنا بشع الخلقة كيهودي. ثم، من يكره اليهود أكثر من اليهودي نفسه؟

ساعة الغسق. زرقة هندية، سطح الماء زجاجي، أشجار متلألئة سائلة. سكك الحديد تنهار وتقع في القناة عند جوريه. البرقة الطويلة ذات الجوانب المورنشة بالليلك تغطس كسكة حديد أفعوانية في مدينة ملاهي. إنها ليست باريس. ليست كوني آيلند. هي مزيج غسقي لجميع مدن أوروبا ووسط أميركا. ساحات سكة الحديد تحتي، والخطوط الحديدية سوداء، متشابكة، لم

يخططها مهندس، لكن تصميمها طوفاني، تشبه تلك الصدوع الكئيبة في الجليد القطبي الذي تسجله الكاميرات بتدرجات اللون الأسود.

* * *

الطعام هو أحد الأشياء التي أستمتع بها أيّما استمتاع. وفي فيلابورغيز الجميلة هذه نادراً ما يظهر له أي أثر. وأحياناً يكون فظيعاً تماماً. طلبتُ من بوريس مراراً وتكراراً أن يحضر خبزاً للإفطار، لكنه دائماً ينسى. يبدو أنه يتناول الطعام في الخارج. ويعود وهو يخلّل أسنانه وقد علّق بيضة صغيرة من طرف لحيته الصغيرة المشذبة. إنه يتناول طعامه في مطعم دون أن يحسب حسابي. ويقول إنه يؤلمه أن يتناول وجبة دسمة بينما أنا أكتفي بالنظر.

يعجبني فان نوردن وإن كنت لا أشاطره رأيه في نفسه. لا أوافق مثلاً على أنه فيلسوف، أو مفكر. كل ما في الأمر أنه خارط. ولن يكون أبداً كاتباً. ولا حتى سيلفستر، على الرغم من أن اسم هذا يسطع بأنوار حمراء بقوة ٥٠,٠٠٠ شمعة. الكاتبان الوحيدان اللذان يعيشان معي وأكنّ لهما شيئاً من الاحترام حالياً هما كارل وبوريس. إنهما ممسوسان. يتوهجان من الداخل بلهب أبيض، مجنونان ومصابان بصمم النغم. إنهما مُعانيان.

من ناحية ثانية فمولدورف، الذي يعاني بدوره على طريقته الخاصة، ليس مجنوناً. مولدورف مملّ بالكلمة، ليس لديه عروق أو أوعية دموية، أو قلب أو كلى. هو صندوق خفيف مملوء بعدد لا يحصى من الأدراج وعلى الأدراج رُقَع مكتوب عليها بالحبر الأبيض، والحبر الأسمر، والحبر الأحمر، والحبر الأزرق، والقرمزي والزعفراني، والخبازي، والترسينا، والمشمشي، والفيروزي، والعقيقي، والآنجو، والاهليلي، والرنكي، والزبجاري، والأزرق الغرغنزولاوي......

نقلتُ الآلة الكاتبة إلى الغرفة المجاورة حيث يمكنني أن أرى نفسي في المرآة وأنا أكتب.

تانيا مثل آيرين، تتوقع أن تصلها رسائل ضخمة. ولكن هناك تانيا أخرى، تانيا تشبه بذرة هائلة تنثر غبار الطلع في كل مكان ــ أو لنقل، على طريقة تولستوي قليلاً، إنها مشهدٌ ثابت يبرز فيه جنين. تانيا هي أيضاً حمّى -

les voies urinaires المسالك البولية. مقهى الحرية، ساحة الفوسج، ربطات عنق في بولفار مونبارناس، حمّاماً معتقة، شنطة يد، سجائر عبد الله، سوناته "pathetique" ذات الايقاع البطيء، مكبرات سمعية، جلسات سرد الحكايا، أثداء بلون الترسينا المحروقة، أربطة جوارب ثقيلة، كم الساعة الآن، طيور تدرج ذهبية محشوة بالجوز، أصابع من التفتة، أوقات غسق كئيبة تتحول إلى لون البلوط الأخضر، تضخم الأطراف، السرطان والبطاح، خمُر دافئة، فيش البوكر، سجاد من الدم والأفخاذ الناعمة. تقول تانيا بحيث يسمعها الجميع:"أنا أحبه، وبينما بوريس يحرق نفسه بالويسكي تقول هي: "اجلس هنا! آه يا بوريس.... روسيا.... ماذا أفعل؟ إني أطفح بها!".

حين أنظر إلى لحية بوريس الصغيرة المشذبة ليلاً ممددة على الوسادة تصيبني الهستيريا. آه يا تانيا، أين كسّكِ الدافيء الآن، وأربطة الجوارب الثخينة الثقيلة، وفخذاك الناعمان المنتفخان؟ في أيري عظمة طولها ستة بوصات. سوف أسحل كل تغضّن في كسك، يا تانيا، المفعم بالمني. سوف أعيدك إلى حبيبك سيلفستر مع ألم في بطنك ورحمك مقلوب إلى الخارج. يا لحبيبك سيلفستر! نعم، هو يعرف كيف يضرم ناراً أما أنا فأعرف كيف ألهب كساً. إنني أطلق قذائف حارة فيك يا تانيا، أجعل مبيضيك متوهجين. هل صار حبيبك أكثر غيرة قليلاً الآن؟ إنه يشعر بشيء، أليس كذلك؟ يشعر بآثار أيري الضخم. لقد جعلت الحواف أوسع قليلاً. كويتُ التغضّنات كلها. يمكنكِ بعدي أن تقبلي تحدي الفحول، والتيران، والأكباش، ودكور البط، والقديس برنار. يمكنك أن تحشي معيك المستقيم بالضفادع، والوطاويط والسحالي. يمكنكِ أن تتغوّطي توقيعات متعاقبة إذا أردت، أو أن تثبّتي أوتاراً عبر سرّتكِ كآلة القانون. إني أنيكك يا تانيا، وهكذا ستبقين متناكة. إذا كنت تخافين أن تناكي علناً فسأنيكك خفية. سوف أنتف الشعر عن كسّك وألصقه على ذقن بوريس. سوف أقرص بظرك من الداخل وأخرج منه فرنكين......

* * *

سماء نيلية نظيفة تماماً من نُتَف الغيوم، أشجار نحيلة ممتدة بلا حدود،

أغصانها الكالحة تومىء كالسائر في نومه. أشجار كئيبة شبحية، جذوعها شاحبة كرماد السيجار. صمتٌ علويٌّ ويغلب عليه الطابع الأوروبي. النوافذ موصدةٌ، والمخازن مرتجةٌ، وهنا وهناك يسطع وهج أحمر ليدل على مكان لقاء. الواجهات فظة، تكاد تكون منفرة، نقية ما عدا بقعاً من الظل تلقيها الأشجار. عند مروري بمنطقة أورانحري أتذكر باريس أخرى، باريس موم، وغوغان، باريس حورج مور. أفكر في ذاك الاسباني الرهيب الذي كان في ذلك الوقت يذهل العالم بقفزاته البهلوانية من أسلوب إلى أسلوب. أفكر في شبينغلر وإقراراته المرعبة، وأتساءل إن كان الأسلوب، الأسلوب بشكله العظيم، قد استُهلِك. أقول إن عقلي مشغول بهذه الأفكار، لكن هذا غير صحيح، إذ أنني لم أسمح لعقلي أن يلهو بهذه الأفكار إلا بعد ذلك، بعد أن عبرت السين، بعد أن خلفت ورائي مهرجان الأضواء. أما الآن فأنا عاجز عن التفكير في أي شيء — عدا في أنني كيان حساس مطعون بمعجزة هذه المياه التي تعكس عالماً مجهولاً. الأشجار الموجودة على طول الضفتين تنحني بتثاقل فوق المرآة الفاقدة اللمعان، وعندما تهب الريح، وتملؤها بالغمغمة الهاسة ستريق بعض دمعات وسترتعش كلما دوّم الماء قربها. إنني مخنوق بهذه الصورة. غير قادر على نقل جزء بسيط من مشاعري لأي إنسان.....

مشكلة آيرين تكمن في أن لديها حقيبة بدل الكس. تريد رسائل ضخمة تملأ بها حقيبتها. وهي متخمة بـ avec des choses inouies "بأشياء لم يسمع بها أحد من قبل". أما ليونا، فلديها كس. أعلم هذا لأنها أرسلت لنا بعض شعرات منه. ليونا ـ مؤخرة متوحشة تشتم برائحة المتعة من الهواء. تقوم بدور المومس فوق كل هضبة عالية ـ وأحياناً تقوم بهذا في أكشاك الهاتف وفي المراحيض. ابتاعت سريراً للملك كارول مع وعاء للحلاقة محفور عليه الأحرف الأولى من اسمه. وكانت تستلقي في توتنهام كورت رود وقد رفعت ثوبها إلى أعلى وتداعب نفسها باصبعها. كانت تستخدم شموعاً، شموعاً رومانية، ومقابض أبواب. إذ لا يوجد في أي مكان أير بالضخامة التي تلائمها..... ولا واحد. يدخل الرجال فيها ويلتفون حول أنفسهم. كانت تريد أيور امتداد، قذائف ذاتية الانفجار،

زيتاً يغلي مؤلفاً من الشمع وسائل الكريوسوت. إنها تود لو تقطع أيرك وتبقيه فيها إلى الأبد، إذا سمحت لها. ليونا! هي كس تنتقيه من بين مليون! كس لإجراء التجارب بلا ورق عباد الشمس ليخلصها من لونها. وهذه الليونا كانت كذابة أيضاً. لم تَبْتَغ سريراً لحبيبها الملك كارول. توّجته بزجاجة ويسكي ولسانها يملؤه القمل والوعود. مسكين كارول، كل ما استطاع أن يفعله هو أن يلتفّ حول نفسه داخلها ويموت. شهقت مرة واحدة وإذا به يسقط ـ كسمكة بطليموس ميتة.

رسائل ضخمة، ملأى بـ avec des choses inouies "بأشياء لم يسمع بها أحد من قبل". حقيبة بلا شرائط. ثقب بلا مفتاح. كان لها فم ألماني، وأذنان فرنسيتان، ومؤخرة روسية. عاهرة عالمية. وحين رفّ العلم كان أحمر وحتى الحنجرة. وتدخل بوليفار جول فيرن، وتخرج منه إلى ميناء دو فيليت. وترمي بنكرياساتك إلى داخل العربات ـ عربات حمراء بدولابين، طبعاً، عند التقاء نهري الأورك والمارن، حيث يتدفق الماء من خلال فتحات التحكم بالماء في السدود ويستقر كصفحة الزجاج تحت الجسور. هناك تستلقي ليونا الآن، والقنال مملوء بالزجاج والشظايا، الميموزا تبكي، وثمة ضراط رطب ضبابي على زجاج النوافذ. ليونا يا كساً بين مليون! كلها كس ومؤخرة من زجاج عليها تقرأ تاريخ العصور الوسطى.

* * *

أول ما يوحي به مولدورف هو أنه صورة ساخرة لرجل. عينان درقيتان، وشفتا ميشلان، وصوت يشبه شوربة الفاصولياء. يحمل تحت بزّته أجاصة صغيرة، وكيفما تنظر إليه ترى المشهد الشامل نفسه: صندوق النشوق، المقبض العاجي، رقعة الشطرنج، مروحة، رسم كنيسة. لقد طال أمد تخمّره حتى أصبح عديم الشكل، خميرة مسلوبة من فيتاميناتها، زهرية بلا نبتة اصطناعية.

لقد أوجدنَ الإناث مرتين في القرن التاسع، ومرة أخرى خلال عصر النهضة. وقد مر عبر عمليات تقزّح هائلة تحت بطون صفراء وبيضاء. وقبل سِفر الخروج بزمن طويل بصق تتري في دمه.

مشكلته هي مشكلة قزم. بعينيه الصوبريتي التشكل، يرى جانب وجهه مرسوماً على ستارة هائلة الحجم. صوته، المتزامن مع ظل رأس دبوس، يّسكِره. يسمع زئيراً حين لا يسمع الآخرون إلا صريراً.

ثم هناك عقله، وهو عبارة عن مدرّج روماني عليه يقوم الممثل بأدوار متقلبة متنوعة. ومولدورف، بأشكاله المتعددة ودون ارتكاب أي خطأ، يتنقل بين أدواره ـ مهرج، مشعوذ محرّف، كاهن، فاسق، دجال، والمدرّج جدّ صغير. فيشحنه بالديناميت. يخدر المشاهدين. وينسفه.

أحاول بلا طائل الاقتراب من مولدورف. إنه كمحاولة الاقتراب من الله، لأن مولدورف هو الله ـ و لم يكن قط أي شيء آخر. إنني فقط أدوّن الكلمات.....

كوّنتُ عنه آراء نبذتُها فيما بعد، وكوّنتُ آراء أخرى لا أزال أراجعها. ثبّته أمامي بدبوس واكتشفت أن ما بين يدي ليس خنفساء الروث، بل يعسوب. لقد أهانني بفظاظاته وبعد ذلك غمرني برقته. كان مهذاراً حتى الاختناق، وهادئاً كنبتة الحنائن.

حين أراه يخبّ نحوي مرحّباً، ماداً مخالبه الصغيرة، وعيناه تنزّان عرقاً، أشعر أنني بصدد الاجتماع بـ ..... ولكن لا، ليس هذ هي الطريقة المثلى للتعبير عنه! إنه:

"comme un oeub dansant sur un jet d'eau"

"كبيضة تتراقص فوق دفق من الماء".

لم يكن لديه إلا عصاً من الخيزران واحدة ــ متوسطة الحجم. في جيبه قصاصات من الورق تحوي وصفات ضد "الأسى العالمي". وقد شُفي منه الآن، والفتاة الألمانية الصغيرة التي كانت تغسل قدميه تُحطم قلبها. إنه مثل السيد عدم[1] Nonentity الذي يحمل معه قاموس الغوجاراتي إلى كل مكان. "المحتوم لكل إنسان" ــ وهو، بلا شك، يعني أنه لا غنى عنه. إن بورروفسكي سيرى كل هذا عصياً على الفهم. وبورروفسكي لديه خيزرانة

---

[1] ـ السيد عدم: سيرد ذكره بالتفصيل في موقع قادم من الكتاب – المترجم.

لكل يوم من أيام الأسبوع، وواحدة من أجل عيد الفصح.

إننا نشترك في كثير من النقاط حتى لكأنني أنظر إلى نفسي في مرآة مشروخة.

كنت ألقي نظرة على مخطوطاتي، وهي صفحات محشوة بالمراجعات. صفحات من " الأدب". وهذا ما أخافني قليلاً. إنه جدير بمولدورف. غير أني لست يهودياً، ولغير اليهود طرق مختلفة للمعاناة. إنهم يعانون دون عصاب، وكما يقول سيلفستر، الرجل الذي لم يبتل بالعصاب لا يعرف معنى المعاناة.

أذكر بوضوح كم استمتعت بمعاناتي. كأن المرء يصطحب معه جرواً صغيراً إلى السرير. وإذ به فجأة يخدشك ـ وينتابك خوف حقيقي. ففي الحالة العادية لا يكون هناك خوف ـ ويمكنك دائماً أن تطلق سراحه، أو أن تقطع رأسه.

ثمة أناس لا يستطيعون مقاومة إغراء الدخول في قفص مملوء بالضواري ليمثّل بهم. فيدخلون دون مسدس أو سوط. والخوف يجعلهم غير خائفين..... بالنسبة لليهودي العالم قفص مملوء بالضواري. الباب موصد وهو في الداخل دون مسدس أو سوط. وشجاعته من العِظَم بحيث أنه لا يشم رائحة الروث المكوم في الزاوية. ويصفق له المشاهدون استحساناً لكنه لا يسمعهم. فالدراما، في اعتقاده، هي التقدم داخل القفص. والقفص، في اعتقاده، هو العالم. ويقف هناك وحيداً عاجزاً، الباب موصد، ويلاحظ أن الأسود لا تفهم لغته. لم يسمع أي منها بسبينوزا. سبينوزا؟ لكنهم لا يستطيعون غرز أسنانهم فيه. ويزمجرون كأنما يقولون "اعطنا لحماً!" وهو واقف هناك كالمصعوق، أفكاره مجمَّدة، ونظرته الشاملة Weltanschaung هي أرجوحة بهلوان بعيدة المنال. تكفي ضربة واحدة من مخلب الأسد وتتهشّم نظرته عن نشأة الكون.

والأسود، أيضاً، يخيب أملها. لقد توقعت دماً، عظاماً، غضروفاً، عصباً. فتمضغ وتمضغ، لكن الكلمات هي كالصمغ والصمغ لا يُهضَم. والصمغ مادة أولية يمكن أن تمزَج بالسكر، وخميرة المضمين، والزعتر وعرق السوس. والصمغ، إذا جمعه جامعو الصمغ يكون رائعاً. لقد أتى أولئك الجامعون على

متن قارة غارقة، وجلبوا معهم لغة جبرية. في صحراء أريزونا قابلوا المنغول الشماليين، اللامعين كبشرة الباذنجان بعد أن اتخذت الأرض ميلها التوازني بوقت قصير ـ وذلك حين انفصل تيار الخليج عن التيار الياباني. في قلب التربة وجدوا الصخر المسامّي. زخرفوا أعمق أعماق الأرض بلغتهم. أكل بعضهم أحشاء البعض وانغلقت الغابة عليهم، على عظامهم وجماجمهم على حجرهم المساميّ المخرّم. وضاعت لغتهم. ولا زال المرء يعثر هنا وهناك على بقايا مجموعة من الوحوش، على قحف دماغ مغطّى بالأرقام.

* * *

ولكن ما علاقة كل هذا بك يا مولدورف؟ الكلمة التي تتردد على لسانك هي الفوضوية. قلها يا مولدورف، إنني أنتظرها. لا أحد يعرف الأنهار التي تنضح مع عرقنا عندما نتصافح بالأيدي. وأنت تصيغ كلماتك، منفرج الشفتين، يقرقر اللعاب داخل خديك، أكون قد قطعت نصف الطريق الموصلة إلى آسيا. لو أتناول خيزرانتك، بتواضعها، وأفتح بها ثغرة في جنبك لاستطعت أن أجمع مواداً كافية لملء المتحف البريطاني. ونقف خمس دقائق نبدل خلالها قروناً. أنت المنخل الذي ترشح من خلاله فوضاي، وتحل نفسها في كلمات. وخلف الكلمة يكمن العماء. كل كلمة هي شريط، سلك، ولكن لا يوجد ولن يوجد أبداً ما يكفي من الأسلاك لصنع الشبك.

أثناء غيابي عُلّقت ستائر النوافذ. وبدت كأنها مفارش مائدة من التيرول غُمسَت في الليزول. الغرف تتلألأ. أجلس على السرير مذهولاً، أفكر في الانسان قبل ولادته. فجأة تبدأ الأجراس بالقرع، موسيقى عجيبة عُلْوية، وكأنني نقلت إلى فيافي أواسط آسيا. بعضها يقرع بهدير طويل متمهّل، وبعضها ينطلق سكران جياش العاطفة. والآن ساد الصمت من جديد، إلا النغمة الأخيرة التي لم يبق غيرها يمس برفق سكون الليل ـ ضربة واحدة عالية واهنة انطفأت كما اللهب.

أقمت ميثاقاً صامتاً مع نفسي ألا أغيِّر سطراً واحداً مما أكتب. لست

مهتماً بجعل أفكاري مكتملة، ولا حتى أعمالي. إلى جانب اكتمال تورغينيف أضع اكتمال دوستويفسكي (وهل هناك ما هو أكثر اكتمالاً من "الزوج الأبدي"). هنا لدينا، إذن، وفي الوسط نفسه، نوعان من الاكتمال. أما في رسائل فان كوخ فاكتمال يتجاوز كلاً من هذين النوعين. إنه انتصار الفرد على الفن.

* * *

ثمة أمر واحد أحد يثير اهتمامي بحيوية، وهو أن أسحل كل ما حذفته الكتب. فحسبما أرى لا أحد يستغل هذه العناصر المنثورة في الهواء والتي تعطي حياتنا اتجاهاً ودافعاً. القَتَلة وحدهم، على ما يبدو، يحصلون من الحياة على مقدار مرضٍ من ثمار ما يضيفونه إليها. العصر يتطلب العنف، لكننا لا نحصل بالنتيجة إلاّ على انفجارات مجهضة. فالثورات تُدهَس وهي براعم، أو تنجح بسرعة مشكوك فيها. وسرعان ما يُستَنفد الحماس، وينطرح الناس على الأفكار، comme d'habitude "كالعادة"، ولا يُتوقّع لأي شيء أن يدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة. نحن نعيش مليون حياة على مدى جيل واحد. ونحن بدراسة علم الحشرات، أو الحياة في أعماق البحار، أو الانشطارات النووية، نحصل على دفق أغزر من........

ويقطع رنين الهاتف هذه الأفكار التي لم أتمكن قط من إكمالها. لقد جاء أحدهم لاستئجار الشقة.....

يبدو وكأن حياتي في فيلابورغيز توشك أن تنتهي. حسن، سألملم هذه الصفحات وأذهب. ستحدث الأمور في مكان آخر. والأمور تحدث دائماً. ويبدو أنه حينما أذهب تقع أحداث عنيفة. الناس كالقمل ــ يدخلون تحت جلدك ويدفنون أنفسهم هناك. وتحك وتحك حتى يخرج الدم، لكنك لا تتخلص من القمل طويلاً. أينما أذهب أجد الناس يجعلون من حياتهم كتلة من الفوضى. لكل إنسان مأساته. باتت المأساة تجري مع الدم الآن ـ وسوء الحظ والسأم، والأسى والانتحار. الجو مشبع بالكارثة، والاحباط، والعقم. وتحك وتحك ـ حتى يهترىء الجلد كله. على كل

حال، فتأثير ذلك عليّ مثير. فبدل أن أُحبَط أو أُصاب بالكمد، أستمتع به وأصرخ طالباً المزيد والمزيد من النوازل، والكوارث والفشل الأعظم. أريد من العالم كله أن يخرج عن طوره. أريد من كل إنسان أن يهرش نفسه حتى الموت.

* * *

أنا مضطر إلى أن أعيش بوتيرة سريعة وبهياج بحيث لا يكاد يتوفر وقت لأسجِّل هذه الملاحظات الشراذم. بعد المكالمة الهاتفية بقليل وصل رجل وامرأة. صعدت إلى الطابق العلوي لأستلقي خلال إجراء الصفقة. أستلقي هناك وأتساءل ماذا ستكون خطوتي التالية. لن تكون طبعاً بالعودة إلى سرير اللوطي والتسكع في كل مكان أدحرج فتات الخبز بطرف قدمي. يا لابن الحرام الحقير! إذا كان ثمة ما هو أسوأ من لوطي فهو البخيل. إنه رعديد، لوطي حقير عاش حياته في خوف مستديم من أن يفلس يوماً - في الثامن عشر من آذار، ربما، أو الخامس والعشرين من أيار على وجه الدقة. قهوة بلا حليب أو سكر، خبز بلا زبد، لحم بلا مرق، أو حتى بلا لحم على الإطلاق. بلا هذا أو بلا ذاك! بخيل حقير قذر! أفتح درج المكتب ذات يوم فأجد نقوداً مخبّأة في جورب. أكثر من ألفي فرنك - وشيكات لم يحمّل نفسه عناء صرفها. ومع ذلك ما كنت لأهتم لو لم أكن أجد دائماً ثفل القهوة في قلنسوتي ونفاية على الأرض، ولا تحدّث عن برطمانات الكريما المثلّجة والشحم على المناشف والمغسلة مسدودة دائماً. وأقول لك، ابن الحرام الحقير هذا يفوح روائح كريهة - إلا حين يُغرق نفسه بماء الكولونيا. أذناه قذرتان. عيناه قذرتان. ومؤخرة قذرة. كان مزدوج المفصل، مصاباً بالربو، وقَمِلاً، وتافهاً، ومملوءاً بالأمراض. كان بوسعي أن أغفر له كل شيء لو أنه قدم لي مرة إفطاراً محترماً! ولكن رجلاً مثله يخفي ألفي فرنك في جورب قذر ويرفض أن يرتدي قميصاً نظيفاً أو أن يضع قليلاً من الزبد على خبزه، رجل كهذا ليس فقط لوطياً ولا حتى مجرد بخيل - إنه معتوه!

لكن هذا اللوطي لا أهمية له ولا شأن. إنني أصيخ سمعي لما يجري في الطابق السفلي. إنهما مستر ورن وزوجته جاءا ليعاينا الشقة. إنهما يتناقشان حول استئجارها. الأمر لا يتعدى النقاش فشكراً لله. للسيدة ورن ضحكة رخوة ـ ثمة تعقيدات في الأفق. الآن "المستر" ورن يتكلم. صوته أجش، يصر صريراً، يهدر، سلاح ثقيل كليل يشق طريقه خلال اللحم والعظم والغضروف.

يادي بوريس عليَّ أن أنزل وتعارف. إنه يفرك كفيه كمُسْتَرْهِن. وهم يتحدثون عن قصة كتبها المستر ورن، قصة عن حصان مصاب بالورم العرقوبي.

"ولكن ظننت أن السيد ورن رسام؟"

ويقول بوريس، غامزاً بعينيه "طبعاً هو رسام، لكنه يكتب في الشتاء، وهو يكتب جيداً.... جيداً جداً"، وأحاول أن أقنع المستر ورن بالكلام، بقول شيء، أي شيء، أن يتحدث عن الحصان المصاب بورم عرقوبي إذا لزم الأمر. لكن المستر ورن ممتنع عن الإفصاح. وعندما يحاول أن يتكلم عن تلك الشهور الموحشة بواسطة القلم يصبح غامضاً. ويقضي شهوراً طويلة قبل أن يكتب كلمة على الورق. (والشتاء لا يتألف إلا من ثلاثة أشهر!). فبماذا يفكر طوال تلك الأشهر المديدة من الشتاء؟ وليسامحني الله لأنني لا أرى في هذا الشاب مستقبلاً ككاتب. ومع ذلك فالسيدة ورن تقول إنه ما إن يضع نصب عينيه الكتابة حتى يجلس "ويفيض".

وينساب الحديث. من الصعب متابعة ما يجري في رأس المستر ورن لأنه لا يقول شيئاً. "إنه يفكر طوال وقته" ـ هكذا تقول السيدة ورن. فالسيدة ورن تصف كل شيء حول زوجها بأبهى صورة. "إنه يفكر بلا انقطاع" ـ شيء ساحر، ساحر حقاً، على حد قول بوروفسكي، غير إنه مؤلم حقاً، خاصة حين لا يكون المفكر أكثر من حصان مصاب بالورم العرقوبي.

أعطاني بوريس نقوداً لأبتاع مشروباً. وسكرت وأنا لا أزال في الطريق لشرائه. أعرف كيف سأبدأ عندما أعود إلى البيت. يبدأ الخطاب الفخم داخلي وأنا أطرق الشارع، مقرقراً كضحكة السيدة ورن الرخوة. ويبدو لي

أنها كانت تتمتع مسبقاً بشيء من الأفضلية. وهي تنصت بشكل جميل عندما تكون يقظة. أسمع، أثناء خروجي من محل بيع الخمور، المبولة تغرغر، كل شيء سائب ويحدث طرطشة. أريد من السيدة ورن أن تنصت....

يفرك بوريس يديه من جديد. والسيدة ورن لا تزال تتمتم وتجمحم. أضع زجاجةً من الخمر بين ساقي وأقحم فتاحة الفلين. تفتح السيدة ورن فمها قليلاً بترقب. الخمر يترشرش من بين ساقي والشمس تتدفق من خلال المشربية. وداخل عروقي ألف شيء جنوني يقرقر ويترشرش وقد بدأ الآن ينبجس خارجاً مني شذر مذر. وأنا أخبرهم بكل ما يخطر على بالي، بكل ما كان محبوساً داخلي وأطلقته ضحكة السيدة ورن الرخوة. وأثناء وجود الزجاجة بين ساقي والشمس تترشرش من خلال النافذة أمرُّ من جديد بتجربة روعة تلك الأيام البائسة الأولى لوصولي إلى باريس، وأنا شخص مرتبك مبتلٍ بالفقر، يسكن الشوارع كشبح في مأدبة. يعود إليّ كل شيء بسرعة كبيرة ـ المراحيض التي لا تعمل، الأمير الذي لمع لي حذائي، وسينما سبليندد حيث نمتُ على معطف صاحبها، وقضبان النافذة، والاحساس بالاختناق، والصراصير السمينة، والشرب والسكر أثناء فترات الراحة، وروز كاناك ونابل يحتضران تحت ضوء الشمس. أذرع الشوارع رقصاً بجوفٍ خاوٍ وبين وقت وآخر أنادي على أناسٍ غرباء ـ على مدام ديلورم، مثلاً. لم أعد أذكر كيف تصادف ودخلتُ بيت مدام ديلورم. لكنني دخلت إلى هناك، بطريقة ما، ماراً بالساقي، وبالخادمة التي ترتدي المئزر الأبيض الصغير، ودخلتُ مباشرة إلى قلب القصر ببنطالي الكوردوري وسترة الصيد ـ وبدون أي زر في فتحة بنطالي. ولا أزال أشعر حتى الآن بجو الغرفة الذهبي حين جلست مدام ديلورم على عرشها بلباسها المسترجل، والسمك الذهبي في الأحواض الزجاجية، وخرائط العالم العتيق، والكتب المجلدة تجليداً جميلاً، أكاد أشعر من جديد بثقل كفها وهي ترتاح على كتفي، وتخيفني قليلاً بمظهرها السحاقي الثقيل. ارتحتُ أكثر وأنا وسط الزحام الشديد المنصب في محطة القديس أليعازر، والعاهرات يقفن على ممر الأبواب، وزجاجات سيلتزر على كل طاولة، ودفق سميك من المني

يغمر المحارير. بين الساعة الخامسة والسابعة لا شيء أفضل من أن تجد نفسك مقحماً في هذا الحشد، تتعقب ساقاً أو نهداً جميلاً، تنحرف مع التيار وكل شيء يدوم في عقلك. تلك الأيام منحتني نوعاً من رضى عجيب. لا ارتباطات، لا دعوات على العشاء، لا تخطيط ولا دراهم. فترة ذهبية، لم أعد أحتفظ خلالها بصديق واحد. وكل صباح السير الموحش نفسه إلى مقهى الاكسريس الأميركي، وكل صباح الجواب الحتمي نفسه من الموظف. اندفع هنا وهناك كالبقة، اجمع أعقاب السجائر بين آن وآخر، تارة بمكر، وطوراً بصفاقة، أجلس على مقعد أعصر أمعائي لتتوقف عن النخر، أو أتمشى عبر حدائق التويلري وينتصب عضوي وأنا أنظر إلى التماثيل الخرساء. أو تراني على طول الشاطىء السين ليلاً، وأتجول، ويكاد يصيبني الجنون من جماله، بالأشجار المنحنية، والصور المتكسرة في الماء، واندفاع التيار تحت أنوار الجسور الشيطانية، والنسوة النائمات على عتبات الأبواب، النائمات على أوراق الجرائد، النائمات تحت المطر، وفي كل مكان شرفات الكاتدرائيات البالية والشحاذون والقمل والعجائز المصابون بالرقّص، وعربات اليد مكوّمة في الشوارع الجانبية كبراميل النبيذ، ورائحة التوت في السوق العامة والكنائس العتيقة مسورة بالخضروات وبأنوار قوسية زرقاء، والمجارير زلقة بالنفايات ونساء يلبسن خِفافاً من الساتان يترنحن وسط الفحش والهوام بعد السكر طوال الليل. وساحة كنيسة القديس سولبيس، الهادئة جداً والمهجورة، التي تأتي إليها عند منصف كل ليلة المرأة ذات المظلة المكسورة والبرقع الجنوني، تنام هناك كل ليلة على مقعد تحت مظلتها الممزقة، بدعاماتها المتهدلة وثوبها المخضرّ، وأصابعها النحيلة وفوح الفساد ينزّ من جسمها، وفي الصباح أجلس بدوري، آخذ غفوة هادئة تحت أشعة الشمس، لاعناً الحمام الملعون الذي يلتقط الفتات من كل مكان. ساحة كنيسة القديس سولبيس! أبراج الأجراس الضخمة، والملصقات المبهرجة المعلقة فوق الباب، والشموع مقادة في الداخل. الساحة التي أحبّها أناطول فرانس حباً جماً، بالأزيز والطنين الصادرين عن المذبح، وطرطشة ماء النافورة، وهديل الحمام، والفتات التي تختفي كالسحر والقرقعة الخافتة في فراغ

الأحشاء. هنا كنت أجلس على مر الأيام مفكراً في جيرمين، وفي الشارع الصغير القذر قرب الباستيل حيث قطنتُ، والطنين المتصاعد من خلف المذبح، والباصات تهدر أثناء مرورها، والشمس تحترق بأشعتها الإسفلت، والإسفلت يحترقني أنا وجيرمين، وتحترق الإسفلت وكل باريس في أبراج الأجراس الكبيرة الضخمة.

قبل هذا بعام اعتدت أنا ومونا أن نتمشى كل مساء في شارع بونابرت، بعد أن نستأذن بوروفسكي. عندئذ لم تكن ساحة كنيسة القديس سولبيس تعني لي الشيء الكثير، ولا أي شيء في باريس. واستنزفني الكلام، وأسقمتني الوجوه، وسئمت مرأى الكاتدرائيات، والساحات ومعارض الحيوانات وكل شيء. أتناول كتاباً في غرفة النوم الحمراء والكرسي الخيزران غير مريح، مللت من طول الجلوس على مؤخرتي، ومن ورق الجدران الأحمر، ومن رؤية عدد غفير من الناس يربرون بكلام فارغ. غرفة النوم الحمراء وصندوق الثياب مفتوح دائماً، وأثوابها مبعثرة في فوضى عظيمة. غرفة النوم الحمراء وأحذيتي الشتوية وعصي الخيزران ودفاتر الملاحظات التي لم أمسها، والمخطوطات ملقاة باردة ميتة. باريس! تعني مقهى النخبة، والدوم، وسوق فلي، والأميركان اكسبريس. باريس! تعني عصي بوروفسكي، وقبعات بوروفسكي، و(guaches)[٢] بوروفسكي، وسمكة بوروفسكي الماقبل تاريخية، ونكاته الماقبل تاريخية. باريس تلك من عام ٣٨ - لا يبقى منها في ذاكرتي غير ليلة واحدة - هي الليلة السابقة لابحاري إلى أميركا. ليلة فريدة، لعبتْ الخمرة فيها برأس بوروفسكي قليلاً وأصابه شيء من الاشمئزاز مني لأنني لا أترك عاهرة واحدة في المنطقة إلا وأراقصها. لكننا راحلون في الصباح! أقولها لكل عاهرة أتشبث بها - "راحلون في الصباح"! "أقولها للشقراء ذات العينين بلون العقيق. وبينما أنا أخبرها تتناول يدي وتعصرها بين ساقيها. وفي المرحاض أقف أمام الحوض وعضوي في انتصاب أعظمي، أشعر به خفيفاً وثقيلاً في آن واحد، كقطعة رصاص مجنّحة. وبينما أنا

---

(٢) - الغواش: نوع من اللوحات المائية.

واقف هكذا تدخل عاهرتان - أميركيتان. أحييهما بحرارة، وأنا ممسك بأيري. تغمزاني وتمران. في الردهة بينما أزرر فتحة البنطال، ألاحظ أحداهن واقفة تنتظر صديقتها لتحرج من المرحاض. الموسيقى ما تزال تعزف وقد تأتي مونا لتبحث عني، أو بورروفسكي بعصاه ذات المقبض الذهبي، لكني الآن بين ذراعيها وهي تضمني ولا يهمني من يأتي أو ماذا يحدث. وننحشر في الكابين وهناك أجعلها تقف، وأسندها إلى الجدار، وأحاول أن ألجها لكنه لا يدخل فنجلس على مقعد المرحاض ونحاول بهذه الطريقة ولا تنجح الفكرة أيضاً. وكيفما حاولنا نفشل. وكانت طوال الوقت تقبض على أيري، تتشبث به كأنه مخلّصها، ولكن لا فائدة، إننا حاميان جداً، شبقان جداً. الموسيقى لا تزال تصدح فنرقص الفالس ونحن خارجان من المرحاض إلى الردهة وأثناء الرقص في بيت الخراء أقذف عليها وألطّخ كل ثوبها الجميل فتثور كالجحيم. أتراجع متعثراً إلى الطاولة وإذا بي أرتطم ببورروفسكي بوجهه المحمر ومونا بنظرتها المستاءة. ويقول بورروفسكي "هيا نذهب جميعاً إلى بروكسل" ونوافق، وعندما نعود إلى الفندق أتقيّأ حتى يتلوث المكان كله، السرير، ووعاء الاغتسال، والبدلات والفساتين، والأحذية الشتوية والخيزرانات ودفاتر الملاحظات التي لم أمسها والمخطوطات الباردة والميتة.

تمر بضعة أشهر. المكان هو الفندق نفسه، والغرفة نفسها. نطل على الفناء حيث تركنا الدراجات، وثمة غرفة صغيرة فوقنا، تحت العلية، حيث يدير أَلِكْ الشاب الوسيم حهاز الفونوغراف طيلة النهار مردداً مقطوعات صغيرة جميلة بأعلى صوته. أقول "نحن" متجاوزاً بهذا نفسي قليلاً، لأن مونا رحلت منذ زمن طويل واليوم بالذات أنا ذاهب لأقابلها في محطة القديس أليعازر، وقرابة المساء أقف هناك ووجهي محشور بين القضبان، ولكن لا أثر لمونا، وأعيد قراءة البرقية فلا تقدم لي أية مساعدة. وأعود إلى الحي وأعدُّ لنفسي وجبة دسمة لا ألوي على شيء. وبينما أنا أتسكع بعدها بقليل ماراً بالدوم أرى فجأة وجهاً شاحباً مثقلاً وعينين متوهجتين - والثوب المخمل الصغير الذي طالما عبدته الان تحت المخمل ثدياها الدافئان، والساقان الرخاميتان، هادئتان، قويتان عضليتان. تنهض وسط

بحر من الوجوه وتعانقني، تعانقني بهوى ـ وألف عين، وأنف وقامة وساق، وزجاجة ونافذة، ومحفظة، وصحن كلها تحملق بنا ونحن غائبان كل بين ذراعي الآخر. أجلس إلى جانبها وتتحدث ـ فيضاً من الكلام. ملاحظات متوحشة مهلكة حول الهستريا والانحراف والجذام. ولا أسمع كلمة واحدة لأنها جميلة وأنا أحبها والآن أنا سعيد وأود لو أموت.

نمشي في شارع دو شاتو، نبحث عن أوجين. نخطو فوق جسر سكة الحديد حيث اعتدت أن أراقب القطارات تخرج وأحس بالقرف في كل كياني وأتساءل أين يمكن أن تكون بحق الجحيم. كل شيء رخي وفاتن ونحن نسير عبر الجسر. يمر الدخان بين سيقاننا، والخطوط الحديدية تصر والاشارات الضوئية في دمنا. أشعر بجسدها قرب جسدي ـ كله لي الآن ـ وأتوقف لأفرك كفيّ على المخمل الدافيء. كل ما حولنا يتقوض والجسد الدافيء تحت المخمل الدافيء يتوجع شوقاً إليّ.....

نعود إلى الغرفة نفسها مع خمسين فرنكاً للطيبين، شكراً لأوجين. أطل على الفناء لكن الفونوغراف صامت. صندوق الملابس مفتوح وأغراضها مبعثرة في كل مكان كما كانت. وتستلقي على السرير بثيابها. مرة مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات.... أخشى عليها أن تجن.... ما أجمل ملمس جسدها من جديد، في السرير، تحت الملاءات! ولكن إلى متى؟ هل ستطول علاقتنا هذه المرة؟ يخامرني منذ الآن شعور بأنها لن تطول.

تتحدث إلي باهتياج ـ وكأن الغد غير آت. "اصمتي، يا مونا! أكتفي بالنظر إليّ.... ولا تتكلمي!" أخيراً تتهالك وأسحب ذرعي من تحتها. عيناي مغمضتان. ها هو جسدها إلى جانبي.... وسيبقى هكذا حتماً حتى الصباح.... كنا في شباط عندما أقلعت من الميناء وسط عاصفة عاتية. وآخر ما وقع عليها نظري كان من النافذة عندما لوحت بيدها تودعني. ثمة رجل يقف على الطرف الآخر من الشارع، عند الزاوية، قبعته مسدلة على عينيه، وفكاه مستقران على طية سترته. وجنين يراقبني، جنين يضع سيجاراً في فمه. ومونا عند النافذة تلوح بيدها مودعة. وجهها أبيض مسموم، وشعرها ينهمر وحشياً. والآن أضحت غرفة النوم

ثقيلة، وهي تتنفس بانتظام من خلال خياشيمها، ولا يزال السائل ينز من بين ساقيها، وعبق سنوري دافيء يفوح وشعرها في فمي. عيناي مغمضتان. ويتنفس كل منا من فم الآخر. ملتصقان بإحكام، وأميركا تبعد ثلاثة آلاف ميل. و لم أرغب قط في رؤيتها ثانية. ووجودها معي هنا في السرير، أنفاسها علي، وشعرها في فمي - هو لعمري من قبيل المعجزة. لا يمكن لأي شيء أن يحدث من هنا وحتى الصباح.....

أستيقظ من غفوة عميقة لأنظر إليها. ثمة نور شاحب يتسرب. أنظر إلى شعرها الوحشي الجميل. وأشعر بشيء يزحف على رقبتي. أنظر إليها من جديد، عن قرب. شعرها حي. أزيح الغطاء، ثمة المزيد منه. إنه يحتشد على الوسادة.

الوقت هو بُعيْد انبلاج الفجر بقليل. نحزم أغراضنا على عجل ونتسلل خارجين من الفندق. لا تزال المقاهي مغلقة. نمشي، وبينما نحن سائران نهرش بعضنا، ينبلج النهار ببياض حليبي، السماء مخططة بخطوط قرمزية بلون السلمون، والحلازين تغادر أصدافها. باريس. باريس. كل شيء يحدث هنا. جدران عتيقة تتقوض وصوت الماء العذب يجري في المبولات. رجال عند البار يلعقون شواربهم. مصاريع نوافذ تفتح بقوة وجداول صغيرة تغرغر في المجارير. وعبارة Amer Picon مكتوبة بحروف هائلة الحجم. "خط منكسر". في أي طريق سنتجه ولماذا أو أين أو ماذا؟.

مونا جائعة، ثوبها رقيق. لا ترتدي إلا غلالات مسائية، زجاجات عطور، أقراط همجية، أساور، مواد مزيلة للشعر. نجلس في قاعة لعب البليارد في شارع ميسن ونطلب قهوة حارة. المرحاض معطل. علينا أن نجلس بعض الوقت قبل أن ننطلق لنجد فندقاً آخر. في تلك الأثناء نلتقط بق الفراش كل من شعر الآخر. عصبية. مونا تفقد أعصابها. يجب أن تأخذ حمّاماً. يجب أن تحصل على هذا. يجب أن تنال ذلك. يجب، يجب، يجب........

"كم بقي معك من نقود؟"

نقود! لقد نسيتها تماماً.

فندق "الولايات المتحدة". فيه مصعد. نأوي إلى السرير ونحن في وضح النهار. عندما ننهض يكون الظلام قد حل وأول ما أفعله أن أجمع نقودا

تكفي لارسال برقيـة إلى أميركـا. برقيـة إلى الجنـين ذي السيجار الرطـب في فمه. في هذه الأثناء هناك امرأة إسبانية تقف في شارع راسـبيل ـ هـي دائمـا طيبة لهدف الحصول على وجبة دافئـة. بحلـول الصبـاح سيحدث أمـر. علـى الأقـل سنأوي إلى السـرير معـاً. لم يعـد هنـاك بـق فـراش الآن. بـدأ موسـم الأمطار. الملاءات نظيفة.....

في فيلابورغير تنفتح أمامي حياة جديدة. لا تـزال الساعة العاشـرة وقـد تناولنا الإفطار وانطلقنا نتمشى. تسكن معنـا الآن فتـاة تدعـى إلـزا. ويحذرنـا بوريس قائلاً لبضعة أيام فقط.

يبدأ النهار بداية رائعة: سماء براقة، هـواء منعش، والبيـوت المغسـولة حديثاً. في طريقنا إلى مكتب البريد نتناقش بوريس وأنا حول الكتاب. "آخـر كتاب" ـ وسيكتب بدون ذكر اسم المؤلف.

نهار جديد يبـدأ. شعرتُ به هـذا الصبـاح ونحـن واقفـان أمـام إحـدى رسـومات دوفريسـن Dufresne المتلألئـة علـى القمـاش، تمثـل dejeuner intime "وجبة إفطار ودية" في القرن الثالث عشر، sans vin بـلا خمـر. ثمـة فتاة عارية رائعة غزيـرة اللحـم، متينـة، رجراجـة، قرمزيـة، كـالظفر، تغطيهـا وسائد من اللحم المتلألئ، فيها كل المميزات الثانوية، وقليل من الأوليـة. إنـه جسد يغني، فيه نداوة الفجر. حياة جامدة، غير أن لا شيء جـامد، لا شـيء ميت هنا. المائدة تتصدع من كثرة الطعام، إنـه وفـير حتـى ليكـاد يـنزلق مـن الاطار. هي مائدة تميز القرن الثالث عشر ـ مع كل الملاحظـات الهمجيـة الـتي حفظها عن ظهر قلب. وعائلة من الغزلان والحمير الوحشية تقرض سعف النخيل.

والآن صار معنا إلزا. هذا الصباح كـانت تعزف لنـا ونحـن في السـرير. "كوني خفيفـة لبضعـة أيـام". .... عظيـم! إلـزا هـي الخادمـة وأنـا الضيـف. وبوريس هو قرص الجبن الكبير. ثمة مسرحية جديدة تبدأ. إنـي أضحـك مـع

نفسي وأنا أكتب هذا. إنه يعرف ماذا سيحدث، ذاك الوشق، بوريس. لديه حاسة لشم الوقائع أيضاً. "كوني خفيفة.....".

بوريس على أحر من الجمر. فقد تظهر زوجته في أية لحظة بيننا. إنها تزن أكثر بكثير من ١٨٠ رطلاً، زوجته تلك. وبوريس إلى جانبها مجرد قبضة يد. ها قد بتّ ملمّاً بالوضع. ويحاول أن يشرحه لي في طريقنا إلى البيت ليلاً. إنه أمر مأساوي وسخيف معاً حتى لقد اضطررت للضحك في وجهه أكثر من مرة. ويقول بلطف:" لماذا تضحك هكذا؟". ويبدأ بالضحك بدوره، وفي صوته تلك النبرة الآنّة، الهستيرية، كبائس لا حول له ولا قوة يدرك فجأة أنه مهما ارتدى من معاطف الفروك السوداء فلن تجعل منه رجلاً. يريد أن يهرب، أن ينتحل اسماً جديداً. ويعوي "يمكنها أن تحصل على كل ما تريد، تلك البقرة، شريطة أن تدعني وشأني". ولكن أولاً يجب أن تؤجر الشقة، وتوقع الأوراق، وألف تفصيل آخر يجب القيام به قبل أن يصله المعطف. ولكن، يا لحجمها! ـ هذا ما كان يقلقه حقاً. إذا ما تصادف ورأيناها فجأة واقفة على عتبة الدار لدى وصولنا يغمى عليه ـ إلى هذا الحد يحترمها!.

إذن علينا أن نساير إلزا لبعض الوقت. إلزا موجودة فقط لتعد الافطار ـ ولتعرض الشقة على الزبائن.

وإلزا تهلكني. بسبب دمها الألماني. وتلك الأغاني الكئيبة. هذا الصباح هبطت الدرج، والقهوة الطازجة تملأ أنفي، ورحت أهمهم بصوت خافت....."Es war so schon gewesen" وأعني بهذا الافطار. وبعد برهة قصيرة إذ بالولد الانكليزي في الطابق العلوي يبدأ مع باخ. وكما تقول إلزا: "إنه بحاجة إلى امرأة"، وإلزا بحاجة إلى شيء أيضاً. لم أذكر أية كلمة عن هذا لبوريس، لكن بينما كان ينظف أسنانه هذا الصباح راحت إلزا تصغي بانتباه إلى حديثه عن برلين، والنساء اللواتي يبدين جميلات من الخلف، وما أن يستدرن ـ واو، سفلس!.

يبدو لي أن إلزا تنظر إلي بتوق كئيب. ثمة بعض البقايا تركت على مائدة الإفطار. هذا اليوم بعد الظهر كنا جالسين ظَهراً إلى ظَهر، نكتب في

الاستديو. كانت قد بدأت رسالة إلى عشيقها في إيطاليا. وتعطلت الآلة الكاتبة. وكان بوريس قد ذهب ليبحث عن غرفة رخيصة سينتقل إليها حالما تؤجَّر الشقة. لم يبق أمامي إلا أن أمارس الحب مع إلزا. كانت تلك رغبتها. ومع ذلك شعرت بشيء من الرثاء لأجلها. لم تكن قد كتبت غير السطر الأول إلى حبيبها ـ قرأته من طرف عيني وأنا أميل عليها. ولكن لم يكن هناك من مفر. يا لتلك الموسيقى الألمانية، ما أشد كآبتها، وعاطفيتها. إنها تهلكني. بالإضافة إلى عينيها الصغيرتين، الحارتين جداً والحزينتين في وقت واحد.

بعد أن انتهينا طلبت منها أن تعزف لي شيئاً. إنها عازفة محترمة، إلزا، بالرغم من أن عزفها يبدو كقرقعة قدور مكسورة وعظام، وفوق كل هذا بكت وهي تعزف. لا ألومها. تقول، يحدث لها الشيء نفسه أينما ذهبت. تقابل رجلاً في كل مكان، ثم تضطر لتركه، ثم تقوم بعملية إجهاض ثم عمل جديد وثم رجل آخر ولا أحد يهتم بها إلا ليستغلها. كل هذا قالته بعد أن عزفت لي مقطوعة لشومان ـــ شومان، ذاك ابن الحرام الألماني العاطفي السخيف! شعرت نوعاً ما برثاء جحيمي لأجلها ومع ذلك لم آبه. عاهرة مثلها تعزف بهذه الصورة يجب أن يكون لديها من الحس ما ينقذها من الوقوع في براثن كل شاب له أير ضخم يمر بها. أما ذاك الشومان فيجري في دمي. إلزا لا تزال تجهش بالبكاء، لكن ذهني رحل بعيداً. أفكر في تانيا وكيف تعزف الأداجيو. أفكر في أشياء كثيرة انتهت واندثرت. أفكر في بعد ظهيرة يوم صيفي في غرينبوينت حين كان الألمان يعيثون فساداً في بلجيكا ولم نكن قد خسرنا الكثير من المال بشكل يدفعنا للاهتمام باغتصاب بلد حيادي. وقتها كنا لا نزال أبرياء بما يكفي لننصت للشعراء ونجلس حول طاولة عند الغسق ندق عليها استدعاءاً للأرواح الراحلة. وطوال بعد الظهيرة والمساء يظل الجو مشبعاً بالموسيقى الألمانية، فالمنطقة المجاورة كلها ألمانية، بل أكثر ألمانية من ألمانيا نفسها. لقد نشأنا على موسيقى شومان وهوغو وولف والسوكروت والكومل وزلابيات البطاطا. وقرابة المساء تجلس حول طاولة كبيرة والستائر مسدلة وثمة فتاة بلهاء ضخمة الرأس تدق استدعاء ليسوع المسيح. كنا نتماسك بالأيدي تحت الطاولة وتضع السيدة الجالسة إلى جواري إصبعين من أصابعها في فتحة بنطالي. وأخيراً نستلقي على الأرض،

خلف البيانو، بينما أحدهم يغني أغنية شنيعة. الجو خانق وأنفاسها كريهة. الآلة تعلو وتهبط، بحركة عنيفة، آلية، مجنونة، عقيمة، وكسرج من الروث يستغرق نتاؤه سبعة وعشرين عاماً لكنه يحافظ على الوقت الصحيح. وأجرها فوقي واللوحة المصوّتة في أذني، الغرفة مظلمة والسجادة دبقة من الكومل المسفوح على الأرض. وفجأة يبدو وكأن الفجر ينبلج: كأن ماء يغرغر فوق ثلج والثلج أزرق اللون من الضباب المتصاعد، وقطع من الجليد تغوص في لون أخضر زمردي، وشاموا وأنتيلوب، وسمك اللوز الذهبي، وأبقار بحرية تتسكع وشراب الأمير جاك يقفز عبر حافة القطب الشمالي...... إلزا تجلس في حضني. عيناها كعروتين صغيرتين. أنظر إلى فمها الكبير، رطب جداً ومتلألئ، وأغطيه. الآن هي تهمهم..... "Es war so schon gewesen" آه، يا ليزا، أنت لا تعرفين حتى الآن ماذا يعني لي هذا، صاحبك Trompeter von sackingen. إنه جمعيات الغناء الألماني، قاعة شفابن، التورنفيرين.... links um rechets um، ... ومن ثم صفعة على القفا بطرف حبل.

آه من الألمان! إنهم يحتلونك كسيارة عامة. يسببون لك عسر هضم. في ليلة واحدة لا يستطيع المرء أن يزور المشرحة، والمشفى، وحديقة الحيوانات، والرموز الفلكية، وسجون الفلسفة، وكهوف المعرفة، وأسرار فرويد وشتيكل.... فعلى متن الدوّيخة لا يصل المرء إلى أي مكان، بينما مع الألماني يستطيع أن ينتقل من فيغا (VEGA) إلى لوب دو فيغا، وكل هذا في ليلة واحدة، ويصبح أبله كبرسيفال.

كما قلت بدأ النهار بفخامة: لم أعِ من جديد هذه الباريسية الحسية التي كنت جاهلاً إياها طوال أسابيع مضت إلا هذا الصباح. ربما لأن الكتاب كان قد بدأ ينمو داخلي. إنني أحمله معي إلى كل مكان. أجوب الشوارع حَبلاً بطفل وترافقني شرطة الحماية لأعبر الشارع. تنهض النسوة ليتخلين لي عن مقاعدهن. لم يعد أحد يدفعني بفظاظة. أنا حبِل. أتهادى بارتباك، وبطني المنتفخة تكافح ضد وزن العالم.

في هذا الصباح، في طريقنا إلى مكتب البريد، أعطينا موافقتنا الأخيرة

الأدب. سيكون كتاباً مقدساً جديداً ـ "الكتاب الأخير". وكل من لديه شيء يقوله سيضعه هنا ـ "دون ذكر اسمه". سوف نستنفد العصر. بعد كتابنا لن يكون كتاب ـ ليس قبل جيل كامل، على الأقل. كنا حتى الآن نحفر في الظلام، وليس لدينا إلا الغريزة ترشدنا. ومنذ الآن سيصبح لدينا وعاءٌ نسغي نضخ فيه الدفق الحيوي، قنبلة عندما نلقيها ستنسف العالم. سوف نضع فيه من المواد ما يكفي كتّاب الغد ليستوحوا منه حبكاتهم، ومسرحياتهم، وقصائدهم، وأساطيرهم، وعلومهم. سوف يتمكن العالم من أن يقتات عليه خلال الدورة الألفية القادمة. إنه جبار في إمكانياته. وبمجرد التفكير فيه يشتتني.

منذ أكثر من مائة عام، والعالم، عالمنا، يموت. وخلال هذه المائة عام أو نحوها لم يظهر رجل واحد يكون من الجنون ما يجعله يحشر قنبلة في طيز الخليفة وينسفها. العالم يتعفّن، يموت على مهل. لكنه يحتاج إلى الـ Coup de grase الضربة القاضية، يحتاج إلى أن يُنسَف شذر مذر. ليس بيننا واحد سليم، ومع ذلك نحمل داخلنا كل القارات والبحار التي تفصل بينها وطيور الجو. سندوّنه ـ أقصد تطور العالم الذي مات ولم يُدفن بعد. نحن نسبح على سطح الزمن وكل ما عدانا غرق، أو يغرق، أو سيغرق. سيكون الكتاب هائلاً. ستكون هناك محيطات من الفراغ نتحول فيها، نجتاز المسافات، نغني، نرقص، نتسلق، نستحم، نتشقلب، ننتحب، نغتصب، نقتل. سيكون كاتدرائية، كاتدرائية حقيقية، داخل بنائها يساعد الجميع كل من فقد ذاته. ستكون قداديس تقام على أرواح الأموات، وصلوات، واعترافات، وتراتيل، أنين وثرثرة، نوع من اللامبالاة الإجرامية، ستكون هناك نوافذ وردية وغارغويلات وقندلفتات وحاملو بساط الرحمة. وبإمكانك أن تدخل أحصنتك وتخبّ بها متجولاً بين الأجنحة. بإمكانك أن تنطح رأسك الجدران ـ فلن تتهدم. بإمكانك أن تصلي بأية لغة تختارها، أو أن تلتف حول نفسك وتستغرق في النوم. هذه الكاتدرائية ستخلد ألف عام، على الأقل، ولن تكون هناك نسخة مطابقة لها، فسيكون البناؤون قد ماتوا وكذا التصاميم. وسنطبع بطاقات بريدية وننظم جولات سياحية. وسنبني بلدة حولها وننشئ كوميونا حراً. لا حاجة لنا إلى العبقرية ـ فالعبقرية قد فنيت. نحن بحاجة إلى أيد قوية،

إلى أناس يتخلون عن الروح ليستبدلوها باللحم.....

* * *

النهار يحث خطاه على وقع إيقاع جميل. وأنا واقف في شرفة بيت تانيا. المسرحية مستمرة في الطابق السفلي في غرفة الجلوس. الكاتب المسرحي متوعك، ومن أعلى تبدو فروة رأسه أكثر تعقيداً من ذي قبل. شعره مصنوع من القش. وأفكاره قش، وزوجته أيضاً قش، لكنها لا تزال رطبة قليلاً. البيت كله مكون من القش. وها أنا ذا أقف في الشرفة، أنتظر بوريس. آخر مشكلاتي - وهي الإفطار - حُلت. لقد بسَّطتُ كل شيء. وإذا ظهرت أية مشكلات جديدة فبوسعي أن أحملها في حقيبة الظهر، مع ثيابي القذرة. أنني أرمي بكل قروشي. فما حاجتي أنا إلى النقود؟ أنا آلة كاتبة. ولقد وُضع آخر برغي، يبدأ التدفق. لا تنائي بيني وبين الآلة، فأنا الآلة....

لم يخبروني بعد عن موضوع المسرحية الجديدة، لكني أحس بها. إنهم يعملون على التخلص مني. ومع ذلك ها قد حضرتُ لأتناول طعام العشاء، بل وأبكر قليلاً مما توقعوا. أخبرتهم أين سيجلسون وماذا سيفعلون. وأسألهم بأدب إن كنت أزعجهم، ولكن ما أعنيه حقاً، وهم يعرفونه، هل سيزعجونني؟ لا، أيها الصراصير المباركة، إنكم لا تزعجونني. أنتم "تغذونني". أرى أنكم تجلسون متقاربين وأنا أعرف أن ثمة هوة تفصل بينكم. إذا انسحبت لن يتبقى لكم فراغ لتسبحوا فيه.

يسيطر على تانيا مزاج عدواني - أشعر به. إنها تمقت أن أكون منشغلاً بأي شيء آخر غيرها. وهي تعرف من مقدار إثارتي أن قيمتها لدي قد انخفضت إلى الصفر. تعرف أني لم آت هذا المساء لأخصبها. تعرف أن ثمة شيئاً ينبت داخلي سيدمرها. إنها بطيئة الفهم، لكنها تفهم هذا على كل حال.....

سيلفستر يبدو أكثر رضى. هذا المساء سيعانقها على مائدة العشاء. والآن هو يقرأ مخطوطتي استعداداً ليلهب أنانيتي، ليثير أنانيتي ضدها.

سيكون غريباً اجتماعنا هذا المساء. خشبة المسرح أُعدَّت. أكاد أسمع

رنين الكؤوس. والنبيذ يُحَضَّر. وستجري الأنخاب وسيتخلص سيلفستر المريض من مرضه.

خططنا لاعداد هذا المشهد بالأمس فقط، في بيت كرونستادت. لقد كُتِبَ على النساء أن يعانين، وأنه بعيداً عن خشبة المسرح يجب أن يكون هناك مزيد من الرعب والعنف، مزيد من الكوارث، والمعاناة، والكرب والبؤس.

ليس من قبيل المصادفة أن يندفع أناس مثلنا إلى باريس. إن باريس هي ببساطة خشبة مسرح مصطنعة، خشبة مسرح دوَّارة تسمح للمشاهد أن يلم بكل أبعاد الصراع. باريس لا تستلهم من نفسها المسرحيات، إنها تبدأ في مكان آخر. باريس هي مجرد أداة توليد تنزع الجنين الحي من الرحم وتضعه في آلة الحضن. باريس هي مهد الولادات الاصطناعية. في هذا المهد بينما يُهَدهَد كل واحد يعود في مذكراته إلى تربته الأصلية، يحلم ببرلين، ونيويورك، وتشيكاغو، وفيينا، ومينسك، وفيينا لا تظهر بأجلّ صورها إلا من باريس. ويُرفع كل شيء إلى مرتبة التأليه. ويتخلى المهد عن صغاره ويحتل جددٌ أماكنهم. هنا يمكنك أن تقرأ على الجدران أين عاش زولا وبلزاك وستريندبرغ وكل من كان له أي حظ من الشهرة. الكل عاش هنا في وقت من الأوقات. لا أحد "يموت" هنا......

إنهم يتحدثون في الطابق السفلي. لغتهم رمزية. يدخل فيها "صراع العالم". وسيلفستر، الكاتب المسرحي المريض، يقول:"إنني فقط أقرأ البيان الرسمي"، وتقول تانيا ـ"بيان من؟. نعم يا تانيا، أسمعك. أنا هنا في الأعلى أكتب عنك وأنت تحدسين بدقة بما أكتب. زيديني من كلامك، حتى أدونه. فعندما نتوجه إلى المائدة لن أتمكن من تدوين أية ملاحظة.... وفجأة تعلق تانيا:"لا يبدو أن في البيت صالة". والآن ماذا يعني هذا، إن كان له أي معنى؟.

الآن يعلّقون الصور. وهذا أيضاً يترك تأثيره عليّ. إن لسان حالها يقول:"أترى، نحن مرتاحون هنا ونعيش حياة زيجية. نجعل المنزل جذاباً. وسنتجادل حول الصور، إكراماً لك فقط. وتعود تانيا لتعلق:"كم تخدع العين!". آه يا تانيا، ما أروع ما تقولين! هيا استمري، أطيلي أكثر هذه

المهزلة. أنا هنا لأتناول العشاء الذي وعدتني، ولأستمتع بهذه المسرحية المضحكة بشكل هائل. والآن يستلم سيلفستر زمام الحديث. إنه يحاول أن يشرح إحدى لوحات بوروفسكي المائية. "اقتربي، أترين؟ أحدهم يعزف على القيثارة، وآخر يضم فتاة بين أحضانه". معك حق يا سيلفستر معك كل الحق. يا لبوروفسكي وقيثاراته! والفتيات اللواتي يضمهن بين أحضانه! لكن الناظر لا يتأكد تماماً ماذا يضم بين أحضانه، أو إن كان رجلاً حقاً من يعزف على القيثارة.....

بعد قليل سيدخل مولدورف وهو يحبو على أربع مع بوريس بضحكته الصغيرة البائسة. سيكون على مائدة العشاء تدرج ذهبي وآخو وسيحار قصير ثخين. وعندما سيحصل كرونستادت على آخر الأخبار سيعيش خلال خمس دقائق حياة أصعب قليلاً، وأكثر إشراقاً بقليل، ومن ثم سيستقر من جديد في حمأة أيديولوجيته، وقد تولد قصيدة، جرس قصيدة ذهبي كبير بلا لسان.

* * *

كان علي أن أتوقف عن العمل لساعة أخرى أو نحوها. أتى زبون آخر ليعاين الشقة. وفي الطابق العلوي يتمرن الانكليزي الملعون على مقطوعة باخ. بات من الضروري الآن كلما أتى أحدهم ليعاين الشقة أن أهرع إلى الطابق العلوي وأطلب من عازف البيانو أن يكف عن عزفه قليلاً.

تتصل إلزا هاتفياً ببائع الخضار. والسنكري يركّب مقعداً جديداً على حوض المرحاض. وكلما رن الجرس يفقد بوريس توازنه. وفي غمرة انفعاله أسقط كأسه، فيركع على يديه وركبتيه، ومعطفه ينسحب على الأرض. إنه يشبه قليلاً مشهداً من غينول العظيم[٣] ـ الشاعر المعوز الذي جاء ليعطي دروساً لابنة اللحام. وكلما رن الهاتف يتندى فم الشاعر. ويبدو مالارميه أشبه بمذاق شريحة طرية من لحم البقر، وفيكتور هوغو كمذاق boie de veau. تطلب إلزا إحضار وجبة خفيفة لبوريس ـ تقول: "شريحة صغيرة رطيبة من لحم الخنزير"، فأرى على قطعة الرخام سرباً كاملاً من قطع لحم

---

(٣) ـ غينول العظيم: مسرحية قصيرة ملأى بالاثارة والرعب.

الخنزير القرمزية، رائعاً موسداً بالشحم الأبيض. وأشعر بجوع ضار مع أننا تناولنا الإفطار قبل بصع دقائق، وسيكون علي أن أتغاضى عن وجبة الغداء. أنا لا أتناول الغداء إلا في أيام الأربعاء، شكراً لبوروفسكي. لا تزال إلزا تتكلم في الهاتف ـ نسيَتْ أن تطلب قطعة من لحم الخنزير. تقول:"نعم، قطعة لحم خنزير صغيرة جيدة، لا تكون كثيرة الشحم"..... Zut !alors. أضيفي بعض بنكرياس العجل، وبعض محار الجبل ومحار بطلينوس! أضيفي بعض حشيشة الكبد المقلية ما دمت فيها، بإمكاني أن أبتلع جميع مسرحيات لوب دو فيغا الألف والخمسمائة في جلسة واحدة.

جميلة المرأة التي أتت لترى الشقة، هي أميركية، طبعاً. أقف عند النافذة مديراً ظهري لها، أراقب طائر سنونو يلتقط الروث الطازج. مذهلة السهولة التي يتزود بها السنونو بقوته. الدنيا تمطر قليلاً وحبات المطر كبيرة جداً. كنت أظن أن العصفور لا يستطيع أن يطير إذا تبلل جناحاه. مذهل كيف تأتي تلك السيدات الثريات إلى باريس ويعثرن على كل الاستديوهات المرفهة. قليل من الموهبة ومحفظة ضخمة. إذا أمطرت فهي فرصة لهم لعرض آخر ممطراتهن. الطعام لا يهم: أحياناً يكنّ من الانشغال بحيث ينسين موعد الافطار. تكفي شطيرة صغيرة، رقاقة، يتناولنها في مقهى السلام أو بار الريتز "الخاص ببنات الأكابر" ـ كما تقول اليافطة الموجودة على الاستديو القديم للبوفي دو شوفان. وتصادف إن كنت ماراً من هناك، فرأيت أميركيات يعلقن صناديق أصباغ من أكتافهن. قليل من الموهبة ومحفظة منتفخة.

طائر السنونو يقفز بهياج من حصاة رصف إلى أخرى. اقترب وسترى كم يبذل من مجهود جبار. أينما ذهبت ترى الطعام منثوراً في كل مكان ـ في المجرور، أقصد. المرأة الأميركية الجميلة تسأل عن مكان المرحاض. المرحاض؟ دعيني أدلّك، يا غزالة يا ذات الأنف المخملي تريدين المرحاض؟ من هنا مدام. لا تنسي أن الأماكن المذكورة مخصصة لمشوهي الحرب[٤].

بوريس يدلّك يديه ـ إنه يضع اللمسات الأخيرة على الصفقة. الكلاب تنبح في الفناء، تنبح كالذئاب. في الطابق العلوي تغيّر السيدة ميلفرنس أماكن

---

[٤] ـ هذه العبارة الأخيرة وردت أصلاً باللغة الفرنسية ـ المترجم.

الأثاث. ليس لديها ما تفعله طوال النهار، إنها ضَجِرة، إذا عثرت على ذرة غبار في أي مكان تنظف المنزل بكامله.

على طاولة كمية من العنب الأخضر وزجاجة نبيذ ـ Vin de choix، عشر درجات. يقول بوريس: "نعم يمكنني أن أضع لك مغسلة، انظري هنا من فضلك. نعم، هذا هو المرحاض. وهناك آخر في الأعلى أيضاً، طبعاً. نعم، ألف فرنك في الشهر. تقولين إنك لا تأبهين بأوتريللو[٥] ؟ لا، هذه هي. تحتاج إلى مغسلة، لا أكثر.....".

سترحل حالاً. هذه المرة لم يكبد بوريس نفسه حتى مشقة تقديمي إليها. ابن العاهرة! عندما تكون عاهرة ثرية ينسى أن يعرفني بها. بعد دقائق سأتمكن من أن أجلس ثانية وأكتب. عموماً لم أعد أشعر بميل للكتابة اليوم. حماسي يخبو. قد تعود بعد ساعة أو نحوها وتأخذ الكرسي من تحتي. بحق الجحيم كيف يمكن لإنسان أن يكتب إذا لم يكن يعرف أين يجلس خلال النصف الساعة القادمة؟ إذا استأجرت بنت الحرام الثرية هذا البيت لن أجد مكاناً أنام فيه. ومن الصعب عليك، حين تقع في ورطة مماثلة، أن تعرف أيهما أسوأ ـ أن يكون لك مكان تنام فيه أم لا يكون لك مكان تكتب فيه. يمكن للمرء أن ينام في أي مكان، ولكن يجب أن يتوفر له مكان ليكتب. حتى وإن كان ما تكتب ليس قطعة فنية نادرة. حتى الرواية الرديئة تتطلب كرسياً لتجلس عليه وفسحة من العزلة. ولا يمكن لأولائي العاهرات الثريات أن يفكرن بهذا. وكلما رغبن في خفض مؤخراتهن الناعمة فثمة دائماً كرسي بانتظارهن.....

* * *

---

[٥] ـ رسام فرنسي (١٨٨٣ ـ ١٩٥٥).

بالأمس تركنا سيلفستر وربه جالسين أمم الموقد. سيلفستر ببجامته، ومولدورف مع سيجار بين شفتيه. سيلفستر يقشّر برتقالة. ويضع القشر على غطاء المقعد. ويقترب مولدورف منه. يسأله السماح له بقراءة تلك المحاكاة الساخرة الرائعة "بوابات السماء" ثانية. أنا وبوريس نستعد للذهاب. فمرحنا الزائد لا يناسبه جو غرفة المرضى هذه. تانيا ذاهبة معنا. هي مرحة لأنها ستهرب. وبوريس مرح لأن الإله الذي في مولدورف قد مات. وأنا مرح لأننا بصدد إنجاز فصل آخر.

صوت مولدورف وقور وهو يقول:"هل يمكنني البقاء معك يا سيلفستر، إلى أن نأوي إلى السرير؟" وظل يلازمه طوال الستة أيام الأخيرة، يشتري الدواء، يلبي طلبات تانيا، ويهدِّىء، يواسي، ويحرس الأبواب من الدخلاء الحاقدين أمثال بوريس من الأنذال. إنه كشخص همجي اكتشف أن وثنه قد شُوِّه أثناء الليل. ها هو جالس، عند قدمي الوثن، مع ثمار الخبز والزيت، والصلوات المبررة. يخرج صوته زلقاً، وقد شُلّت أطرافه للتو.

ويتحدث إلى تانيا وكأنها كاهنة حنثت بنذورها. "يجب أن تكوني فاضلة. فسيلفستر هو إلهك". وبينما سيلفستر في الأعلى يتألم (كان صدره يصدر شيئاً كالأزيز) يلتهم الكاهن والكاهنة الطعام. ويقول، وصلصة اللحم تسيل من بين شفتيه "أنت تدنسين نفسك"، فهو قادر على الأكل والمعاناة في الوقت نفسه. وبينما هو يرد عنه شر الخطرين يمد مخالبه الصغيرة الثخينة ويشد بها شعر تانيا "لقد بدأت أحبك. أنت تشبهين عزيزتي فاني".

بعبارة أخرى كان يوماً رائعاً بالنسبة لمولدورف. فقد وصلته رسالة من أميركا. "مو" ينال علامة ممتازة في كل المواد. موري يتعلم ركوب الدراجة. والفيكترولا أُصلِحَت. وتفهم من التعبير المرتسم على وجهه أن ثمة أشياء أخرى تحتويها الرسالة إلى جانب التقارير المدرسية والدراجات الثلاثية. ويمكنك أن تتأكد من هذا لأنه بعد ظهر هذا اليوم اشترى بما قيمته ٣٢٥ فرنكاً مجوهرات لأثيرته فاني. بالإضافة إلى أنه كتب لها رسالة من عشرين صفحة. أحضر له "الجرسون" ورقة بعد أخرى، ملأ قلمه بالحبر، وقدم له قهوته وسيجارته، وهوّاه حين تعرق، وأزال الفتات عن مائدته، وأشعل سيجاره حين انطفأ، وابتاع له طوابع، وأسرف في تدليله، رقص على أطراف أصابع قدميه، وضرب له سلاماً.... وكاد يقصم ظهره. كان البقشيش سخياً. أكبر وأثخن من سيجار كورونا - كورونا. لعل مولدورف ذكر هذا في يومياته. كل هذا من أجل فاني. السوار والأقراط كانت تستحق كل ما صرفه. فمن الأفضل إنفاقه على فاني بدل تبديده على عاهرات حقيرات أمثال جيرمين وأوديت. نعم، وأخبر تانيا بهذا. أراها صندوق ملابسه. إنه مزدحم بالهدايا - لفاني، ولمو وموري.

"عزيزتي فاني هي أذكى امرأة في العالم. طالما بحثتُ وبحثتُ لأجد فيها عيباً واحداً - إنها كاملة سأقول لك ماذا بوسع فاني أن تفعل. إنها تلعب البريدج كمحتال، ومهتمة بالحركة الصهيونية، أعطها قبعة قديمة، مثلاً، وانظري ما تستطيع العمل بها. تلويها من هنا قليلاً، وتضع شريطاً هناك، وهاك شيئاً جميلاً! أتعلمين ما النعمة الكاملة؟ هي أن أجلس بالقرب من فاني، بعد أن يأوي مو وموري إلى الفراش، وأستمع إلى المذياع. وتجلس هي في دعة. إنني بالنظر إليها أُكافأ لجميع صراعاتي وهموم قلبي. إنها تنصت بذكاء. وحين أفكر في حي مونبارناس القذر الذي تحبينه ومن ثم الليالي التي قضيتها في بيه ريدج مع فاني بعد تناول وجبة دسمة، أؤكد لك لا أجد مجالاً للمقارنة. بوجود أشياء بسيطة كالطعام، والأولاد، والمصابيح الخافتة الضوء، ومرأى فاني جالسة هناك، تعبة قليلاً ولكنها مبتهجة، وراضية، ممتلئة بالخير.... كنا نكتفي بالجلوس هكذا ساعات دون أن نتفوه بكلمة. ذاك هو النعيم!

"واليوم ها هي تكتب لي رسالة ـ ليست من الرسائل التي تشبه التقارير. إنها تكتب لي من قلبها، بلغة يفهمها حتى صغيري موري. فاني مرهفة حيال كل شيء. تقول إن على الأولاد أن يتابعوا ثقافتهم لكن تأمين المصروفات يقلقها. سيكلف ارسال موري إلى المدرسة ألف دولار. وطبعاً سينال مو منحة دراسية؛ أما موري الصغير، هذا العبقري الصغير، فماذا سنفعل لأجله؟ وكتبت لفاني أقول لها أن لاتقلق. قلت لها، ارسلي موري إلى المدرسة. وماذا يهم ألفاً أخرى من الدولارات؟ سأكسب هذا العام نقوداً أكثر مما كسبت في أي وقت مضى. سأقوم بهذا إكراماً للصغير موري ـ لأنه عبقري، هذا الولد".

أود لو أكون هناك عندما تفتح فاني الصندوق. انظري يا فاني ماذا ابتعت لك من بوخارست، من يهودي عجوز.... هذا ما يلبسون في بلغاريا ـ إنه صوف صرف.... وهو يخص دوق إحدى المقاطعات ـ لا، لا تلفّيه بل عرّضيه للشمس.... أريدك أن تلبسي هذا، يا فاني، حين نذهب إلى دار الأوبرا.... ارتديه مع المشط الذي أريتك.... وهذا، يا فاني، شيء اختارته تانيا خصيصاً لي.... إنه يقترب من مقاسك...."

وفاني جالسة على المقعد، كجلستها التي اتخذتها في اللوحة المقلدة لها، مو إلى أحد جانبيها وموري الصغير، موري العبقري، إلى الجانب الآخر. قدماها السمينتان قصيرتان لا تصلان إلى الأرض. ولعينيها وهج برمنغناتي باهت. ثدياها كملفوفتين حمراوين ناضجتين، ينتفضان حين تنحني إلى الأمام. غير أن الشيء السيء فيها أن نسغها جف. تجلس كبطارية ميتة. وجهها لا يعطي تعبيره الصحيح ـ فهو بحاجة إلى قليل من الحيوية، لدفقة نسغ تعيده إلى مركزه. ومولدورف يتقافز أمامها كضفدع سمين لحمه يهتز. وحين ينزلق يصعب عليه بعدها أن ينقلب ثانية على بطنه. فتلكزه بأصابع قدميها الثخينة. وتنتأ عيناه قليلاً "ارفسيني أيضاً يا فاني، إنه لذيذ" وهذه المرة ترفسه رفسة جيدة ـ تترك انبعاجاً ظاهراً في بطنه. ويكون وجهه ملتصقاً بالسجادة، والزوائب في زغب نسيج البطانة تهتز. وينتفض ويتشقلب، ويقفز من قطعة أثاث إلى أخرى. "فاني، أنت رائعة!"، وهو الآن يجلس على كتفها. ويقضم قطعاً صغيرة من أذنها، نتفة صغيرة من الشحمة التي لا تتأثر. لكنها لا تزال

ميتة ـ إنها بطارية مشحونة بلا نسغ. ويسقط في حجرها ويقبع وهو يرتجف وكأنه يعاني من ألم الأسنان. هو الآن دافيء تماماً ومستكين. بطنه تلمع مثل جلد حذاء لماع. في محجري عينيه زوج من أزرار بدلة رائعين. افتحي لي عينيّ يا فاني. أريد أن أراك بشكل أفضل!" وتحمله إلى السرير وتقطر له قطرات من الشمع الحار في عينيه. وتضع له حلقات حول سرته ومقياساً للحرارة في شرجه. وتمدده ويرتجف من جديد. وإذا به فجأة يتضاءل، وينكمش حتى يغيب عن الأنظار. وتبحث عنه في كل مكان، في إمعائها، في كل مكان. شيء ما يدغدغها ـ ولا تعرف تماماً أين. السرير مملوء بالضفادع وبأزرار بدلة جميلة. "فاني، أين أنت؟". ثمة ما يدغدغها ـ ولا تعرف تماماً أين، وتقع الأزرار عن السرير. الضفادع تتسلق الجدران. وتستمر الدغدغة وتستمر. "أخرجي الشمع من عيني يا فاني، أريد أن أنظر إليك!" لكن فاني تضحك، تتلوى من الضحك. ثمة شيء داخلها، يدغدغها ويدغدغها. سوف تموت من الضحك إذا لم تعرف السبب. "فاني، إن الصندوق مملوء بالأشياء الجميلة. فاني، أتسمعينني؟. "وفاني تضحك، تضحك كدودة سمينة. وبطنها منتفخة من الضحك. وساقاها تزرقان "يا الله، يا موريس، شيء ما يدغدغني.... ولا أستطيع منه فكاكاً!".

ها هو يوم الأحد! غادرت فيلابورغيز قبيل الظهيرة، حالما استعد بوريس لتناول طعام الغداء. غادرت المكان من قبيل الكياسة، لأنه من المؤلم حقاً أن يراني بوريس جالساً في المحترف بجوفٍ خاوٍ. لماذا لا يدعوني لمشاركته طعام الغداء، لا أعلم. ويقول إنه لا يستطيع تحملَ نفقتي، لكن هذا ليس عذراً. مهما يكن، إنني حساس حيال الأمر. فإذا كان يؤلمه أن يأكل لوحده في حضوري فمن المحتمل أن يتألم أكثر إذا شاركته في وجبته. ولكن لا يخصني أن أحشر نفسي في شؤونه الخاصة.

وصلت إلى بيت كرونستادت وإذا بهم يأكلون أيضاً. فروجاً مع الأرز البري. تظاهرت أني تناولت الطعام لتوي، ولكن كان بوسعي أن أنتزع الفروج من يد الطفل. وهذا ليس من قبيل الاحتشام الزائف - إنه نوع من الانحراف على ما أظن. سألوني مرتين إن كنت أود أن أشاركهم الطعام. لا، لا، لن أقبل حتى فنجان من القهوة بعد الوجبة. أنا كيّس، بحق! وعند رحيلي ألقيت نظرة جانبية إلى العظام الملقاة في صحن الطفل - لا يزال عليها بعض اللحم.

أجوس متجولاً بلا هدف. نهار جميل ـ حتى الآن. شارع دو بوسي يضج بالحياة، يغص. الحانات مفتوحة حتى آخرها، والأرصفة ملأى بالدراجات. وأسواق اللحوم والخضار تضج بحركة دائبة. والأذرع محملة بالخضار الملفوفة بأوراق الجرائد. إنه يوم أحد كاثوليكي رائع ـ خلال الصباح، على الأقل.

منتصف الظهيرة وها أنا واقف ببطن خاوية عند التقاء كل هذه الأزقة

الملتوية التي تتصاعد منها روائح المآكل. قبالتي فندق لويزيان. وهو نزل قديم كئيب كان معروفاً لدى الشبان الفاسقين من شارع دوبوسي أيام زمان. فنادق وأطعمة، وأنا أتجول كمجذوم وسراطين تنهش أحشائي. في صباحات أيام الأحد تتلبس الحمى الشوارع. لا شبيه لهذا في أي مكان آخر، ما عدا ربما في الطرف الشرقي، أو حول ساحة تشاثام. شارع ليشوده يموج. والشوارع تلتوي وتدور، وعند كل زاوية خلية نشاط جديدة. طوابير من الناس يحملون الخضراوات تحت أذرعهم، ينعطفون إلى هنا وهناك بشهيات واضحة جلية. لا شيء غير طعام، طعام، طعام. يجعل المرء يصاب بالهذيان.

أمرّ بساحة فورستنبورغ. تبدو مختلفة الآن، عند منتصف الظهيرة. حين مررت بها في أمسية فائتة كانت مقفرة، مكفهرة، تسكنها الأشباح. في وسط الساحة أربع شجرات سوداء لم تزهر بعد. شجرات فكرية، تتغذى من حجارة الرصيف. مثل شعر ت.س. إليوت. يا لله، لو أن ماري لورنسان[٦] تخرج فتياتها السحاقيات إلى العراء هنا، إذن لكان أنسب مكان لهن لممارسة علاقتهن. المكان مفعم بالروح السحاقية tres lesbienne ici. مجدب، هجين، جاف كقلب بوريس.

في الحديقة الصغيرة الملحقة بكنيسة القديسة جيرمين بضعة تماثيل الكرغل منزوعة من أماكنها. وهي وحوش ناتئة إلى الأمام باندفاع مرعب. وعلى المقاعد وحوش أخرى ــ عجائز، وبلهاء، ومقعدون، ومصروعون. يغفون بهدوء بانتظار أن يقرع جرس العشاء. وفي معرض ذاك الكائن في الطرف الآخر من الشارع رسم أحد البلهاء صورة للكون ـ مسطحاً. إنه كون خاص برسام مملوء بالبقايا، bric -a- brac. في أسفل الزاوية اليسرى مرساة ــ وجرس عشاء. مرحباً! مرحباً! أيها الكون!.

ولا أزال أجوس. في منتصف الظهيرة. وأحشائي تقرقع. بدأت تمطر الآن. تنهض نوتردام كجدث من الماء. والكراغل تمد رؤوسها أكثر عبر ابريم الواجهة. معلقة هناك كفكرة ثابتة idee fixe في دهن ممسوس أحادي. ثمة رجل عجوز بسالفين أصفرين يقترب مني. يحمل شيئاً تافهاً بيده. يأتي نحوي

---

[٦] ـ ماري لورنسان: رسامة فرنسية (١٨٨٥ ـ ١٩٥٦).

مرفوع الرأس والمطر يغسل وجهه محولاً الرمـل الذهبي إلى طين. ومحـل لبيـع الكتب على واجهته بعض رسوم راؤول دوف[٧] . دراسة حول فلسفة خوان ميرو[٨] أقول فلسفة، لا تنس!.

في الواجهة نفسـها: كتـاب "رجـل مقطـع إلى شـرائح". الفصـل الأول: الرجل في نظر عائلته. الفصل الثاني: الرجل نفسـه في نظـر عشيقته. الفصـل الثالث: ـ لا فصل ثالث. يجب أن أعود غداً لأرى الفصل الثالث والرابـع. في كل يوم يفتح الرجل الذي يرتب المعروضات صفحة جديـدة. "رجـل مقطـع إلى شرائح" .... لا يمكنك أن تتصور كم أنا حانق لأنـي لم أفكر في عنـوان كهذا! أين هو ذاك الذي يكتـب هكـذا "الرجـل نفسـه في نظـر عشيقته ... الرجل نفسه في نظر .... نفس...؟" أين هو هذا الشاب؟ مـن هـو؟ أريـد أن أعانقه. أتمنى من المسيح لو كان لدي عقول تكفي للتفكير في عنوان كهذا ـــ بدلاً من "الأير المجنون" والأشياء البلهاء الأخرى الـتي ألفقهـا. حسـن، أير في كل شيء! أهنئه على كل حال.

أتمنى له التوفيق مع عنوانه الرائع. هاك شريحة أخرى ـــ لكتـابك القـادم! اتصل بي يوماً. أنا أقطـن في فيـلا بورغـيز. نحـن جميعـاً موتـى، أو نمـوت، أو نوشـك أن نمـوت. نحتـاج إلى عنـاوين جيـدة. نحتـاح إلى لحـم ـ إلى شـرائح وشرائح من اللحم ـ شرائح طرية طيبة، شـرائح لحـم البقـر، أكبـاد، أصـداف الجبل، بنكرياس العجل. ويوماً ما، حين سـأقف عنـد تقـاطع الشـارع الثـاني والأربعين مع برودواي، سـأتذكر هـذا العنـوان وسـأدون كـل مـا يجـول في خاطري ـ كافيار، حبات مطر، شحم محور الدرلاب، شعيرية، حشيشة الكبد ـ شرائح وشرائح منها. ولن أخبر أحداً لماذا، بعد أن دونـت كل شيء، عدت إلى البيت وقطعت الطفل إرباً. إن التقطيع إلى شرائح عمل لا مبرر له بالنسـبة لك يا سيدي العزيز[٩] .

أما كيف يمكن لرجل أن يهيم على وجهه طـوال النهـار بجـوف فـارغ،

---

[٧] ـ راؤول دوفي: رسام فرنسي (١٨٧٧ ـ ١٩٥٣).

[٨] ـ خوان ميرو: رسام اسباني ونحات.

[٩] ـ العبارة الأخيرة وردت باللغة الفرنسية في الأصل.

ومع ذلك يحصل لديه انتصاب أحياناً، فهذا أحد الألغاز التي تجد لها بسهولة شديدة تفسيراً لدى "علماء تشريح الروح". بعد ظهيرة يوم أحد، حين تكون النوافذ مغلقة والبروليتاريا يسكنون الشوارع في نوع من الخدر الأبكم، تبقى هناك شوارع معينة تذكر المرء بلا أقل من أير ضخم متقرح مطرح بارتياح طولاني كامل. وهذه الشوارع بالذات، كشارع القديس دنيز، مثلاً، أو بوفور دو تميل - هي التي تجذب المرء بشكل لا يقاوم، كما في أيام زمان، حول ساحة الاتحاد أو المناطق القريبة من الباوري، فيجد نفسه متجهاً إلى المتاحف المقبضة حين تعرض في الواجهات نسخ من الشمع لأعضاء جديدة من الجسم أكلها السفلس وأمراض تناسلية أخرى. وتتنامى المدينة ككائن حي مصاب بالمرض في كل جزء منه، والشوارع الجميلة ليست أقل إثارة للاشمئزاز إلا قليلاً لأنها تخلصت من صديدها.

توقفت بضع دقائق عند السيتة بورتييه، قرب ساحة كومبا، لأتناول مشروباً وسط قذارة المشهد. هو فناء مستطيل من الأبنية المتداعية هي من الاهتراء بحيث انهار بعضها على بعض وشكلت نوعاً من العناق العمودي. الأرض غير مستوية، وحجارة الرصيف اللوحية زلقة من الطين. هي أشبه بركام من البقايا الانسانية المشبعة بالرماد والنفاية الجافة. الشمس تسرع بالمغيب. والألوان تموت. تتحول بسرعة من القرمزي إلى لون الدم الجاف، من لون عرق اللؤلؤ إلى لون السخام، من تدرجات اللون الرمادي الميتة إلى لون براز الحمام. وهنا وهناك يقف وحش منكفيء من النافذة يرف عينيه كبوم. ويسمع زعيق حاد من أطفال ذوي وجوه شاحبة وأطراف نحيلة، أولاد أقزام هزيلون معلّمون بالكلاّبات. ومن الجدران ينز عبق النتن، عبق حشيّة يسربلها العفن الفطري. إنها أوروبا — القرون الأوسطية، العجائبية، المهولة: هي سيمفونية من مقام بي - مول. وعبر الشارع مباشرة تلفظ دار سينما كومبا زبائنها المميزين الخاصين بالمدينة الكبرى.

في طريق عودتي أستعيد في ذهني محتويات كتاب كنت أقرأه منذ مدة قريبة. "كانت المدينة أشبه بمسلخ، فثمة جثث، شوّهها الجزارون وعرّاها النهّاب، تتمدد مكتنزة في الشوارع، وتسللت ذئاب من الضواحي لتأكلها،

وزحف الموت الأسود وأوبئة أخرى لتلازمها، وأتت جحافل الانكليز تتقدم، في حين دوّمت رقصة الموت danse macabre حول القبور في جميع المقابر..." إنها باريسي أيام شارل الأبله! كتاب ممتع! منعش شهي. لا زلت مفتوناً به. إني لا أعرف إلا القليل عن سادة عصر النهضة وعوارضه، لكن مدام بيميرنل، بائعة الخبز la belle boulangere الجميلة، والسيد جيان كرابوت، الحداد l'orbe'vre، لا يزالان يشغلان ما تبقى لدي من أفكار. ولا أنسى رودان، الذي يمثل عبقرية اليهودي التائه the wandering jew الشيطانية، الذي مارس أساليبه الشائنة "إلى أن جاء يوم اهبت فيه سيسيلي الثمن - زنجية مشاعره وفاقته دهاءً. وبينما أجلس في ساحة المعبد، أتأمل في ما يفعله تجار الخيول يقودهم جان كابوش، رحت أفكر ملياً وبكآبة في المصير المؤلم لشارل الأبله. كان نصف مجنون يجوس ردهات فندق القديس بولس الذي يملكه، مرتدياً أكثر الأسمال قذارة، وقد نهشته القروح والهوام، فإذا رموا له عظمة أخذ يلتهمها، ككلب أجرب. في شارع ليون بحثت عن الطاولات الحجرية في معرض الحيوانات القديم حيث أطعم حيواناته المدللة مرة. كانت تسليته الوحيدة، ذاك الأبله المسكين، إلى جانب ألعاب الورق مع رفيقته الوضيعة "أوديت دي شانديفر".

بعد ظهر يوم أحد، أشبه بهذا اليوم، قابلت جيرمين لأول مرة. كنت أتسكع على طول شارع بومارشيه، غني بمائة فرنك أو نحوها أرسلتها لي زوجتي بسرعة مسعورة من أميركا. كان في الجو لمسة من ربيع، ربيع سام، مهلك كأنه منبعث من منافذ المجارير. كنت أتردد إلى هذه الناحية ليلة بعد أخرى. تجذبني إليها شوارع جذامية معينة لا تظهر روعتها المشؤومة إلا بعد أن يرتد ضوء النهار منسحباً وتبدأ المومسات باتخاذ مواقعهن. وشارع باستور - فاغنر أتذكره بشكل خاص. وبالتحديد زاوية شارع إميلو التي تختبىء خلف البولفار مثل سحلية ناعسة. هنا، وعند عنق الزجاجة، إن صح التعبير، كانت تقف دائماً مجموعة من النسور تنعب وترف أجنحتها القذرة، تمد إليك مخالبها الحادة وتقحمك داخل الباب. إنهن شيطانات مرحات جشعات لا يفسحن لك مجالاً لتزرر بنطالك حتى بعد أن تنتهي. تقودك إحداهن إلى غرفة صغيرة بعيدة عن الشارع، غرفة بلا نوافذ عادة. وبعد أن تجلس على

طرف السرير مرفوعة الثوب تلقي عليك نظرة سريعة متفحصة، وتخرج أيرك نيابة عنك. بينما أنت تغتسل تنتظر أخرى عند الباب، وهي تقبض على ضحيتها بيدها، تراقبك بلا مبالاة وأنت تضع لمساتك الأخيرة على هندامك.

أما جيرمين فكانت مختلفة. لم يكن في مظهرها ما ينبيء عن سلوكها. ولا شيء يميزها عن بقية العاهرات اللواتي كن يجتمعن بعد ظهر ومساء كل يوم في مقهى الفيل. وكما أقول، كان نهاراً ربيعياً والفرنكات التي سعت زوجتي جاهدة لترسلها إليّ ترن في جيبي. وقد تملكني شعور مسبق مفاده أنني لن أصل إلى الباستيل إلا بعد أن تجرني إليه إحدى تلك الصقور. لاحظتها وأنا أتمشى على طول البولفار وهي تتجه نحوي بتلك الخطوة الحذرة الغريبة الخاصة بعاهرة، والأرجل المرهقة والمجوهرات الرخيصة والنظرة الشاحبة المقتصرة على مثيلاتها، وكل ما يفعله أحمر الشفاه هو أن يؤكد عليها ويبرزها. ولم يكن صعباً الاتصال بها. جلسنا في مؤخرة محل بيع التبغ يسمى الفيل. واتفقنا بسرعة. وخلال بضع دقائق كنا داخل غرفة الخمس فرنكات في شارع إميلو، الستائر مسدلة والأغطية مكشوفة. جيرمين لم تستعجل الأمور. جلست على المرحاض bidet تنظف نفسها وتحدثني بصفاء عن هذا الأمر أو ذاك، وأبدت إعجابها بالبنطال القصير الذي كنت أرتديه. أنيق جداً tre's chic، هكذا قالت. كان أنيقاً مرة، لكن مِقعَدته اهترأت، ولحسن حظي كانت السترة تغطي مؤخرتي. ولما نهضت لتجفف نفسها، وهي ما تزال تحدثني بصفاء، إذا بها فجأة ترمي المنشفة وتتقدم مني بليونة، وتبدأ بفرك كسها بانفعال، وتضرب عليه برقة بكلتا يديها، تداعبه، تربته، وتربته. في تلك اللحظة كان هناك شيء خاص في بلاغتها، في طريقتها في إقحام شجيرة الورد تلك تحت أنفي لا يمكن أن ينسى. كانت تتكلم عنه وكأنه شيء غريب اكتسبته مقابل ثمن باهظ، كشيء ازدادت قيمته بمرور الزمن حتى صارت الآن تضعه فوق كل اعتبار في العالم. شبّعته كلماتها بعبير خاص، ولم يعد مجرد عضوها التناسلي الخاص، بل كنز، كنز سحري، مكنون، هبة من الله ـ لا أقل من هذا لأنها كانت تتاجر به على مر الأيام مقابل بضع قطع من الفضة. ثم انطرحت على السرير، متباعدة الساقين حتى آخرهما، وفتحته على شكل كوب بكلتا يديها ولاطفته من جديد، وكانت طوال الوقت

تهمهم بصوتها الأجش المبحوح قائلة: إنه جيد، جميل، كنز، كنز صغير. وقد كان جيداً حقاً، كسها الصغير ذاك! وفي يوم الأحد المذكور، بأنفاسه السامة الربيعية التي تفعم الجو، نجح كل شيء ثانية. وبعد أن غادرنا الفندق نظرت إليها من جديد تحت ضوء النهار القاسي، ورأيت بوضوح كم كانت عاهرة - الأسنان الذهبية، وزهرة الجيرانيوم في قبعتها، والأرجل المرهقة، إلخ، إلخ. ولم يسبب لي أدنى إزعاج كونها سلبت مني ثمن وجبة عشاء وسجائر وأجرة التاكسي. بل لقد شجعتها على ذلك، في الحقيقة. أعجبتني كثيراً إلى درجة أني بعد العشاء عدت ثانية إلى الفندق وقذفتها. هذه المرة "من أجل الحب"، ومرة أخرى عمل ريعان ذاك الشيء الكبير الكث خاصتها وسحره عمله. بدأ يكتسب وجوداً مستقلاً - بالنسبة لي أيضاً. كانت هناك جيرمين وكانت هناك شجيرة الورد خاصتها. أحببتهما منفصلين وأحببتهما مجتمعين.

وكما أقول، كانت جيرمين مختلفة. وبعد ذلك، حين اكتشفتْ حقيقة ظروفي، راحت تعاملني بنبل - أغدقت علي الشراب، وأولتني ثقتها، ورهنت أغراضي، وقدمتني إلى أصدقائها، وما إلى ذلك. بل لقد اعتذرت لأنها لم تقرضني نقوداً، وتفهمت موقفها تماماً بعد أن أبرزت لي سمكتها الاسقمرية. وليلة بعد ليلة رحت أطرق بولفار بومارشيه متوجهاً إلى دكان بيع التبغ الصغير حيث يجتمعن جميعاً وأنتظرها لتدخل وتهبني بضع دقائق من وقتها الثمين.

حين كتبت عن كلود فيما بعد، كنت أضع في ذهني جيرمين وليس كلود.... "لقد ضاجعتْ كل الرجال والآن تضاجعكَ، أنت فقط، وتمر مراكب، بسواريها وهياكلها، ويتدفق تيار الحياة اللعين كله من خلالك، من خلالها، من خلال كل الذين أتوا من قبلك وسيأتون من بعدك، والأزهار والعصافير والشمس تنهمر ويخنقك عبيرها، يعدمك". كان هذا إكراماً لجيرمين! كلود لم تكن مثلها، مع أني أعجبت بها كل الاعجاب - بل لقد اعتقدت لبعض الوقت أني أحببتها. كلود لها روح وضمير، وتتمتع بكياسة أيضاً، وهذا أمر سيء - بالنسبة لعاهرة. كانت كلود تنطوي دائماً على شعور بالحزن، تترك لديك انطباعاً، بلا قصد طبعاً، بأنك مجرد شخص آخر

مضاف إلى الدفق الذي قضى القدر بتدميرها به. أقول "بلا قصد" لأن كلـود كانت آخر إنسان في العالم يمكن أن يثير عن وعي صـورة كهـذه في الذهـن. لهذا السبب كانت فائقة الرهافة، شديد الحساسـية. في أعماقهـا كـانت مجرد فتاة فرنسية طيبة من منشأ متواضع وتتحلـى بذكـاء متوسـط خدعتهـا الحياة بصورة ما، فيها شيء ليس متيناً بمـا يكفـي ليجعلهـا تصمـد في وجـه صدمـة تجربة الحياة اليومية. لقد كانت هي المقصودة بتلك الكلمات الرهيبة التي قالها لوي ـ فيليب "وذات ليلة ينتهي كل شـيء، حـين تطبـق فكـوك كثيرة علينـا حتى لا تعود لدينا الشجاعة الكافية للصمود، ويتهدل لحمنا على أجسـادنا، وكأن كل الأفواه مضغته". أما جيرمين، من ناحيـة أخـرى، فكـانت عـاهرة من المهد، راضية عن دورها، وتستمتع به في الواقع، إلا عندما تؤلمها بطنها أو يهترىء حذاؤها، وأشياء صغيرة تافهة لا أهمية لها، ليس منهـا مـا يؤثـر على روحها، أو يسبب لها العذاب. أما الملل! فهو أسوأ ما شـعرت بـه. ولا شـك أنه مرت عليها أيام شعرت خلالها بالشبع، كما نقول ــ ولكـن لا أكـثر مـن ذلك! لقد استمتعت بعملها في أغلب الأحيان ــ أو أوهمـت الآخرين بهـذا. والأمر يختلف طبعاً حسب الشخص الذي تذهـب، أو تأتي معـه. أمـا الشـيء الأساسي فهو أن يكون رجلاً. رجل! هذا ما تتشوق إليـه. رجـل مـع شـيء بين ساقيه يمكنه أن يدغدغها، يجعلها تتلوى من النشـوة، يجعلهـا تقبـض على عشـها الكـث بكلتـا يديهـا وتفركـه باسـتمتاع، بتبـاه، بفخـر، ومـع حـس الاتصال، والحياة ـ كان ذاك هو المكان الوحيد الذي تمارس فيه أي شكل من أشكال الحياة ـ هناك حيث تتشبث بنفسها بيديها الاثنتين.

كانت جيرمين عاهرة بكل ما تحملـه الكلمـة مـن معنـى. وحتـى أعمـق أعماق قلبها الطيب، قلبها العاهر، الذي ليس طيباً حقاً بل كسول، لا مبـال، قلب مترهل يمكن أن يتأثر لحظة، قلب لا علاقة لـه بأيـة نقطـة داخليـة ثابتـة، قلب عاهرة، مترهل يمكنه أن ينفصل لحظة عن مركزه الحقيقي. ومهمـا كـان العالم الذي خلقته لنفسها وضيعاً ومقيداً فقد أدت فيـه عملهـا بشـكل رائع. وهذا بحد ذاته شيء منشّط. وبعد أن متنت علاقتنـا، وحـين كـانت رفيقاتهـا يسخرن مني قائلات أني أحـب جـيرمين (وهـو وضـع غـير مفهـوم لديهـن)، كنت أقول "طبعاً! طبعاً! أنا أحبها! بل أكـثر مـن هـذا، سـأكون وفيـاً لهـا!"

وهذه كذبة طبعاً، لأني لم أتمكن من التفكير في عشق جيرمين إلا بقدر ما أفكر في عشق عنكبوت، وإذا كنت وفياً يوماً، فوفائي لم يكن لجيرمين بل لذاك الشيء الكث الذي تحمله بين ساقيها. وكلما نظرت إلى امرأة أخرى أفكر على الفور بجيرمين، بذاك الدغل الملتهب الذي خلفته في ذهني وبدا كأنه ذكرى لا تمحي. كان من دواعي سروري أن أجلس على مصطبة terrasse دكان التبغ لأراقبها وهي تمارس تجارتها بجد واجتهاد، أراقبها وهي تلجأ إلى تعابير الوجه نفسها، الخدع نفسها التي تمارسها معهم ومعي على قدم المساواة. "إنها تؤدي عملها!" ـ هكذا كنت أشعر نحوها، وكنت أنظر إلى صفقاتها التجارية بعين الاستحسان. بعد ذلك، حين بدأت علاقتي مع كلود، ورأيتها ليلة بعد أخرى تجلس في مكانها المعتاد، وردفاها الصغيران المستديران الريانان المستكينان على المقعد المترف، شعرت بنوع من الثورة يعصى على الوصف نحوها، بدت لي مجرد عاهرة، لا يحق لها الجلوس هكذا وكأنها سيدة محترمة، تنتظر بخوف شخصاً ما ليقترب وأثناء كل هذا ترشف شراب الشوكولاة chocolat الذي أمامها باعتدال. أما جيرمين فكانت تتحرش بالرجال. لم تكن تنتظرك حتى تأتي إليها، بل هي التي تخرج وتتشبث بك. لا زلت أذكر الثقوب في جوربها، والحذاء البالي الممزق: أذكر أيضاً أنها كانت تجلس إلى البار وترمي بالشراب داخل جوفها بثقة عمياء شجاعة، ثم تخرج من جديد. إنها متهتكة! وربما لم يكن من الممتع شم أنفاسها الكريهة، تلك الأنفاس المكونة من القهوة الرديئة والكونياك، والمشهيات ape'ritifs، والبرنو، وكل الأشياء التي تزدردها في أوقات الاستراحة، بعضها لتدفئها ومنها ليستنهض فيها القوة والشجاعة، لكن نارها كانت تخترقها، وتلهب ما بين ساقيها حيث يجب على النساء أن يلتهبن، وهناك تركزت تلك الدارة التي تجعل المرء يشعر بالأرض ثابتة تحت قدميه من جديد. وحين كانت تستلقي هناك متباعدة الساقين تئن، ومع أنها كانت تئن لكل عابر سبيل، إلا أنه كان ممتعاً، كان عرضاً رائعاً للمشاعر. لم تكن تحدق إلى السقف بنظرة خاوية أو تعد عث الفراش على ورق الجدران، بل كانت تركز انتباهها على شغلها، تتحدث عن الأشياء التي يجب الرجل أن يسمعها وهو يمتطي امرأة. في حين أن كلود ـ في الواقع مع كلود كان ثمة دائماً رهافة معينة، حتى بعد أن تنزلق

معها تحت الملاءات. ورهافتها تهين. من يرغب في عاهرة مرهفة delicate كلود تطلب منك أيضاً أن تدير وجهك عندما تجلس القرفصاء على المرحاض. كل شيء خطأ معها! فحين يكون الرجل متحرقاً اشتياقاً إنما يريد أن يرى ما يجري، يريد أن يرى كل شيء، وحتى كيف يتبولن. ومع أنه جميل جداً أن تعرف أن للمرأة عقلاً، فالأدب literature الصادر عن جثة عاهرة باردة هو آخر ما يجب أن يقدم في السرير. إن فكرة جيرمين هي الأصوب: كانت جاهلة وشبقة، تضع قلبها وروحها في عملها. كانت عاهرة قلباً وقالباً ـ وهذه هي فضيلتها!.

حل عيد الفصح كأرنب متجمد ـ لكن السرير كان دافئاً تماماً. هذا اليوم أيضاً هو نهار آخر جميل وعند الفجر يبدو شارع الشانزليزيه كله أشبه بخلوة حريم السلطان مختنقة بالحسان الحور. الأشجار بكامل ازدهارها واخضرارها شديد النقاء، والغنى، وكأنها لا تزال مندّاة تتلألأ بالندى. والطريق من الباليه دو لوفر إلى الأتوال أشبه بقطعة موسيقية للبيانو. لم أقرب الآلة الكاتبة منذ خمسة أيام ولا نظرت في كتاب، ولا احتفظت بفكرة واحدة عدا الذهاب إلى الأميركان اكسبريس. اليوم وصلتُ إلى هناك في التاسعة صباحاً لحظة فتح أبوابه، وعدت إليه في الواحدة أيضاً. لا أخبار. في الرابعة والنصف انطلق من الفندق، وقد قررت أن أقوم بآخر محاولاتي. وحالما أنعطف عند الزاوية اصطدم بوالتر باتش. وبما أنه لم يتعرف عليّ، وبما أنه لم يكن لديّ ما أقوله له، لم أحاول استيقافه. بعد ذلك، حين جلست في التوليري أمدد ساقي ترددت قامته على ذهني. كان منحني الظهر قليلاً، كثير التأمل، وترتسم على وجهه ابتسامة هادئة متحفظة. تساءلت وأنا أنظر إلى السماء المصقولة بنعومة، المظللة بألوان باهتة، والتي لا تجللها اليوم سحب الأمطار الغزيرة بل تبتسم كقطعة من الصيني العتيق، وأتساءل ما الذي يدور في خلد هذا الرجل الذي ترجم المجلدات الأربعة السميكة لكتاب "تاريخ الفن"، وهو يشمل هذا الكون المبارك بعينه الواهنة.

تتصبب الأفكار مني كالعرق وأنا أسير على طول الشانزيليزيه. كان يجب أن أكون ثرياً بما يكفي لأحصل على سكرتيرة أملي عليها وأنا أمشي،

لأن أفضل أفكاري تأتيني دائماً وأنا بعيد عن الآلة الكاتبة.

وأتابع سيري في الشانزيليزيه وأنا أفكر في صحتي المذهلة حقاً. وعندما أقول "صحة" أعني التفاؤل، الصدق. يا لي من متفائل لا يمكن شفاؤه! لا أزال أضع قدماً في القرن التاسع عشر. إنني متخلف قليلاً، ككل الأميركيين. كارل يجد هذا التفاؤل مقززاً للنفس. يقول "يكفيني أن أتحدث عن الوجبة حتى تتورد!" وهذا صحيح. فبمجرد التفكير في وجبة ـ وجبة "أخرى" ـ يعيد إليّ النشاط. وجبة! وهذا يعني حافزاً على الاستمرار ـ بضع ساعات كاملة من العمل، وربما انتصاب. لا أنكر هذا. صحتي تامة، جيدة، ومتينة، صحة حيوان. الشيء الوحيد الذي يقف حائلاً بيني وبين المستقبل هو وجبة، وجبة "أخرى".

أما بالنسبة لكارل فهو ليس على ما يرام هذه الأيام. إنه مضطرب، وأعصابه متوترة. يقول إنه مريض، وأنا أصدقه، لكني لست قلقاً عليه.

ليس "بيدي". الواقع أن أمره يضحكني. وهذا يجعله يشعر بالمهانة طبعاً. كل شيء يجرح شعوره ـ ضحكي، جوعي، مثابرتي، لا مبالاتي، "كل شيء". يريد أن ينسف دماغه يوماً ما لأنه لم يعد يستطيع أن يتحمل هذه البؤرة القذرة المسماة أوروبا، وفي اليوم التالي يتحدث عن الذهاب إلى أريزونا "حيث ينظر الناس إليك إلى عينك مباشرة".

أقول "هيا افعل! افعل شيئاً مهما كان، يا ابن الحرام، ولكن لا تحاول أن تغيّم على بصيرتي الصحيحة بنفسك الكئيب!".

لكنه لا يحرك ساكناً! ففي أوروبا يعتاد المرء على البطالة. تجلس على مؤخرتك وتنتحب طوال النهار. وتفسد، وتتعفن.

كارل تفّاج أساساً، أير صغير ارستقراطي يعيش في مملكة جنون باكر dementia praecox خاصة به فقط. ويئن "كم أكره باريس! وكل هؤلاء الناس البلهاء، الذين يلعبون الورق طوال النهار... أنظر إليهم! والكتابة! ما الفائدة من وضع الكلمات مع بعضها؟ أستطيع أن أصبح كاتباً دون أن أكتب، ألا أستطيع؟ ماذا تبرهن كتابتي كتاب؟ ماذا نريد من الكتب على أية حال؟ لقد أصبح لدينا الكثير من الكتب..."

يا عيني، لكني مررت بكل هذا ـ قبل سنين عديدة. عشت شبابي الكئيب حتى الثمالة. و لم أعد آبه لما خلفت ورائي، ولما هو آت أمامي. صحتي ممتازة. ممتازة بشكلٍ مطلق. لا أحزان، لا ندامات. لا ماض، لا مستقبل. يكفيني الحاضر. يوماً بعد يوم. وهذا اليوم! يا لهذا اليوم ما أجمله! .le bel aujourd'hui

لكارل يوم عطلة واحد في الأسبوع، وفي هذا اليوم يكون أشد بؤساً من أي يوم آخر من أيام الأسبوع، إذا استطعت تصور الوضع. وعلى الرغم من أنه يعلن احتقاره للطعام، فإن طريقته الوحيدة للاستمتاع في يوم عطلته هي أن يطلب مدّ وليمة عامرة له. ربما يفعل هذا لصالحي ـ لا أدري، ولا أسأل. إذا أراد أن يضيف صفة الشهادة إلى آثامه، فليفعل ـ لا مانع عندي. مهما يكن، يوم الثلاثاء الماضي، وبعد أن بدد كل ماله على الوليمة، قادني إلى مقهى الدوم، وهو آخر مكان في العالم أذهب إليه في يوم عطلتي. لكن المرء ليس فقط يعتاد على هذا المكان ـ بل وينطرح فيه أرضاً.

على بار مقهى الدوم يقف مارلو، غارقاً في السكر حتى أذنيه. ومنذ خمسة أيام وهو في حالة مرح صاخب، كما يقول. وهذا يعني سُكرٌ مستمر، انتقال من حانة إلى حانة، نهاراً وليلاً دون انقطاع، وأخيراً الانطراح في المستشفى الأميركي، ووجه مارلو الناتيء العظام الهزيل ما هو إلا جمجمة يخترقها محجران دفن فيهما زوج من الأسماك الصدفية الميتة. ظهره مغطى بالنشارة ـ فقد أغفى لتوه قليلاً وهو في المرحاض. إنه يحمل في جيب معطفه البروفات الطباعية للنسخة التالية من مجلته النقدية. يبدو أنه كان في طريقه إلى الطابع ليعطيه البروفات حين أغواه أحدهم بشرب كأس. وهو يتكلم عن الأمر وكأنه وقع قبل أشهر. ويخرج البروفات وينشرها على البار فإذا بها ملطخة ببقع القهوة والبصاق الجاف. ويحاول أن يقرأ قصيدة كتبها باليونانية، لكن البروفات غامضة لا يمكن فك طلاسمها. ومن ثم يقرر أن يلقي خطاباً، بالفرنسية، لكن المدير gerant يوقفه عند حده. مارلو مستاء: طموحه الوحيد هو أن يتحدث بفرنسية يمكن "لولد" أن يفهمها. أما اللغة الفرنسية القديمة فهو ضليع بها، ومن نتاج السورياليين قدم ترجمات ممتازة، أما قول شيء بسيط مثل

"ارحل من هنا، أيها الأير العجوز!" ـ فيفوق طاقته. لا أحد يفهم لغة مارلو الفرنسية، ولا حتى العاهرات. لهذا يصعب فهم لغته الانكليزية وهو على هذه الحال. ويروح يثرثر ويبصق وكأنه مصاب بتأتأة مزمنة... دون أن يربط جمله رابط. أما الجملة التي يلفظها بطلاقة فهي "ادفع أنت!".

حتى لو احترق من أسفل قدميه إلى قمة رأسه، تبقى لديه غريزة بقاء رائعة تنذره بالوقت المناسب للتصرف. وإذا خامره أي شك حول من سيدفع له ثمن المشروب فسيعمل بلا شك على القيام بأكثر التصرفات براعة. وعادة يدعي العمى. والآن بات كارل يعرف كل ألاعيبه، وحالما يضغط مارلو على صدغيه ويبدأ بالتمثيل يكيل له كارل رفسة على قفاه قائلاً:"أخرج من هذه الألاعيب، يا غليظ! لن تنطلي عليّ!".

لا أدري إن كان يروم انتقاماً ذكياً أم لا، لكن مارلو كان دائماً يرد له الصاع صاعين في كل الأحوال. ويروي لنا وهو يميل علينا بود وبصوت أجش خشن جانباً من الثرثرة التي سمعها أثناء ارتحاله من حانة إلى أخرى. وينظر إليه كارل مذهولاً، شاحباً وحتى أسفل خياشيمه. ويكرر مارلو القصة مع التنويعات. وفي كل مرة يزداد وهن كارل. وأخيراً ينفجر قائلاً:" لكن هذا مستحيل" وينعق مارلو "لا ليس مستحيلاً ستخسر عملك... ها أنا أقول لك"، وينظر إليّ كارل بيأس، ويهمس في أذني "هل يسخر مني، ابن الحرام هذا؟" ثم بصوت عال:"ماذا أفعل الآن؟ لن أجد عملاً آخر أبداً. لقد استغرق مني الحصول على عملي الحالي عاماً كاملاً".

من الواضح أن هذا هو كل ما كان مارلو ينتظر سماعه. وها قد وجد أخيراً من هو أسوأ منه. وينعق، وجمجمته الناتئة تتوهج بنار باردة، مكهربة "ستكون أوقاتاً عصيبة!".

لدى مغادرتنا الدوم يصرح لنا مارلو بين الفواقات أن عليه أن يعود إلى سان فرانسيسكو. ويبدو متأثراً بحق الآن من عجز كارل. ويقترح أن أقوم مع كارل بتولي أمر مجلته النقدية أثناء غيابه. ويقول:"أنا أثق بك يا كارل". وإذ به فجأة يتعرض لنوبة، نوبة حقيقية هذه المرة، ويكاد يغوص في أحد المجارير. ونجره إلى المقهى الصغير الكائن في بولفار ادغار ـ غينه ونجلسه على الكرسي.

هذه المرة أصابته حقيقية ــ صداع عنيف يصرخ ويئن ويهز جسمه جيئة وذهاباً كوحش أخرس ضرب بمطرقة مزلجة. ونصبُّ كأسين من الفيرنه ــ برانكا في حنجرته، ونمدده على المقعد ونغطي عينيه بلفاعة. ويرقد آناً. وبعد برهة قصيرة نسمع شخيره.

يقول كارل "وماذا عن عرضه؟ هل نقبله؟ يقول إنه سيعطيني ألف فرنك عند عودته. أعلم أنه لن يفعل، ولكن ما رأيك؟" وينظر إلى مارلو الممدد على المقعد، ويرفع اللفاع عن عينيه ثم يعيده ثانية. وفجأة تضيء وجهه ابتسامة عريضة خبيثة. يقول:"اسمع يا جو" وهو يطلب مني أن أقترب "سوف نتولى الأمر، سوف نتولى أمر مجلته القذرة وبعدها ننيكه كما يجب"

"وماذا تعني؟"

"ولِمَ الحيرة سوف نتخلص من جميع المساهمين الآخرين ونملأها بخرائنا نحن ـ هذا ما أقصدا!"

"نعم، ولكن أي نوع من الخراء؟"

"أي نوع ... لن يتمكن من عمل أي شيء حياله. سنيكه كما يجب. ونصدر عدداً ممتازاً ثم ينتهي أمر المجلة. هل تشترك معي يا جو؟".

نرفع مارلو ليقف على قدميه ونحن نضحك ونقهقه ونسحبه إلى غرفة كارل. وحين ندير مفتاح النور نجد أن في السرير امرأة تنتظر كارل، ويقول كارل "لقد نسيتها". ونتخلص من العاهرة ونلقي بمارلو إلى السرير. بعد دقيقة أو نحوها يقرع الباب، إنه فان نوردن. مهتاج جداً. لقد فقد طقم أسنانه ـ في البال بيغر، كما يظن. على أية حال، نأوي إلى السرير جميعاً. وتفوح من مارلو نتانة تشبه رائحة السمك المدخن.

وفي الصباح يذهب مارلو وفان نوردن ليبحثا عن طقم أسنانه. ومارلو ينتحب، فهو يظن أن الطقم له.



هذا آخر إفطار أتناوله في بيت الكاتب المسرحي. استأجروا لتوهم بيانو جديداً، من النوع الكبير. أقابل سيلفستر وهو خارج من محل لبيع الأزهار ويحمل نباتاً اصطناعياً بين ذراعيه ويطلب مني أن أحمله نيابة عنه قليلاً ريثما يشتري سيجاراً. لقد حرمت من وجباتي المجانية التي خططت بتأن لأحصل عليها. وتخلى عني الأزواج أو الزوجات تدريجياً. وبينما أنا أسير والنبات الاصطناعي بين ذراعي أتذكر تلك الليلة قبل بضعة أشهر عندما خطرت لي الفكرة لأول مرة. كنت أجلس على مقعد قرب الكوبول، أتلمّس خاتم الزواج الذي حاولت رهنه لدى الجرسون في مقهى الدوم. دفع لي يومها ستة فرنكات وانفجرت غاضباً. لكن البطن كانت لها اليد الطولى. فمنذ أن غادرتْ مونا وأنا أضع الخاتم في أصبعي الصغير. كان عزيزاً عليَّ فلم أفكر في بيعه. وكان على شكل براعم لزهور البرتقال من الذهب ذي اللون الأبيض. كان يساوي في أحد الأيام دولاراً ونصف الدولار، وربما أكثر. عشنا بدون خاتم زواج مدة ثلاث سنوات إلى أن كان يوماً مررت بواجهة أحد محلات الصاغة المزدحمة بخواتم الزواج في ميدان لين وأنا في طريقي إلى رصيف الميناء لأقابل مونا. وحين بلغت المكان لم تكن مونا قد وصلت، وانتظرت حتى نزل آخر مسافر إلى المعبر، ولم تأت مونا. وأخيراً طلبت رؤية لائحة المسافرين. ولم يكن اسمها مدرجاً بين الأسماء. وزلقت الخاتم في أصبعي الصغير وبقي هناك. وفي يوم تركته في حمّام عام، لكنني استعدته وقد ضاع أحد براعمه. مهما يكن، أقول أني كنت أجلس هناك على المقعد مطأطئاً رأسي أعبث بالخاتم، وإذا بي أشعر فجأة بأحدهم يقبض على كتفي.

باختصار، حصلت على وجبة طعام إلى جانب بضعة فرنكات. وبعدها تبدّى لي كالومض، أنه لا أحد يرفض تقديم وجبة طعام لإنسان إذا كانت لديه الشجاعة لطلبها. وعلى الأثر توجهت إلى إحد المقاهي في الحال وكتبت رسالتين "هل تسمح لي بتناول العشاء معك مرة في الأسبوع؟ أعلمني بالوقت الذي يناسبك بدقة". وفعلت فعلها كالسحر. ولم تقدم لي مجرد وجبة عادية... بل وليمة. وكنت في كل يوم أعود إلى البيت وأنا سكران. ولم يكن يكفيني ما يقدمه لي أولئك المحسنون الكرماء كل أسبوع. فلم يكن من شأنهم ما يحدث لي بين مواعيد الوجبات. وبين الحين والآخر كان المقدرون لوضعي يقدمون السجائر أو قليلاً من مصروف الجيب. وكانوا جميعاً يبدون ارتياحاً واضحاً حين يدركون أنهم لن يروا وجهي إلا مرة واحدة في الأسبوع. ويبدون ارتياحاً أكبر حين أقول ـ "لم يعد ثمة داعٍ لهذا"، ولم يسألوا أبداً لماذا. كانوا يهنئونني، وينتهي الأمر. وغالباً ما يكون السبب هو أني أجد مضيفاً أفضل، وكان بوسعي أن أزيح كل من كان بمثابة ألم في المؤخرة. لكن هذا لم يكن يخطر لهم على بال. وأخيراً أصبح لدي برنامج دائم، راسخ ـ جدول ثابت. أعرف أن كرونستادت سيقدم لي شمبانيا مع فطيرة التفاح البيتية، وأن كارل سيدعوني لتناول طعام العشاء خارج المنزل، وكان في كل مرة يأخذني إلى مطعم مختلف، ويطلب خموراً نادرة، ثم يعزمني بعد ذلك إلى المسرح، أو يصحبني إلى سيرك مدرانو. وكان مضيفوي فضوليين أحدهم نحو الآخر. فيسألونني أي الأماكن أفضل، ومن هو أفضل الطباخين، إلخ. وأعتقد أني أحببت صحبة كرونستادت أكثر من غيرها، ربما لأنه كان في كل مرة يسجل كلفة الوجبة على الحائط. وهذا لا يعني أن ضميري يرتاح لمعرفتي ما أدين به له، لأنه لم يكن في نيتي أن أسدد له ولا خامرني أي وهم في أن يطالبني. لا، ولكن الأرقام العجيبة كانت تأسر اهتمامي. وكان يحسبها حتى آخر سنتيم. ولو كان علي أن أسدد كل ديوني لتوجب علي أن أصرف من السوّ الذي أملك. وكانت زوجته طباخة ماهرة ولم تكن تأبه على الاطلاق بالسنتيمات التي يضيفها كرونستادت. كانت تأخذ الحساب مني على شكل نسخ كربون. هذه حقيقة! فإذا لم أحضر أي ورق كربون حين أدخل عليها، تكتئب. وكتعويض عن هذا أضطر لاصطحاب الفتاة الصغيرة إلى حدائق

اللوكسمبور في اليـوم التـالي، لألعـب معهـا سـاعتين أو ثـلاث، وهـي مهمـة كانت تدفعني إلى الجنون لأنها لم تكـن تتكلـم إلا الهنغاريـة والفرنسـية. لقـد كانوا بمجموعة غريبة الأطوار، مضيفوي أولئك.....

من شرفة بيت تانيا نظرت إلى المشهد العـام. مولـدورف هنـاك، جـالس بجانب معبوده. يدفىء قدميه علـى الموقـد، وفي عينيـه الدامعتـين نظـرة امتنـان هائلة. وتانيا تعزف لحن أداجيو. ولحن الأداجيو يقول بوضوح: لا مزيـد مـن كلمات الحب! وأنا واقف عند النافورة من جديد، أراقب السـلاحف تتبـول حليباً أخضر. سيلفستر عاد لتوه من برودواي بقلب مفعـم بـالحب. أمضيـت الليل مستلقياً على مقعد خارج متنزه المشاة بينما الكرة الأرضية تترطب ببول السلاحف الدافىء والأحصنة متيبسة بهياج بريابيّ تقفز كالمجنونـة حتـى دون أن تلمس الأرض. طول الليل أشم رائحة الليلـك في الغرفـة الصغـيرة المظلمـة حيث كانت ترخي شعرها، الليلـك الـذي أحضرتـه لهـا حـين ذهبـت لمقابلـة سيلفستر. قالت إنه عاد بقلب مملوء بالحب، والليلـك يزيـن شـعرها، وفمهـا، ويملأ تحت ابطيها. الغرفة تسبح بـالحب وببـول السـلاحف والليلـك الدافـىء والأحصنة تتواثب كالمجنونة. في الصباح أسـنان وسـخة وطفـاوة علـى ألـواح زجاج النوافذ، والغرفة المؤدية إلى متنزه المشاة موصدة. النـاس متوجهـون إلى العمل ومصاريع النوافذ تقرقع كالمزودات. في مخـزن الكتـب المقـابل للنـافورة قصة "بحيرة تشاد"، والسحالي الصامتة، وتدرجات لون الأصفر الفخـم. كـل الرسائل التي كتبتها لها، السكرى منها المكتوبة بريشة كليلة، والمجنونة منها مع قطع صغيرة من الفحم، قطع صغيرة من مقعـد إلى مقعـد، ومفرقعـات ناريـة، ومناديل المائدة، وتوتي فروتي، إنهما يعيدان قراءتها معاً، وذات يـوم سـيبدي استحسانه لي. سيقول، وهو ينفض رماد سـيجارته:"أنـت بحـق تكتـب جيـد جداً. دعني أرى، أنت سريالي، ألست كذلك؟ بصوت هش جاف، وأسـنان مملوءة بالقشور، solo تدل على solar plexus، و g تدل على gaga.

أنا في الشرفة مع النبات الاصطنـاعي ولحـن الأداجيـو ينسـاب هنـاك في الأسفل. مفاتيح البيانو سـوداء وبيضـاء، ثـم سـوداء، ثـم بيضـاء، ثـم بيضـاء وسوداء. وتريدين أن تعرفي إن كنت أرغب في أن تعزفي لي شيئاً. نعم اعـزفي

شيئاً بإبهاميك الكبيرين. اعزفي لحن أداجيو ما دام هـو اللحـن الوحيـد الـذي تتقنين. اعزفيه، ثم ابتري إبهاميك الكبيرين.

يا لذاك الأداجيو! لا أدري لماذا تصر على أن تعزفه طوال الوقت. البيانو العتيق لم يعد جيداً بما يكفي بالنسبة لها، كان عليها أن تستأجر آخر كبيراً ــ لأداء الأداجيو! حـين أرى إبهـاميك الكبـيرين يضغطـان علـى لوحـة المفـاتيح وذاك النبات الاصطناعي السخيف الملقى إلى جانبي أشعر كـذاك المجنـون مـن الشمال الذي رمى بثيابه بعيداً، وجلس بين الأغصان الشتوية عارياً، وأخـذ يرمي الجوز إلى البحر دي أسماك الرنة المتجمدة. ثمة ما يثـير الغضـب في هـذه الحركة الموسيقية، شيء يتسم بالكآبة المخففة، وكأنها كتبت باللافا، وكأنها بلون مزيج الرصاص والحليب. ويقول سيلفستر ورأسه مائل إلى أحـد جانبيـه كأنه دلال:"اعزفي اللحن الذي كنت تتمرنـين عليـه اليـوم". جميـل أن يكـون لدى المرء سترة للتدخين، وسيجار جيد وزوجة تتقن العزف على البيـانو. يـا للراحة، يا للّين. فتخرج من فترة الاستراحة لتدخن سيجاراً وتستنشـق هـواءً نقياً. نعم أصابعها لدنة جداً، لدنة بصـورة خارقـة. وتحسـن التطبيـع البتيكـي أيضاً. هل لك في تدخين سيجارة بلغارية؟ أقول، يا ذات الصدر الحمامي، ما هي تلك الحركة الموسيقية التي أحبها كثيراً؟ إنهـا حركـة السـكيرتزو! ممتـاز. السكيرتزو! الكونت فالديمـار فـون شفيسـنا ينـتزوغ يتكلـم. عينـان هادئتـان مكسـوتان بالقشـور. بَخِر. جـوارب مزوّقـة. قطـع خبـز محمصـة في شـوربة الفاصولياء إذا سمحت. دائماً نتناول شـوربة الفاصوليـاء في أمسـيات الجمعـة. هل لك في تذوق القليل من النبيذ الأحمر؟ النبيذ الأحمر لذيذ مع اللحـم، كمـا تعلم. صوت هش وجاف، هل لك في سيجارة؟ نعم، أحـب عملـي لكـني لا أعلق أدنى أهمية عليه. مسرحيتي القادمة ستتضمن مفهوماً عن الكون متعـدد الجوانب. طبول تدور مع أضواء كالسيومية. أونيل مات. أعتقد، يا عزيزتـي، أنك يجب أن ترفعي قدمك عن البدال أكثر. نعم، هذا الجزء جميـل جـداً.... رائع الجمال، ألا تظن؟ نعم. الشخصيات تدور وهي تحمـل مكـبرات صـوت في سراويلها، المكان هو قارة آسيا. لأن الأحوال الجوية أكثر ناقلية. هل لـك في تذوق القليل من الآنجو؟ لقد ابتعناه خصيصاً لك.....

وتستمر هذه الثرثرة طوال الوجبة. وكأنه أخرج فتاه المطهر وراح يتبول علينا. تانيا تتفجر حماساً في عزفها. ومنذ أن عاد بقلب ملؤه الحب وهذا الحديث الإفرادي مستمر. وتحكي لي كيف يتكلم وهو يخلع ثيابه ـ حديث كالتبول الثابت المستمر، وكأن مثانته قد ثقبت. حين أتخيل تانيا وهي تزحف إلى السرير مع تلك المثانة المثقوبة يتملكني الغضب. أغضب كلما فكرت أن ابن الحرام الناحل البائس ذاك الذي يحمل معه مسرحيات برودواي الرخيصة يتبول على المرأة التي أحب. ويصيح طالباً نبيذاً أحمر وطبولاً دوارة وخبزاً محمصاً في شوربة الفاصولياء. يا لصفاقته! أجن كلما فكرت أن باستطاعته أن ينام إلى جانب ذاك الفرن الذي ذكيت له ناره ويكتفي هو بالتبول! يا إلهي، يا رجل، جدير بك أن تركع على ركبتيك وتشكرني. ألا ترى أنه صارت لديك "امرأة" في بيتك الآن؟ ألا ترى أنها تضطرم بالشوق؟ وأنت تخبرني عن زوائدك الأنفية المخنوقة ـ"والآن، دعني أخبرك... هناك طريقتان للنظر إلى الأمر...." أير في طريقتيك للنظر إلى الأمور! أير في كونك المتعدد الجوانب وفي صوتياتك الأسيوي! كفاك تمدني بنبيذك الأحمر والآنجو.... مُدّني بها "هي"... إنها لي! أما أنت فاذهب واجلس عند النافورة، ودع لي شم الليلك. نظّف عينيك من قشورهما... وخذ ذاك الأداجيو العين ولفه بزوج من سراويل الفانيلا! وخذ الحركة الأخرى أيضاً..... وكل الحركات الصغيرة التي سببتها بمثانتك الرخوة. ها أنت تبتسم لي بكل جرأة، بتعمد كامل. ألا ترى أني أتملّق مؤخرتك؟ وبينما أنا أنصت إلى ثرثرتك وضعت يدها عليّ ـ لكنك لم تر هذا. تظن أني أحب أن أعاني ـ وتقول إن هذا هو دوري. حسن، اسألها عن هذا! وستخبرك كيف أعاني. قبل أيام قليلة قالت عبر الهاتف:"أنت سرطان وهذيان". وها قد أصبيت بهما معاً، السرطان والهذيان، وقريباً سيتوجب عليك أن تلملم قشورك. شرايينها تكاد تنفجر، أؤكد لك، وكلامك كله هباء. ومهما تبولت فلن تتمكن من سد ثقوبك. ماذا يقول السيد ورن؟ "الكلمات هي الوحدة". تركت لك كلمتين فوق مفرش المائدة بالأمس ـ وقد غطيتهما بمرفقيك.

لقد ضرب حولها حصاراً وكأنها عظمة عفنة من قديس. ليت لديه الشجاعة ليقول لي "خذها!" فربما وقعت معجزة. هكذا ببساطة. "خذها!"

وأقسم بأن كل شيء سيسير سيراً حسناً. ثم أنني قد لا آخذها!. ترى هل خطر هذا على باله؟ أو قد آخذها لفترة وجيزة وأعيدها إليه، محسَّنة. أما ضرب حصار حولها فلن ينفع. لا يمكنك أن تفرض حصاراً حول كائن بشري. فهذه الطريقة لم تعد تنفع.... إنك مسكين، يا ابن الحرام السقيم. تظن أني لا أصلح لها، وإني قد أدنسها، أنتهك قدسيتها. أنت لا تدري كم هي لذيذة المرأة المدنسة، وكيف يجعل تغير المني المرأة تزدهر! وتظن أنه يكفي قلباً مفعماً بالحب، وربما هذا صحيح، بالنسبة للمرأة المناسبة، ولكن لم يعد لديك قلب..... ما أنت غير مثانة كبيرة، فارغة. أنت تسن أسنانك وتهذب هريرك، تنطرح عند قدميها ككلب الحراسة وتتبول في كل مكان. إنها لا تعتبرك كلب حراسة.... أنها ترى فيك شاعراً. وهي تقول إنك كنت ذات مرة شاعراً. والآن، ماذا تكون؟ تشجع يا سيلفستر، تشجع! اخرج المايكروفون من سروالك. واخفض قائمتك الخلفية وتوقف عن التبول في كل مكان. أقول تشجع، لأنها تبذتك لتوها. وإنها ملوثة، أؤكد لك، ويمكنك أيضاً أن تفك الحصار. لا فائدة من سؤالي بأدب إن كان مذاق القهوة يشبه حمض الكربون: فلن تخيفني. ضع سم الفئران في القهوة، وقليلاً من مسحوق الزجاج. إغل بعض البول الحار وأضف إليه شيئاً من جوز الطيب.....

منذ بضعة أسابيع وأنا أعيش حياة مشاعة. كان علي أن أشارك الآخرين، خاصة بعض الروس المجانين، وهولندي سكير، وامرأة بلغارية ضخمة اسمها أولغا. من بين الروس أذكر خاصة أوجين وأناطول.

قبل هذا بأيام قليلة كانت أولغا قد خرجت من المشفى حيث أحرقت قنواتها وفقدت بعضاً من وزنها الزائد. على أية حال لا يبدو أنها تألمت كثيراً. ويكاد وزنها يعادل وزن قطار ذي سنام. وهي ترشح عرقاً وفمها يبخر، ولا تزال تضع شعرها الجركسي المستعار الذي يشبه النحارة. وعلى ذقنها ثالولان كبيران تبرز منهما خصلتان صغيرتان من الشعر، وهي تنمي شارباً.

بعد خروج أولغا من المشفى بيوم عادت من جديد إلى صناعة الأحذية. في السادسة صباحاً تكون جالسة إلى مقعدها ، وتصنع في اليوم الواحد

زوجين من الأحذية. ويشتكي أوجين من أن أولغا تشكل عبئاً عليه لكن الحقيقة هي أن أولغا هي التي تعيل أوجين وزوجته من وراء زوجي الأحذية كل يوم. وإذا لم تعمل أولغا فلا طعام. لذا يحاول الجميع أن يجر أولغا إلى السرير في الوقت المناسب، ليزودها بوقود يعينها على الاستمرار، إلخ.

كل وجبة تبدأ بالشوربة. وسواء كانت شوربة البصل، شوربة البندورة، شوربة الخضار أم غيرها، فمذاقها واحد دائماً. وعلى الأغلب يكون مذاقها وكأنما نقعت فيها خرقة لتجفيف الأطباق ــ حامضة قليلاً، عفنة، تعلوها طفاوة. أرى أوجين يخفيها عن العيون في الخزانة بعد انتهاء الوجبة. وتبقى هناك، لتتعفن حتى الوجبة التالية. والزبدة أيضاً تُخبَّأ في الخزانة، وبعد مرور ثلاثة أيام يصبح مذاقها كمذاق أصبع كبير لقدم جثة.

ورائحة الزبد العفن وهو يقلى مقرفة بشكل خاص، خاصة عندما يتم الطبخ في غرفة لا يوجد فيها أي منفذ للتهوية. وما إن أفتح الباب حتى أصاب بالغثيان. ولكن حالما يسمع أوجين أني أتيت فإنه عادة يسرع بفتح النوافذ ويعيد ملاءة السرير التي علقت كالشبكة لتدرأ نور الشمس إلى مكانها. مسكين أوجين! إنه ينظر حوله في الغرفة إلى قطع الأثاث القليلة، إلى ملاءات الأسرة الوسخة، وحوض الاغتسال ذي الماء القذر الراكد، ويقول"إنني مُستعبَد!" يقولها كل يوم، وليس مرة فقط، بل دزينة من المرات. ثم يتناول قيثارته عن الجدار ويبدأ بالغناء.

ولكن لنعد إلى رائحة الزبد العفن.... فثمة ملحقات جيدة أيضاً. حين أفكر في هذا الزبد العفن أتخيلني واقفاً في فناء صغير، من عالم قديم، يعبق بالروائح. فناء موحش جداً. ومن خلال الشقوق في مصاريع النوافذ تتلصص عليّ أشكال غريبة.... عجائز يضعن شالات، وأقزام، قوادون بوجوه جرذان، يهود حدب، فتيات خليعات midinettes، وبلهاء ملتحون. يترنحون وهم خارجون إلى الباحة ليجلبوا الماء أو ليشطفوا الدلاء القذرة. وذات يوم طلب مني أوجين أن أفرغ الدلو نيابة عنه. فأخذته إلى زاوية الفناء، وكان في الأرض ثقب انتشرت حوله أوراق وسخة. البئر الصغيرة كانت لزجة من الغائط، وباللغة المفهومة يسمى "خراء" قلبت الدلو فسمعت

طرطشة بلهاء مقرقرة تبعتها طرطشة أخرى غير متوقعة. ولما عدت كانت الشوربة قد مسحت. كنت طوال الوجبة أفكر في فرشاة أسناني ـ لقد أصبحت عتيقة وشعيراتها تعلق بين أسناني.

كلما جلست لتناول الطعام أجلس قرب النافذة. أخاف الجلوس في الجانب الآخر من المائدة ـ فهي شديدة القرب من السرير والسرير يزحف. أرى بقع الدم على الملاءات الباهتة إذا نظرت إلى تلك الجهة، لكني أحاول أن لا أنظر. وأمد بصري إلى الفناء حيث يغسلون الدلاء القذرة.

لا تكتمل الوجبة بدون موسيقى. فحالما يوزِّع الجبن يقفز أوجين ويتناول القيثارة المعلقة فوق السرير. دائماً يغني الأغنية نفسها. يقول إن رصيده الموسيقي يحوي خمس عشرة أو ست عشرة أغنية، لكني لم أسمع أكثر من ثلاث. والأغنية الأثيرة لديه هي "قصيدة حب ساحرة" وهي ملأى بالهم والغم.

بعد الظهر نذهب إلى السينما حيث البرودة والظلمة. يجلس أوجين أمام البيانو في خلفية المسرح وأجلس أنا في المقدمة على مقعد. المكان خال، لكن أوجين يغني وكأن أمامه جمهوراً من رؤوس أوروبا المتوجة. باب الحديقة مفتوح وعبير الأوراق الرطبة ينغمس في الغرفة ويمتزج المطر مع غم أوجين وهمه. وعند منتصف الليل وبعد أن يتخم النظّارة القاعة برائحة العرق والأنفاس الكريهة، أعود لأنام على أحد المقاعد. ويلقي نور مصباح "باب الخروج"، السابح في هالة من دخان السجائر، ضوءاً خافتاً على الزاوية الأدنى من الستارة الحريرية، وكل ليلة أغمض عيني على عين اصطناعية.....

أقف في الباحة بعين زجاجية، لا أرى غير نصف العالم. الحجارة رطبة ويعلوها الطحلب وفي شقوقها تكمن العلاجيم السود. ويعترض المدخل إلى قبو الخمور باب كبير. الدرج لزج، وملوث ببراز الوطاويط. الباب يبرز ويغور، والمفاصل تسقط، ولكن ثمة علامة مرسومة عليه، وهي في حالة جيدة، وتقول: "تأكد من إغلاق الباب". وما الداعي إلى إغلاق الباب؟ لا أفهم. وأنظر إلى العبارة ثانية فإذا بها قد أزيلت، وأجد مكانها لوح زجاج ملون. أنزع عيني الزجاجية، وأبصق عليها وأنظفها بمنديلي. ثمة امرأة جالسة

على منصة فوق مقعد محفور باتقان وحيَّة تلتف حول عنقها. الغرفة برمتها مرصوصة بالكتب وأسماك غريبة الشكل تسبح في أوان زجاجية كروية ملونة، وخرائط وجداول معلقة على الجدار، خرائط لباريس قبل الطاعون، خرائط للعالم العتيق، لكنوسوس وقرطاجة، لقرطاجة قبل أن تتملح وبعده. أرى في زاوية الغرفة قوائم سرير حديدية تتمدد عليها جثة، تنهض المرأة بانزعاج وتزيح الجثة عن السرير وترميها من النافذة وهي شاردة الذهن. ثم تعود إلى المقعد الضخم المحفور، تتناول سمكة ذهبية من الإناء وتبتلعها. وتبدأ الغرفة بالدوران ببطء، وتنزلق القارات واحدة إثر أخرى وتغوص في البحر، ولا تبقى إلا المرأة، لكن جسمها صار عبارة عن كتلة من الجغرافيا. وأطل من النافذة وإذا ببرج إيفل يفور بالشمبانيا، إنه مبني برمته من أرقام ومكفن بشريط أسود. البلاليع تمور بغضب. لا يوجد إلا أسطح في كل مكان، موزعة ببراعة هندسية مقيتة.

لقد قُذفت من العالم كخرطوشة. انزاح ضباب كثيف، والأرض تلطّخت بشحم متجمد. أشعر بالمدينة تخفق، كأنها قلب خُلع لتوه من جسم حي. نوافذ فندقي تتقرح وثمة نتانة قوية لاذعة كأنها منبعثة من تفاعلات كيميائية. أرى وأنا أنظر إلى نهر السين الحمأة والخراب، مصابيح الشارع تغرق، رجالاً ونساءً يختنقون حتى الموت، الجسور مغطاة بالبيوت، ومسالخ الحب. رجل واقف يستند إلى الجدار ويحمل أوكورديوناً مربوطاً إلى بطنه، يداه مبتورتان من الرسغين، لكن الأكورديون يتمعّج بين جدّعتيه ككيس مملوء بالأفاعي، الكون تضاءل، صار فقط بطول مجمع سكني، بلا نجوم، ولا أشجار، ولا أنهار. القاطنون هنا أموات، يصنعون كراسي يجلس عليها آخرون في أحلامهم. في وسط الشارع دولاب وفي محور الدولاب ثُبتت مشنقة. الموتى يحاولون بهياج أن يرتقوا المشنقة، لكن الدولاب يدور بأقصى سرعة.....

أفتقر إلى عنصر ما ليوائمني مع نفسي. ومساء أمس اكتشفت هذا العنصر: إنه بابيني papini. لا يهمني إن كان متعصباً وطنياً، أو دينياً، أو متحذلقاً قصير النظر. أما كفاشل فهو رائع.....

ويا للكتب التي قرأها ـ وهو في الثامنة عشرة! ليس فقط هومر، ودانتي، وغوته، ليس فقط أرسطو، وأفلاطون، وأبيكتيتوس، ليس فقط رابليه، وسرفانتس، وسويفت، ليس فقط ويتمن، وإدغار ألن بو، وبودلير، وفيون، وكاردوتشي، ومانتزوني، ولوب دو فيغا، ليس فقط نيتشه وشوبنهور، وكانط وهيغل وداروين وسبنسر وهكسلي ـ ليس فقط هؤلاء بل كل الشخصيات الصغيرة الكائنة بينهم. هذا في صفحة ١٨. alors، في الصفحة ٢٣٢ ينهار ويعترف. يعترف قائلاً أنا لا أعرف شيئاً. أعرف العناوين، صنفت المراجع، كتبت مقالات نقدية، أسأت وشوهت..... أستطيع أن أستمر في الكلام خمس دقائق أو خمسة أيام، لكنني أستسلم بعدها وقد نضبت.

ثم يتبع ما يلي:" الكل يريد أن يراني. الكل يصر على التحدث معي. يزعجني الناس ويزعجون الآخرين باستفساراتهم حول ما أقوم به. كيف حالي؟ هل تحسنت صحتي؟ هل لا أزال أقوم بنزهاتي إلى الريف؟ هل أعمل؟ هل أنهيت كتابي؟ هل سأبدأ آخر قريباً؟.

"ثمة قرد ألماني هزيل يريد أن أترجم له أعماله. وفتاة روسية ذات نظرات متوحشة تريد أن أروي لها قصة حياتي. وسيدة أمريكية تريد أن تعرف "آخر" أخباري. وسيد أميركي سيرسل لي عربته ليأخذني لتناول العشاء ـ مع حديث ودي حميم، كما تعلم. وزميل دراسة وصديق قديم، قبل عشر سنوات، يريد أن أقرأ له ما كتبت بالسرعة نفسها التي كتبته بها. ورسام صديق لي يريد أن أعمل عنده موديلاً ساعياً. وصحفي يريد عنواني الحالي. وأحد المعارف وهو صوفي، يسأل عن حالة روحي، وآخر، أكثر عملية، يسأل عن وضعي الاقتصادي. رئيس النادي الذي أنتسب إليه يسأل إن كنت سألقي خطاباً إكراماً للشباب! وسيدة ذات ميول روحية تأمل أن أزورها لتناول الشاي قدر ما أستطيع. تريد رأيي في يسوع المسيح، ورأيي في ذاك الوسيط الجديد؟ ... "يا إلهي العظيم! إلى ما آلتني؟ أي حق لكم علي أيها الناس حتى تقلبوا حياتي رأساً على عقب، وتبددوا وقتي، وتسبروا روحي، وتمتصوا أفكاري، وتتخذوا مني رفيقاً، وموضع ثقة، ومكتب

استعلامات؟ ماذا تظنوني؟ أمهرجاً مستأجراً مطلوباً مني أن أمثل كل صباح مهزلة فكرية تحت أنوفكم البلهاء؟ أم عبداً مشترى مدفوعاً ثمنه، حتى أزحف على بطني أمامكم أيها المتبطلون وأضع عند أقدامكم كل أعمالي ومعرفتي؟ أم مومساً في ماخور يُنادى عليها لترفع ثوبها أو تخلع قميصها بطلب من أول رجل يرتدي بدلة مفصلة يأتي إليها؟.

" أنا رجل يريد أن يعيش حياة بطولية ويجعل العالم أكثر احتمالاً في نظره. إذا انتابتني نوبة غضب، في لحظة ضعف أو راحة أو حاجة ـ نوبة غضب مستمرة يمكن إخمادها بالكلمات ـ أو حلم مشبوب مغلف ومربوط بالخيال ـ فاحتملوني أو لا تحتملوني.... ولكن لا تزعجوني.

"أنا رجل حر ـ وبحاجة إلى حريتي. بحاجة إلى وحدتي. بحاجة إلى التأمل في عاري ويأسي في معتزلي، أحتاج إلى أشعة الشمس وحجارة رصف الشوارع بلا رفاق، بلا حديث وجهاً لوجه مع نفسي، ليس لي إلا موسيقى قلبي رفيقة لي. ماذا تريدون مني؟ حين يكون لدي ما أقول! أقوله كتابة. وإذا كان لدي ما أهب، أهبه. فضولكم الوقح يثير غثياني! إطراءاتكم تذلني! شايكم يسممني! لا أدين بشيء لأي إنسان. لست مسؤولاً إلا أمام الله وحده ـ إن كان موجوداً."

يبدو لي أن بابيني يفتقر إلى شيء رفيع كالشعرة حين يتحدث عن حاجته إلى أن يكون لوحده. ليس من الصعب أن تكون لوحدك إذا كنت فقيراً وفاشلاً، فالفنان دائماً لوحده ـ إذا كان فناناً حقاً. لا، إن ما يحتاجه الفنان هو الوحدة lonliness.

أنا أسمي نفسي فناناً. فلأكن هكذا. آخذ بعد ظهر هذا اليوم غفوة تبث شعوراً مخملياً بين فقرات عظمي. أنتجت أفكاراً تكفيني ثلاثة أيام. طافح بالطاقة ولا أعرف ماذا أفعل بها. أقرر أن أتمشى. في الطريق أغيّر رأيي، وأقرر أن أذهب إلى السينما. لا أستطيع الذهاب إلى السينما ـ تنقصني بضعة سوّات. فلأتمشى إذن. أتوقف عند كل دارٍ للسينما وأنظر إلى لوحة الإعلانات، ثم إلى قائمة الأسعار. رخيصة تماماً، مرابع الافيون هذه، لكن تنقصني بضعة السوات. إذا لم يكن قد فات الأوان قد أعود لأصرف قيمة

زجاجة فارغة.

لدى وصولي إلى شارع أميلي أكون قد نسيت كل شيء عن السينما. شارع أميلي هو أحد الشوارع الأثيرة لدي. هو أحد الشوارع التي نسيت البلدية أن ترصفها لحسن الحظ. تمتد أحجار الكوبالت بشكل محدب من أحد طرفي الشارع إلى الطرف الآخر. طوله لا يتجاوز عرض مجمع سكني وضيق. وفي هذا الشارع يقع فندق بريتي. وثمة كنيسة صغيرة أيضاً، في شارع أميلي. وكأنها بنيت خصيصاً لرئيس الجمهورية ولأفراد عائلته المقربين. أمر جميل أحياناً أن يرى المرء كنيسة صغيرة متواضعة. إن باريس ملأى بالكاتدرائيات النفاجة.

جسر الكسندر الثالث. وثمة ساحة مترامية تلعب فيها الريح تقترب من الجسر. أشجار هزيلة، جرداء مثبتة داخل أقفاصها بطريقة رياضية، وكآبة العجزة تنبثق من القبة السماوية وتغمر الشوارع المظلمة المجاورة للساحة. إنها جبّانة الشعر. وقد وضعوه الآن حيث أرادوا، المحارب العظيم، آخر رجل عظيم في أوروبا. إنه غارق في سبات عميق داخل سريره الغرانيتي. لا خوف عليه من أن يتقلب داخل جدثه، فالأبواب محكمة الاغلاق، والغطاء مثبت تماماً فنم، يا نابليون! إنهم ما أرادوا أفكارك، بل جثتك فقط!.

لا زال النهر متخبطاً موحلا، معجوناً بالأضواء. لا أدري ما الذي يهيج داخلي لمرأى هذا التيار المظلم، السريع الحركة، لكن جذلاً عظيماً يحيي روحي، يؤكد رغبتي العميقة في أن لا أغادر هذا البلد. أذكر مروري بهذا الطريق ذات صباح قريب متوجهاً إلى الأميركان اكسبريس، وأنا أعرف مسبقاً أنه لا يوجد بريد بانتظاري، لا شيك، لا برقية، لا شيء، لا شيء. وعلى الجسر دمدمت عربة قادمة من الغاليري لافاييت. كان المطر قد توقف والشمس تشق طريقها خلال الغيوم الرغوية وتمس أسطح الدبش البراقة بنارها الباردة. أذكر الآن كيف مال السائق ليطل عبر النهر جهة طريق باسي. كم كانت نظرة صحية، بسيطة، مستحسنة، وكأنه يقول لنفسه:"آه، الربيع آت". ويعلم الله عندما يحل الربيع بباريس لا بد أن يشعر أبسط كائن حي أنه يسكن الجنة. وليس هذا فقط - بل إن عينيه سرعان ما تآلفتا مع

المشهد الذي وقعنا عليه. إنها باريسه هو. لا حاجة للإنسان أن يكـون ثريـاً، ولا حتى مواطناً، ليشعر هكذا نحو باريس. باريس مملوءة بالفقراء ـ ويبـدو لي أنهم من أكثر ما وجد على الأرض منهـم تكـبراً وفحشـاً. ومـع ذلـك فهـم يمنحون انطباعاً بأنهم يتصرفون وكأنهم في بيوتهم. وهذه الخاصيـة هـي الـتي تميز الباريسي عن جميع البشر الذين يقطنون المدن الكبرى.

حين أفكر في نيويورك يجتاحني شعور مختلف كثيراً. فنيويورك تجعل حتى الثري يشعر بحقارته. نيويورك باردة، براقة، خبيثـة. الأبنيـة مسـيطرة، وهنـاك أنواع من السُعر الذي يشـمل النشـاط السـائد، كلمـا زاد عنـف الخطـو، زاد انسحاق الروح. هياج مستمر، لكنه هياج يمكن أن يحدث أيضاً داخل أنبوب اختبار. لا أحد يعلم سببه. ولا أحد يوجه هذه الطاقة. شـيء مذهـل. شـاذ. محير. الحاح ارتكاسي **reactive** هائل، لكنه متنافر كل التنافر.

حين أفكر في المدينة التي ولدت فيها ونشأت، في هذه المنهاتن التي تغنّـى بها ويتمن، يلسع أحشائي غيظ أبيض أعمـى. نيويـورك! السـجون البيـض، الأرصفة الغاصة بالديدان، طوابير الأفران، مرابع تعاطي المخدرات الـتي تشـبه القصور، العمال الأجانب في كل مكان، والمجذومون، وقطاع الطـرق، وقبـل كل شيء "الضجر"، رتابة الوجوه، الشـوارع، السيقان، البيـوت، ناطحـات السـحاب، الوجبـات، الملصقـات الجداريـــة، الأعمـــال، الجرائـم، علاقـــات الحب.... مدينة كاملة قائمة فوق هوة من العدم. عبث تام. والشارع الثـاني والاربعون قمة العالم، كما يطلقـون عليـه. فـأين قعـره إذن؟ يمكنـك أن تتـابع مسيرك ممدود اليدين وسيضعون جمـراً في قبعتـك. ويتـابعون سـيرهم، غنيّهـم وفقيرهم، شامخي الرؤوس ويكادون يكسرون أعناقهم وهـم يرمـون أنظـارهم عالياً إلى سجونهم البيضاء الجميلة. يتابعون مسيرهم كـأوز أعمـى والأضـواء الكاشفة ترش وجوههم الفارغة برذاذ من النشوة.

قال إمرسون:"تتألف الحياة مما يفكر به الإنسان طـوال يومـه". إذا كـان هذا صحيحـاً فحيـاتي ليسـت غـير إمعـاء ضخمـة. إنـني لا أكتفـي بالتفكـير بالطعام طوال النهار، بل وأحلم به ليلاً.

لكني لا أطلب العودة إلى أميركا، ليركّب لي سرج مضاعف من جديـد، لأشغّل دولاب روتين. لا، أفضل أن أكون رجلاً أوربيا فقيراً. ويعلم الله أني فقـير بمـا يكفـي، يبقـى لي أن أكـون رجـلاً. في الأسـبوع الفـائت ظننـت أن معضلـة العيـش توشـك أن تحـل. ظننـت أنـي بسـبيل أن أكتفـي ذاتيـاً. فقـد تصادف أن قابلت روسياً آخر ـــ يدعـى سـيرج. يعيـش في سوريسـن حيـث توجد جالية صغيرة من e'migre's المهاجرين والفنانين المحبطين. قبل الثـورة كان سيرج كابتن في الحرس الملكي، طولـه ستة أقـدام وثـلاث بوصـات مـع جوربيه ويحتسي الفودكا كسمكة. كان والده أميرالاً أو شيئاً من هذا القبيـل، على المدرعة "بوتمكين".

قابلت سيرج في ظروف خاصة. في ذاك اليوم خرجت أبحث عن طعـام، ونحو الظهيرة وجدتني بالقرب مـن الفـولي بيرجـير ـ أو بـالأحرى قـرب بابـه الخلفي الواقع في الزقاق الضيق الصغير الذي ينتهي أحد طرفيه ببوابة حديدية. كنت أحوم حول مدخل خشبة المسرح، يحدوني أمـل غـامض في الاحتكـاك بإحدى الفراشات حـين اندفعـت شـاحنة مكشـوفة واحتلـت الرصيـف. ولمـا رآني السائق، سيرج، واقفاً ويدي في جيبي، طلب مـني أن أسـاعده في تفريـغ البراميل الحديدية. وعندما علم أني أميركي ومفلس كاد يبكي فرحاً. إذ يبدو أنه كان يبحث في طول المكان وعرضه عن مدرس للغة الإنكليزية. وسـاعدته

على دحرحة براميل المبيدات الحشرية إلى الداخل وأنا أملّي نظري بمرأى الفراشات ترفرف متنقلة بين الأروقة. واتخذت الحادثة بالنسبة لي أبعاداً غريبة - المنزل الفارغ، ودمى النشارة تتقاذف في الأروقة، براميل المبيدات الحشرية، والمدرعة "بوتمكين" - وقبل أي شيء، لطف سيرج. إنه ضخم الجثة ورقيق. رجل بكل بوصة فيه، لكنه يحمل قلب امرأة.

وفي مقهى قريب يدعى مقهى الفنانين - يعرض عليّ على الفور عملاً، قائلاً إنه سيمد لي حشيَّة على أرض الصالون. وبالنسبة للدروس، يقول إنه سيقدم لي وجبة كل يوم، وجبة روسية دسمة، أو إذا غابت الوجبة لأي سبب من الأسباب فستة فرنكات عوضاً عنها. ويبدو لي أن العرض رائع - رائع. والمشكلة الوحيدة هي كيف سأقطع المسافة بين سوريسن والاكسبريس الأميركي كل يوم؟.

ويصر سيرج على أن نبدأ فوراً - ويمنحني تعرفة المواصلات لقطع المسافة إلى سوريسن في المساء. وأصل قبيل العشاء، حاملاً حقيبة الظهر لأعطي سيرج الدرس. ويكون هناك بعض الضيوف - يبدو لي أنهم دائماً يتناولون الطعام جماعات، وكلهم يتحدثون دفعة واحدة.

كنا ثمانية أشخاص على المائدة — وثلاثة كلاب. الكلاب تأكل أولاً. تأكل شوفاناً. ومن بعدهم نحن. ونأكل أيضاً شوفاناً — وهو بمثابة مشهي. ويقول سيرج غامزاً بعينه:" عندنا، هذا لأجل الكلاب، شوفان الكويكر. وهذا لأجل السيد، مفهوم". بعد الشوفان، يأتي حساء الفطر والخضار، وبعد ذلك عجة البيكون، الفاكهة، النبيذ الأحمر، الفودكا، القهوة، فالسجائر. لا بأس بها، الوجبة الروسية. الكل يتكلم وفمه مملوء بالطعام. بعد انتهاء الطعام تتمدد زوجة سيرغي، وهي عاهرة بليدة أرمنية، على المقعد وتبدأ بقضم السكاكر. وتمد أصابعها الثخينة باحثة في الصندوق، وتلوك قطعة صغيرة لترى إن كان قد تبقى بها أي عصير، وترميها بعد ذلك على الأرض للكلاب.

تنتهي الوجبة، ويندفع الضيوف هاربين، وكأنما من وباء ما. ونُترَك، سيرج وأنا، مع الكلاب - وتستغرق زوجته في النوم على المقعد. ويتجول

سيرج في المكان للامبالاة، وهو يفت النفاية للكلاب. يقول:" الكلاب تحبها كثيراً... هذا جيد للكلاب. الجرو مصاب بالديدان ... لا يزال صغيراً جداً". وينحني ليتفحص بعض الديدان البيضاء الملقاة على السجادة بين مخالب الكلب. ويحاول أن يشرح شيئاً حول الديدان بالإنكليزية، لكن المفردات تعوزه. وأخيراً يستشير القاموس في هذا. يقول "آه" وهو ينظر إلي بجذل "إنها ديدان شريطية"، وكان واضحاً أن إجابتي لم تكن بارعة جداً. إن سيرج محتار. ويخر على ركبتيه ليتفحصها بإمعان. ويلتقط إحداها ويضعها على الطاولة قرب الفاكهة، ويزمجر:" ها، هي ليست كبيرة جداً. الدرس القادم أنت تعلمني الديدان، لا؟ أنت أستاذ شاطر. أنا أتقدم معك...... "

يكاد عبق مبيدات الحشرات يخنقني وأنا متمدد على الحشية الموجودة في الصالون. عبق حاد لاذع، أشعر به يهاجم كل مسام جسمي. ويبدأ الطعام يتردد على ذاكرتي ـ شوفان الكويكر، الفطر، لحم الخنزير، التفاح المقلي. أرى الدودة الشريطية الصغيرة ممدودة قرب الفاكهة مع بقية تشكيلة الديدان التي وضعها سيرج على مفرش المائدة ليشرح مصاب الكلب. أرى مقدمة مسرح الفولي بيرجير الخالية وفي كل شق صراصير وقمل وبق. أرى أناساً يهرشون أنفسهم بهياج، يهرشون ويهرشون حتى يسيل منهم الدم. أرى ديداناً تزحف فوق المشهد العام كجيش من النمل الأحمر يلتهم كل ما يقع عليه البصر. أرى فتيات الجوقة يرمين أرديتهن الكهنوتية الشفافة ويركضن مخترقات سرادقات الكنيسة عاريات، وأرى المشاهدين في مقدمة المسرح يخلعون ملابسهم أيضاً ويهرش بعضهم بعضاً كالقردة.

أحاول تهدئة نفسي. فأنا، قبل كل شيء، قد وجدت بيتاً وثمة وجبة طعام تنتظرني كل يوم. وسيرج كريم، ولا شك في هذا. لكن النوم يجافيني، وكأني نائم في مشرحة. والحشية مشبعة بسائل عطر. إنها مشرحة للقمل، والبق، والصراصير، والديدان الشريطية. لا يمكنني أن أحتمل هذا. بل لن أحتمله! فأنا، قبل أي شيء إنسان، وليس قملة.

في الصباح أنتظر سيرج ليحمل الشاحنة. وأطلب منه أن يقلني معه إلى باريس. ولا يطاوعني قلبي أن أخبره أني راحل. وأخلف ورائي حقيبة الظهر

وفيها بعض أشياء من ممتلكاتي. وحين نصل إلى ساحة بيربير أقفز. ولا يكون ثمة سبب معين لنزولي في ذاك المكان، وليس لدي أي سبب معين للقيام بأي شيء. " أنا حر "وهذا هو الأساس.....

رحت أطير متنقلاً خفيفاً كالعصفور من حارة إلى حارة. وكأني تحررت من سجن. وأنظر إلى العالم بعينين جديدتين. صار كل شيء يثير فيّ اهتماماً عميقاً. حتى الأمور التافهة. في شارع فوبور بواسونيير أقف أمام واجهة إحدى مؤسسات التربية البدنية. ثمة صور تبين عينات من الرجال "قبل التمارين وبعدها" كلهم ضفادع. بعضهم عاري، إلا من نظارة أنف ولحية. لا أفهم كيف تخدع هذه العصافير بالمتوازيان وأثقال تمرين العضلات. على الضفدع أن يكون له بطن صغيرة جداً، مثل البارون دو شالو. يجب أن يكون له لحية ونظارة أنفية. ولا يجب أن يصور عارياً، ويجب أن ينتعل حذاءاً ذا جلد صقيل لماع وأن يكون في جيب صدارة معطف الخيش منديل أبيض يبرز بمقدار ثلاثة أرباع الإنش فوق الشق. وإذا أمكن، فليضع شريطاً أحمر في طية سترته، من العروة. ويجب أن يرتدي بيجاما حين يأوي إلى السرير.

أمرُّ وأنا أقترب من ساحة كليشي قرابة المساء بالعاهرة الصغيرة ذات الجدعة الخشبية التي تقضي وقتها بالوقوف قبالة قصر غومون على مر الأيام. لم يكن يبدو أن عمرها يزيد ولا بيوم واحد على الثمانية عشر عاماً. وأعتقد أن لها زبائنها المعتمدين. تقف هناك بعد منتصف الليل بأسمالها السوداء ثابتة في مكانها. وخلفها يقع زقاق صغير يتلظى كأنه جحيم. أمرُّ بها الآن بقلب يطفر فتذكرني بشكل ما بأوزة مقيدة إلى عمود، أوزة بكبد مضطرب، حتى يتوفر للعالم لحم كبد سمين pate' de foie gras. يبدو غريباً أن تصطحب معك هذا الجدع الخشبي إلى السرير. إن المرء ليتخيل كل أنواع الأشياء ــ كالشظايا، إلخ. مهما يكن، لكل ذوقه.

وحين أنحدر إلى شارع ده دام، ارتطم بيكوفر، وهو شيطان بائس آخر يعمل في الصحافة، يشتكي من أنه لا يحصل إلا على ثلاث ساعات نوم في الليلة ـ فعليه أن يستيقظ في الثامنة صباحاً ليعمل في مكتب طبيب أسنان. إنه لا يعمل من أجل النقود، كما يشرح لي ــ بل ليشتري لنفسه طقم أسنان

اصطناعية. يقول:"من الصعب قراءة البروفة الطباعية وأنت تكـاد تسقط مـن النعاس. تظن زوجتي أني أنال مبلغاً سخياً لقاء هذا، وتقول، ماذا سنفعل إذا فقدت عملك؟". لكن بيكوفر لا يأبه على الإطلاق بالعمل، فهـو لا يتيـح لـه حتى أن ينفق بعض النقود. وعليه أن يوفر أعقاب السحائر ويستخدمها لتبـغ الغليون. ومعطفه مثبـت بدبابيس. وهـو مصـاب بـالبخر وتعـرق اليديـن ولا يحصل إلا على ثلاث سـاعات نـوم كـل ليلـة. يقـول:" هـذه ليسـت معاملـة إنسانية ورئيسي في العمل يستنزف أعصابي إذا أخطأت في فاصلة منقوطـة". ويضيف متحدثا عن زوجته "امرأتي هذه، لا تكـن لي أي اعـتراف بـالجميل، أؤكد لك".

وعند افتراقنـا أنجح في ابتزاز خمسين فرنكـاً منـه. وأحـاول أن أعتصـر خمسين سنتيماً أخرى، ولكن لا مجال. على كل حال حصلت على ما يكفيني ثمن قهوة وكرواسان. وكان بالقرب من محطـة القديـس اليعـازر بـار أسـعاره مخفضة.

ويشاء الحظ أن أعـثر في المغسـلة علـى بطاقـة لدخـول حفلـة موسـيقية. وأهرع مسرعاً كالريشة إلى السال غافو. ويظهر دليـل النظـارة استياءاً لأنـي تغافلت عن اعطائه البقشيش. وكلما مرَّ بي ينظر إلي باستفهام وكأنـه يـأمل أن أتذكر فجأة.

لقد مر وقت طويل منذ أن جلست بصحبة أناس حسني المظهر حتى أني أشعر بقليل من الخوف. لا أزال أشم رائحة الفورمالدهايد. ربما كـان سـيرج ينقل بضاعة إلى هنا أيضاً. ولكن لا أحد يهرش نفسـه، حمـداً لله. ثمـة نفحـة عطر خفيفة .... خفيفة جداً. حتى قبل أن تبدأ الموسيقى تظهـر تلـك النظـرة الضجرة على وجوه الناس. الكونشيرتو هو شكل مهذب للتعذيب الإنسـاني. وحالما يدق المايسترو لعصاه الصغيرة، تسود نوبة تركيز متوتـرة يتبعهـا علـى الفور هبوط عام، وارتياح نباتي هادىء، يحدثه رذاذ متواصل غير متقطع مـن الأوركسترا. وينتبه دماغي انتباهاً دقيقاً وكأن في جمجمتي ألف مرآة. وتتوتـر أعصابي وترتج! الأنغام ككريات زجاجية فـوق مليـون نـافورة مـن المـاء. لم أذهب دهري لحضور كونشيرتو خاوي الجوف كهذه المرة. لا شيء يفوتـني،

ولا حتى أقل رنة من دبوس ساقط. وكأني تجردت من ملابسي وكل سُم من جسمي هو بمثابة نافذة وكل النوافذ مشرعة والنور يغمر قوانصي. وأشعر بالضوء يتغلغل تحت روافد أضلعي المحدبة وأضلعي معلقة فوق محور أجوف يهتز بترددات. ولا أعرف كم دام هذا الشعور، لقد فقدت كل إحساس بالزمان والمكان. وبعد انقضاء ما يشبه الأبدية تبع ذلك فترة من شبه الوعي وازنها هدوء أشبه بوجود بحيرة داخلي، بحيرة من البريق الذي يومض بألوان قوس قزح، طليه كحلوى الهلام، وفوق هذه البحيرة تظهر أسراب من الطيور العابرة ذوات الأرجل نحيلة وريش لماع محلقة باندفاع لولبي عظيم. وتتعالى الأسراب صاعدة الواحدة بعد الأخرى بعيداً عن سطح البحيرة الرائقة الساكنة، مارة من تحت نواحري، وتضيع في بحر الفضاء الأبيض. وببطء، ببطء شديد، كعجوز تعتمر قبعة بيضاء، راحت تدور حولي، تغلق النوافذ ببطء وتتراجع أعضائي إلى أماكنها. وفجأة تندلع الأضواء ويتضح أن الرجل ذا الصندوق الأبيض الذي حسبته ضابطاً تركياً هو امرأة تعتمر أصيصاً من الزهور.

ثم سُمع أزيز وسعال كل من رغب بالسعال من كل قلبه. وحفيف أقدام ومقاعد تصدم بعنف وضجيج ثابت يتفتت لأناس يتمشون بلا هدف، لأناس يرفرفون برامجهم ويتظاهرون بالقراءة ثم يرمون برامجهم ويجرون أقدامهم من تحت مقاعدهم، ويرحبون بأوهى حادثة تمنعهم من التساؤل عما كانوا يفكرون به لأنهم إذا عرفوا أنهم كانوا يفكرون بلا شيء سيجنّون. وتحت لهيب الأضواء القاسي يتبادلون النظرات ببلاهة وفي حملقتهم توتر غريب. وفي اللحظة التي يربت فيها قائد الأوركسترا ثانية يعودون إلى حالة الإغماء التخشبية ـ يهرشون أنفسهم بلا وعي أو يتذكرون فجأة واجهة عرض فيها شال أو قبعة، يتذكرون كل تفصيل في تلك الواجهة بوضوح مذهل، ويأخذون بالإنصات بانتباه مضاعف لأنهم في حالة يقظة تامة ومهما تكن الموسيقى رائعة فلن يفقدوا وعيهم بواجهة العرض تلك والشال المعلق فيها، أو القبعة.

وهذا الانتباه يتبدى واضحاً وحتى الأوركسترا تبدو مكهربة في انتباه

فوق عادي، والمقطوعة الثانية تشمخ كالذروة ـ سريعة جداً إلى درجة أنه حالما تتوقف فجأة وتشعشع الأنوار يغوص بعضهم في مقاعدهم كالجزر، فكوكهم تتحرك بتشنج، وإذا فرضنا أنك صرخت فجأة في آذانهم: براهمز، بيتهوفن، مندلييف، الهرسك، فسيجيبون بلا تفكير قائلين: ٤، ٩٦٧، ٢٨٩.

وفي الوقت الذي نصل فيه إلى مقطوعة ديبوسي يكون الجو قد بات مسموماً تماماً. وأجدني أتساءل كيف يكون شعوري لو كنت امرأة أثناء المضاجعة ـ وفيما إذا كانت المتعة أكبر، إلخ. وأحاول أن أتخيل شيئاً ينفذ في وسط ملتقى فخذي، لكني لا أحصل إلا على إحساس غامض بالألم. أحاول التركيز، لكن الموسيقى فائقة المراوغة. ولا أتمكن من التفكير إلا بزهرية تدور ببطء والأشكال تتبدد في الفضاء. وأخيراً لا يبقى غير ضوء يدور، وأتساءل كيف يدور الضوء. الرجل الجالس قربي يغط في النوم، يبدو كسمسار بكرشه الضخم وشاربه المشمع، ويعجبني منظره. وأحب فيه خاصة ذاك الكرش الضخم وكل ما ساهم في تكوينه. ولم لا يغط في النوم إذا أراد أن ينصت يمكنه دائماً أن ينصت إلى خشخشة ثمن بطاقة الدخول. وألاحظ أنه كلما زادت أناقة ملبسهم زاد غطيطهم. لديهم ضمير مرتاح، هؤلاء الأغنياء، ولو أغفى رجل فقير، بضع لحظات فقط، لعذبه وخز ضميره، ولتصور أنه ارتكب جريمة بحق مؤلف الموسيقى.

أثناء المقطوعة الاسبانية سرت الكهرباء في الدار كلها. وجلس كل على طرف مقعده ـ فقد أيقظتهم الطبول. عندما بدأت الطبول تقرع ظننت أنها لن تتوقف أبداً. توقعت أن أرى الناس يقعون من مقاصيرهم أو يرمون قبعاتهم في الهواء. وشمل الجو عنصراً بطولياً وكان باستطاعة رافيل أن يوصلنا إلى حافة الجنون لو أراد. غير أن هذا ليس من شيم رافيل. وفجأة هدأت الموسيقى. وكأنه تذكر، وسط تصرفاته الغريبة، إنه يرتدي بذلة ذات ذيل مستدق، لقد ضبط نفسه متلبساً. وفي رأيي المتواضع إنه خطأ جسيم. فالفن يتحقق بالذهاب إلى آخر الحد. وحين تبدأ بقرع الطبول عليك أن تنتهي بتفجير الديناميت، أو الـ T. N. T. ورافيل ضحى بشيء ما من أجل الشكل، من أجل نوع من الخضار يقدر الناس على هضمه قبل الإيواء إلى السرير.

أفكاري تنتشر. الموسيقى تتسرب مني بعد أن سكتت الطبول، وعاد الناس في كل مكان إلى هدوئهم وانضباطهم. وتحت أضواء باب الخروج وقف شبيه لفيرتر يغمره اليأس، معتمداً على مرفقيه وعيناه تومضان. وقرب الباب يقف إسباني يحمل بيده قبعة سومبريرو، وهو يلملم أطراف معطفه الفضفاض، وكأنه يتخذ وقفة موديل لتمثال "بلزاك" لرودان. من العنق وإلى أعلى يشبه بوهالو بل. في الغرفة المقابلة لي، وفي الصف الأمامي، تجلس امرأة وساقاها ممدودتان، منفرجتان على آخرهما، كأنها مصابة بالكزاز. ورقبتها مرمية إلى الخلف ومحلولة عن مكانها. وكم يكون رائعاً لو أن المرأة ذات القبعة الحمراء الغافية فوق الحاجز تصاب بالنزيف! لو لأنها تريق فجأة مقدار دلو على أصحاب القمصان المنشاة أولئك في الأسفل. تصور أولئك التافهين الملاعين العائدين إلى البيت من حفلة موسيقية وقد تلطخت صداراتهم بالدم!.

النوم هو طبقة القرار. لم يعد هناك من ينصت. من المستحيل الجمع بين التفكير والانصات. يستحيل الحلم حتى حين لا تكون الموسيقى نفسها إلا حلماً. إمرأة ذات قفاز أبيض تحمل بجعة في حضنها. الأسطورة هي أنه حين أخصبت ليدا ولدت توأماً. كل إنسان يلد شيئاً ما ــ كل إنسان ما عدا السحاقية القابعة في الطابق العلوي، شامخة الرأس، وحلقومها مفتوح على آخره، إنها في كامل انتباهها وتستشعر رذاذاً خفيفاً من الشرارات المنبثقة من السيمفونية المشعة وجوبيتر يخرق أذنيها. عبارات صغيرة من كاليفورنيا، حيتان بحرية بزعانف هائلة، زنجبار، ألكازار. "حين شعشع ألف جامع على طول نهر "الوادي الكبير"". عميقاً داخل جبال الجليد والأيام كلها ليلك. شارع المال فيه عموداً أنشوطات أبيضان. وتماثيل الكرغل ... والرجل ذو الهراء الجافورسكي.... والأضواء المنبعثة من النهر... والـ ....

في أميركا كان لدي عدد من الأصدقاء الهندوس، بعضهم طيب، والبعض سيء، والبعض الآخر لامبال. وقد وضعتني الظروف في موقفٍ جعلتني فيه لحسن الحظ مصدر عون لهم، فكنتُ أوفر لهم الأعمال وأجد لهم المأوى بل وأطعمهم عند الضرورة. وأعترف أنهم كانوا ممتنين جداً، إلى درجة أنهم جعلوا حياتي بائسة برعايتهم. إثنان منهم كانا قديسين، إن كنت أعرف ما هو القديس، وخاصة "جوبت" الذي وجدوه يوماً منحوراً من الأذن إلى الأذن. فقد وجد في صباح أحد الأيام في نُزل في قرية غرينتش ممدداً على السرير عارياً تماماً، نايه إلى جانبه وحنجرته مقطوعة، كما قلت، من الأذن إلى الأذن. ولم يعرف فيما إذا كان قد قتل أو انتحر. إلا أن هذا ليس أمراً ذا بال......

إني أستعيد سلسلة الظروف التي قادتني في آخر الأمر إلى بيت نانانتاتي. أستغرب كيف كنت قد نسيت كل شيء عن نانانتاتي حتى قبل أيامٍ قلائل وأنا مستلق في غرفة من فندق وضيع في شارع سل. كنت مستلقياً هناك على سرير حديدي أفكر في حالة الصفر التي وصلت إليها، ويا له من صفر، يا له من عدم، وفجأة، بانغو! إذا بكلمة: عدم! تقفز إلى ذهني. هكذا كنا نسميه في نيويورك ـ عدم. السيد عدم.[١٠]

أنا الآن مستلق على الأرض وسط جناحه البهي الذي كان يتباهى به هو في نيويورك. نانانتاتي يلعب دور السامري الطيب، فقد أعطاني زوجاً من الملاءات التي تسبب الحكة، وهما ملاءتا حصان، تلفعت بهما على الأرض

---

(١٠) ـ المقصود أن إسم الهندوسي نانانتاتي، والكلمة "عدم" Monentity متشابهان لفظاً.

المتربة، وفي كل ساعة من ساعات النهار كانت هناك أعمال صغيرة تتطلب الانجاز ـ هذا إذا تصرفت بحمق وبقيت في البيت. في الصباح يوقظني بفظاظة لأحضر له طبق خضراوات للغداء مؤلفاً من: بصل، ثوم، وبقول، إلخ. ويحذرني صديقه كيي من أكل الطعام ـ قائلاً إنه سيء. وما الفرق إن كان طعاماً سيئاً أو جيداً؟ إنه طعام! وهذا هو المهم. إني من أجل الحصول على الطعام كنت مستعداً وبكل سرور أن أكنس السجادة بمكنسة مكسورة، وأغسل ثيابه، وألم فتاته عن الأرض حالما ينتهي من تناول طعامه. وقد أصبح منذ وصولي حريصاً على النظافة كل الحرص: صار كل شيء يحتاج إلى التنظيف الآن، الكراسي يجب أن توضع في ترتيب معين، المنبه يجب أن يرن، المرحاض يجب أن يسلك جيداً.... إنه هندوسي مجنون إن كان حقاً بينهم مجنون! وبخيل كنبات البقول. سأضحك ملء قلبي على هذا حين أتخلص من براثنه، أما الآن فأنا سجين، رحل لا اعتبار له، نجس.....

إذا لم أعد إليه في المساء وذهبت لأتدثر بملاءات الخيل يقول لي إبان وصولي:" أوه، إذن أنت لم تمت بعد؟ ظننت أنك مت". وعلى الرغم من أنه يعرف أني مفلس تماماً يكرر على مسمعي خبراً عن غرفة رخيصة اكتشفها في منطقة مجاورة. وأقول "ولكني لا أستطيع استئجار غرفة بعد، أنت تعلم هذا". فيجيبني بنعومة، وهو يطرف بعينيه كالصينيين:"أوه، نسيت أنك مفلس. دائماً أنسى، يا أندري ... ولكن عندما تصل البرقية ... عندما ترسل لك الآنسة مونا النقود، سوف تصحبني لنبحث لك عن غرفة، هه؟". وبعد ذلك مباشرة يلح علي بالبقاء قدر ما أرغب ـ "ستة أشهر ... سبعة أشهر يا أندري... أنت طيب جداً معي هنا".

وناتانتاتي هو أحد الهندوس الذين لم أقدم لهم عوناً في أميركا. لقد عرفني بنفسه باعتباره تاجراً ثرياً، تاجر لؤلؤ لديه جناح فاره في شارع لافاييت في باريس، وفيلا في بومبي، وفيلا في دارجيلنغ. وأدركت منذ النظرة الأولى أنه نصف عاقل، بيد أن أنصاف العقلاء يتصفون أحياناً بعبقرية تكديس الثروة. ولم أكن أعرف أنه يدفع فاتورة الفندق في نيويورك بترك لؤلؤتين كبيرتين في يد صاحب الفندق. ويضحكني الآن أن أتذكر أن ذاك البطيطة قد تبختر في أحد

الأيام في بهو ذاك الفندق في نيويورك مع عصاه العاجية، وهو يعطـي توجيهاتـه للخدم في كل مكان، يطلب الافطار لصيوفه، يطلب من البـواب أن يبتـاع لـه بطاقات المسرح، ويستأجر سيارة أجرة ليوم واحد، إلخ، إلخ، وكل هذا دون أن يكون في جيبه سوّ واحد. لا يوجد معه إلا خيط مملوء باللآلىء الضخمـة معلق من رقبته وهو ينفقها واحدة بعد أخرى مع مرور الوقت. ويا لطريقته السـخيفة في الربت على ظهري وهـو يشـكرني لطيبـتي الجمـة مـع الأولاد الهندوسيين ـ "كلهم أذكياء، يا أندري .... فائقوا الذكاء!". ويقـول إن الإلـه الطيـب فـلان الفلانـي سـوف يكـافئني علـى طيبـتي. الآن صرت أعـرف لمـاذا كـان الأولاد يقهقهون عندما أقترح عليهم أن يقنعوه بإقراضي خمسة دولارات.

كـم تبـدو غريبـة الطريقـة الـتي يكـافئني بهـا الإلـه فـلان الفلانـي علـى إحساني. فما أنا غـير عبـد لهـذا البطيطـة السـمينة. إنـني رهـن إشـارته طـول الوقت. وهو بحاجة إليّ هنا ـ يقول لي هذا في وجهي. وحين يذهب إلى وعاء التبرز يصـرخ:" أنـدري، احضـر لي ابريقـاً مـن المـاء، مـن فضلـك، يجـب أن أتمسح"، فهو يرفـض أن يسـتخدم ورق المرحـاض. ربمـا كـان لا يجـوز طبقـاً لديانته. لا، إنه يريد ابريقاً من الماء وخرقة. هـذا البطيطـة الثخينـة "مرهـف". أحياناً بينما أنا أشرب كوباً من الشاي الشاحب الذي يغمس فيه ورق الـورد يأتي إلي ويقف بجانبي ويضرط بصوت عـال، وفي وجهـي مباشـرة. ولم يقـل مرة"معذرة!". فلا بد أن هذه الكلمة لا يحتويها قاموسه الغوجاراتي.

يوم وصلت إلى شقة نانانتاتي كان يؤدي وضوءه، أو بمعنى آخـر، كـان يقف فوق وعاء قـذر يحـاول أن يلـوي ذراعـه المعقوفـة وراء رقبتـه. وبجـانب الوعاء كان هناك طاس نحاسـي يسـتخدمه لتغيـير المـاء. وطلـب مـني أن ألـزم الصمت أثناء المراسيم. فجلست صامتاً، كما طلب، ورحت أراقبه وهو يرتل ويصلي ويبصق بين آن وآخر في الوعـاء القـذر. إذن هـذا هـو جناحـه الـذي تحدث عنه في نيويورك. شارع لافاييت! لقد بدا لي أن شارعاً هاماً وأنا هناك في نيويورك. كنت أظـن أنـه لا يسـكن ذلـك الشـارع إلا أصحـاب الملايـين وتجار اللآلىء. فشارع لافاييت يبدو رائعاً، حين تكـون أنـت علـى الطـرف الآخر من المحيط. وهكذا يبدو أيضاً الشارع الخامس، حين تكون أنـت هنـا.

لا يمكن لأحد أن يتصور مراتع النفايات الموجودة في هذه الشوارع المرفهة. لا يهم، ها أنا هنا أخيراً، أجلس في الجناح الفخم في شارع لافاييت. وهذا البطيطة المجنونة بيده المعقوفة مستمر في طقوس غسيل نفسه. الكرسي الذي أجلس عليه مكسور، وعمود السرير يتداعى، وورقة الجدار تكاد تنسلخ وتقع، وتحت السرير حقيبة مفتوحة محشوة بالثياب القذرة. ومن مكان مجلسي يمكنني أن ألقي نظرة إلى أسفل حيث باحة بائسة يجلس فيها أرستقراطيو شارع لافاييت يدخنون غلايينهم. وأتساءل الآن وهو يرتل تسبيحاته لله، عن شكل غرفة البنغالو في دارجيلنغ. إن ترتيله وصلاته لا ينتهيان.

ويشرح لي الآن أنه ملزم بالاغتسال طبقاً لطريقة مقررة ـ يتطلبها دينه. إلا أنه في أيام الآحاد يأخذ حماماً في المغطس الصغير ـ ويقول إن ذاتي العظمى سوف تتغاضى عن هذا. وبعد أن يرتدي ملابسه يتوجه إلى دولاب الملابس، ويركع أمام تمثال صغير قائم على الرف الثالث، ويكرر غمغماته المبهمة. ويقول لي، إذا صليت هكذا كل يوم فلن يصيبك مكروه. والإله الطيب فلان لا ينسى عبده المطيع. ومن ثم يريني ذراعه المعقوفة التي أصيبت في حادث سيارة في يوم لا بد إنه أهمل فيه أن يكرر كامل الغناء والرقص. وتبدو ذراعه كفرجار مكسور، ولم تعد تشبه الذراع في شيء، بل هي أقرب إلى عظمة برجمة موصولة إلى ساق قائمة. ومنذ أن جبر الذراع أخذ يظهر زوج من الغدد المتورمة تحت إبطه ـ وهما غدتان سمينتان صغيرتان، تشبهان تماماً خصيتي كلب. وبينما هو يتحسر على مصابه إذا به يتذكر فجأة أن الطبيب نصحه بمزيد من السمك واللحم " وما رأيك بالأصداف يا أندري ـ لأجل أخيك الصغيرle petit frere ؟ وكل هذا هو فقط من أجل أن يترك لدي انطباعاً قوياً. فهو لا يقصد أبداً شراء الأصداف واللحم والسمك. على الأقل ليس طالما أنا موجود هنا. أما حالياً فنحن بصدد تغذية أنفسنا بالعدس والأرز وبمختلف الأطعمة الجافة التي خزنها في العلية. حتى الزبد الذي ابتاعه في الأسبوع الماضي لا يجوز تبديده أيضاً. وحين يبدأ بتمليح هذا الزبد تصدر عنه رائحة لا تحتمل. في أول عهدي به كنت أسرع بالهرب حالما يبدأ بتذويب الزبد، ولكن بعدئذ صرت أتحمل حتى النهاية. ولو استطاع أن

يدفعني إلى أن أتقيأ وجبتي لأسعده ذلك أيما سعادة ـ فعندئذ سيتوفر لديه شيء آخر يدخره إلى جانب الخبز اليابس والجبن العفن والكعك الصغير المزيّت الذي يصنعه بنفسه من الحليب الفاسد والزبد الزنخ.

ويبدو أنه خلال السنين الخمس الأخيرة لم يكن قد قام بأي عمل يذكر، لم يكسب قرشاً واحداً. وأخفقت أعماله. ويحدثني عن اللآلىء في المحيط الهندي ـ اللآلىء الكبيرة الضخمة التي تستطيع أن تعيش بثمنها طوال حياتك. ويضيف إن العرب يفسدون العمل. ولكنه في هذه الأثناء يصلي للإله فلان الفلاني كل يوم، وهذا يساعده على الصمود. إن علاقته بالإله ممتازة، وهو يعرف كيف يتملقه، كيف يبتز منه بضع سوّات. إنها علاقة تجارية صرف. ومقابل الكلام الفارغ الذي يلقيه أمام الخزانة الصغيرة يحصل كل يوم على مؤونته من البقول والثوم، بغض النظر عن الخصيتين الضخمتين تحت ذراعه. هو واثق من أن كل شيء سينتهي على خير. وستباع اللآلىء من جديد ذات يوم، ربما بعد خمس سنوات، ربما بعد عشرين سنة ـ حين يشاء الإله بورماروم. وعندما ستزدهر الأعمال يا أندري، ستحصل على عشرة بالمئة مقابل كتابة الرسائل. ولكن عليك أولاً أن تكتب الرسالة لنعرف إن كان بوسعنا أن نحصل على اعتماد من الهند. وسيستغرق وصول الرد ستة أشهر، وربما سبعة أشهر..... فالزوارق ليس سريعة في الهند". هذا البطيطة ليس لديه أي تصور لمفهوم الزمن. وحين أسأله إن كان قد نام جيداً يقول:"آه، نعم يا أندري إنني أنام جيداً .... أحياناً أنام إثنتين وتسعين ساعة في ثلاثة أيام".

في أوقات الصباح يكون عادة أكسل من أن يقوم بأي عمل. ذراعه! يا للذراع البائسة المكسورة التي تشبه العكاز! احياناً أتساءل حين أراه يلويها حول رقبته إن كان سيتمكن من إعادتها إلى مكانها ثانية. ولولا الكرش الذي يحمله لذكرني بأحد أولئك البهلوانات في سيرك مدرانو. لا ينقصه غير كسر رجله. وحين يراني على السجادة، ويرى مقدار الغبار الذي أثيره يبدأ يقرقر كالقزم "عظيم! عظيم جداً يا أندري. والآن سألتقط البقية"، وهذا يعني أنه لا يزال هناك بقايا غبار فاتني إزالتها، وهي طريقته المؤدبة في التهكم.

وفي أوقات بعد الظهر يأتيه دائماً عدد من الأصدقاء من سوق اللآلىء،

يأتون للقيام بواجب زيارته. كلهم دمثون. ويحتسون الشاي المعطر محدثين هسيساً وصجيجاً بينما يقفز ناناتاتي صاعداً هابطاً كعفريت العلبة أو يشير إلى نثرة الغبار على الأرض ويقول بصوته الزلاق الناعم ـ"رجاء التقط هذه النثرة يا أندري". وحين يصل الضيوف يذهب منزلقاً إلى الدولاب ويحضر قطع الخبز الجاف ويكون قد حمصها قبل نحو أسبوع وصار مذاقها الآن كمذاق الخشب التالف القوي، ولا يرمي قطعة واحدة منه. فإذا فسد الخبز كثيراً يأخذه إلى الطابق السفلي للبوابة التي، كما يقول، كانت عظيمة اللطف معه. وحسب قوله فإن البوابة تبتهج لفوزها بالخبز العفن ـ فهي تصنع منه بودنغ الخبز.

وفي يوم أتاني صديقي أناطول ليراني. وابتهج ناناتاتي لذلك. وأصر على أن يبقى أناطول لتناول الشاي. وألح عليه ليتذوق كعكة المدهن الصغير والخبز العفن. ويقول:" يجب أن تأتي كل يوم لتعلمني اللغة الروسية. إنها لغة جميلة.... أريد أن أتكلمها. كيف تقول تلك الكلمة يا أندري ـborsht ؟ اكتبها لي، من فضلك يا أندري...." ويجب أن أكتبها له على الآلة الكاتبة، وليس على شيء آخر، حتى يستطيع أن يرى براعتي الفنية. فهو الذي اشترى الآلة الكاتبة بعد أن تسول بذراعه المشوهة، فالطبيب أشار عليه بهذا لأنه رياضة جيدة. إلا أنه سرعان ما سئم الآلة الكاتبة ـ فهي تكتب باللغة "الإنكليزية".

وحين علم أن أناطول يحسن العزف على المندولين قال:" عظيم جداً! يجب أن تأتي كل يوم وتعلمني الموسيقى. سأشتري مندولين حالما تتحسن الحال. وهو جيد لأجل ذراعي". وفي اليوم التالي يقترض فونوغرافاً من البوابة "من فضلك علمني الرقص يا أندري، إن بطني كبيراً جداً"، ويا ليته يشتري لي شريحة من لحم البقر حتى أستطيع أن أقول له:" هل تتفضل وتعضها لأجلي يا مستر عدم. فأسناني ليست قوية"!.

وكما قلت قبل دقيقة صار منذ وصولي مولعاً بالنظافة بشكل غير عادي. ويقول لي:" بالأمس ارتكبت ثلاثة أخطاء يا أندري. أولاً، نسيت أن تغلق باب المرحاض وصار طوال الليل يضرب بوم ـ بوم، وثانياً، تركت نافذة

المطبخ مفتوحة وهكذا شرخت النافذة هذا الصباح، ونسيت أن تخرج زجاجة الحليب! أرجوك لا تنس أن تضع زجاجة الحليب في الخارج قبل أن تأوي إلى السرير، وفي الصباح سوف تتفضل وتحضر الخبز".

وكل يوم يحضر صديقه المسمى كيي ليسأل إن كان ثمة زوار قدموا من الهند. وينتظر حتى يخرج نانانتاتي فيسرع مهرولاً إلى الصوان ويلتهم شرائح الخبز المخبأة في برطمان زجاجي. ويصر على أن الطعام سيء، لكنه يدخره كجرذ. وكيي نهاب، نوع من القرادة البشرية ربط نفسه إلى مخبأ أفقر مواطنيه. ويرى كيي أنهم ينحدرون من السلالة المغولية الملكية. وهو على استعداد ليمص مؤخرة أي هندوسي مقابل سيجار شيروت من مانيلا وثمن شراب. انتبه، أقول إنها مؤخرة هندوسي وليست مؤخرة أحد الانكليز. ولديه عنوان كل ماخور في باريس ودرجاتها. وهو يحصل على عمولته حتى من حانات العشر فرنكات. ويعرف أقصر الطرق إلى أي مكان تريد الذهاب إليه. وسيسألك أولاً إن كنت تريد أن تذهب بالتاكسي، إن كان الجواب لا سيقترح عليك الباص، وإذا كان هذا أيضاً يكلفك غالياً فالحافلة أو المترو. أو قد يقترح عليك أن يوصلك سيراً على الأقدام لتوفير فرنك أو فرنكين، وهو يعرف حق المعرفة أنكما لا بد ستمران على دكان بيع التبغ في الطريق وأنك ستتلطف وتتكرم وتبتاع لي سيجار شيروت صغير.

كيي مسلٍ نوعاً ما، لأنه ليس لديه أي طموح مهما كان عدا أن ينيك كل ليلة. ويصرف كل بنس يكسبه، وما أقلها، في مراتع الرقص. ومتزوج وله ثمانية أولاد في بومبي، إلا أن هذا لا يمنعه من عرض الزواج على أية وصيفة femme de chambre وتكون هي من البلاهة والسذاجة بحيث تقبل. ولديه غرفة صغيرة في شارع كوندورسيه يدفع إيجاراً لها ستين فرنكاً شهرياً. وقد غطاها بورق الجدران بنفسه. وهو شديد الزهو بها أيضاً. ويستخدم لقلمه حبراً باللون البنفسجي لأنه يدوم أكثر. وهو يلمع حذاءه بنفسه، ويكوي ملابسه الداخلية ويقوم بغسلها. وإذا تفضلت عليه بسيجار شيروت صغير فسوف يدور بك باريس كلها. وإذا توقفت لتتفرج على قميص أو دبوس لربطة العنق تومض عيناه ويقول: "لا تشتريها من هذا المحل،

فهم يطلبون غالياً، سأريك محلاً بسعر أرخص". وقبل أن يتوفر لك الوقت للتفكير في الأمر يطير بك ويضعك أمام واجهة عرض أخرى توجد فيها ربطات العنق والقمصان وأزرار ربطات العنق نفسها ـ ولعله حتى المحل الأول نفسه! لكنك لا تدرك الفرق. وحين يسمع كيبي أنك تريد أن تبتاع شيئاً تنتعش روحه. ويطرح عليك الكثير من الأسئلة ويجرك إلى أماكن عديدة حتى تشعر بالعطش وتطلب منه أن تتناولا مشروباً، وعلى الأثر تكتشف مذهولاً أنك تقف ثانية في محل بيع التبغ ــ وربما بائع التبغ الأول نفسه! ــ وكيبي يقول لك بذاك الصوت الزلق الرفيع :"هل لك أن تتفضل وتتكرم وتشتري لي شيروتاً صغيراً؟". ومهما كان قصدك أن تفعل، حتى وإن كنت فقط تريد أن تنعطف عند الزاوية فسيوفر عليك كيبي هذا العناء. سيدلك كيبي على أقصر الطرق، على أرخص المحلات، على أكبر الوجبات، لأنك مهما فعلت فستمر حتماً على بائع تبغ، وسواء كان هناك ثورة أو إضراب أو حجر صحي فيجب أن يكون كيبي في المولان روج أو الأولومبيا أو الآنج روج حيث تضج الموسيقى.

قبل أيام أحضر لي كتاباً لأقرأه. وكان يحكي عن دعوى قضائية بين رجل دين وناشر صحيفة هندية. فيبدو أن الناشر اتهم رجل الدين بأنه يعيش حياة فاضحة، بل تمادى فاتهمه بأنه عليل. ويقول كيبي لا بد أنه مريض بالجدري الفرنسي الرهيب، لكن نانانتاتي يخالفه ويقول إنه كان السيلان الياباني. فبالنسبة لنانانتاتي على كل شيء أن يحوي قدراً من المبالغة. على أية حال يقول نانانتاتي بمرح:"قل لي من فضلك يا أندري، ماذا يقول هذا الكتاب؟ أنا لا أستطيع قراءته ـ فالقراءة تؤذي ذراعي"، ويقول بعدها، على سبيل تشجيعي:" إنه كتاب رائع يتحدث عن النيك يا أندري. أحضره كيبي لأجلك. فهو لا يفكر إلا في الفتيات. لقد ناك الكثير من الفتيات ــ مثل كريشنا تماماً. إننا لا نؤمن بذاك العمل يا أندري......".

وبعد قليل يأخذني إلى العلية المملوءة بعلب التنك وهراء من الهند ملفوفة بالخيش وورق ناري، يقول لي:" إلى هنا أحضر الفتيات". ثم يضيف بلهجة كئيبة:" إنني لا أحسن النيك يا أندري. لم أعد أخرط الفتيات. أضمهن إليّ

وأقول كلمات. الآن لم أعد أرغب إلا بقول الكلمات". ويصبح من غير الضروري الاستماع إلى المزيد: أنا أعرف أنه سيحكي لي عن ذراعه. أكاد أراه مستلقياً هناك ومفصله المكسور يتدلى من طرف السرير. ويضيف وسط دهشتي قائلاً:" إنني لا أصلح للنيك يا أندري. لم أكن عمري ناكحاً جيداً. أما أخي، فهو رائع! إنه يمارسه ثلاث مرات في اليوم، كل يوم! وكيبي جيداً أيضاً، مثل كريشنا تماماً".

وصار ذهنه الآن مثبتاً على ممارسة النيك. وفي الغرفة الصغيرة من الطابق السفلي حيث يركع عادة أمام الخزانة المفتوحة يشرح لي حاله حين كان ثرياً مع زوجته وأولاده هنا. كان يأخذ زوجته في أيام العطل إلى "بيت الأمم" ويستأجر غرفة لليلة. وكل غرفة مجهزة بطراز مختلف، وأحبت زوجته المكان. "كان مكاناً رائعاً للنيك يا أندري". إنني أعرف كل الغرف.....".

جدران الغرفة الصغيرة التي نجلس فيها مزدحمة بالصور الفوتوغرافية. وهي تمثل كل فرع من فروع العائلة. وكأنها مقطع عرضي للإمبراطورية الهندية. وأغلب أعضاء هذه الشجرة النسبية يبدون كأوراق ذابلة: النساء واهنات وفي عيونهن نظرة ذهول، نظرة هلع، وللرجال نظرة ذكية حادة، كالقردة المثقفة. كلهم في الصورة، عددهم تسعون، مع ثيرانهم البيضاء، وأقراص الروث، وسيقانهم الهزيلة، ونظاراتهم العتيقة الطراز، وفي خلفية الصورة، ترى بين الحين والآخر تربة جافة، أو قوصرة منهارة، أو تمثالاً بذراعين معقوفين، أشبه بحشرة بشرية. وثمة شيء فائق الروعة، شديد التنافر في هذا المعرض حتى أن المرء ليتذكر بلا تردد مجموعة عظيمة من المعابد التي تنتشر من الهيمالايا وحتى أطراف جزيرة سيلان، وهي خليط عظيم من فن العمارة، ذات جمال مذهل وفي الوقت نفسه هائلة الحجم، ضخمة بشكل قبيح لأن الخصوبة التي تهتاج وتثور في أعداد هائلة من تشعبات التصميم الفني تبدو كأنها استنفدت تربة الهند ذاتها. وحين ينظر المرء إلى القفير المائج من الأشكال التي تعج بها واجهات المعابد يرتبك من شدة فعالية هؤلاء الناس السمر الوسيمين الذين يمزجون فيوضهم الغامضة في عناق جنسي استمر ثلاثين قرناً أو أكثر. هؤلاء الرجال والنساء الهشون بنظراتهم الثاقبة الذين

يحدقون من أطر صورهم يبدون أشبه بأشباح هزيلة لتلك الأشكال الرجولية القوية، التي تجسدت في الحجر والجص من أقصى الهند إلى أدناها لكي تبقى أساطير الأجيال البطولية التي تتمازج هنا منضفرة أبداً في قلوب قروييهم. ويكفي أن أنظر إلى قطعة من هذه الأحلام الحجرية الرحبة، هذه الصروح المتداعية المتكاسلة المرصعة بالدرر، المتخثرة بالمني الإنساني، حتى تغمرني القدرة على تجسيد أشد تعبيرات شوقهم تملصاً.

غريب خليط المشاعر الغامض هذا الذي يباغتني الآن بينما نانانتاتي يهذر حول أخته التي ماتت وهي تلد. ها هي مرسومة على الجدار، هشة، مذعورة، ذات إثني عشر أو ثلاثة عشر ربيعاً متشبثة بذراع شخص خرف. حين كانت في العاشرة من عمرها وهِبَتْ زوجة إلى هذا المخادع العجوز الذي دفن لتوه خمساً من زوجاته. كان لديها سبعة أولاد، لم يعش منهم إلا واحد. لقد بيعت إلى غوريلا عجوز لكي تبقى اللآلىء في حوزة العائلة. ويصرح نانانتاتي أنها وهي على فراش الموت همست للطبيب قائلة:" لقد تعبت من كل هذا النيك.... لا أريد أن أناك بعد الآن يا دكتور". وبينما هو يتلو علي هذه الحكاية كان يهرش رأسه برصانة بذراعه العليلة، ويقول لي:" إن النيك سيء يا أندري، لكني سأقول لك كلمة ستجعلك محظوظاً، يجب أن ترددها يومياً، مراراً وتكراراً، يجب أن تقولها مليون مرة. إنها أفضل كلمة موجودة يا أندري... رددها معي الآن ..... أووما هارارمووما "

"..... أوومارابوو .... "

"لا يا أندري ... هكذا .... أووماهارارمووما "

".... أوومامبووومبا ..... "

"لا، يا أندري .... هكذا..... "

.... ولكن بسبب الضوء الضاب، والطبع الرديء، والغلاف الممزق، والصفحة المزعزعة، والأصابع المرتجفة، والبراغيث النطاطة، وقمل السرير، والطفاوة على لسانه، وقطرة عينه، والبلغم في حنجرته، والشراب في غالونه، والحكة التي في كفه، وصوت ريحه، وضيق تنفسه، وضبابية إجهاده العقلي، والتقلص اللاإرادي لضميره، وذروة غضبه، وانفجار تدفق شرجه، والنار في

حلقه، ودغدغة ذيله، والجرذان في عليته، والضجيج والغبار في أذنيه. بما إن إحراز أي تقدم يستغرق منه شهراً كاملاً، كان مصمماً على أن يحفظ أكثر من كلمة واحدة في الأسبوع.

أعتقد أنه ما كان بوسعي أن أتخلص من قبضة نانانتاتي لو لم يتدخل القدر. ففي إحدى الأمسيات شاء الحظ أن يطلب مني كيي أن أرافق أحد زبائنه إلى ماخور مجاور. كان الشاب قد قدم لتوه من الهند و لم يكن بمقدوره أن ينفق الكثير من نقوده. كان أحد أتباع غاندي، أحد أعضاء المجموعة الصغيرة التي قامت بمسيرتها التاريخية إلى البحر أثناء الشغب الحاد. ويجب أن أعترف أنه كان تلميذاً مرحاً جداً لغاندي، على الرغم من نذر التقشف التي التزم بها. كان واضحاً أن نظره لم يكن قد وقع على امرأة منذ زمن طويل. وأقصى ما أمكنني عمله لأجله هو أن أوصله حتى شارع لافرييير، لقد كان ككلب يدلي لسانه. ويا له من شيطان صغير تافه، يسربله الغرور من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه! كان يتألق ببدلة مخططة وبيريه، وخيزرانة، وربطة عنق من نوع ويندسور، وابتاع لنفسه قلمي حبر، وكاميرا كوداك، وبعض الألبسة الداخلية المزوقة. والنقود التي كان يصرفها كانت منحة من تجار بومبي الذين أرسلوه إلى انكلترا لينشر تعاليم غاندي.

وما أن وجد لنفسه مربع الآنسة هاملتن حتى بدأ يفقد رباطة جأشه sang - froid. وحين ألفى نفسه محاطاً بسرب من النساء العاريات نظر إلي بذعر. قلت له:"انتقِ واحدة، الاختيار لك". أخذ يتلعثم إلى درجة إنه لم يعد يستطيع النظر إليهن. وغمغم لي وقد احمر بشدة " إنتق لي أنت"، فنظرت إليهن نظرة شاملة بهدوء وانتقيت فتاة هيفاء ممتلئة في كامل نشاطها. جلسنا في غرفة الاستقبال وانتظرنا مجيء الشراب. سألت المدام لماذا لم أختر واحدة لنفسي. وقال الشاب الهندوسي :" نعم، خذ أنت واحدة أيضاً، لا أريد أن أبقى وحدي معها". وعادت الفتيات من جديد واخترت لنفسي واحدة، طويلة، نحيلة لها عينان كئيبتان. وتركنا وحدنا، نحن الأربعة، في غرفة الاستقبال. بعد لحظات اقترب مرافقي الهندوسي مني وهمس بشيء في أذني. قلت:" طبعاً، إذا كانت تعجبك فخذها". وهكذا، رحت أشرح للفتاتين

بارتباك جم يفتقر للباقة أننا نريد أن نباشر. وسرعان ما وجدت أننا ارتكبنا زلة، غير أن صاحبي الشاب كان قد أصبح مرحاً يتصرف بفسوق ولم يعد أمامنا إلا أن نصعد إلى الطابق العلوي بسرعة وتنتهي الأمر كله.

احتللنا غرفتين يفصل بينهما باب. وأعتقد أن زميلي كان ينوي أن يعيد الكرة بعد أن يشبع جوعه الحاد القارص. مهما يكن، ما إن غادرت الفتاتان الغرفة لتهيئة نفسيهما، حتى سمعت قرعاً على الباب، وإذ به يسأل "أين المرحاض، أرجوك؟" ودون أن أنتبه إلى أن الأمر خطير استعجلته ليعملها في مرحاض السيداتbidet . وعادت الفتاتان والمنشفتان في أيديهما وسمعته يقهقه في الغرفة المجاورة.

وبينما أنا أرتدي سروالي الداخلي إذ بي أسمع هرجاً في الغرفة الثانية. الفتاة تصيح وهي تطرده من الغرفة وتنعته بخنزير حقير قذر. وأفشل في تصور ما فعل حتى أثار كل تلك الثورة. وأنصت بانتباه وأنا أقف في مكاني واضعاً إحدى قدمي في البنطلون. إنه يحاول أن يشرح لها بالانكليزية، وهو يرفع صوته شيئاً فشيئاً حتى صار زعيقاً.

وأسمع باباً يصفع وفي اللحظة التالية تندفع المدام كالعاصفة إلى غرفتي، وجهها أحمر بلون الشوندر، ذراعاها تومئان باهتياج، وتصرخ:" يجب أن تخجل من نفسك لأنك أحضرت معك رجلاً كهذا إلى بيتي! إنه همجي .... خنزير .... إنه ...! "وزميلي واقف خلفها، عند الباب، وقد علت وجهه نظرة منتهى الهزيمة. وأسأل "ماذا فعلت؟".

وتزعق المدام:" أتقول ماذا فعل؟ سوف أريك....... تعال معي!" وتقبض على ذراعي وتجرني إلى الغرفة المجاورة، وتصرخ:" أنظر! أنظر!"، وهي تشير إلى الـ bidet .

ويقول لي الفتى الهندوسي:" هيا بنا، فلنخرج من هنا "

"انتظر دقيقة، لا يمكنك أن تخرج بهذه السهولة "

وتقف المدام بالقرب من الـ bidet وهي تدخن وتبصق، وإلى جانبها تقف الفتاتان أيضاً وهما ممسكتان بالمنشفتين. ووقفنا جميعاً ننظر إلى الـ bidetحيث ثمة كتلتان ضخمتان من البراز تعومان فوق الماء. ومالت المدام

ووضعت منشفة فوقه. وناحت قائلة "شيء مريع مريع لم أر في حياتي شيئاً كهذا! يا له من خنزير! خنزير حقير قذر"!

وينظر الفتى الهندوسي إلي لائماً، ويقول:" كان يجب أن تقول لي! لم أكن أعلم أنها لن تغوص. سألتك أين يجب أن أذهب وقلت لي أن أستخدم هذا" وكاد يبكي.

وأخيراً تأخذني المدام جانباً وقد صارت الآن أكثر تعقلا، فقد كان الأمر كله خطأ، على أية حال. ربما يرغب السيدان بالنزول إلى أسفل وطلب كأس أخرى ـ للفتاتين. لقد كان الأمر صاعقاً بالنسبة لهما. إذ ليستا معتادتين على أشياء كهذه، وليت السيدين يتلطفان ويحسبان حساب الوصيفة famme de chambre.... إنه ليس بالأمر المقبول للـ famme de chambre هذه الكومة البشعة. وتهز كتفيها وهي تغمز بعينيها. حادث مؤسف. لكنه حادث. لو ينتظر السيدان هنا بضع لحظات ستحضر الخادمة الشراب بعد قليل. هل يرغب السيدان ببعض الشمبانيا؟ نعم؟

"أريد أن أخرج من هنا" يقول الفتى الهندوسي بصوت واهن. وتقول المدام "لا تكن كثير الابتئاس، لقد انتهى كل شيء. فالأخطاء تحدث أحياناً. في المرة القادمة يجب أن تسأل أين المرحاض" وتتابع حديثها عن المرحاض ـ يبدو أنه يوجد في كل طابق واحد. وحمام أيضاً.

وتقول:" لدى الكثير من الزبائن الانكليز، إنهم جميعاً مهذبون. هل السيد هندوسي؟ الهندوس قوم فاتنون. أذكياء جداً، ووسيمون".

وحين نصل إلى الشارع يكون الشاب الفاتن على وشك أن يبكي. لقد ندم الآن لأنه اشترى البدلة والعصا وأقلام الحبر. ويبدأ بالتحدث عن النذر الثمانية التي التزم بها. وعن كبح حاسة التذوق، إلخ. فأثناء المسيرة إلى داندي كان من المحرم تناول حتى صحن من البوظة. ويحكي لي عن الدولاب الدائر ـ وكيف قلدت المجموعة الصغيرة المسماة ساتيا غراهيست تكريس سيدها. ويتلو علي بفخر كيف مشى إلى جانب السيد وتحدث معه. حتى صرت أتخيل أني في حضور أحد التلاميذ الإثني عشر.

خلال الأيام القليلة التي تلت تقابلنا مرات عديدة، فقد كان عليه أن

ينظم مقابلات صحفية مع رجال الصحافة ويلقي المحاضرات أمام الهندوس الموجودين في باريس. من المذهل رؤية أولئك الشياطين الضعاف الشخصية يتبادلون إلقاء الأوامر على بعض، ومن المذهل أيضاً أن ترى مبلغ جذبهم بكل ما يخص المسائل العملية، وغيرتهم وخداعهم، ومنافساتهم التافهة الدنيئة. وأينما اجتمع عشرة من الهندوس مثلوا الهند بشيعها وانشقاقاتها، بخصوماتها العنصرية واللغوية، والدينية، والسياسية. ويمارسون برهة من الوقت في شخص غاندي معجزة الاتحاد، ولكن حين يغيب يحدث تصدع، انتكاس داخل ذاك الصراع وعماء هو أبرز ما يميز الشعب الهندي.

وصاحبنا الشاب الهندوسي متفائل طبعاً. وقد ذهب إلى أمريكا ولوثه فكر الأميركيين الرخيص، لوثه حوض الاستحمام الكلي الوجود، ومخزن الطُرَف التي تساوي خمسة شلنات وعشرة سنتات، والنشاط الصاخب، والفعالية، والآلية، والأجور العالية، والمكتبات المجانية.... إلخ، إلخ. ومثله الأعلى هو أمركة الهند. وهو ليس مسروراً من هوس غاندي الرجعي. ويهتف "إلى الأمام"، كأحد أعضاء منظمة الشبيبة المسيحية. وبينما أنا أنصت إلى حكاياه عن أميركا أرى مدى سخفنا أن نتوقع من غاندي أن يحقق المعجزة التي تغير مجرى القدر. ليست انكلترا هي عدو الهند، بل أميركا. عدو الهند هو روح الزمن، هو اليد التي لا يمكن كف شرها. لن يفيد شيء في مكافحة هذا الفيروس الذي يسمم العالم برمته. أميركا هي تجسيد للهلاك نفسه، وسوف تجر العالم كله إلى لجة لا قرار لها.

هو يظن أن الأميركيين قوم غاية في السذاجة. ويخبرني عن الملائكة السذج الذين أعانوه هناك ــ عن الصاحبيين، والموحدين، والثيوصوفيين، والمفكرين الجدد، ومجيئيي اليوم السابع.... إلخ. كان يعرف إلى أين يوجه قاربه، هذا الشاب الحاذق، يعرف كيف يجعل الدموع تطفر من عينيه في اللحظة المناسبة، وكيف يتولى أمر مجموعة، ويغوي زوجة الكاهن، وكيف يمارس الحب مع الأم والإبنة في وقت واحد. تنظر إليه فتظنه قديساً. وهو قديس حقاً، بأسلوب حديث، قديس متفسخ، يتحدث بنفس واحد عن الحب، والأخوة، ومغاطس الحمامات، والحفاظ على الصحة العامة، والفعالية

،... إلخ.

وقد خصص الليلة الأخيرة من إقامته في باريس لـ "شؤون النيك". وكان برنامجه ممتلئاً حتى آخره طوال النهار ـ اجتماعات، برقيات، مقابلات، صور للصحف، وداعات مؤثرة، نصيحة للمؤمنين، إلخ، إلخ. وفي وقت الغداء يقرر أن يطرح مشاكله جانباً. ويطلب زجاجة شمبانيا مع الوجبة، ويفرقع اصبعيه مستدعياً "الغرسون" ويكون تصرفه بشكل عام تصرفاً يدل عليه كفلاح متواضع جلف. وبما أنه أشبع فضوله من كل الأماكن الجيدة يقترح علي أن أريه شيئاً أكثر بدائية. ويود أن يذهب إلى مكان رخيص جداً، ويطلب حضور فتاتين أو ثلاث دفعة واحدة. وأقوده على طول بولفار دو لاشابيل محذراً إياه أن ينتبه إلى محفظته. وفي منطقة أوبرفيير نهبط إلى حانة رخيصة وفي الحال نجد بين أيدينا سرباً منهن. خلال دقائق كان يراقص غانية عارية، شقراء، ضخمة تعلو التغضنات أسفل خديها. وأرى خلفيتها تنعكس مرات عديدة في المرايا المحيطة بالمكان ـ وأصابعه النحيلة السمراء تتشبث بها بإصرار. الطاولة ممتلئة بزجاجات البيرة، والبيانو الميكانيكي يئز ويلهث. والفتيات العاطلات جالسات على المقاعد الجلدية بهدوء، يهرشن أنفسهن بسلام، مثل عائلة من الشمبانزي. ويسود نوع من جو جحيمي مخفف ونغمة عنف مكبوتة، وكأن الانفجار المنتظر يتطلب حدوث مجرد تفصيل تافه، شيء مجهري لكنه غير متعمد على الاطلاق، وغير متوقع أبداً. في هذا الجو من شبه الحلم الذي يسمح للمرء بالمشاركة في حدث ما والبقاء في الوقت نفسه بعيداً كل البعد، بدأ التفصيل الدقيق المفقود يتخثر بغموض ولكن بشكل لافت للنظر، ويتخذ شكلاً عجيباً صافياً، كالصقيع المتشكل على زجاج النافذة. وكما الحال مع هذه الأشكال الجليدية الشديدة الغرابة، الحرة تماماً والرائعة في تصميمها، والمقيدة مع ذلك بأشد القوانين صرامة، كذلك بدا هذا الاحساس الذي بدأ يتكون داخلي يُظهر خضوعه للقوانين المحتومة. كان كياني كله يستجيب لما تمليه عليه بيئة لم يختبرها من قبل، وبدا أن ذاتي تتقلص وتتكثف، وتنكص مبتعدة عن الحدود التافهة الاعتيادية للجسد الذي لا يعرف حده الخارجي إلا تغيرات أطراف الأعصاب.

وكلما زادت صلابة جوهري وثراؤه ، زادت رهافة وتطرف الحقيقة القريبة الملموسة التي عُصِرتُ منها. وبالدرجة نفسها التي ازددتُ فيها متانة على متانة تضخّم المشهد الممتد أمامي. وهكذا رُسِمَتْ حالة التوتر بدقة حتى إن دخول ذرة أجنبية واحدة، ولو مجهرية، كان جديراً بتبديد كل شيء. لقد خبرت ربما في جزء من اللحظة ذاك النقاء التام الذي، كما يقال، لا يوهب إلا لعصابي. في تلك اللحظة فقدت وهْمي الزمان والمكان كلياً: وفي الوقت نفسه نشر العالم صراعه على طول أوج ليس له محور. في مثل هذا النوع من أبدية الزند الشعري hair-trigger شعرت أن كل شيء مبرر، مبرر بشكل مطلق، شعرت بالحروب الناشبة داخلي التي خلفت هذه الفوضى والدمار، شعرت بالجرائم التي كانت تغلي هنا وستظهر غداً في العناوين الرئيسية الصارخة، شعرت بالبؤس يجرش نفسه بالمدقة والهاون، البؤس الطويل المتبلد الذي يقطر من المناديل القذرة. وفي هاجرة الزمن لا وجود للظلم: لا يوجد إلا شعر الحركة الذي يخلق وهم الحقيقة والدراما. ليت بإمكان المرء أن يقابل المطلق في أية لحظة، في أي مكان، وجهاً لوجه، بحيث أن ذاك التعاطف العظيم الذي يضفي على رجال أمثال غوتاما واليسوع القداسة، يتجمد، والأمر الهائل ليس في أن الرجال خلقوا من تلة الروث هذه وروداً، بل هو لسبب أو لآخر، إرادتهم للورود. إن الانسان يبحث لسبب أو لآخر عن المعجزة، ولكي يحققها سوف يخوض في بحر من الدماء. سوف يتمرغ في الأفكار، ويمسخ نفسه إلى شبح إذا استطاع ولو لمرة واحدة وللحظة واحدة من حياته أن يغمض عينيه دون شناعة الواقع. كل شيء اختبر ـ الخزي، الذل، الفقر، الحرب، الجريمة، "الملل" ـ على أمل أن يظهر شيء بين ليلة وضحاها، معجزة تجعل الحياة محتملة. وثمة عدّاد يجري طول الوقت في الداخل ولا يمكن ليد أن تصل إليه لتوقفه. وطول الوقت هناك من يأكل خبز الحياة يشرب خمرها، وهو كاهن يشبه صرصاراً سميناً قذراً، يختفي عن العيون في القبو وهو يعبه، بينما هناك في الأعلى وعلى نور مصباح الشارع يلمس خبز قربان كاذب الشفاه والدم شاحب كالماء. ولا تنبثق من العذاب والبؤس الأبديين أية معجزة، ولا أوهى أثر للإرتياح. مجرد أفكار، أفكار سقيمة هزيلة يجب أن تسمن بمذبحة، أفكار تنبثق كالصفراء، كأحشاء جثة خنزير منتفخة

مبقورة.

أقول في نفسي يا لها من معجزة إذا اتضح للإنسان الذي يشهدها على الدوام أنها ليست أكثر من كتلتي الغائط الهائلتين اللتين أسقطهما التلميذ المخلص في الـ bidet . ماذا لو ظهر فجأة بعد أن تكون المأدبة قد مدت والصنوج قد دوت، ودون سابق إنذار، فوق الطبق الكبير الفضي حيث يمكن حتى للأعمى أن يرى أنه لا يوجد أكثر، ولا أقل، من كتلتي خراء ضخمتين. وأعتقد أن هذا سيكون أكثر إعجازاً من كل ما يمكن للإنسان أن يصبو إليه. سيكون معجزاً لأن أحداً لن يكون قد حلم به. سيكون أكثر إعجازاً حتى من أشد الأحلام ضراوة لأن أي إنسان يمكن أن يتصور الإمكانية ولا أحد فعل ذلك، وربما لن يفعل أحد ذلك مرة أخرى.

وبشكل ما كان لإدراك فقدان كل أمل تأثير مفيد عليّ. ولطالما تطلعت، طوال أسابيع وشهور وسنين، بل وطوال حياتي والحق يقال ، لحدوث أمر ما، حدث جوهري يغير حياتي كلها، والآن وقد ألهمني يأسي التام من كل شيء، صرت أشعر فجأة بالارتياح، أشعر وكأن عبءً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي. وفي الصباح فسخت شركتي مع الهندوسي، بعد أن أقنعته بنفحي بضعة فرنكات تكفيني أجرة غرفة. وقررت وأنا متوجه إلى مونبرناس أن أدع نفسي تنجرف مع المد، أن لا أبدي أدنى مقاومة في وجه القدر، بأي شكل تبدى لي، ولم يكن أي مما حدث لي حتى ذلك الحين كافياً لتحطيمي، لم يتحطم إلا أوهامي. أما أنا فبقيت سليماً معافى. وكان العالم كله معافى. غداً قد تحدث ثورة، أو يحل وباء، أو يقع زلزال، قد لا يبقى غداً مخلوق واحد يمكن الركون إليه طلباً للتعاطف، أو للمساعدة، أو للإخلاص. بدا لي أن الكارثة العظمى قد تكشّفت، وأنه لم يعد بإمكاني أن أكون أكثر وحدانية مني في هذه اللحظة. قررت أن لا أتعلق بأي شيء، أن لا أتوقع أي شيء، وأن أعيش منذ الآن كحيوان، كبهيمة مفترسة، كقرصان، كنهاب. وحتى لو أعلنت الحرب، وقدر لي أن أموت، لتناولت حربة وغرزتها، غرزتها كلها حتى مقبضها. وإذا كان الاغتصاب هو دستور هذا الزمان، فسأغتصب، وبكل عنف. وفي هذه اللحظة بالذات، في صباح يوم جديد هادىء، أليست

الأرض مصابة بدوار الجريمة والألم الممض؟ هل تغيّر عنصر واحد من طبيعة الإنسان، فعلياً، جوهرياً، خلال مسيرة التاريخ المتواصلة؟ كل ما حدث هو أن الإنسان قد خلِعَ في ما يسميه أفضل جزء من طبيعته. وها هو يجد نفسه من جديد عند آخر حدود روحانيته عارياً كالهمجيين. وعندما سيجد الله، كما فعل من قبل، سيخرج نظيفاً : هيكلاً عظمياً. وعلى الإنسان أن يحفر لنفسه ثانية جحراً في الحياة حتى يربي لحماً جديداً. وعلى الكلمة أن تصبح لحماً، فالروح ظمأى. سأنقضّ وأفترس كل كسرة تقع عليها عيناي. فإذا كان العيش هو أسمى شيء سأعيش، حتى ولو صرت من آكلي اللحم البشري. إنني حتى الآن أحاول أن أنقذ مخبئي الثمين، أحاول الاحتفاظ بقطع اللحم القليلة التي تستر عظامي. لقد سئمت هذا، وصلت إلى آخر حدود الاحتمال. ظهري ملتصق بالجدار، ولم يعد باستطاعتي أن أتراجع أكثر. أنا ميت في عرف التاريخ. وإذا كان ثمة إمكانية للتجاوز فيجب أن أرتد مسرعاً إلى الخلف. لقد وجدت الله، لكنه ليس كافياً. إنني ميت روحياً فقط، أما جسدياً فأنا حي. وأما أخلاقياً فأنا حر. والعالم الذي غادرته هو متحف للحيوانات المحنطة. الصبح ينبلج على عالم جديد، عالم همجي تحوم فيه الأرواح العجفاء وهي تحمل أنياباً حادة. إن كنتُ ضبعاً فأنا ضبع واهن جائع: وأنا بصدد تسمين نفسي.

في الواحدة والنصف عرَّجتُ على فان نوردن، حسب اتفاقنا. وقد حذرني من أنه إذا لم يجب فهذا يعني أنه نائم مع إحداهن، ربما مع عاهرته الجيورجية.

على أية حال، كان هناك، مندساً في فراشه بكل ارتياح، ولكن بروح قلقة كالمعتاد. ويستيقظ وهو يلعن نفسه، أو يلعن الوظيفة، أو يلعن الحياة. يستيقظ وهو سئم كل السأم ومحبط، متألم لأنه لم يمت أثناء الليل.

أجلس قرب النافذة وأنفحه بما أستطيع من الشجاعة. ويا له من عمل ممل. إنه بحاجة لمن يلاطفه ليخرج من السرير. في أوقات الصباح ـ ويعني بأوقات الصباح الفترة الواقعة ما بين الساعة الواحدة والخامسة بعد الظهر ـ إذن في أوقات الصباح ينغمس في أحلام اليقظة. وغالباً ما يحلم بالماضي. "بعاهراته". يحاول أن يتذكر كيف كن يشعرن، وما قلن له في لحظات معينة حرجة، وأين ضاجعهن، إلخ. وبينما هو مستلق هكذا، يزمجر ويلعن، يتلاعب بأصابعه بتلك الطريقة الغريبة الدالة على الملل، وكأنه يريد أن يعطي انطباعاً بأن تقززه هو أعظم من أن تعبر عنه الكلمات. وعلى قائمة السرير تتعلق حقيبة نضح يحتفظ بها لحالات الطوارىء ـ من أجل "العذارى" اللواتي يتعقبهن كأنه بوليس سري. وحتى بعد أن يضاجع إحدى تلك المخلوقات الأسطورية فسيظل يشير إليها على أنها عذراء، ولا يذكرها مرة باسمها. فهو يقول "عذرائي" تماماً بالنبرة نفسها التي يقول فيها "عاهرتي الجيورجية". وحين يذهب إلى المرحاض يقول:" إذا اتصلت عاهرتي الجيورجية قل لها أن تنتظر. قل لها إني قلت هذا. واسمع، يمكنك أن تحصل عليها إذا أردت، لقد سئمتها".

يلقي نظرة على أحوال الطقس ويطلق تنهيدة عميقة. فإذا كانت السماء ممطرة يقول "لعن الله هذا الطقس المنيك، إنه يمرضني". وإذا كانت الشمس مشرقة براقة يقول:" لعن الله هذه الشمس المنيوكة إنها تعميني". وفجأة وبينما هو يحلق ذقنه يتذكر أنه لا توجد منشفة نظيفة "لعن الله هذا الفندق المنيك، إنهم أبخل من أن يعطوك منشفة نظيفة كل يوم". ومهما كان يفعل وأينما يذهب فالأحوال بالنسبة له ليست على ما يرام. فالبلد المنيك، أو العمل المنيك، أو حتى العاهرة المنيوكة هي التي تضعه على حافة الجنون.

ويقول وهو يغرغر حنجرته:" أسناني كلها عفنة، بسبب ذاك الخبز المنيك الذي يرسلونه إلينا هنا". ويفتح فمه حتى آخره ويشد شفته السفلى إلى أسفل " أترى هذا؟ بالأمس خلعت ستة من أسناني. وقريباً علي أن أضع طقماً جديداً. هذا ما تحصل عليه من كسب عيشك. عندما كنت متبطلاً عربيداً كانت كل أسناني سليمة، وعيناي متألقتين وصافيتين. أنظر إلي الآن! إنها لمعجزة أن أتمكن من اجتذاب عاهرة حتى الآن. يا إلهي، إن ما أرغب فيه هو أن أقع على عاهرة ثرية ـ كما فعل ذاك الأير الصغير الذكي كارل..... هل أراك الرسائل التي تبعثها إليه؟ من هي، هل تعرف؟ إنه يرفض أن يخبرني باسمها، ابن الحرام.... يخاف أن أخطفها منه". ويغرغر حنجرته ثانية ويلقي نظرة طويلة على التجاويف، ويقول لي بحزن:" أنت محظوظ، لديك أصدقاء على الأقل. ليس لدي أي صديق، عدا الأير الصغير الذكي الذي يثير حفيظتي بالحديث عن عاهرته الثرية".

ويقول:" اسمع، هل تصادفَ وتعرَّفتَ على عاهرة اسمها نورما؟ إنها تتجول طوال النهار حول مقهى الدوم. أعتقد أنها شاذة. أحضرتها إلى هنا البارحة، ودغدغت مؤخرتها. لم تسمح لي بفعل أي شيء. طرحتها على السرير.... بل ونزعت عنها ثيابها.... ولكن بعد ذلك شعرت بالغثيان. يا إلهي، لم أعد أطيق تحمل الصراع على هذا الشكل بعد الآن. فالأمر لا يستحق. فإما أن يفعلن ما تريد أو لا يفعلن. من الهبل إضاعة الوقت في مصارعتهن. ففي الوقت الذي تتعارك فيه مع عاهرة حقيرة كهذه تكون هناك دزينة غيرها يتحرقن شوقاً حتى الموت لتطرحهن، هذه حقيقة. كلهن

يأتين إلى هنا للمضاجعة. يعتقدن أن المكان هنا أثيم. البلهـاوات المسكينات! بعضهن مدرسات مـن أقصى الغـرب، وهـن عـذراوات فعـلاً..... صدقـي! ويجلسن طوال النهار على المرحاض يفكـرن بهـذا الأمـر.... ولا داعـي لأن تقوم بأي مجهود معهن فهن متحرقات لإتمام كل شيء. قبل أيام أتيت بـامرأة متزوجة لم تكن قد نيكت منذ سـتة أشـهر. أتتصـور هـذا؟ يـا إلهـي، كـانت حامية! ظننت أنها ستنزع أيري مـني. وراحـت تتـأوه طـوال الوقـت وهـي تهمهم "ألا تريد؟ ألا تريد؟" وظلت تكرر هذا، كالمعتوهة. وهل تعرف مـاذا أرادت هذه العاهرة أن تفعل؟ أرادت أن تقيم عندي هنا. تصورا وسألتني إن كنت أحبهـا؟ إنـني حتـى لم أكـن أعـرف اسمهـا. ولا أتعـرف علـى أسمائهن أبداً.... ولا أريد ذلك. والمتزوجات! يـا يسـوع، لـو رأيـت كـل المومسـات المتزوجات اللواتي كنت أحضرهن إلى هنا لطرحت كل أوهامك. إنهن أسوأ من العذراوات، أولائي المتزوجـات. لا يـتركن لـك مجـالاً لتبـدأ الأمـر ــ بـل يخرجنه منك بأنفسهن. أما الحب فيتحدثن عنه فيما بعد. شيء مقـزز. أؤكـد لك أني بدأت أكره المومسات".

ويعود إلى النظر من النافذة. المطر يهطـل رذاذاً. وهـو يهطـل علـى هـذا الشكل منذ خمسة أيام. "هل ستذهـب اليوم إلى الـدوم، يـا جـو؟" وأنـا أطلـق عليه اسم جو لأنه أيضاً يناديني باسم جو. وحـين يكـون كـارل معنـا يكـون أيضاً اسمه جو. الكل يسمى جو لأن هذا أسـهل. وهـي أيضـاً طريقـة مسـلية لنتذكر أن لا نتناول الأمور بكثير مـن الجدية. مهمـا يكـن، جـو لا يريـد أن يذهب إلى الدوم ـ فهو مدين هناك بكثير من النقود. بل يريـد أن يذهـب إلى الكوبول. يريد أن يتمشى قليلاً.

"لكنها تمطر يا جو".

"أعرف، ولكن إلى الجحيم. يجب أن أنفّذ برنامجي المقرَّر. يجب أن أطرح القذارة من بطني". حين يقول هذا ينتابني انطباع بأن العالم كله مغلف داخـل بطنه، وأنه يتعفن هناك.

وبينما هو يرتدي ثيابه إذا به يعود من جديد إلى حالة شـبه غيبوبـة. يقـف في مكانه واضعاً إحدى ذراعيه في كمّ معطفه وقبعته يحملها على مؤخرته ويبدأ

بالحلم بصوت عال ـ عن الريفيرا، والشمس، وتبديد الحياة بالتكاسل. يقول:"كل ما أطلبه من الحياة هو حزمة كتب، وحزمة أحلام، وحزمة عاهرات". وبينما هو يغمغم بهذا حالماً ينظر إلي مع ابتسامة غاية في الرقة والغواية، يقول لي:" أتعجبك هذه الابتسامة؟"، ثم يتابع مبدياً تقززه " يا يسوع، ليتني أستطيع أن أعثر على عاهرة ثرية لأبتسم لها هكذا"!.

ثم يقول بمزاج مفعم بالقلق "عاهرة ثرية وحدها تستطيع إنقاذي الآن، إن المرء منا بات ملولاً من طول الجري متنقلاً من عاهرة إلى أخرى. أصبح الأمر يحدث آلياً. والمشكلة هي، في الواقع، أنني لا أستطيع أن أعشق. إنني غارق في ذاتيتي. وكل ما في الأمر أن النساء يساعدنني فقط على الحلم. وهذه رذيلة، كمعاقرة الخمر أو تدخين الآفيون. صار يجب أن أحصل على واحدة كل يوم، وإذا لم أنجح أصاب باكتئاب مرضي. إنني أغلي في التفكير. أحياناً أذهل من نفسي، وسرعتي في نيل حظوة ـ وما أقل ما يعنيه لي. إنني أقوم به بشكل آلي. أحياناً وأنا أبعد ما أكون عن التفكير فيهن، ألاحظ فجأة أن ثمة امرأة تنظر إلي وثم، بانغو! ويبدأ كل شيء من جديد. وقبل أن أعي حقيقة ما أفعل أكون قد أحضرتها إلى غرفتي. حتى إنني لا أذكر ما أقوله لهن. أجلبهن إلى الغرفة، أداعب مؤخراتهن وقبل أن أعرف ماذا يجري يكون كل شيء قد انتهى. إنه كالحلم.... أتفهم ما أعني؟".

وهو لا يحتمل الفرنسيات. لا يطيقهن. فإما إنهن يردن نقوداً أو يرغبن في الزواج. أما في أعماقهن فجميعهن عاهرات. أنا أفضل العراك مع عذراء. هكذايقول:" فهن يزودنك بقليل من الوهم. على الأقل يثرن قتالاً". والأمر نفسه حين ننظر عبر المصطبة، فلا تكاد توجد عاهرة واحدة على مرمى النظر لم ينكها في وقت أو آخر. ويشير إليهن واحدة بعد أخرى وهو يقف على البار، ويمر عليهن وكأنه يشرّحهن، ويصف خصالهن ونقائصهن، ويقول "كلهن باردات"، وبعدها يبدأ بتحريك يديه، مفكراً في العذراوات الرائعات النضرات اللواتي يتحرقن اشتياقاً.

ووسط أحلام يقظته يكبح نفسه فجأة، ويشير، قابضاً على ذراعي بقوة وقد اهتاج، إلى امرأة ضخمة كالحوت تكاد تجلس على مقعد. ويزمجر "ها

هي عاهرتي الدانماركية، أترى مؤخرتها؟ دانماركية تماماً. آه، كم تحب هذه المرأة النيك! إنها تتوسل إلي كي أفعله معها. تعال من هنا... والآن انظر إليها، من هذه الناحية. انظر إلى تلك المؤخرة. أترى؟ هائلة. سأخبرك بشيء، حين تمتطيني لا أكاد أتمكن من إحاطتها بذراعي. إنها كفيلة بتغطية العالم كله. تجعلني أشعر وكأنني بقة صغيرة تزحف داخلها. لا أدري لماذا وقعتُ صريعها ـ أعتقد أن تلك المؤخرة هي السبب. تشبه شيئاً عظيم التنافر. ويا للتغضنات التي فيها! لا يمكنك نسيان مؤخرة مثلها. هذه حقيقة.... حقيقة صلبة. أما الأخريات، فإما أنهن يُسئِمنكَ، أو يمنحنك برهة وهم، أما هذه ـ بمؤخرتها! ـ زووي، لا يمكن استبعادها..... كأنك تأوي إلى السرير وتضع تمثالاً فوقك".

ويبدو أن العاهرة الدانماركية هزته بعنف. والآن تخلص من كل كسله. عيناه جاحظتان من رأسه. وطبعاً صار الشيء بالشيء يذكر. يريد أن يخرج من الفندق المنيك لأن الضجيج يزعجه. يريد أيضاً أن يكتب كتاباً عن مونبرناس.... أريد أن أكتب حياتي، أفكاري. أريد أن أنفض الأقذار من بطني... اسمع، إحصل على تلك المرأة التي هناك لقد سبق وحصلت أنا عليها منذ فترة. كانت تقطن قرب ليزال. عاهرة مضحكة. تستلقي على طرف السرير وترفع ثوبها. هل جربت هذه الطريقة؟ لا بأس بها. إنها حتى لم تستحثني. بل اكتفت بالاستلقاء على ظهرها وهي تعبث بقبعتها بينما زحفت عليها. وحين قذفت قالت بنبرة ملول ـ" هل انتهيت؟" وكأن الأمر سيان لديها. وطبعاً الأمر سيان، أعرف هذا الشيء اللعين تماماً...... ولكن يا للطريقة الباردة التي تتصرف بها.... تعجبني حقاً... مذهلة، أتعلم هذا؟ وحين تذهب لتنظف نفسها تبدأ بالغناء. وأثناء خروجها من الفندق تكون لا تزال تغني. وحتى إنها لا تقول !au revoir وترحل وهي تهز قبعتها وتهمهم كأنها تحدث نفسها. هذه عاهرة تلائمك! تقضي معها مضاجعة جيدة. أعتقد أني أفضلها على عذرائي. ثمة نكهة فسق في خرط امرأة لا تولي الأمر أية أهمية. إنها تحمّي دمك.....، وبعدئذ، بعد لحظة تأمل يتابع ـ" هل تتصور كيف يمكن أن تكون لو أن لها أي مشاعر؟".

ويقول " اسمع، أريدك أن تأتي إلى النادي معي غداً بعد الظهر.... ثمة حفلة راقصة "

"غداً لا أستطيع يا جو. وعدتُ كارل أن أساعده في.... "

"اسمع، انس هذا الأير! أريدك أن تقدم لي معروفاً. وهو ما يلي " - ويبدأ بتحريك يديه من جديد. " لدي عاهرة أحتفظ بها جانباً.... وعدت أن تقضي معي الليلة. غير أني لم أنسجم معها بعد. في الواقع، ترافقها أمها.... رسامة خرية، كلما تقابلنا تعض أذني حتى تكاد تخلعها. وأعتقد أن الحقيقة هي أن الأم غيور. ولا أعتقد أنها تمانع إن ضاجعتُها أولاً. أنت تفهم الوضع.... مهما يكن، لا أظن أنك ترفض أن تأخذ الأم.... ليست سيئة كثيراً....ولو لم أر الابنة لفكرت بها. الابنة جميلة وصغيرة، ونضرة، أتفهم ما أعني؟ يفوح منها عبق النظافة.... "

"اسمع يا جو، الأفضل أن تجد غيري.... "

"أوه، لا تفهم الأمر هكذا! أعرف كيف تشعر. إنني أطلب منك معروفاً صغيراً تقدمه لي. لا أعرف كيف أتخلص من الدجاجة العجوز. فكرت أول الأمر في أن أسكر ثم أخرقها - ولكن لا أعتقد أن هذا يعجب الصغرى. إنهن عاطفيات أيضاً. قدمتا من مينيسوتا أو ما شابه. على أية حال، تعال إلي غداً وأيقظني، ألا تفعل؟ وإلا بقيت نائماً. ثم، أريدك أن تساعدني في إيجاد غرفة. أنت تعرف كم أنا بائس. جد لي غرفة في شارع هادىء، في مكان قريب من هنا. يجب أن أبقى في هذا الجوار.... لدي سمعة طيبة هنا. اسمع، عدني أن تفعل هذا من أجلي، وسأعزمك على وجبة بين الحين والآخر. تعال في كل الأحوال، لأنني أكاد أجن وأنا أتحدث مع أولائي العاهرات الغبيات. أريد أن أتحدث معك عن هيفلوك أليس. يا يسوع، لقد استعرت الكتاب منذ ثلاثة أسابيع و لم أنظر فيه حتى الآن. المرء يتعفن هنا. أتصدق أني لم أزر اللوفر حتى الآن - ولا الكوميدي فرانسيز. هل يستحق الأمر الذهاب إلى تلك الأماكن؟ أظن أنها تبقى أشياء تسلب لبك. ماذا تفعل بنفسك طوال النهار؟ ألا تمل؟ ماذا تفعل لتحصل على مضاجعة؟ اسمع ... اقترب! لا تهرب الآن.... أنا وحيد. أتعلم - إذا استمر الحال على هذا المنوال

عاماً آخر سأجن. يجب أن أخرج من هذا البلد المنيك. لا شيء يلائمني هنـا. أعرف أن هذا الأمر أضحى قذرا الآن، في أميركا، ولكن سيان..... إن المـرء يصبح شاذاً هنا... كل أولئك الخروات الحقراء الجالسين على مؤخراتهـم طوال النهار يتبجحون بعملهم ولا أحـد منهـم يسـاوي قـذارة عفنـة. كلهـم فاشلون ـ لهذا يأتون إلى هنا. إسمع يا جو، أما شعرت أبداً بالحنين إلى الوطن؟ أنت شاب غريب.... يبدو أن المكان يعجبك. ماذا يعجبك فيـه؟ .... ليتـك تخبرني. أتمنى من المسيح أن يجعلني أكف عن التفكير في نفسي. أنا مشوّه مـن الداخل. كأن ثمة عقدة هناك .... إسمع، أعلم أني أسبب لـك السـأم، ولكـن يجب أن أتحـدث مـع شـخص مـا. لا أستطيع أن أتحـدث مـع شـبان الطـابق العلوي..... أتعرف ماذا يشبه أولاد الحرام أولئك..... إنهم جميعـاً يسـلكون دروباً ملتوية. وكارل، الأير الصغير، أناني لعين. أما أنا فذاتي، ولكـن لسـت أنانياً. وثمة فرق. أنا عصابي على ما أعتقد. لا أتوقف عن التفكير في نفسـي. هذا لا يعني أني مترفع .... ببساطة لا أسـتطيع التفكـير في شـيء آخـر، هـذا كل شيء. لو أتمكن من عشق امرأة فقد يساعدني هذا قليـلاً. لكـني لا أجـد امرأة تثير اهتمامي. أنا مشـوش، ألا توافقـني؟ مـاذا تنصحـني أن أفعـل؟ مـاذا تفعل لو كنت مكـاني؟ إسمـع، لا أريـد أن أحتجـزك أكـثر مـن هـذا، ولكـن أيقظني غداً ـ في الواحدة والنصف ـ هل تفعل؟ وسوف أنفحـك مبلغـاً زائـداً إذا لمعت لي حذائي. واسمع، إذا كان لديك قميص إضافي نظيف أحضـره لي، هل تفعل؟ اللعنة، إنني أطحن خصيتيّ بهذا العمل، ولا يتيـح لي شـراء قميـص نظيف. لقد حشرونا هنا كعصبة مـن الزنـوج. آه، حسـن، اللعنـة! سـأذهب لأتمشى..... لأخلص بطني من الأقذار. لا تنس، غداً"!.

وتستمر مراسلتنا للعاهرة الثرية ايرين طوال سـتة أشـهر أو أكـثر. ومنـذ وقت قريب وأنا ألح على كارل كل يوم ليوصل المسألة إلى ذروتها، لأنـه مـا دام الأمر يتعلق بايرين فإنه سيستمر إلى الأبد. وخلال الأيـام القليلـة الأخـيرة تبادلنا كمية هائلة من الرسائل، والأخيرة منها كانت بطـول أربعـين صفحـة، مكتوبة بثلاث لغات. كانت عبـارة عـن مقتطفـات ـ أطـراف مـن روايـات لرابليـه وبـترونيوس ـ باختصـار، هلكنـا. وأخـيراً تقـرر ايريـن أن تخـرج مـن قوقعتها. وتصل رسالة تحدد فيها موعداً في فندقها. ويتبول كارل في ثيابه. أن

تكتب رسالة إلى امرأة لا تعرفها شيء، وأن تذهب إليها وتمارس معها الجنس شيء آخر تماماً. وفي آخر لحظة يروح يقرقر في أذني حتى لأكاد أخشى أني يجب أن أحل محله. وحين خرج من التاكسي أمام فندقها أخذ يرتجف حتى أني أخذته لنتمشى قليلاً. كان قد تناول لتوه كأسين من البرونو، ولكن لا يبدو أنه كان لهما أي تأثير عليه. وكان مرأى الفندق وحده كافياً لتحطيمه: وهو أحد تلك الأبنية المغالية في مظهرها، فيه ردهة هائلة الحجم وفارغة تجلس فيها النساء الإنكليزيات ساعات طوال وعلى وجوههن نظرة خاوية. ولكي أضمن أنه لن يهرب وقفت جانباً بينما تكلم الحمال في الهاتف معلناً وصوله. كانت ايرين موجودة، تنتظره. وحين دخل المصعد نظر إليّ نظرة أخيرة يائسة، استغاثة بكماء كالتي يحملها كلب حين تضع الأنشوطة حول رقبته. واجتزت الباب الدوار وأنا أفكر بفان نوردن......

أعود إلى الفندق وأنتظر مكالمة هاتفية. ليس لديه من الوقت إلا ساعة وقد وعدني بإبلاغي النتائج قبل عودته إلى العمل. وأنظر إلى مسودة الرسالة التي أرسلناها إليها سوية. وأحاول أن أتخيل الوضع كما هو فعلاً، لكني أعجز. رسائلها أفضل من رسائلنا بكثير ـ فهي صادقة، وهذا واضح. والآن يكون كل منهما قد تشبث بالآخر. وأتساءل إن كان لا يزال يتبول في ثيابه.

ويرن الهاتف. يبدو صوته غريباً، يصر صريراً، كأنه خائف ومتهلل في الوقت نفسه. ويطلب مني أن أحل محله في المكتب. "قل لابن الحرام أي عذر! قل له أني أموت... "!

"إسمع يا كارل... ألا تخبرني....؟ "

"مرحباً! أنت هنري ميللر؟" وأسمع صوت امرأة. إنها ايرين. ترحب بي. ويبدو صوتها جميلاً من خلال الهاتف...... جميلاً. وينتابني الرعب لحظة. ولا أدري ماذا أقول لها. أود لو أقول:"اسمعي يا ايرين، أعتقد أنك جميلة.... أظنك رائعة...، أود لو أقول لها شيئاً حقيقياً واحداً، مهما بدا سخيفاً، لأنني بعد أن سمعت صوتها تغير كل شيء. ولكن قبل أن يتاح لي أن ألملم حصافتي

أسمع صوت كارل على الهاتف ثانية يقول بصوته الغريب الصار:" إنها معجبة بك يا جو، لقد أخبرتها كل شيء عنك.... "

في المكتبْ أنقل الخبر إلى فان نوردن. وعندما يحين وقت الاستراحة يجرني جانباً ويبدو مكتئباً منهكاً.

"إذن فهو يلفظ أنفاسه، ذلك الأير الصغير، أليس كذلك؟ اسمع، ما معنى هذا؟ "

وأجيب بهدوء "أعتقد أنه ذهب إلى عاهرته التربة".

"ماذا؟ أتعني أنه ذهب إليها؟" وبدا أنه خرج عن طوره، "اسمع، قل لي أين تقطن؟ ما اسمها؟" وأدعي الجهل، "اسمع، أنت شاب محترم. فبحق الجحيم لماذا لا تشركني في هذا اللهو؟.

ولكي أهدِّئه وعدته أخيراً بأن أخبره بكل شيء حالما أحصل على التفاصيل من كارل. و لم أكن أنا نفسي أحتمل الانتظار حتى أقابل كارل.

ونحو ظهيرة اليوم التالي طرقت بابه. كان قد استيقظ لتوه وهو يضع الصابون على ذقنه. و لم أستطع أن أتكهن بشيء من التعبير المرتسم على وجهه. ولا أعرف حتى إن كان سيخبرني بالحقيقة. الشمس تتدفق من خلال النافذة المفتوحة، والعصافير تزقزق، ومع ذلك لا أعرف كيف بدت الغرفة أكثر قحطاً وجدباً من أي وقت مضى. فالأرضية مبقعة برغوة الصابون، وعلى المنصب منشفتان قذرتان لم تبدلا، ولا أعرف كيف بدا أن كارل أيضاً لم يتغير، مما حيرني أكثر من أي شيء آخر. في هذا الصباح يجب أن يكون العالم كله قد تغير للأسوأ أو للأفضل. المهم أن يتغير، تغيراً جذرياً. ومع ذلك فها هو ذا كارل واقف يرغي الصابون على ذقنه دون أن يطرأ أي تغيير على قسمات وجهه.

ويقول لي :"اجلس .... اجلس هناك على السرير، وستسمع كل ما تريد .... ولكن انتظر أولاً.... انتظر قليلاً"، ويتابع وضع الصابون على ذقنه، ثم يتخذ موساه. بل إنه أبدى ملاحظة عن الماء... مرة أخرى ليس حاراً.

"اسمع يا كارل، أشعر كأني معلق. يمكنك أن تعذبني فيما بعد، إذا أحببت،ولكن قل لي الآن، قل لي شيئاً واحداً... أكان الأمر حسناً أم سيئاً؟.

ويستدير عن المرآة والفرشاة في يده ويمنحني ابتسامة غريبة "انتظر سأخبرك بكل شيء.... "

"هذا يعني أنك فشلت".

ويقول وهو يجر كلماته جراً "لا، لم أفشل، و لم أنجح أيضاً..... بالمناسبة، هل دبرت الأمر في المكتب؟ ماذا قلت لهم؟".

وأرى أن لا فائدة من سحب الكلام منه. عندما سيصبح طيباً ومستعداً سيخبرني بكل شيء. وليس قبل ذلك. وأستلقي على السرير صامتاً وهادئاً. ويتابع هو حلاقة ذقنه.

وإذ به فجأة، ودون سابق إنذار يبدأ بالكلام ـ أولاً بتشتت، ثم بأكثر وأكثر من الوضوح، والتوكيد والتقرير. وهو يصارع ليخرج الكلام، ولكن يبدو مصمماً على أن يحكي كل شيء. ويتصرف وكأنه يزيح عبءً عن ضميره. بل إنه يذكرني بالنظرة التي ألقاها علي وهو يرتقي المصعد. ويبقى على هذا الحال فترة، وكأنما ليلمح إلى أن كل شيء متضمن في تلك البرهة الأخيرة، وكأنه لو كان يتمتع بقدرة تغيير الأشياء، ما كان خطا خارج المصعد أبداً.

حين استأذن بالدخول كانت ترفل في ثوبها الفضفاض، وكان هناك دلو من الشمبانيا، على طاولة الزينة. كان الظلام يغلب على جو الغرفة، وصوتها يرن جميلاً. ويروح يسرد علي جميع التفاصيل حول الغرفة، وزجاجة الشمبانيا وكيف فتحها الغرسون، والضجة التي صدرت عنها، وعن حفيف ثوبها الفضفاض حين اقتربت لترحب به ـ ويخبرني بكل شيء عدا ما أريد سماعه.

كانت الساعة تقترب من الثامنة عندما دخل عليها. في الثامنة والنصف صار عصبياً، يفكر في المكتب، ويقول:" حين اتصلت بك كانت الساعة تقترب من التاسعة، أليس كذلك؟ "

"نعم، تقريباً "

"في الواقع، كنت عصبياً و.... "

"أعرف هذا، استمر..... "

ولا أعرف إن كان يجب أن أصدقه أم لا، وخاصة بعد تلك الرسائل التي لفقناها. بل لا أعرف إن كنت قد سمعته بدقة، لأن ما يخبرني به يبدو عجيباً حقاً. ومع ذلك لا يبدو حقيقياً أيضاً، إذا عرفنا أي نوع من الشبان هو. ومن ثم أتذكر صوته عبر الهاتف، ذاك المزيج الغريب من الخوف والابتهاج. ولكن لماذا لا يبدو الآن أكثر ابتهاجاً؟ إنه يبتسم طوال الوقت، يبتسم كبقة نالت كفايتها. ويعيد القول "كانت الساعة التاسعة حين اتصلت بك، أليس كذلك؟" وأهز رأسي قلقاً. نعم، كانت الساعة التاسعة. وقد تأكد الآن أن الساعة كانت التاسعة لأنه يتذكر أنه نظر إلى ساعته. على أية حال، حين نظر ثانية إلى ساعته كانت العاشرة. في العاشرة كانت مستلقية على الديوان وهي تحمل طيورها البحرية بين يديها. هكذا وصف لي المشهد - قطرة فقطرة. في الحادية عشرة كان كل شيء قد تقرر، وسيهربان، إلى بورنيو. أير في الزوج! إنها لم تحبه على أية حال. وما كانت لتكتب الرسالة الأولى لو لم يكن الزوج عجوزاً بارداً مجرداً من العواطف. "ومن ثم تقول لي: لكن اسمع يا عزيزي، كيف تتأكد من أنك لن تملني؟".

وعند هذا الحد انفجر ضاحكاً. يبدو هذا القول منافياً لعقلي، ولا حيلة لي في هذا.

"وماذا قلت أنت؟".

"وماذا تتوقع مني أن أقول؟ قلت: كيف يمكن لإنسان أن يملّك؟".

ثم أخذ يصف لي ما حدث بعد ذلك، كيف انحنى وقبل ثدييها، وكيف، بعد أن أغرقها بالقبل المحمومة أعادهما إلى الصدّارة، أو يعلم الله ما اسمها. وبعدها شرب كأساً من الشمبانيا.

وقرابة منتصف الليل يصل الغرسون مع البيرة والشطائر شطائر الكافيار. وطوال الوقت، كما يقول، كان يتحرق رغبة بالتبول. وكان قد حصل لديه انتصاب مرة واحدة، ثم تراخى. وطوال الوقت كانت مثانته على وشك الانفجار، لكنه تصور، وهو الأير الصغير الذكي، أن الوضع يستدعي

الكياسة.

في الواحدة والنصف تستقل عربة خيل وتقودهما خلال غابة البوا. و لم يدر بخلده إلا نفكرة واحدة ـ ماذا يفعل ليتبول؟ ويقول لها "أحبك... أعبدك، سأرحل معك إلى حيثما شئت

استنبول، سنغافورة، هونولولو. لكن يجب أن أذهب الآن.... الوقت يتأخر".

يخبرني بكل هذا في غرفته الصغيرة القذرة، التي تتدفق الشمس إليها، والعصافير تزقزق كالمجنونة. ولا أعرف حتى الآن إن كانت جميلة أم لا. هو نفسه لا يعرف، هذا الأبله. يظن أنها ليست جميلة. كانت الغرفة مظلمة ثم هناك تأثير الشمبانيا وتوتر كل أعصابه.

"ولكن يجب أن تعرف شيئاً عنها ـ إلا إذا كان كل كلامك كذبة لعينة"!.

ويقول:" انتظر لحظة، انتظر.... دعني أفكر! لا، لم تكن جميلة. الآن صرت متأكداً. ولها خصلة شعر بيضاء فوق جبينها.... أذكر ذلك. ولكن هذا ليس سيئاً جداً ـ الواقع أني كدت لا أنساها. لا، إنها ذراعاها ـ كانتا نحيلتين.... نحيلتين وهشتين". ويبدأ بالتمشي جيئة وذهاباً. وفجأة يقف جامداً. ويهتف:"ليتها كانت أصغر بعشر سنين! لو كانت أصغر بعشر سنين لتغاضيت عن خصلة الشعر البيضاء.... بل وحتى عن ذراعيها النحيلتين. لكنها عجوز. أتعرف، مع عاهرة كهذه لكل سنة حسابها. في العام القادم لن تكبر سنة واحدة فقط ـ بل عشر سنين. وبعد سنة أخرى ستكبر عشرين سنة. أما أنا فسأبدو أكثر شباباً ـ على الأقل للخمس السنين القادمة.....".

وأقاطعه:"ولكن كيف انتهى الأمر؟".

"هذا كل الأمر...... و لم ينته. وعدتُ أن أراها في يوم الثلاثاء في نحو الساعة الخامسة. الواقع إنه أمر سيء! كان في وجهها تغضنات ستبدو أوضح في ضوء النهار. أظن أنها تريدني أن أنيكها في يوم الثلاثاء. إن النياكة النهارية ـ لا يقوم بها المرء مع عاهرة كهذه. وخاصة في مثل هذا الفندق.

أفضل أن أقوم بها في الليلة التي أكون فيها حراً.... وفي ليلة الثلاثاء لست حراً. وليس هذا كل شيء. فقد وعدتها أن أبعث إليها رسالة حتى ذلك الحين. فكيف سأكتب رسالة الآن؟ ليس لدي ما أقول .... خراء! ليتها كانت أصغر سناً بعشر سنين. هل تظن أن علي أن أرحل معها.... إلى بورنيو أو حيثما شاءت؟ ماذا أفعل بعاهرة ثرية؟ إنني لا أحس إطلاق النار. أخاف البنادق بكل أنواعها. ثم أنها تريدني أن أنيكها ليل نهار.... لن يكون هناك إلا الصيد والنيك طول الوقت.... لن أحتمل هذا"!.

"قد لا يكون الأمر بالسوء الذي تتوقعه. سوف تبتاع لك ربطات عنق وما شابه..... "

"ما رأيك أن تأتي معنا، هه؟ لقد أخبرتها بكل شيء عنك.... "

"هل قلت لها أني فقير؟ هل أخبرتها أني محتاج؟".

"أخبرتها كل شيء. خراء، كل شيء سيكون على ما يرام، فقط لو أنها كانت أصغر بعشر سنين. قالت إنها في نحو الأربعين. وهذا يعني أنها في الخمسين أو الستين. كأنك تنيك أمك.... لا يمكن .... مستحيل".

"لا بد أن يكون فيها جاذبية ما.... قلت أنك قبلت ثدييها".

"وماذا يعني أن أقبل ثدييها؟ ثم إن الظلام كان حالكاً، أؤكد لك".

وبينما هو يزرر بنطاله وقع أحد أزراره. " هل لك أن تبحث لي عنه. هذه البدلة اللعينة تتفكك. إنني ألبسها منذ سبع سنين... و لم أدفع ثمنها بعد. في أحد الأيام كانت بدلة جيدة، أما الآن فهي تفوح قذارة. وتلك العاهرة سوف تشتري لي أيضاً بدلات. وستكون على ذوقي. ولكن هذا ما لا أرغب فيه، أقصد أن أجعل امرأة تنفق عليَّ. لم أفعل هذا مرة في حياتي. هذه فكرتك. أفضل أن أعيش وحيداً. خراء، أليست هذه غرفة مريحة؟ ما عيبها؟ أليست أجمل منظراً من غرفتها؟ لا أحب فندقها الفخم. وأنا ضد فنادق كهذه. قلت لها هذا. فقالت إنه لا يهمها أين تسكن..... وإنها سوف تأتي لتعيش معي، إذا أردت. هل تتصورها وهي تنقل صناديقها الكبيرة وعلب قبعاتها وكل تلك الحثالات التي تجرها وراءها؟ عندها أشياء كثيرة ـ أثواب عديدة وزجاجات وما شابه. ما أشبه غرفتها بمستوصف. إذا جرحت أصبعها

قليلاً فالأمر جلل. ثم إنها يجب أن تخضع للتدليك وتموج شعرها، ويجب أن لا تأكل هذا ولا تأكل ذاك. إسمع يا جو، كان يمكن أن تكون مناسبة لو أنها أصغر قليلاً. يمكن مسامحة عاهرة صغيرة على أي شيء. وليس مطلوباً أن تتمتع بأي قدر من الذكاء. إنهن أفضل بلا ذكاء. أما العاهرة العجوز، حتى وإن كانت لامعة الذكاء، وإن كانت أجمل إمرأة في العالم، فالأمر سيان معها. العاهرة الشابة هي مال موظف. والعاهرة العجوز خسارة تامة. إن كل ما يفعلنه لأجلك هو شراء الأغراض. لكن هذا لا يكسي أذرعهن لحماً ولا يرطب ملتقى أفخاذهن. إيرين لا بأس بها. والحقيقة أظن أنها ستعجبك. فمعك يختلف الوضع. لست مضطراً لمضاجعتها، وقد تعجبك. قد لا تحب تلك الأثواب والزجاجات، لكنك ستتحمل. إنها لن تسئمك، أنا متأكد. بل هي مسلية، لكنها ذابلة، تدياها لا يزالان على ما يرام ـ لكن ذراعيها قلت لها إني سأعرفك بها يوماً ما. تحدثت عنك طويلاً .... لم أعرف ماذا أقول لها. قد تعجبك، خاصة وهي مرتدية ملابسها. لا أدري.....".

"اسمع، أتقول إنها ثرية؟ سوف تعجبني إذن! لا يهمني كم يكون عمرها، ما دامت ليست شمطاء....".

"إنها ليست شمطاء! ما هذا الذي تقوله؟ بل أؤكد لك إنها فاتنة الجمال. حديثها ممتع، وشكلها حسن أيضاً..... ما عدا ذراعيها....".

"لا بأس، إذا كان الأمر على هذا المنوال، سأنيكها أنا ـ إذا كنت لا ترغب بها. قل لها هذا. وكن مهذباً في قولك. فمع امرأة مثلها يجب أن تعالج الأمور ببطء. قدمني إليها ودع الباقي يجري تلقائياً. هيا امطرني بالثناء. تصرف وكأنك تغير .... خراء، ربما نكناها معاً..... وبعد ذلك نذهب إلى أماكن كثيرة ونأكل معاً..... وسوف نتنزه بالسيارة ونصطاد ونرتدي ملابس جميلة. إذا أرادت أن تذهب إلى بورنيو دعها تأخذنا معها. أنا أيضاً لا أحسن الرماية، ولكن لا يهم. وهي أيضاً لا تأبه لهذا الأمر. إن ما تريده هو أن تناك، وفقط. أنت تتكلم عن ذراعيها طوال الوقت. فهل يجب أن تنظر إليهما طوال الوقت؟ أنظر إلى غطاء السرير هذا! أنظر إلى المرآة! أتسمي هذه حياة؟ هل تريد أن تكون مرهفاً كالحشرة؟ أنت لا تستطيع أن تدفع فاتورة

الفندق..... ولديك عملك أيضاً. هذه ليست حياة. لا يهمـــي إن كـانت في السبعين ـ فهي أفضل من هذه الحياة.....".

"إسمع يا حو، نكها من أجلي..... وبعدها سيكون كل شيء علـى مـا يرام. بل وقد أنيكها أنا أحياناً..... في ليلة عطلتي. لقد مرت علي أربعة أيـام منذ أن تغوطت بشكل جيد. أشـعر بشـيء لـزج يلتصـق بـي، كأنهـا حبـات عنب.... "

"ذلك لأنك مصاب بالبواسير، هذا هو السبب".

"وشعري يتسـاقط أيضـاً .... ويجـب أن أزور طبيـب الأسـنان. أشـعر كأني أتفكك. أخبرتها كم أنت فتى طيب..... سـتؤدي لي المعـروف، هـه؟ أنت لست مفرط الرهافة، هه؟ إذا ذهبنا إلى بورنيو لن أصاب بالبواسـير بعـد الآن. بل قد ينشأ عندي شيء آخر.... شيء أكثر سوء.... الحمـى ربمـا.... أو الكوليرا. خراء، الأفضل أن تموت من مرض جيـد كهـذا علـى أن تسـفح حياتك هدراً على ورق الصحف وتصاب بحبات العنـب في مؤخرتـك وتقـع الأزرار من فتحة بنطالك. أود لو أكون ثرياً، حتى ولو لأسبوع واحد فقـط، وبعدها فلأذهب إلى المستشفى مصاباً بمرض رائـع، مـرض قـاتل، وتوضـع لي أزهار في الغرفة وممرضات يتراقصن من حـولي وتنهمـر علـي البرقيـات. حـين تكون ثرياً يعتنون بك جيداً. يغسـلونك بحشـوة مـن القطـن. ويمشـطون لـك شعرك. خراء، أعلم كل هذا. قـد أكـون محظوظـاً ولا أمـوت أبـداً. أو أبقـى معاقاً طوال حياتي.... ربمـا أصبـح مشـلولاً وأضطـر للجلـوس علـى كرسـي متحرك وسأظل موضع عناية علي أي حال.... حتى وإن لم يكـن معـي مـا يكفي من المال. إذا كنت عاجزاً ــ عـاجزاً "حقيقيـاً" ــ فلـن يـتركوك تمـوت جوعاً. وستحصل على سرير نظيف تنام عليـه...... ويغيرون المناشـف كـل يوم. وبهذه الطريقة لا يأبه أحد بك، وخاصة إذا كان لديـك عمـل. يظنـون أن على الإنسان أن يكون سعيداً إذا كان له عمـل ثـابت. مـاذا تفضـل ــ أن تكون معاقاً طـوال حيـاتك، أم أن يسـند إليـك عمـل.... أو أن تـتزوج مـن عاهرة ثرية؟ أرى أنك تفضل أن تتزوج من عاهرة ثرية. أنت لا تفكـر إلا في الطعام. لنفرض أنك تزوجتها ومن ثـم أصبحـت عـاجزاً عـن الحصـول علـى

انتصاب ـ وهذا يحدث أحياناً ـ فماذا ستفعل عندئذ؟ ستكون تحت رحمتها. ستأكل من يدها كجرو صغير. وسيعجبك هذا، أليس كذلك؟ أم لعلك لا تفكر في هذه الأمور؟ أما أنا فأفكر في كل شيء. أفكر في أن البذلات التي سأنتقيها والأماكن التي أحب أن أرتادها، ولكني أفكر أيضاً في الشيء الآخر. وهو الأهم. فما نفع ربطات العنق الرائعة والبذلات الجميلة حين تعجز عن الحصول على انتصاب؟ ولن تتمكن حتى من خيانتها ـ لأنها ستكون في إثرك دائماً. لا، أفضل شيء هو أن تتزوج منها وتصاب بالمرض بعد ذلك مباشرة. على أن يكون السفلس. فلتكن الكوليرا مثلاً، أو حمى صفراء. فإذا حدثت المعجزة وبقيت على قيد الحياة فستقضي البقية الباقية من حياتك معاقاً. وبعدها لن تقلق أبداً بشأن نياكتها، ولن تقلق أيضاً بشأن الإيجار. وقد تبتاع لك كرسياً متحركاً بدواليب مطاطية وشيئاً ما كرافعة أو ما يشبهها. وقد تبقى قادراً على استخدام يديك ـ أقصد بما يكفي لتكتب. أو قد تحصل على سكرتيرة لهذا الغرض. هذا هو الحل الأمثل للكاتب. ماذا يريد المرء من ذراعيه وساقيه؟ إنه لا يحتاج إلى ذراعيه وساقيه في الكتابة. هو بحاجة إلى الأمان... والهدوء.... والحماية. خسارة إن كل أولئك الأبطال الذين يدرجون على كراسيهم المتحركة ليسوا كتاباً. لو يتأكد المرء حين يذهب إلى الحرب أنه لن يفقد قدميه.... لقلت هيا نقيم حرباً غداً. أيري في الأوسمة كلها ـ يمكنهم أن يحتفظوا بها. كل ما أريده هو كرسي متحرك وثلاث وجبات يومياً. وبعدئذ سأنفحهم شيئاً يقرأونه، أولئك الأيور.

في اليوم التالي عند الواحدة والنصف، اتصلت بفان نوردن. كان يوم عطلته، أو ربما ليلة عطلته، وقد ترك كلمة مع كارل يطلب مني فيها أن أساعده على الانتقال هذا اليوم.

وأجده في حال غير عادية من الغم. لم ينم لحظة واحدة طوال الليل. هكذا يخبرني. ثمة شيء يشغل باله، شيء ينهشه. وسرعان ما أعرف هذا الشيء، وهو ينتظر وصولي بفارغ الصبر ليفضي إليّ بما لديه.

ويبدأ حديثه عن كارل:" ذاك الشاب، ذاك الشاب فنان. لقد وصف كل التفاصيل بدقة. أخبرني بها بتلك الدقة التي أعرف أنها مجرد كذبة

لعينة..... لكني لا أستطيع أن أطردها من ذهني. و أنت تعرف كيف يعمل ذهني"

ويقاطع نفسه ليسأل إن كان كارل أخبرني بالحكاية كلها. فهو لا يشك على الإطلاق في احتمال أن يكون كارل قد أخبرني بشيء ثم أخبره بشيء مخالف له. يبدو أنه يظن أن الحكاية قد لفقت خصيصاً لتعذيبه. ولا يبدو أنه يأبه كثيراً لعملية التلفيق هذه، ويقول إن ما يأسره هو تلك "التخيلات" التي خلفها عقله. فالتخيلات حقيقية، حتى وإن كانت كل الحكاية مختلقة. ثم إن مسألة وجود عاهرة ثرية في الموضوع وأن كارل زارها فعلاً لا يمكن إنكارها. أما ما حدث فعلاً فأمر ثانوي، وأعتبر أن من البديهي أن كارل طردها. أما ما دفعه إلى اليأس فأن يكون ما وصفه كارل "ممكناً".

ويقول:" لا يمكن إلا لامرىء مثله أن يخبره بانه أدخله فيها ست أو سبع مرات. أعلم أن كل هذا خراء ولا آبه له كثيراً. أما أن يقول لي أنهما استأجرت عربة وأخذته إلى الغابة وأنهما استخدما معطف الزوج الفرو كملاءة، فهذا كثير. أعتقد أنه أخبرك عن السائق الذي انتظر باحترام.... واسمع، هل أخبرك كيف بقي المحرك دائراً طوال الوقت؟ يا يسوع، لقد لفق هذا بروعة. إن مثل هذه التفاصيل لا يصدر إلا عن مثله.... يكفي أحد هذه التفاصيل ليجعل أي شيء يبدو حقيقياً من الناحية النفسية..... وبعد ذلك لن تتمكن من طرده من ذهنك. ويخبرني بهذا بطريقة ناعمة، طبيعية.... ترى، هل فكر بالأمر مسبقاً أم أنه قفز فجأة من ذهنه هكذا، عفو الخاطر؟ إنه كذاب حقير لا يمكنك أن تفلت منه.... وكأنه يكتب لك رسالة تشبه لوحات أصص الزهور التي ينفذها آناء الليل. لا أفهم كيف يتسنى لأمرىء أن يكتب رسائل كهذه... لا أفهم العقلية الكامنة خلفه... إنه كالاستمناء.... ما رأيك؟".

ولكن قبل أن أتمكن من المغامرة بالإدلاء برأي أو حتى بالضحك في وجهه، يتابع فان نوردون حواره الفردي.

"اسمع، أظنه أخبرك بكل شيء.... هل أخبرك كيف وقف على الشرفة تحت ضوء القمر وقبلها؟ يبدو هذا مبتذلاً حين تكرره، لكن الطريقة التي

يصفه بها.... أكاد أرى الأير الصغير واقفاً هناك والمرأة بين ذراعيه ثم وهو يكتب رسالة أخرى، هي لوحة أخرى عن السقوف وكل ذاك الخراء الذي يسرقه من المؤلفين الفرنسيين. ذاك الشاب لا يقول شيئاً واحداً أصيلاً، هذا ما اكتشفته. عليك أن تبحث عما يدلك على كذبه.... مثلاً، لمن قرأ مؤخراً.... وهذا شيء صعب معرفته لأنه كتوم لعين جداً. اسمع، لو لم أعلم أنك ذهبت معه لما صدقت أن للمرأة وجوداً. لأن مثله يمكن أن يكتب رسائل لنفسه. ومع ذلك فهو محظوظ.... هزيل جداً، هش جداً، ومظهره عاطفي جداً، حتى إن النساء يقعن في حبائله بين الحين والآخر..... أو قل يتبنينه....ويرثين لحاله، على ما أظن. وبعض العاهرات يرغبن في الحصول على أصص زهور.... فذلك يجعلهن يشعرن بأهميتهن... غير أن هذه المرأة ذكية، كما يقول. لا بد أنك تعلم هذا.... لقد رأيت رسائلها. ماذا تعتقد أن امرأة مثلها تجد فيه؟ أنا أفهم ولعها بالرسائل.... ولكن ماذا تعتقد كان شعورها حين رأته؟.

"ولكن اسمع، إن كل هذا يخرج عن الموضوع. ما أحاول الوصول إليه هو الطريقة التي يرويه لي. وأنت تعلم كيف يزين الأمور.... حسن، بعد مشهد الشرفة ـ وهو يسرده لي وكأنه يقدم لي طبق مشهيات، كما تعلم ـ بعد ذلك، كما يقول، دخل وراح يفك أزرار مامتها. لماذا تبتسم؟ أتعتقد أنه كان يخرى عليّ في هذا؟.

"لا، لا أنت تحكيها لي كما أخبرني بها تماماً، تابع.... "

"بعد ذلك" وهنا يجد فان نوردن نفسه مضطراً إلى الابتسام بدوره ـ "بعد ذلك، و أؤكد لك، يبدأ بشرح كيف جلست على الكرسي ورفعت ساقيها.... و لم يكن عليها شعرة واحدة.... ويجلس هو على الأرض رافعاً إليها ناظريه، ويخبرها كم هي جميلة.... هل أخبرك أنها بدت كلوحة من لوحات ماتيس؟ ... انتظر لحظة... أريد أن أتذكر بالضبط ما قاله لي. كانت له عبارة صغيرة ذكية عن محظية.... ولكن ماذا تعني محظية بحق الجحيم؟ قالها لي بالفرنسية، لهذا لا أتذكر تلك الكلمة المنيوكة.... لكن وقعها جميل. يُنتظر من مثله أن يقولها. ولعلها من ابتكاره.... وأحسبها تظنه شاعراً أو ما شابه.

ولكن اسمع، كل هذا ليس مهماً.... إني ألتمس له العذر لخياله ذاك. أما ما دفعني إلى الجنون فهو ما حدث بعد ذلك. لقد قضيت الليل بطوله أتقلب في فراشي، أعبث بالصور التي خلفها في ذهني. لا أستطيع منها فكاكاً. تبدو لي حقيقية تماماً بحيث لو أنها تتحقق لشنقت ابن الحرام. فلا يحق لأي كان أن يختلق أشياء كهذه، وإلا كان مريضاً.....

"إن ما أحاول الوصول إليه هو اللحظة التي خرّ فيها ، كما يقول، على ركبتيه وباصبعيه النحيلتين وباعد ما بين شفتي كسها. أتذكر هذا؟ ويقول إنها كانت تجلس وساقاها متدليان من فوق مسندي الكرسي وإذا به، كما يقول، يهبط عليه الالهام. حدث هذا بعد أن انتهى من مضاجعتها مرتين.... وبعد أن قال ملاحظته الصغيرة عن ماتيس. إذن خر على ركبتيه ـ خذي هذه ـ وباصبعيه.... بطرفيهما فقط، انتبه إلى هذا... فتح التويجين الصغيرين .... سكويش ـ سكويش .... هكذا. صوت لزج خافت لا يكاد يسمع. سكويش ـ سكويش يا يسوع، كنت أسمع هذا الصوت طوال الليل ويقول بعدئذ ـ وكأن هذا لم يكفني ـ يخبرني كيف دفن رأسه في كسها. ولما فعل هذا، وليساعدني المسيح، إذا بها تطبق ساقيها حول رقبته وهذا قضى عليّ! تصورا تصور امرأة راقية، حساسة مثلها تطبق ساقيها حول "رقبته!"ـ ثمة مسحة سامة تحيط الأمر. إنه عجيب إلى حد الاقناع. لو أنه اكتفى بإخباري عن الشمبانيا والنزهة في الغابة بل وحتى عن مشهد الشرفة لكنت أنكرته. أما هذا فلا يصدق أبداً بحيث بات يبدو أبعد ما يكون عن الكذب. لا أصدق أنه قرأ قط عن هذا في أي مكان، ولا أفهم ما الذي أدخل هذه الفكرة إلى رأسه إلا إذا كانت تحوي بعض الحقيقة. فمع أير صغير مثله، كما تعلم، يمكن أن يحدث أي شيء. كان يمكن أن لا ينيكها على الإطلاق، ولكن ربما تركته يعبث بها... ولا تعرف ماذا يمكن لأولائي العاهرات الثريات أن يتوقعن منك أن تفعله....".

وحين ينتزع نفسه أخيراً من السرير ويبدأ بالحلاقة يكون وقت الظهيرة قد تقدم. وأكون قد نجحت في آخر الأمر بتوجيه تفكيره إلى أشياء أخرى، إلى الأشياء المؤثرة في المشاعر في المقام الأول. وتدخل الخادم لترى إن كان

جاهزاً ـ فقد كان من المفروض أن يغادر الغرفة مع حلول الظهيرة. وكان بالكاد قد بدأ بارتداء بنطاله، وأدهش قليلاً لأنه لم يعتذر أو يستدر. ولما رأيته واقفاً هكذا يزرر بنطاله بلا اكتراث وهو يلقي عليها أوامره رحت أضحك بصوت مكبوت ويقول لي "لا تأبه لها"، وهو يلقي عليها نظرة الاحتقار "إنها خنزيرة ضخمة". إقرصها في طيزها إن أردت، فلن تتفوه بكلمة". ومن ثم يخاطبها بالانكليزية قائلاً:" تعالي إلى هنا يا عرصة، ضعي يدك على هذا"، وهنا لا يعود بمقدوري كبح نفسي، وأنفجر بالضحك، ضحكاً هستيرياً، انتقل إلى الخادم نفسها، على الرغم من أنها لم تفهم سببه. وتبدأ الخادم تنزل اللوحات والصور الفوتوغرافية، صوره في معظمها، التي تغطي الجدران. ويقول "أنت" وهو يومىء باصبعه "تعالي إلى هنا هاك شيئاً تتذكريني به" ـ وينتزع صورة شخصية عن الجدار ـ "بعد أن أذهب يمكنك أن تمسحي بها طيزك. أترين"، يقول هذا مستديراً نحوي "إنها عرصة خرساء. ولن تبدو أكثر ذكاء لو كررته بالفرنسية". وتقف الخادم في مكانها فاغرة الفم. ومن الواضح أنها مقتنعة أنه مجنون ويصيح بها وكأنها ثقيلة السمع "هيه! هيه! أنت! نعم، أنت! هكذا....". ويأخذ الصورة، صورته الشخصية، ويمسح بها مؤخرته ?comme ca! savvy" يجب أن ترسم لها لوحات" يقول هذا وهو يمط شفته السفلى باشمئزاز متناه.

ويرقبها عاجزاً وهي ترمي أغراضه في الحقائب الكبيرة، ويقول" هاك، ضعي هذه الأشياء أيضاً. ويمد لها يده بالفرشاة وحقيبة النضح. ويظل نصف أغراضه ملقى على الأرض. وتزدحم الحقائب ولا يبقى مكان للرسوم والكتب والزجاجات نصف الملآى، ويقول:"إجلس قليلاً، لا زال أمامنا الكثير من الوقت، يجب أن نتدبر أمر هذه الأشياء. لو لم تأت لما نجحت في الخروج من هنا. أترى كم أنا عاجز. لا تدعي أنسَ أن آخذ المصابيح الكهربائية.... إنها لي. وتنكة الزبالة أيضاً. إنهم ينتظرون منك أن تعيش كالخنازير، أولاد الحرام". وتخرج الخادم لتحضر خيط قنب.... "انتظر لترى .... سوف تطالبني بثمن الخيط حتى ولو كان ثلاثة سوات. إنهم لا يخطن لك زراً واحداً في بنطالك دون أن يتقاضين ثمنه. متسولات قذرات حقيرات!". ومن رف المدفأة يتناول زجاجة كالفادوس ويومىء إلي أن أحمل

الأخرى "لا فائدة من حملها إلى المكان الجديد. دعنا ننهيهـ الآن. وإياك أن تعطيها أية جرعة بنت الحرام تلك، ولن أترك لها ورقة تواليت واحدة. أود أن أحطم الشقة الحقيرة قبل أن أذهب. اسمع.... تبول على الأرض إن أردت. ليتني أستطيع أن أخرى في درج زينتها.". ويشعر باشمئزاز عارم من نفسه ومن كل شيء آخر حتى أنه لا يعرف ماذا يفعل لينفس عن مشاعره. يمشي إلى السرير والزجاجة في يده ويزيح الأغطية ويصب الكافادوس فوق الفراش. ولا يكفيه هذا فيأخذ بحفر الفراش بكعبه. ولسوء الحظ لا يوجد في حذائه أي طين. وأخيراً ويتناول الملاءة وينظف بها حذاءه. ويغمغم بنغمة انتقام "هذا سيدفعهن لعمل شيء ما". وبعد ذلك، بعد أن يتناول جرعة كبيرة شرهة يرجع رأسه إلى الخلف ويغرغر حنجرته، وبعد أن يغرغرها كما يجب يبصق كل شيء على المرآة. "هاكم يا بنات الحرام الرخيصات! امسحن هذا بعد ذهابي!". ويمشي جيئة وذهاباً ويغمغم لنفسه ويرى جوربه الممزق مرمياً على الأرض فيلتقطه ويقطعه قطعاً صغيرة. واللوحات أيضاً تثير حنقه، فيلتقط واحدة وهي صورته الشخصية رسمتها سحاقية من معارفه ويدخل فيها قدمه. "تلك العرصة! هل تعرف ماذا تجرأت على الطلب مني؟ طلبت أن أرسل لها عاهراتي بعد أن أفرغ منهن. ولم تمنحني مرة سواً واحداً مقابل كتابة رسائلها. ظنتني معجباً بحق بانجازها، ولم أكن لأحصل على هذه الصورة منها لو لم أرسل لها عاهرة مينيسوتا. كانت مجنونة بها.... وكانت تتبعنا حيثما ذهبنا ككلب محموم.... ولم نعرف كيف نتخلص من تلك العرصة! لقد نغصت علي حياتي كلها. وساء حالي إلى درجة صرت أخشى أن أحضر أية عاهرة إلى هنا مخافة أن تزاحمني عليها. كنت أتسلل إلى هنا كلص وحالما أدخل أقفل الباب ورائي.... تباً لها ولتلك العاهرة الجيورجية ــ لقد دفعتاني إلى حافة الجنون. إحداهما دائمة الشبق والأخرى دائمة الجوع. أكره أن أنيك إمرأة جائعة. وكأنك تدخل فيها الطعام وتسحبه من حديد.... يا يسوع، هذا يذكرني بشيء آخر.... أين وضعت ذاك المرهم الأزرق؟ هذا هو المهم. هل سبق واستعملت أشياء كهذه؟ إنه أسوأ من تناول جرعات الفم. ولا أدري أيضاً من أين حصلت عليها. لقد أحضرت العديد من النسوة إلى هنا خلال الأسبوع المنصرم أو نحوه، لهذا تراني فقدت أثرهن. شيء

مضحك حقاً، لأنهن جميعاً منعشات الرائحة. لكنك تعرف كيف تجري الأمور...."

كانت الخادم قد كومت أغراضه على الرصيف. بينما راح "السيد" ينظر حوله بسيماء واثقة. وبعد أن وضع كل شيء في سيارة الأجرة لم يبق إلا مكان لشخص واحد منا. وحالما انطلقنا أخرج فان نوردن صحيفة وأخذ يحزم طناجره ومقاليه، ففي المكان الجديد يمنع الطبخ منعاً باتاً. ومع وصولنا إلى هدفنا كانت كل أغراضه قد حلت من حزمها، ولم يكن الأمر ليصل إلى تلك الدرجة من الارتباك لو لم تخرج السيدة رأسها من الباب حالما غادرنا سيارة الأجرة. وهتفت:"يا إلهي! ما هذا بحق الشيطان؟ ما معناه؟". وفان نوردن يفيض بالمودة حتى أن كل ما يتفوه به هو c'est moi" ...c'est moi madam!" ويلتفت إلي ليتمتم بصراوة :"أنظر إلى هذه المقرقرة! أترى وجهها؟ إنها تنوي أن تضع عراقيلها في طريقنا".

يقع الفندق في خلفية ممر حقير ويشكل متلشاً هو أقرب شبهاً بالإصلاحيات الحديثة. غرفة المكتب كبيرة الحجم، مقبضة، على الرغم من الانعكاسات المتلألئة المنبعثة من الجدران القرميدية. وثمة أقفاص للعصافير معلقة في النوافذ وشارات صغيرة مصقولة موزعة في كل مكان ترحو من الزوار وبلغة حازمة أن لا يفعلوا كذا وأن لا ينسوا داك. والمكان نظيف بشكل يكاد يكون مطلقاً بيد أنه يدل على فقر مدقع، وابتذال وكآبة. الكراسي المنجدة مصمومة إلى بعضها بمجموعة أسلاك، تذكر المرء بشكل بغيض بالكرسي الكهربائي. والغرفة التي يشغلها تقع في الطابق الخامس. وبينما نرتقي السلم يخبرني فان نوردن أن موباسان قطن هنا ذات مرة. وينوه بوتيرة الصوت ذاتها إلى أن في القاعة عبقاً خاصاً. وفي الطابق الخامس توجد نوافذ محطمة الزجاج، ونقف برهة ننظر إلى النزلاء عبر الردهة. الوقت يقترب من العشاء والناس يجاهدون ليصلوا إلى غرفهم بتلك السحن القلقة، المحبطة التي يخلفها السعي لكسب العيش بشرف. أغلب النوافذ مفتوحة على مصاريعها، والغرف الحقيرة تشبه في مظهرها أفواهاً كثيرة تتثاءب. ونزلاء الغرف يتثاءبون أيضاً، أو يهرشون أنفسهم. ويتنقلون

في المكان بتوانٍ ومن الواضح أنه بلا هدف معين، وثمة احتمال آخر معقـول في أنهم مجانين.

وحالما ننعطف إلى الرواق متجهين إلى الغرفة رقم ٥٧ يفتح فجأة باب يقع أمامنا ليبرز وجه عجوز حيزبون بشعر شعث لها عينا مجذوب. وتباغتنا إلى حـد أننا نقف جـامدين في مكاننـا. وخـلال دقيقـة كاملـة نطـل نحـن الثلاثـة وقوفـاً عاجزين تماماً عن الحركة أو حتى عن الاتيان بأية إيماءة باتجـة عـن التفكـير. إلى الخلف من العجوز أرى مائدة مطبخ يستلقي عليها طفل عارٍ تماماً، طفل ضئيـلٍ سقيم لا يتعدى حجمه حجم دجاجة منتوفة الريش. وأخيراً تلتقط العجوز دلواً موحلاً موجوداً إلى جانبها وتقوم بحركة إلى الأمام. ونفسح لها مجالاً لتمر وبعـد أن تغلق الباب يطلق الوليد صرخة ثاقبة. إنها غرفـة رقـم ٥٦، وبيـن ٥٦ و٥٧ يقع المرحاض حيث تفرغ العجوز أقذارها.

ومنذ أن بدأنا ارتقاء الدرج لزم فان نوردن الصمت. لكن نظرته بليغـة. وحين يفتح باب الغرفـة ٥٧ تجتـاحني وللحظـة بارقـة شـعور بـالجنون. فثمـة مقابل المدخل مباشرة مرآة كبيرة جـداً مغطـاة بالشـاش الأخضـر بمقـدار ٤٥ درجة فوق عربة للأطفال مملوءة بالكتب. ولا يفتر ثغر فان نوردن حتـى عـن ابتسامة، وبدلاً من ذلك يتقدم بلا مبالاة من عربة الأطفال ويلتقط منها كتاباً ويبدأ بتصفحه، بطريقة رجل يدخل المكتبـة العامـة ويتوجـه بذهـن شـارد إلى أقرب منصب للكتاب. وربمـا مـا كـان لهـذا أن يبـدو سـخيفاً لـو لم ألمـح في الوقت نفسه زوجاً من القضبان ذات المقابض قـائمين عنـد الزاويـة. بـدوا في منتهى السكينة والرضـا، وكأنهمـا ناعسـان في مكانهمـا منـذ سـنين خلـت، بحيث تراءى لي فجأة أننا واقفان في هذه الغرفة، بل وفي هذا الموضع بـالذات، منذ زمن طويل لايمكن حسابه، وأنها وقفة اتخذناها في حلم لم نخرج منه قط، حلم تكفي لتبديده أقل إيماءة، بمجرد طرفـة عـين. والشـيء الأكـثر غرابـة هـو الذكرى التي برزت فجأة لحلم تراءى لي في الليلة الفائتة، حلم رأيت فيه فـان نوردن يقف في زاوية شبيهة بالتي يشغلها هذان المقبضـان الحديديـان، إلا أنـه بدل المقبضين الحديديين كانت هناك إمـرأة جاثمـة وقـد رفعـت سـاقيها. أراه واقفاً يطل على المرأة وفي عينيه تلك النظرة اليقظة المتلهفـة الـتي تتبـدى كلمـا

رغب في شيء رغبة عارمة. الشارع الذي يحدث فيه هذا تكتنفه الغشاوة ـ ليس فيه واضحاً إلا الزاوية التي تشكلها الجدران، وقامة المرأة المنكمشة. يمكنني رؤيته متجهاً إليها بتلك الطريقة الحيوانية السريعة التي يتميز بها، مهملاً كل ما يجري حوله، وقد انصب تصميمه على متابعة طريقه. وكأن النظرة التي في عينيه تقول:"يمكنك قتلي فيما بعد، ولكن دعي أدخله فيها.... يجب أن أدخله!". وها هو مائل عليها، رأساهما يرتطمان بالجدار، وقد حصل لديه انتصاب عظيم حتى بات وببساطة من المتعذر إدخاله فيها. وفجأة، وبذاك الجو المقزز الذي يعرف كيف يشيعه معرفة تامة، ينهض ويهندم ثيابه. ويوشك أن يبتعد وإذا به يلاحظ فجأة أن أيره لا يزال ملقى على الرصيف. إنه بحجم عصا مكنسة مقتلعة. فيلتقطه بلا مبالاة ويدليه من تحت إبطه. وبينما هو يبتعد ألاحظ بصيلتين ضخمتين، كبصيلات زهر التوليب، متدليتين من نهاية عصا المكنسة، ويتناهى إلى سمعي صوته وهو يتمتم لنفسه:"أصص....أصص".

يصل الغرسون لاهثاً متعرقاً. وينظر إليه فان نوردن نظرة عدم فهم. والآن تدخل المدام وتتوجه إلى فان نوردن رأساً، تأخذ الكتاب من يده، وترميه في عربة الأطفال. ودون أن تتفوه بحرف، تسوقها إلى الصالة.

يقول فان نوردون "إنها مستشفى مجانين" مبتسماً بألم. ابتسامة واهنة تعصى على الوصف حتى أن الشعور بالحلم يعود للحظة ويبدو لي أننا واقفان عند نهاية رواق طويل عُلّقت في نهايته مرآة ذات انعكاس متموج. ويترنح فان نوردن، يترنح متمايلاً على طول هذا الرواق، وهو يهز كربه كقنديل قذر، داخلاً خارجاً وكأنما هنا هناك يُفتح باب وتمتد يد لتنتزعه إلى الداخل، أو حافر يرفسه خارجه. وكلما ابتعد في تجواله زاد حزنه الكئيب، إنه يتقلده كالقنديل الذي يحمله راكبو الدراجات بين أسنانهم ليلة يكون الرصيف مبتلاً زلقاً. وينتقل خارجاً وداخلاً من الغرف القذرة، وحين يجلس يتقوض الكرسي من تحته، وحين يفتح الحقيبة لا يكون فيها إلا فرشاة أسنان. في كل غرفة مرآة يقف أمامها بانتباه ويمضغ ثورته، وقد بات فكاه من طول المضغ والهمهمة والدمدمة والتلعثم وصب اللعنات

محلولين عن مكانيهما ويتدليان حتى يكادا يسقطان، وحين يمسح على لحيته تسقط قطع من فكيه ويشعر باشمئزاز شديد من نفسه حتى أنه يدوس على فكيه، يطحنهما نتفاً صغيرة بكعبيه الضخمين.

في هذه الأثناء سيقت الأمتعة إلى الداخل. وتبدأ الأمور تبدو أكثر جنوناً من ذي قبل ـ خاصة حين يثبت أداة التمرين الرياضي في عمود السرير ويبدأ تمارين الساندو. ويقول للـ "غارسون" مبتسماً "هذا المكان يعجبني"، ويخلع معطفه وبدلته. ويراقبه "الغارسون" بحيرة وفي إحدى يديه يحمل حقيبة سفر وفي الأخرى حقيبة نضح. وأقف بعيداً في الغرفة المؤدية إلى الداخل حاملاً مرآة يعلوها ضباب أخضر. ولا يبدو أن لأي غرض فائدة عملية. حتى غرفة التوصيل نفسها تبدو بلا فائدة، وهي أشبه بردهة تؤدي إلى حظيرة ماشية. إنه نوع الإحساس نفسه الذي ينتابني حين أدخل الكوميدي فرانسيز أو مسرح الباليه رويال، عالم من سقط المتاع، من الأبواب السرية، من الأذرع والنهود والأرضيات المشمعة، من الشمعدانات والرجال المدرعين، من تماثيل بلا عيون ورسائل حب ملقاة في صناديق زجاجية. ثمة حادث يجري، ولكن لا معنى له، كشرب زجاجة كالفادوس لمجرد أنه لا مكان لها في حقيبة السفر.

أخبرني وهو يرتقي الدرج، كما قلت سابقاً، أن موباسان كان يقطن هنا. ويبدو أن أثر المصادفة قد ترك لديه انطباعاً واضحاً. ويميل إلى الاعتقاد أنه في هذه الغرفة بالذات أبدع موباسان بعضاً من تلك الحكايا الرهيبة التي ترتكز عليها مكانته الرفيعة. ويقول:"أولاد الحرام أولئك يعيشون عيشة الخنازير". ونجلس حول مائدة على كرسيين مريحين عتيقين حزما بالسيَر والمشابك، السرير يلينا مباشرة، وهو شديد القرب منا بحيث يمكننا أن نضع أقدامنا عليه. وتقوم الخزانة في الزاوية وراءنا، وهي بدورها قريبة بما يكفي لتكون في المتناول. وكان فان نوردن قد أراق ماءه القذر على الطاولة، ونجلس هناك وأقدامنا مدفونة في جواربه وقمصانه القذرة وندخن بسرور. وتبدو قذارة المكان وكأنها تعمل عمل السحر فيه: إنه سعيد هنا. وحين أنهض لأدير مفتاح النور يقترح أن نلعب الورق قبل أن نخرج لتناول الطعام.

وهكذا نجلس هناك قرب النافذة، والماء القذر مسفوح على الأرضية وأداة تمرين الساندو الرياضي مدلاة من الثريا، ونلعب بضعة أدوار من لعبة البينوكل بشخصين. ويضع فان نوردن غليونه جانبا ويحشر مقداراً من السعوط تحت شفته السفلى. وبين الحين والآخر يبصق من النافذة، كتلاً من العصير البني اللون تتردد أصداء صفعاتها على وجه الرصيف في الأسفل. والآن يبدو راضياً.

ويقول:" في أميركا لا تحلم بالعيش في شقة كهذه. وحتى حين كنت متشرداً نمت في غرف أفضل منها. أما هنا فيبدو الأمر طبيعياً ـ إنه كالكتب التي تقرأها. إذا ما قدر لي وعدت إلى هناك فسأحاول أن أنسى هذه الحياة، تماماً كما تنسى أنت حلماً مزعجاً. وقد أعود إلى حياتي القديمة حالما أرحل من هنا..... هذا إذا عدت. أحياناً أستلقي على السرير وأحلم بالماضي بصورة شديدة الوضوح حتى أني أضطر إلى هز نفسي لأعي أين أنا. وخاصة حين تكون إلى جواري امرأة، فمع امرأة أغوص أبعد من الحلم. وهذا كل ما أريد منهن ـ أن أنسى نفسي. أحياناً أتمادى في الضياع في أحلامي حتى أني أعجز عن تذكر اسم العاهرة أو المكان الذي التقطتها فيه. مضحك هذا، هه؟ لذيذ أن يكون إلى جوارك جسد دافىء بض حين تستيقظ في الصباح. إنه ينفحك شعوراً نقياً. تصبح روحانياً.... إلى أن يبدأ بصب ذاك الخراء عن الحب، إلخ. لماذا تتحدث العاهرات كثيراً عن الحب، هل يمكنك أن تجيب؟ يبدو أن مضاجعة جيدة لا تكفيهن..... يردن روحك أحياناً".

كلمة روح هذه التي تقفز باستمرار من نجاوى فان نوردن مع نفسه، كانت تترك لدي أثراً فكاهياً. وكلما سمعت كلمة روح من شفتيه تنتابني نوبة ضحك هستيرية، تبدو لي كقطعة نقد زائفة، وخاصة لأنها غالباً ما كانت ترافق بكتلة من العصير البني اللون يترك خيطاً سائلاً أسفل زاوية فمه. ولما لم أكن أتردد لحظة في الضحك في وجهه كان يحدث دائماً حين تقفز هذه الكلمة الصغيرة أن يصمت فان نوردن فترة كافية من الوقت لأنفجر مقهقهاً، بعدها، وكأن شيئاً لم يكن، يتابع مناجاته، مكرراً الكلمة مرة أخرى وباستمرار وفي كل مرة بتوكيد ملاطف. إن روحه هي التي كانت النساء

تحاول امتلاكها ـ هذا ما وصحه لي. وشرحه لي مراراً وتكراراً، لكنه في كل مرة يعود إليه ببداية جديدة كعودة بجنون الإضطهاد إلى هاجسه. وفان نوردن بجنون بشكل ما، أنا مقتنع بهذا. خوفه الوحيد هو أن يُترَك وحيداً، وهذا الخوف من العقم والإلحاح بحيث إنه حتى وهو يمتطي إمرأة، وهو ملتحم بها، لا يقوى على الهروب من السجن الذي بناه لنفسه. ويشرح لي قائلاً:" إني أقوم بجميع أنواع المحاولات. أحياناً أعدّ، أو أفكر في مشكلة فلسفية، ولكن لا فائدة، كأني شخصان، وأحدهما يراقبني طوال الوقت. أكاد أجن من نفسي حتى لأود لو أقتلها.... هذا، بشكل ما، هو ما أفعله كلما مررت برعشة اللذة الجنسية. وخلال لحظة واحدة أشعر وكأني ألغي نفسي. عندئذ لا أكون واحداً فقط .... بل لا يكون هناك شيء.... ولا العاهرة. كأني أتلقى العشاء الرباني. إنني أعني ما أقول، بشرفي. وبعد ذلك أمرّ بفترة وجيزة من التوهج الروحي الصافي.... وقد تستمر دون ضابط ـ من يدري؟ ـ لولا وجود امرأة إلى جوارك وحقيبة النضح والماء الجاري.... وكل تلك التفاصيل الصغيرة التي تجعلك منطوياً يائساً، وحيداً بلا أمل. ومن أجل لحظة الحرية هذه تضطر إلى الإنصات إلى كل ذاك الخراء عن الحب.... أحياناً يدفعني إلى الجنون .... وأود لو أرفسهن إلى الخارج في الحال.... وأحياناً أفعل. لكن تصرفي لا يبعدهن عني. فهن في الواقع يحببن الضرب. وكلما أهملتهن تعلقن بك. في النساء سمة منحرفة .... كلهن مازوشيات في أعماقهن.

وأسأله:" ماذا تريد من المرأة؟".

ويبدأ بتشكيل يديه، وقد ارتخت شفتاه. ويبدو عليه الإحباط الكامل. فإذا نجح أخيراً في إخراج بضع عبارات مكسرة وهو يتأتيء فبدافع من الإيمان بأن خلف كلماته يكمن عبث طاغ. ويندفع مفشياً سره بلا وعي:" أريد أن أستسلم لامرأة، أريدها أن تبعدني عن نفسي. لكنها لكي تفعل ذلك يجب أن تكون أفضل مني، أن تملك عقلاً، لا أن تكون بحرد عاهرة. يجب أن تدفعني إلى الإيمان بحاجتي إليها، بأني لا أستطيع أن أعيش بدونها. اجلب لي عاهرة مثلها، هل تفعل؟ وإذا فعلت فسأتنازل لك عن عملي. ولن آبه عندئذ

بما سيحدث لي : لن أحتاج إلى عمل أو إلى أصدقاء أو إلى كتب أو إلى أي شيء. ليتها فقط تستطيع أن تدفعني إلى الإيمان بوجود ما هو أهم مني على وجه الأرض. يا يسوع، كم أكره نفسي! لكني أكره أولائي العاهرات بنات الحرام أكثر ـ لأنه ولا واحدة منهن تساوي شيئاً.

ويتابع:" أنت تظن أني معجب بنفسي، وهذا يدل على قلة ما تعرفه عني. أعلم أني شاب عظيم.... وما كنت لأعاني هذه المشاكل لو لم تكن مهمة بالنسبة لي. ولكن ما ينهشني حتى الهلاك أني لا أستطيع التعبير عن نفسي. يعتقد الناس أني صائد عاهرات، وهذا يدل على مدى بلاهة ذوي الحواجب العالية أولئك، الذين يقضون أيامهم جالسين على الـterrasse يمضغون تبغهم التفسي.... لا بأس بهذا "التبغ النفسي" ـ هه؟ دونها لأجلي، سأستخدمها في عمودي المخصص في الأسبوع القادم..... بالمناسبة، هل سبق وقرأت لستيكل؟ هل هو جيد؟ لا يبدو لي أنه أكثر من حقيبة من التواريخ. أتمنى من المسيح أن أستجمع ما يكفي من الجرأة لزيارة محلل نفسي.... أقصد، محللاً جيداً. لا أريد أن أزور أحد أولئك المشبوهين الوضيعين ذوي اللحى المدببة ومعاطف الفراك. أمثال صديقك بوريس. كيف تحتمل أمثال أولئك؟ ألا يضجرونك حتى الموت؟ أرى أنك تتكلم مع كل من هب ودب. ولا تأبه لشيء. ربما كنت على حق. أتمنى لو لم أكن انتقادياً إلى هذا الحد. لكن أولئك اليهود الحقيرين القذرين المتسكعين حول الدوم، يا يسوع، إنهم يشيعون بي القشعريرة، يشبهون الكتب المدرسية. لو أستطيع أن أتحدث معك كل يوم فلربما تمكنت من إزاحة الهموم عن صدري. أنت مستمع جيد. أعلم أنك لا تأبه لشأني لكنك صبور. وليست لديك نظريات لتستغلها. أظنك ستدونها في وقت لاحق في دفتر ملاحظاتك ذلك. اسمع، لا يهمني ما تقوله عني، ولكن لا تعتبرني صائد عاهرات ـ فهذا بالغ السذاجة. يوماً ما سأكتب كتاباً عن نفسي، عن أفكاري. لا أقصد أنه سيكون مجرد قطعة من التحليل الاستبطاني .... بل أعني سأضع نفسي على طاولة العمليات وسأعرض جميع أحشائي... وكل شيء دون استثناء. هل سبق وقام أحد بهذا؟ ـ علام تبتسم بحق الجحيم؟ هل يبدو كلامي ساذجاً إلى هذه الدرجة؟ "

وأبتسمُ لأننا كلما تطرقنا إلى موضوع هذا الكتاب الذي ينوي أن يكتبه يوماً ما تتخذ الأمور وضعاً متناقضاً. يكفي أن يقول "كتابي" فإذا بالعالم ينكمش في الحال إلى أبعاد تناسب مقاييس فان نوردن الخاصة وشركاه. فعلى الكتاب أن يكون أصيلاً تماماً في موضوعه، كاملاً كل الكمال. لهذا السبب، ولأسباب أخرى يستحيل عليه البدء به. وحالما يحصل على فكرة يبدأ في استجوابها. ويتذكر أن دوستويفسكي استخدمها، أو هامسن، أو شخص آخر. "لا أقول أني أريد أن أكون أفضل منهم، ولكن أريد أن أكون مختلفاً". هكذا يفسر الأمور، وهكذا، بدل أن يعالج كتابه يقرأ مؤلفاً بعد آخر حتى يتيقن تمام اليقين من أنه لن يتعدى على أملاكهم الخاصة. وكلما زادت قراءاته أصبح أكثر امتلاءاً بالإزدراء. لا أحد منهم يكفيه، لا أحد منهم يصل إلى تلك الدرجة من الكمال التي فرضها على نفسه. وينسى تماماً أنه لم يكتب حتى فصلاً واحداً يخوله التعالي عليهم. وكأن هناك رفاً مملوءاً بالكتب التي تحمل اسمه، كتب يعرفها الجميع لذا لا ضرورة لذكر عناوينها. وعلى رغم أنه لم يكتب قط صراحة بشأن هذه الحقيقة، فمن الواضح أن الناس الذين كان يمسك بتلابيبهم وينفخ فيهم فلسفته الخاصة، ونقده، وشكواه، سلموا بأن خلف ملاحظاته المتقلقلة يقف إنجاز ضخم راسخ. وخاصة العذارى الصغيرات البلهاوات اللواتي كان يغويهن بالدخول إلى غرفته متذرعاً برغبته في إلقاء قصائده على مسامعهن، أو بحجة أفضل من هذه هي أن يطلب نصيحتهن. ودون أي وازع من شعور بالذنب أو الخجل يناولهن قطعة من الورق الوسخ خط عليها بضعة أسطر ـ هي نواة قصيدة جديدة، كما يصفها ـ ويطلب منهن وبمطلق الجدية أن يعبرن عن آرائهن بصدق. ولما لم يكن لديهن عادة ما يعلقن به، ويسربلهن الارتباك من تفاهة الأبيات المطلقة، يستغل فان نوردن الفرصة ليقدم لهن وجهة نظره عن الفن، ولا داعي للقول أنها وجهة نظر وليدة اللحظة الحاضرة لتناسب الحدث. لقد صار خبيراً ضليعاً بدوره هذا إلى درجة أن انتقاله من أناشيد cantos عزرا باوند إلى السرير يحدث ببساطة وتلقائية كتغير طبقة الصوت من مقام إلى آخر، والحقيقة هي أنه إذا لم يجر هذا الانتقال لوقع تنافر، وهذا يحدث بين آن وآخر حين يرتكب خطأ مع أولائي الحمقاوات اللواتي يلقبن بـ "السهلات".

وطبعاً، بما أنه شخصية راسخة، فهو يشير إلى هذه الأخطاء الفادحة في إطلاق الأحكام بنفور. لكنه حين يقرر أن يعترف بخطأ من هذا النوع فإنه يدلي به بصراحة مطلقة، والواقع يبدو أنه يستمد متعة منحرفة من التركيز على قصوره. فمثلاً ثمة امرأة واحدة ظل يحاول الحصول عليها منذ عشر سنين وحتى الآن ـ أولاً في أميركا، وأخيراً هنا في باريس. وهي الشخص الوحيد من الجنس الآخر الذي أقام معه علاقة ودية عميقة. لم يكونا فقط يتبادلان الإعجاب، بل وكانا متفاهمين. في أول الأمر بدا لي أنه لو تمكن حقاً من إصلاح هذه المخلوقة لحلت مشكلته. فقد توفرت جميع عناصر الاتحاد الناجح ـ عدا العنصر الأساسي. كانت بيسي صاحبة أسلوب فريد مثله، وكان اهتمامها بشأن وهب نفسها إلى رجل معدوماً كاهتمامها بفاكهة بعد الطعام. وكانت تفرز ما تنتقيه من الأشياء وتبادر إلى التقدم بالعرض. ولا يمكن القول أن مظهرها كان سيئاً، أو إنها كانت جميلة. لقد كان لها جسم رائع، وهو الشيء الأهم ـ وكانت راضية بهذا، كما يقال.

كانا ودودين جدا، هذان الإثنان، إلى درجة أن فان نوردن كان أحياناً، وإرضاء لفضولها (وأيضاً على أمل يائس في أن يلهبها ببراعته الفائقة) يعمد إلى إخفائها في خزانته أثناء إحدى جلساته. وبعد انتهاء الجلسة تظهر بيسي من مخبئها ويناقشان القضية عَرَضاً، أو بمعنى آخر لا مبالاة كاملة تقريباً بكل شيء عدا "التقنية". كانت التقنية هي إحدى أفضل اهتماماتها، على الأقل أثناء تلك المناقشات التي كنت أمنح امتياز الظفر بحضورها. فكان يقول:" ما السوء في تقنيتي؟" وتجيب بيسي:" أنت تفتقر إلى الكثير من البراعة. وإذا كنت تتوقع أن تضاجعني فعليك أن تكون أكثر مهارة".

كان بينهما تفاهم تام، كما قلت، حتى أني حين كنت أعرج على فان نوردن في الواحدة والنصف أجد بيسي جالسة على السرير، وقد أزيحت الملاءات وفان نوردن يدعوها لتلاطف قضيبه.... "فقط بعض الملاطفات الحريرية"، هكذا يقول" حتى أجد الشجاعة على النهوض". أو يحثها على أن تنفخ عليه، فإذا لم تنجح هذه الطريقة، فإنه يمسك به ويهزه كجرس العشاء، وينفجران معاً في نوبة من ضحك حتى تكاد تودي بهما. ويقول:" لن أفلح

في مضاجعة هذه العاهرة، إنها لا تكن لي أي قدر من الاحترام. هذا جزاء إيلائها ثقتي"، ويضيف بعدها على الفور: "ما رأيك بتلك الشقراء التي أريتك إياها بالأمس؟" موجهاً حديثه إلي بيسي طبعاً، وتسخر بيسي منه قائلة إنه يفتقر إلى الذوق، ويقول: " أوه، لا تبدأي معي على هذا الخط"، ثم يردف عابثاً، وربما للمرة الألف، ولأن الأمر صار نكتة دائمة - "اسمعي يا بيسي، ما رأيك بمضاجعة عالماشي؟

"واحدة صغيرة فقط..... لا تريدين". وحين ينتهي هذا الأمر بالطريقة المعتادة يضيف، على الوتيرة نفسها: "حسن، ما رأيك به هو؟ لماذا لا تضاجعينه هو؟".

مشكلة بيسي كلها ترتكز على أنها لا تستطيع، أو بالأحرى لا تريد، أن تعتبر نفسها وسيلة مضاجعة. وتتحدث عن الشغف وكأنها كلمة جديدة مبتكرة. وهي شغوف بكل شيء، حتى وإن كان شيئاً صغيراً كالمضاجعة. وكان عليها أن تضع كل روحها فيها.

ويقول فان نوردن: "وأنا أيضاً أصبح شغوفاً أحياناً"، وتقول بيسي: "أوه، أنت، أنت مجرد ساطير مهترىء، لا تعرف ما الشغف. فحين يحدث لديك انتصاب تظن أنك صرت شغوفاً".

"حسن قد لا يكون شغفاً.... ولكن لا يمكن للمرء أن يشغف دون أن يحصل لديه انتصاب، وهذا صحيح، ألا تظنين؟".

كل هذا الكلام عن بيسي والنساء الأخريات اللواتي استدرجهن إلى بيته يوماً بعد آخر، شغل تفكيري ونحن متوجهون إلى المطعم. لقد واءمت نفسي تماماً مع نجاواه مع نفسه بحيث كنت أعطيه التعليق المطلوب آلياً دون أن أقطع على نفسي سلسلة تأملاتي، وذلك في اللحظة التي يسكت فيها صوته. وهذا يشكل حواراً ثنائياً محفوظاً، كأغلب الثنائيات، وخاصة في هذا الحوار، فإن أكثر ما يجذب انتباه المرء فيها هو الإشارة التي تعلن ورود صوته هو. وبما أنها ليلة عطلته، وبما أني وعدت أن ألازمه، هيأت نفسي لأصرف انتباهي عن تساؤلاته. وأعرف أني سأرهق قبل انتهاء السهرة، فإذا كنت محظوظاً، أي إذا نجحت في أن أسحب منه بضعة فرنكات متعللاً بإحدى الذرائع

فسأروغ منه حالما يذهب إلى المرحاض. إلا أنـه يعـرف نزوعـي إلى الزّوغان، وبدل أن يشعر بالمهانة، يعملِ ببساطة علـى مواجهـة هـذه الإمكانيـة بصيانـة قروشه. فلو طلبت منه نقوداً لأشتري سجائر لأصر على مرافقتي لشرائها. ويقرر أن لا يترك وحيداً، ولا للحظة، وحتى عندما ينجـح في الحصـول على امرأة، حتى عندئـذ يصيبـه الرعـب مـن أن يبقـى معهـا لوحـده. ولـو أمكنـه لأجلسني معه في الغرفة أثناء قيامه بممارسته. كما لو أنه يطلب مني أن أنتظره ريثما ينتهي من حلاقته.

في ليلة عطلته ينجح فان نوردن تدريجياً في أن يحتفظ في جيبه بما لا يقـل عن خمسين فرنكاً، وهذا ظرف لا يمنعه من أن يقوم بلمسة فنية كلما صادفـه احتمال بالنجاح، فيقول:" مرحباً، هات عشرين فرنكاً..... أنا بحاجة إليها"، وله طريقته الخاصة في الظهور، في الوقت نفسه، بمظهر المصعوق من الرعـب، وحين يصادف صداً يشعر بالمهانة، "يعني على الأقل بإمكانك أن تدعوني إلى مشروب"، وعندما يحصل على المشروب يقول بـروح أكثر كياسـة:" اسمـع، هات خمس فرنكات فقط .... هات فرنكين...". ونتنقل من بار إلى بار بحثاً عن قليل من الإثارة وطول الوقت نكنس بضعة فرنكات أخرى.

وفي الكوبول نصطدم بسكير يعمل في الصحيفة، وهو أحد قاطني الطابق العلوي. ويخبرنا بأنه قد وقع للتو حادث في المكتب، فقد سقط أحد مراجعي التجارب الطباعية في مهوى المصعد، ولا يتوقع أن يبقى على قيد الحياة.

للوهلة الأولى يصعق فان نوردن، يصعـق بعمـق. ولكـن حـين يعلـم أنـه بيكوفر، الانكليزي، يستعيد ارتياحـه، ويقـول:" الابـن الحـرام المسـكين، مـن الأفضل له أن يموت على أن يبقى على قيد الحيـاة. المسـكين لم يضـع أسـنانه الاصطناعية إلا منذ بضعة أيام....".

والتلميح إلى الأسنان الاصطناعية يحـرك مشـاعر سـاكن الطـابق العلـوي حتى ينخرط باكياً. ويسرد بأسلوب متباك حدثاً صغـيراً لـه علاقـة بالحادثـة، وهو يسبب له القلق، وقلقه على الحدث الصغير أكبر من قلقـه علـى الكارثـة نفسها. فيبدو أنه حين اصطدم بيكوفر بقـاع المهـوى، اسـتعاد وعيـه قبـل أن يصل إليه _أحد. وعلى الرغم أن ساقيه كسرتا وأضلاعه تحطمت فقد نجح في

النهوض على أطرافه ليتلمس فيما حوله بحثاً عن أسنانه الاصطناعية. وفي سيارة الاسعاف كان يصرخ في هياج لفقدانه أسنانه. كانت الحادثة مبكية مضحكة في وقت واحد. ولم يعرف الشاب القاطن في الطابق العلوي أيضحك أم يبكي وهو يحكيها. لقد كانت لحظة دقيقة لأنك لو قمت بأية حركة غير صحيحة أمام سكير كهذا لحطم قنينة على رأسك. ولم يكن قط على علاقة ودية مع بيكوفر - بل إنه، والحق يقال، نادراً ما وطأ مبنى تصحيح التجارب الطباعية : فقد كان بينهما ما يشبه الجدار الخفي كالذي كان بين سكان الطابق العلوي والسفلي. أما الآن، وبعد أن شعر بلمسة الموت، أراد أن يكشف عن احساسه بالصداقة. أراد أن يبكي إن أمكن، أن يبين إنه إنسان طبيعي. أما جو وأنا، اللذان كنا نعرف بيكوفر جيداً ونعرف أيضاً أنه لم يكن يساوي شيئاً، ولا حتى بضع دمعات، فانزعجنا من مبالغة هذا السكير في إبراز عواطفه. وأردنا أيضاً أن نفصح عن هذا الانزعاج، ولكن لا يسع المرء أن يكون صادقاً، إذ عليك أن تشتري إكليلاً من الزهور وترافق إلى الجنازة وتدعي أنك في حال يرثى لها من الحزن. ويجب أيضاً أن تهنئه على النعي الرقيق الذي كتبه. وسوف يظل يحمل معه نعيه الصغير الرقيق أينما ذهب طوال شهور، ممطراً نفسه بفيض من التقريظ لأنه أحسن معالجة الوضع. شعرنا بكل هذا، أنا وجو، دون أن نتبادل كلمة واحدة. اكتفينا بالوقوف والانصات باحتقار مهلك صامت. وحالما أتيحت لنا فرصة الهرب فعلنا، وتركناه حيث هو عند البار ينتحب وحيداً مع كأس من البرنو.

بعد أن غبنا عن ناظريه بدأنا ضحكنا الهستيري. يا للأسنان الصطناعية! وبعد كل الكلام الذي قلناه عن ذاك الشيطان المسكين، وقد قلنا عنه أشياء طيبة أيضاً، كنا نعود دائماً إلى ذكر الأسنان الاصطناعية. ففي هذا العالم أناس أشكالهم عجيبة حتى أن الموت نفسه يسخر منهم. وكلما كان موتهم مريعاً بدوا أكثر إثارة للسخرية. ولا فائدة من إحاطة النهاية بشيء من الجلال - فعليك أن تكون كذاباً منافقاً لتكتشف أي شيء مأساوي في رحيلهم. ولما لم نكن مضطرين إلى تلبس واجهة زائفة استطعنا أن نضحك من الحادثة من أعماق قلوبنا. وأمضينا الليل كله نضحك. وكنا بين الحين والآخر نصب جام غضبنا وازدرائنا واحتقارنا على ساكني الطابق العلوي، ذوي الرؤوس

المتنفخة، الذين كانوا يحاولون إقناع أنفسهم، ولا شك، بأن بيكوفر هو شاب رائع وأن موته كارثة. وتوافدت على رؤوسنا ذكريات مضحكة ـ عن الفواصل المنقوطة التي كان يتغاضى عنها والتي كانوا يوجهون إليه أقسى التأنيب بسببها. لقد أفسدوا حياته بفواصلهم المنقوطة المنيوكة، والكسور التي كان دائم الخطأ فيها . وكادوا مرة أن يطردوه لأنه جاء يوماً إلى العمل وهو سكران. وكانوا يزدرونه لأنه كان يبدو دائم البؤس ولأنه كان مصاباً بالأكزيما، وقشرة الرأس. لقد كان نكرة ولا أكثر، حسب وجهة نظرهم، غير أنهم، الآن وبعد أن مات، صاروا يتدافعون بحمية ليبتاعوا له أكبر إكليل ويكتبوا عليه اسمه بحروف كبيرة على النعي. فعلوا كل ما من شأنه إبرازهم. وكانوا على استعداد أن يظهروه ككتلة ضخمة من الخراء، إذا اقتضى الأمر. بيد أنهم مع بيكوفر، ولسوء الحظ، لم يتمكنوا من إبداع الكثير. كان صفراً، بل إن موته بالذات لم يكن ليضيف صفراً إلى اسمه.

يقول جو:" ثمة شيء واحد جيد في موته، هو أن بامكانك الحصول على عمله. إذا كان لديك أي قدر من الحظ فستقع أنت أيضاً من مهوى المصعد وتكسر عنقك. وأعدك أن أشتري لك إكليلاً جميلاً".

وصوب الفجر نجلس على مصطبة مقهى الدوم، وقد نسينا أمر بيكوفر منذ وقت طويل. وحصلنا على شيء من الإثارة في البال نيغر وعاد ذهن جو إلى هاجسه الأبدي: العاهرة. وفي تلك الساعة بالذات، عند انتهاء عطلته الليلية، يتصاعد قلقه إلى مرحلة الحمى. ويفكر في النسوة اللواتي مر بهن في أول المساء، وبالمثابرات اللواتي كان يمكن أن يحصل عليهن لو أراد، لو لم يكن قد سئمهن. ويتذكر حتماً عاهرته الجيورجية ـ فقد كانت في المدة الأخيرة تطارده ككلب صيد، وتتوسل إليه أن يستعيدها على الأقل ريثما تجد عملاً، ويقول:«لا بأس في أن أطعمها مرة كل حين لكنني لا أستطيع إيواءها دائماً..... وإلا أفسدت علاقتي مع بقية العاهرات.». إن أكثر ما يزعجه بشأنها أنها لا تحمل على جسمها أي مقدار من اللحم، ويقول:"وكأنك تصحب هيكلاً عظمياً معك إلى السرير. وذات أمسية أحضرتها معي ـ من باب الشفقة ـ واحزر ما فعلت هذه العاهرة المجنونة بنفسها؟ لقد حلقت

الشعر عنه حتى صار نظيفاً..... لا تجد عليه شعرة واحدة. هل رأيت امرأة تحلق عشها؟ شيء مقزز، ألا ترى معي؟ ومضحك أيضاً. كأنه مجنون. و لم يعد يشبه العش في شيء : بل يشبه سمكة صدفية ميتة أو شيئاً من هذا القبيل" ويروح يصف لي، وقد نشط فضوله، كيف خرج من السرير وأخذ يبحث عن مصباحه الومضي. "وجعلتها تفتحه ووجهت إليه الضوء. ليتك رأيتني.... كان منظراً هزلياً. وانشغلت به حتى نسيت أمرها. و لم أكن قبلها قد أمعنت النظر في كس بهذه الجدية. حتى حسبتني لم أر واحداً من قبل. وكلما نظرت إليه ملياً صار أقل إثارة للاهتمام. إذ يتبين لك أن لا شيء استثنائي فيه، وخاصة بعد أن يحلق. فالشعر هو الذي يضفي عليه الغموض. ولهذا ترى أن التمثال لا يثيرك. مرة واحدة فقط رأيت فيها كساً حقيقياً في تمثال ـ صنعه رودان. يجب أن تراه يوماً..... كانت المرأة متباعدة الساقين.... ولا أظن أنه كان للتمثال رأس. ويمكنك أن تقول إنه لا يوجد إلا الكس. يا يسوع، بدت مرعبة. والجدير بالذكر ـ إنهن جميعاً يبدين متشابهات. حين ننظر إليهن مرتديات ملابسهن تتخيل جميع أنواع الأشياء. تخلع عليهن شخصية متميزة، لا يتحلين بها أصلاً، طبعاً. وبين الساقين لا يوجد إلا شق وترتفع حرارتك لرؤيته.ـ بل إنك لا تكاد تنظر إليه معظم الوقت. وتعرف أنه موجود هناك وكل ما تفكر به هو أن تقحم فيه مدكك، وكأن أيرك هو الذي يفكر نيابة عنك. هذا وهم! وأنت تتحرق للاشيء..... تحرق لشق عليه شعر، أو بدونه. إنه خال تماماً من أي معنى إلى درجة أن النظر إليه يفتنني. لا بد أني بقيت أدرسه لعشر دقائق أو أكثر. وحين تنظر إليه بهذه الصورة، باعتباره شيئاً منفصلاً، تخطر في ذهنك خواطر مضحكة. وبعد كل الغموض الذي يكتنف الجنس تكتشف أنه لا شيء ـ مجرد فراغ. أليس مضحكاً لو أنك تجد داخله هارمونيكا.... أو روزنامة؟ ولكن لا يوجد شيء.... لا شيء بالمرة. أنه مقزز. كاد يجرفني إلى الجنون.... اسمع، أتعلم ماذا فعلت بعد هذا؟ ضاجعتها بسرعة ومن ثم أدرت ظهري. نعم، وتناولت كتاباً ورحت أقرأ. فمن كتاب يمكنك أن تحصل على شيء ذي بال، وإن كان سيئاً..... أما كس، فمضيعة للوقت.... "

وتصادف أنه بينما كان ينهي حديثه إذا بإحدى العاهرات ترنو إليه.

وبدون أية فترة انتقال يقول لي مسرعاً: "هل تريد أن تطرحها؟ لن تكلف كثيراً.... وستأخذنا معاً" ودون أن ينتظر جوابي يقف مترنحاً ويتوجه إليها. ويعود بعد بضع دقائق. يقول "تم الأمر. أكمل شرب كأسك. إنها جائعة. لم يعد هناك عمل بعد هذه الساعة.... ستأخذنا معاً لقاء خمسة عشر فرنكاً. وسنذهب إلى غرفتي.... هكذا أرخص".

في الطريق إلى الفندق تصيب الفتاة رجفة شديدة حتى نضطر إلى التوقف لنبتاع لها كأساً من القهوة. إنها مخلوقة رقيقة وليست سيئة المنظر أبداً. واضح أنها تعرف فان نوردن، تعرف أنها يمكن أن تتوقع منه أكثر من خمسة عشر فرنكاً. ويقول مغمغماً بصوت منخفض "أنت لا تحمل أية نقود"، ولما لم أكن أملك سنتيماً واحداً لا أفهم شيئاً مما يقول، إلى أن ينفجر قائلاً: "إكراماً للمسيح، تذكر أننا مفلسان. لا تكن رقيق القلب حين نصعد إلى فوق. سوف تطلب منك أن تزيد السعر قليلاً ـ فأنا أعرف هذه العاهرة! كان يمكنني الحصول عليها مقابل عشرة فرنكات لو أردت. لا داعي لإفسادهن....".

وتقول لي وهي تلملم شتات ملاحظاته بفهمها البليد «إنه خبيث il est est pas، il n، nonلا ليس خبيثاً إنه لطيف جداً «. celuila»،michant il est tre's gentil» ،me'chant وتهز رأسها وهي تضحك:"أعرف جيداً هذا الرجل" ثم تبدأ بسرد قصة عثرات حظها، عن المستشفى والإيجار المتأخر والطفل الموجود في القرية. لكنها لا تبالغ. فهي تعرف أن آذاننا موقورة، لكن البؤس ساكن داخلها، كالحجر، ولا مكان لأية أفكار أخرى. ولا تحاول أن تستدر عطفنا ـ وهي فقط تنقل هذا العبء الثقيل الكامن داخلها من مكان إلى آخر. وأشعر بميل إليها. وأتمنى من المسيح أن لا تكون مصابة بمرض....

في الغرفة تقوم باستعداداتها بطريقة آلية. وتسألنا، وهي تجلس على الـ bidet «ألا أجد عندكما أي كسرة خبز» ويضحك فان نوردن من هذا السؤال ويقول، وهو يدفع إليها بزجاجة «خذي اشربي». إنها لا ترغب بشرب أي شيء، فمعدتها خاوية، وتشتكي.

يقول فان نوردن: "هذا هو أسلوبها دائماً، لا تتركها تتلاعب

بعواطفك. على أية حال أتمنى لـو تتكلـم عـن أي شـيء آخـر. بحق الجحيـم كيف يمكنك أن تنفعل وأنت مع عاهرة تتضور جوعاً؟".

بالضبط! ليس لدى أي منا أي شـغف. أما هـي فيتوقـع منهـا أن تقـدم مدلاة من الحجارة الكريمة لتكشف عن قبس مـن ولعهـا. ولكـن ثمـة خمسـة عشر فرنكاً ويجب عمل شيء بشأنها. وكأننا في حالة حرب: فحالمـا ينفجـر الوضع لا يعود أحد يفكر في غير السلام، في إنهاء الأمـر كلـه. ومـع ذلـك لا أحد يملك الشجاعة ليخفض سلاحه ويقول:«لقـد مللـت.... لقـد طفـح كيلي»، لا، فثمة خمسة عشر فرنكاً في مكان ما، و لم يعد أحد يأبه بها، ولـن ينالها أحد في النهاية علـى أيـة حـال، لكـن الخمسـة عشـر فرنكـاً هـي كعلـة الأشياء الأولى وبدل أن ينصت المرء إلى صوته الخـاص، بـدل أن يتخلـى عـن العلة الأولى، يستسلم للأمـر الواقـع، ويـروح يقتـل ويذبـح وكلمـا زاد جبنـه تصرف ببطولية أكبر، إلى أن يأتي يوم ينهار فيه الأساس وإذا بالمدافع تسكت فجأة ويلتقط حاملو المحفات الأبطال المشوهين النازفين والنياشين معلقـة علـى صدورهم. وبعدها يكون لدى المرء البقية الباقية من حياته ليقضيها في التفكير بالخمسة عشر فرنكاً. يكون قد فقد عينيه، أو ذراعيه، أو ساقيه، ولكن يبقـى له أن يعزى نفسه بقية حياته بالخمسة عشر فرنكاً التي نسيها الجميع.

الأمر يشبه تماماً حالـة حـرب ـ لا أستطيع نسيان هـذا. وأسـلوبها في التأثير عليّ، لتشعل لدي قبساً من الشغف، يجعلـني أفكـر كـم كنـت سـأبدو حنديا بائساً لو أنني كنت أحمق إلى درجة الوقوع في مثل هذا الفخ وأجـر إلى الجبهة. لا أستطيع احتمالها، وهذا كل مـا يسـعني قولـه. لكـن تفكيرهـا كلـه منصب على الخمسة عشر فرنكـاً وإذا لم أرغـب في المقاتلـة للحصـول عليهـا فستدفعني هي إلى ذلك. لكنك لا تستطيع أن تُدخِـل الفكـرة إلى رأس رجـل ليس في نفسه أي قتال. إن بعضنا هو من الجبن بحيث يتعـذر عليـك أن تخلـق منا أبطالاً، حتى ولو أرعبتنا حتى الموت. ربما لأن معرفتنا أكبر مما ينبغـي. إن بعضنا لا يعيش اللحظـة، بـل يعيـش بعدهـا بقليـل أو قبلهـا بقليـل. إن ذهـني مشغول طوال الوقت بمعاهدة السلام. ولا أستطيع أن أنسى أن الخمسة عشـر فرنكاً هي أصل كل هذا البلاء. خمسة عشر فرنكاً! ماذا تعني لي خمسة عشـر

فرنكاً، خاصة أنها ليست ملكي؟.

ويبدو أن فان نوردن يتبنى موقفاً طبيعياً أكثر من الموضوع فهو حتى الآن لا يأبه قط بالخمسة عشر فرنكاً، لكن الوضع بحد ذاته هو الذي يفتنه. كأنه يدعوه لتقديم عرض مفعم بالهمة والنشاط ـ ورجولته متورطة في الأمر. لقد ضاعت الخمسة عشر فرنكاً، سواء نجحنا أم لم ننجح. وثمة شيء آخر أكثر تورطاً ـ ربما ليس فقط الرجولة، بل والإرادة. وكأن رجلاً عاد إلى الخنادق ثانية لأنه لم يعد يفهم الداعي ليستمر في الحياة، وإذا هرب الآن فسيقبض عليه لاحقاً، لذا يواصل عمله، وعلى رغم أنه يحمل روح صرصار ويعترف بهذا لنفسه، اعطه مسدساً أو سكيناً أو حتى مجرد أظافره دون غيرها وسيظل يذبح ويقتل، وسيفصل أن يذبح مليوناً من الناس على أن يتوقف ليتساءل لماذا.

وبينما أراقب فان نوردن وهو يعالجها ببراعة، يخيل إلي أني أنظر إلى آلة انزلقت مسنناتها. وإذا تركتهما وشأنهما فسيتابعان حركتهما إلى الأبد، يطحنان وينزلقان، دون أن يحدث أي شيء، إلى أن تمتد يد لتوقف المحرك. ومرآهما متشابكين معاً كزوج من الماعز بلا أوهى شرارة من عاطفة، يطحنان ويطحنان لسبب وحيد هو الخمسة عشر فرنكاً، يزيل آخر ذرة من شعور لدى ذاك اللاإنساني المسمى إشباع الفضول. الفتاة مستلقية على طرف السرير وفان نوردن مائل فوقها كالساطير وقدماه مثبتتان بقوة على الأرض. وأنا جالس على كرسي خلفه، أراقب حركتهما بتجرد علمي بارد، ولا يهمني إن استمرت إلى الأبد. وكأني أراقب إحدى تلك الآلات المجنونة التي تلفظ الصحف بالملايين، والبلايين، والتريليايين بعناوينها الرئيسية الخالية من أي معنى. إن مراقبة الآلة بجنونها تبدو مفهومة أكثر، وفاتنة أكثر من مراقبة المخلوقات البشرية والأحداث التي أنتجتها. إن اهتمامي بفان نوردن والفتاة هو صفر، وإذا أمكنني أن أجلس هكذا أراقب كل حركة تنجز في هذه اللحظة في جميع أركان العالم لكان اهتمامي عندئذ هو أقل من صفر، ولما تمكنت من التفريق بين هذه الظاهرة وتساقط المطر أو تفجر بركان. وما دامت شرارة العاطفة تلك مفقودة فلن تكون هناك دلالة إنسانية في الإنجاز،

ويكون من الأفضل مراقبة الآلة. وهذان الإثنان أشبه بآلة انزلقت مسنناتها، وهي تحتاج إلى لمسة من يد إنسانية لإصلاحها، تحتاج إلى ميكانيكي.

أخرُّ على ركبتي خلف فان نوردن ولأتفحص الآلة بتركيز أشد. الفتاة ترمي برأسها إلى أحد الجانبين وتنظر إلي نظرة بائسة، وتقول "لا فائدة، مستحيل". وعلى الأثر يشرع فان نوردن بالعمل بطاقة متجددة، كتيس عجوز. إنه تيس عنيد جداً بحيث يفضل أن يحطم قرنيه على أن يستسلم. والآن يزداد غضبه لأنني ادغدغه من ردفه :

"إكراماً لله يا جو، كفى! ستقتل الفتاة المسكينة".

وينخر قائلاً: "دعني وشأني، كدت أدخله الآن".

وفجأة تعيد وقفته والطريقة المصممة التي نطق بها عبارته إلى ذهني، وللمرة الثانية، ذكرى حلمي. الآن فقط يبدو وكأن عصا المكنسة تلك، التي كان يدليها بلا مبالاة، من تحت إبطه، وهو يمضي في طريقه، قد ضاعت إلى الأبد. وكأنه تتمة الحلم ـ إن فان نوردن هو نفسه، لكنه بدون العلة الأولى. إنه أشبه ببطل عائد من الحرب، ابن حرام مسكين مقعد يعيش على واقع أحلامه. أينما يجلس يتقوص الكرسي من تحته، وكل باب يدخله يؤدي إلى عرفة خاوية، وكل ما يضع في فمه يترك مذاقاً مراً. كل شيء هو كما كان من قبل، العناصر الأولى لم تتغير، ولا يختلف الحلم عن الواقع. غير أنه أحياناً يخلد إلى النوم وحين يستيقظ يجد أن جسمه قد سرق. إنه كآلة ترمي الصحف، ملايين وبلايين منها كل يوم، صفحاتها الأولى زاخرة بأخبار الكوارث، وحوادث الشغب، والجرائم ، والانفجارات، والتصادمات، لكنه لا يشعر بأي شيء. إذا لم يتبرع أحدهم بإيقاف التدفق فلن يعرف معنى الموت، ولا يمكنك أن تموت إذا سرق منك جسدك الحقيقي. يمكنك أن تمتطي عاهرة وتعمل فيها كتيس وإلى الأبد، يمكنك أن تذهب إلى الخنادق لتنسف فتاتا، لا يمكن لأي شيء أن يقدح شرارة العاطفة إذا لم تتدخل يد إنسانية. على أحدهم أن يمد يد المساعدة إلى الالة ويعشّق المسننات من جديد. على أحدهم أن يفعل هذا دون انتظار لمكافأة، دون اهتمام بالخمسة عشر فرنكاً، شخص بصدر ضعيف بحيث أن الميدالية تحني ظهره. على

أحدهم أن يدخل القوت إلى عاهرة تتضور جوعاً دون خوف أن يخرجه منها ثانية. وإلا فإن هذا المشهد سيستمر إلى الأبد. ولا نخرج من المعمعة....

بعد التمسح بأذيال الرئيس طوال أسبوع كامل ـ وهذا هو الأسلوب المتبع ـ نجحت في الحصول على وظيفة بيكوفر. لقد مات ذاك الشيطان المسكين فعلاً، بعد أن خبط المهوى ببضع ساعات. وكما توقعت، أقاموا له جنازة فخمة، مع قداس مهيب وأكاليل ضخمة، وما إليها. "كل شيء مفهوم tout compris" وبعد مراسيم الدفن استعادوا إشراقهم، أقصد بهم شبان الطابق العلوي، في المقهى. من المؤسف أن بيكوفر لم يكن يستطيع أن يتناول معهم وجبة سريعة ـ لكان رحب بالجلوس مع شبان الطابق العلوي وسماع اسمه يتردد مرارا.

يجب أن أقول، منذ البدء، أنه ليس لدي ما أشتكي منه. وكأني في مستشفى للمجانين، مسموح لك فيها أن تستمني طوال ما بقي لك من حياة. العالم كله موضوع تحت أنفي والمطلوب مني أن أعين أوقات الفواجع. ليس هناك شيء لا يضع فيه سكان الطابق العلوي الزلقون أصابعهم، لا يمر فرح، ولا يأس مرور الكرام. فهم يعيشون بين حقائق الحياة الصعبة، أو الواقع، كما تسمى. إنها الواقع المستنقعي وهم فيه الضفادع التي لا عمل لها غير النقيق. وكلما زاد نقيقها صارت الحياة أكثر واقعية. المحامي، والكاهن، والطبيب، ورجال البوليس، والصحافي ـ هؤلاء هم المشعوذون الذين يجسون باصابعهم نبض العالم. ثمة جو مستمر من الفاجعة. وهو رائع. وكأن مقياس الحرارة لا يتغير، وكأن الراية لا تزال عند منتصف الساري. بات مفهوماً الآن كيف تستحوذ فكرة الجنة على وعي الناس، وكيف تحرز تقدماً حتى بعد أن تتقوض كل الدعائم من تحتها. لا بد أن هناك عالماً آخر إلى جانب هذا المستنقع فيه كل شيء مبعثر شذراً. من الصعب تصور الجنة المحتملة التي يحلم بها الناس. هي جنة الضفادع، ولا شك، مكونة من الأبخرة العفنة، والنفاية، والماء الراكد. إجلس على حشية من الليلك لا يزعجك أحد ونق طوال يومك. الجنة شيء يشبه هذا، في تصوري.

إن لكل من هذه الفواجع التي أصحح طباعتها ـ أثراً علاجياً عليّ. تصور

حالة من المناعة التامة، من الوحود الساحر، من الحياة المطلقة الأمان وسط العصيات السامة. لا شيء يؤثر بي، لا الزلازل ولا حركات الشغب ولا المصادمات ولا الحروب ولا الثورات. إنني ملقح ضد كل مرض، كل فاجعة، كل حسرة وبؤس. إنه أوح حياة التسات والجلد. في كوتي الصغيرة تكمن كل السموم التي ينفثها العالم كل يومٍ بين يدي. لا يتلوث مني قلامة ظفر. أنا منيع مناعة مطلقة. بل إنني أفضل حالاً من مساعد في مخبر، إذ ليس ثمة روائح كريهة هنا، لا تفوح إلا رائحة رصاص يحترق. يمكن للعالم أن ينفجر — ومع ذلك سأبقى هنا لأضع فاصلة هنا وأخرى منقوطة هناك. بل قد أتجاوز قليلا إلى الوقت الإضافي، فمع حدث كذاك من المؤكد أن تكون هناك زيادة أخيرة. وعندما سينفجر العالم ويرسل العدد الأخير إلى المطبعة سوف يجمع مصححو المطبوعات وبهدوء كل الفواصل، والفواصل المنقوطة، والواصلات، وعلامات النجم، والأقواس، والأهلّة، والنقاط، وعلامات التعجب، إلخ، ويضعونها في صندوق صغير فوق كرسي رئيس التحرير، "وهكذا ينتظم كل شيء comme ca tout est re'gle' ....".

والفاجعة العظمى بالنسبة لمصحح المطبوعات هي التهديد بفقدان عمله. وحين نجتمع وقت الاستراحة يكون السؤال الذي يشيع الرجفةً في ظهورنا هو :ماذا ستفعل إذا فقدت عملك؟ فبالنسبة لرجل يعمل كناساً للروث في اسطبل ترويض الخيول، الرعب الأعظم هو وجود عالم بلا خيول. ومن البلاهة بمكان أن تقول له إنه من المثير للاشمئزاز أن يقضي المرء حياته بجرف الروث الساخن. فبوسع الإنسان أن يحب الخراء إذا كان رزقه يعتمد عليه، وسعادته مرهونة به.

هذه الحياة التي، لوكنت ما أزال فيها الرجل ذا الأنفة، والشرف والطموح وما إليها، لبدت كأنها أدنى درجات الانحطاط، أرحب بها الآن، ترحيب المعتل بالموت. هذه حقيقة سلبية، كالموت تماماً ــ وهي نوع من الفردوس خالٍ من ألم ورعب الموت. في هذا العالم الجهنمي أهم شيء على الإطلاقِ هو علًم الإملاء والترقيم. ومهما تكن طبيعة الفاجعة، فكلمة طقس وحدها تُهجّى بشكل صحيح. كل شيء موجود على مستوى واحد، سواء

أكان آخر أزياء السهرة، أو اكتشافاً فلكياً، أو تزاحماً على مصرف لاستيراد الودائع، أو كارثة على سكة الحديد، أو سوق التيران، أو طلقة المائة إلى واحد، أو إعداماً، أو سرقة، أو اغتيالاً، أو أي شيء آخر. لا شيء يخفى على عين مصحح المطبوعات، ولكن لا شيء يخترق بدلته المضادة للرصاص. وتكتب مدام شير (الآنسة استيف سابقاً) للهندوسي آغا مير تقول إنها مرتاحة تمام الارتياح لعمله "تزوجت في السادس من حزيران وأقدم لك شكري. نحن سعيدان وآمل أن تدوم هذه السعادة، بفضل مقدرتك، إلى الأبد. لقد أبرقت لك نقوداً على شكل حوالة بريدية بمبلغ .... مكافأة لك.....". والهندوسي آغا مير يتنبأ لك بمستقبلك ويقرأ كل أفكارك بطريقة دقيقة وغير قابلة للتفسير. وسوف يمدك بالنصيحة، ويساعدك على التخلص من كل همومك ومشاكلك من أي نوع كانت، إلخ. "اتصل أو اكتب إلى ١٠ شارع ماكماهون، باريس".

إنه يقرأ جميع أفكارك بطريقة رائعة! وأقصد بكلامي كلها ودون استثناء، من أتفه الأفكار إلى أكثرها خزياً. ولا بد أن متسعاً فسيحاً من الوقت يتوفر لدى هذا الآغا مير. أم هل يركز فقط على أفكار الذين يرسلون إليه النقود بحوالات بريدية؟ وألاحظ في العدد نفسه عنواناً رئيسياً يقول إن "الكون يتسع بسرعة كبيرة جداً حتى يكاد ينفجر" وتحته صورة تمثل صداعاً نصفياً. ومن ثم كلام حول اللؤلؤة الموقعة بكلمة تكلا، tecla . وهو يخبر الجميع بلا استثناء أن الصدفة تعطي كليهما، أي "البرية" أو اللؤلؤة الشرقية، واللؤلؤة "المتحضرة". وفي اليوم نفسه، في كاتدرائية تريبه، يعرض الألمان معطف المسيح، وهي المرة الأولى التي يُخرَج فيها من المحفوظية منذ إثنين وأربعين عاماً. لم يذكر شيئاً عن البنطلون والبدلة. في سالزبورغ وفي اليوم نفسه أيضاً ولد فأران في بطن رجل، صدق أو لا تصدق، وممثلة سينمائية مشهورة صورت وهي تضع ساقاً فوق ساق: إنها تقضي وقت راحتها في الهايدبارك، وتحت الصورة علق أحد المصورين المعروفين "سأعترف أن للسيدة كوليدج من السحر والشخصية المتميزة ما كان سيخولها لتكون إحدى أشهر ١٢ أميركيا، حتى وإن لم يكن زوجها رئيس جمهورية". ومع حديث صحفي مع السيد همال من فيينا اقتطف مايلي... قال السيد همال:"قبل أن

أتوقف أود أن أقول لا يكفي أن تكون القصة وتطابق المقاييس مثالية، فالبرهان على الخياطة الجيدة، يبدو عند اللبس. على البدلة أن تكون مفصلة على مقاس الجسم، وتبقى طيتها حين يمشي لابسها أو يجلس". وكلما حدث انفجار في منجم للفحم ــ منجم بريطاني ــ فأرجو أن تلاحظوا أن الملك والملكة دائماً يرسلان تعازيهما على جناح السرعة، "برقياً". وهما دائماً يحضران السباقات الهامة، على رغم أنه قبل بضعة أيام، وحسب ما جاء في المخطوطة هطل في حلبة سباق دربي، على ما أعتقد، "مطر غزير، وكم كانت دهشة الملك والملكة عظيمة". أما الخبر المفجع أكثر فهو التالي: "ادعي في إيطاليا أن المضايقات ليست موجهة ضد الكنيسة، لكنها مع ذلك موجهة ضد أكثر أجزاء الكنيسة رفعة. وادعي أنها ليست ضد البابا، لكنها ضد قلب البابا وعينيه".

كان عليّ أن أسافر، ودون مبالغة، إلى جميع انحاء العالم بحثاً عن محراب مريح تماماً وممتع كهذا. يبدو أمراً لا يصدق على الإطلاق. فكيف كان لي أن أتنبأ، وفي أميركا، حيث يحشون مؤخرتك بالمفرقعات النارية ليملأوك شجاعة وإقداماً، أن العمل المثالي لإنسان ذي مزاج خاص مثلي هو البحث عن الأخطاء الإملائية؟ هناك لا تفكر إلا في أن تصبح رئيساً للولايات المتحدة يوماً ما. ففي داخل كل إنسان مزاج رئاسي. هنا يختلف الأمر. هنا كل إنسان هو في داخله صفر. إذا أصبحت ذا شأن أو ذا شخصية بارزة فهذه طفرة، معجزة، ونسبة الفرصة في عدم مغادرة قريتك هي ألف إلى واحد. ونسبة الفرصة في أن تنسف ساقك أو تقلع عينك هي ألف إلى واحد. إلا إذا حدثت المعجزة ووجدت نفسك لواءاً أو عميداً بحرياً.

بالذات لأن جميع الفرص هي ضدك، ولأنه ليس ثمة إلا النادر من الأمل فإن الحياة حلوة هنا. الأيام تتعاقب. بلا ماض ولا مستقبل. ومقياس الضغط الجوي لا يتغير، والراية ثابتة عند منتصف السارية. وتضع قطعة قماش من الكريب على ذراعك، وشريطاً صغيراً في عروة زرك، وإذا كنت محظوظاً مادياً ستتمكن من شراء زوج من الأعضاء الإصطناعية الخفيفة الوزن لنفسك، ويفضل أن تكون من الألومينيوم. وهذا لن يعيقك عن الاستمتاع

بتناول مشروب فاتح للشهية أو مشاهدة الحيوانـات في حديقـة الحيوانـات أو مغازلة الصقور اللواتي يبحرن في طـول الشـوارع وعرضهـا، يـترقبن وصـول جيفة جديدة. ويمر الوقت. فإذا كنت غريباً وكانت أوراقك نظامية فيمكنـك أن تعرض نفسك للإصابة بمرض معد دون خوف مـن التلـوث، ويفضـل، إذا أمكن، أن تحصل على وظيفة مصحح مطبوعات، وهكـذا ينتظـم كـل شـيء comme ca tout s'arrange. وهذا يعـني إذا تصـادف واعـترضك رجـال شرطة المرور، وأنت في الطريق إلى البيت في الثالثة صباحاً، يمكنـك أن تفرقـع بأصابعك في وجوههم. وفي الصباح عندما تكون السـوق في ذروة نشـاطها، يمكنك أن تبتاع بيضاً بلجيكياً، البيضة بخمسين سنتيماً. ومصحح المطبوعـات لا يستيقظ عادة حتى الظهيرة، أو بعدها بقليل. ومن الأفضل أن تختـار فندقـاً قريبـاً مـن دار للسـينما، حتـى إذا غلبـك النـوم توقظـك أجـراس بـدء الحفلـة الصباحية. وإذا لم تجد فندقاً قريبـاً مـن دار للسـينما، اخـتر واحـداً قريبـاً مـن مقبرة، فالنتيجة واحدة. ولكن قبل كل شيء لا تيأس ill ne faut jamais de'sesperer.

هذا ما أحاول أن أملأ به رأس كل من كارل وفان نـوردن كـل ليلـة. إنه عالم بلا أمل، لكنه بـلا يـأس. أبـدو وكـأني اهتديـت إلى ديـن جديـد، كأني كنت في كل ليلة أقيم تاسوعية سنوية لسيدتنا المعزية. لا أتصور مـاذا كنت سأربح لو عينت مديراً لصحيفة، أو حتى رئيسـاً للولايـات المتحـدة. إني أسير في زقاق مسدود، وكل شيء أليف ومريح. أحمل بيدي جزءاً مـن مخطوطـة طباعيـة وأنصـت إلى الموسـيقى المنسـابة مـن حـولي، إلى همهمـة ودمدمة الأصوات، وطقطقـة آلات المنـاضد السـطرية، وكـأن ألـف سـوار فضي يمر من خلال عصّارة، وبين آن وآخر يهرع فأر ماراً من أمام أقدامنـا أو يصعد صرصار الجدار المقابل لنا، متنقلاً برشاقة وحذر شديد على ساقيه الدقيقتين، وتنزلق أحداث النهار من تحت أنفـك، بهـدوء، بـلا تبـاه، وبـين الحين والآخر يتدخل سطر ثانوي ليدل على وجود يد إنسانية، علـى لمسـة غرور. ويمر الموكب بجلال، كدخـول موكـب جنـائزي مـن بوابـة المقـبرة. الورقة الموجودة تحت منضدة التحرير سميكة جداً بحيث تبـدو كسـجادة لهـا زغب ناعم، وهي تحت مقعد فان نوردن مبقعة من العصـارة البنيـة. وقرابـة

الساعة الحادية عشرة يصل بائع الجوز الأرمني نصف المجنون الذي بدوره قانع بقسمته من الحياة.

بين وقت وآخر تصلني برقية من مونا تقول فيها إنها ستصل على المركب التالي، ودائماً تقول:"ستتوالى رسائلي". والأمور تسير على هذا المنوال منذ تسعة أشهر، لكني لا أجد اسمها في أي من قوائم أسماء الواصلين على المراكب، و لم يحضر لي الغرسون رسالة على صينية من الفضة. بل لم يعد لدي أي أمل في هذا الاتجاه. فإذا وصلت يمكنها أن تبحث عني في الطابق السفلي، خلف المرحاض مباشرة. ولعلها ستقول لي على الفور إنه غير صحي. وهذا أول ما يصدم امرأة أميركية في أوروبا ـ إنه غير صحي. إذ يستحيل عليهم تصور جنة بلا تمديدات حديثة. وإذا عثروا على بقة فيسارعون بالكتابة إلى غرفة التجارة. كيف سيتسنى لي أن أشرح لها أني سعيد هنا؟ فستقول أني صرت منحطاً. أعرف أسلوبها من البداية وحتى النهاية. سوف ترغب في البحث عن استديو مع حديقة ملحقة به ـ ومع حوض استحمام، حتماً. إنها تريد أن تكون فقيرة بطريقة رومانطيقية. أعرفها. لكني مستعد لها هذه المرة.

تمر علي أيام تكون فيها الشمس ساطعة وأسير بعيداً عن الطريق المطروقة وأنا أفكر فيها بنهم. وبين آن وآخر، وعلى رغم رضاي المقيت، يخطر لي أن أفكر بطريقة جديدة للعيش، أن أتساءل إن كان وقوف مخلوقة شابة قلقة إلى جانبي سيحدث أي فرق. المشكلة هي أني بالكاد أستطيع تذكر شكلها أو شعوري وأنا أضمها بين ذراعي. إن كل ما ينتمي إلى الماضي يبدو وكأنه قد غرق في البحر، إن لدي ذكريات، غير أن الصور فقدت حيويتها، أضحت ميتة متقطعة، كمومياءات أكل الزمن عليها وشرب مغروزة في مستنقع. لو احاول أن أستعيد ذكرى حياتي في نيويورك فسأحصل على بضع مزق متفرقة، كابوسية ومغطاة بالزنجار. وكأن وجودي المنسق قد انتهى في مكان ما، ولا أعرف موقع هذا المكان على وجه الدقة. و لم أعد أميركياً، ولا نيويوركياً، بل إني أقل من هذا أوربي، أو باريسي. لا أكن أي ولاء أو شعور بالمسؤولية، أو أحقاد، أو هموم، أو تحاملات، أو حماس. لست مع أو

ضد. أنا محايد.

حين نتمشى نحن الثلاثة، ليلاً متجهين إلى البيت، فإن ذلك غالباً ما يحدث بعد تشنجات التقزز الأولى التي نمر بها عندما نتحدث عن حال الأمور بتلك الحماسة التي لا يتوصل إلى حشدها إلا الذين ليس لهم أي دور حيوي في الحياة. وما يبدو لي غريباً أحياناً، حين أزحف إلى السرير، أن كل هذه الحماسة وجدت لمجرد قتل الوقت، لمجرد إعدام ثلاثة أرباع الساعة التي يستغرقها التمشي من المكتب إلى مونبرناس. لعل لدينا ألمع الأفكار وأكثرها ملائمة من أجل تحسين هذا الشيء أو ذاك، ولكن لا توجد عربة لنشدها إليها. والأكثر غرابة هو أن غياب أدنى علاقة بين الأفكار والحياة لا يسبب لنا أي ألم أو قلق. أصبحنا متكيفين إلى درجة أنه لو أمرنا غداً بأن نسير على أيدينا فسنفعل بلا أوهى احتجاج. وطبعاً شريطة أن تصدر الصحيفة كالمعتاد، وأن نحصل على أجرنا بانتظام، وكل ما عدا ذلك لا يهم. لا شيء. لقد كُيِّفنا. صرنا حمالين صينيين، حمالين بقبات بيضاء، تسكتنا حفنة من الأرز نحصل عليها يومياً. كنت أقرأ قبل أيام أن في الجماجم الأميركية ميزة معينة هي وجود العظمة القمرية أو os incae ، في قفا الرأس. ووجود هذه العظمة، هكذا يتابع العالم قائلاً، منوط بمثابرة الدرزة القذالية المستعرضة والتي تكون عادة مقفلة في الحياة الجنينية. وعلى هذا فهي دلالة على تطور بطيء وسلالة منحطة. ويتابع قائلاً :"إن السعة الوسطية للجمجمة الأميركية تتدنى عند البيض وترتفع عنه عند السود. وبالمقارنة بين الجنسين نجد أن لدى الباريسيين سعة جمجمية تبلغ ١،٤٤٨سم٣، والزنوج ١،٣٤٤سم٣، والهنود الأمريكيين ١،٣٧٦سم٣." لا أستنتج من كل هذا أي شيء لأني أميركي ولست هندياً. ولكن من الذكاء شرح الأمور على هذا الشكل، بواسطة عظمة من نوع os incae ، مثلاً. ولا يختل توازن نظريته إذا اعترفنا أن نماذج منفردة من الجماجم الهندية قد وهبت سعة غير عادية مقدارها ١،٩٢٠سم٣، ولا تزيد السعة الجمجمية إلى أكثر من هذا في أية سلالة أخرى. إن ما ألاحظه بارتياح هو أن للباريسيين، من الجنسين، على ما يبدو سعة جمجمة عادية. فالدرزة القذالية المستعرضة على ما هو واضح ليست متابرة كثيراً لديهم. هم يعرفون كيف يستمتعون "بمشه" ولا يقلقون إذا لم تدهن المنازل.

ليس في جماجمهم ما هو غير عادي، حسب ما جاء في الفهارس الجمجمية. لا بد أن ثمة تفسيراً آخر لفن العيش الذي وصلوا به إلى درجة عالية من الكمال.

في المطعم الصغير القائم عند الطرف الآخر من الطريق والمسمى المسيو بول ثمة غرفة خلفية مخصصة للصحفيين حيث يمكننا تناول الطعام على الحساب. وهي غرفة صغيرة لطيفة مفروشة أرضيتها بنشارة الخشب، والذباب يعج في موسمه وفي غير موسمه. حين أقول إنها مخصصة للصحفيين لا أقصد أن ألمح إلى أننا نتناول طعامنا في عزلة، على العكس، إنه يعني أن لنا امتياز مزاملة العاهرات والقوادين الذين يشكلون العنصر الأساسي بين زبائن المسيو بول. وهذا الترتيب يطابق ميل شبان الطابق العلوي مع حرفt ، لأنهم دائماً في حالة بحث عن طرف ثوبtail ، وحتى الذين لديهم فتاة فرنسية دائمة لا ينفرون من القيام بتغيير ما بين الحين والآخر. الشيء الأساسي هو عدم الإصابة بالداء، فأحياناً يبدو وكأن وباءاً احتاح المكتب، أو ربما يفسر الأمر بالقول إنهم جميعاً يضاجعون امرأة ذاتها. مهما يكن، من الممتع ملاحظة مدى بؤسهم عندما يضطرون إلى الجلوس بجوار قواد يعيش، على الرغم من مصاعب مهنته الصغيرة، حياة تعتبر بالمقارنة مرفهة. يخطر إلى ذهني الآن وبشكل خاص شخص طويل القامة أشقر يسلم رسائل هافاس ممتطياً دراجة. وهو دائماً يتأخر قليلاً عن وجبته، ودائماً يتعرق بغزارة، ووجهه مغطى بالسخام. وله طريقته الرائعة الخرقاء في الدخول، مرحباً بالجميع باصبعين متوجهاً مباشرة إلى المغسلة القائمة بين المرحاض والمطبخ. وبينما هو يجفف وجهه يلقي نظرة متفحصة سريعة على مواد الطعام، فإذا رأى شريحة جميلة من اللحم ممدة على البلاطة يلتقطها ويشمها، أو يغمس المغرفة في الوعاء الكبير، ويتذوق ملء فم من الحساء. إنه أشبه بكلب بوليسي رائع، بأنفه الموجه دائماً إلى الأرض طوال الوقت. وبعد انتهاء الإجراءات التمهيدية، وبعد أن يتبول ويتمخط بعنف، يمشي بلا اكتراث إلى غانيته ويقبلها قبلة كبيرة مفرقعة مع ربتة رقيقة على الردف. لم أر هذه الغانية تبدو إلا طاهرة - حتى في الثالثة صباحاً بعد ليلة عمل. تبدو وكأنها خرجت لتوها من حمام تركي. من الممتع النظر إلى أولئك الوحوش الصحيحي الأجسام،

كل ذاك الاسترخاء، كل ذاك الحب، وتلك الشهية العارمة التي يبدونها. إنني أتكلم الآن عن وجبة العشاء، الوجبة الخفيفة التي تتناولها قبل مباشرة واجباتها. وبعد قليل سوف تضطر إلى الاستئذان من وحشها الأشقر الضخم الجثة، لترفرف إلى مكان ما على الجادة وترتشف شرابها المهضم. وإذا كان العمل مضجراً أو مرهقاً أو مهلكاً، فمن المؤكد أنها لن تظهر ذلك. وحين يصل الشاب الضخم، جائعاً كالذئب، تحيطه بذراعيها وتقبله بنهم ـ تقبل عينيه، أنفه، خديه، شعره، قفا رقبته.... وقد تقبل مؤخرته إذا استطاعت ذلك علناً. إنها ممتنة له، وهذا واضح. هي جارية بلا أجر. وطوال فترة تناول الطعام تضحك بتشنج. وسوف تعتقد أن الهموم مهما كانت لا تعرف إليها سبيلاً. وبين الفينة والفينة، وكتعبير عن الحب، تكيل له صفعة مدوية على وجهه. صفعة جديرة بإطاحة مصحح مطبوعات أرضاً.

لا يبدو أنهما واعيان لأي شيء خلاف نفسيهما والطعام الذي يلتهمانه بنهم. يا لرضاهما التام، وتناغمهما، وتفاهمهما المتبادل، ومراقبتهما تكاد تجرف فان نوردن إلى حافة الجنون، خاصة حين تتسلل يدها إلى داخل فتحة بنطال الشاب الضخم وتداعبه، ويستجيب عادة بأن يقبض على ثديها ويعصره عابثاً.

وعادة يصل زوج آخر في الوقت نفسه ويتصرفان كأنهما متزوجان. فيتشاجران، ويغسلان ملابسهما الداخلية علناً، وبعد أن ينغص كل منهما حياة الآخر وحياة كل من عداهما، بعد التهديدات واللعنات والملامات والاتهامات، يعوضان عن كل ذلك بالمغازلة والهديل، تماماً كزوج من طيور القمرية. ولوسيين، كما يناديها، شقراء بلاتينية ضخمة يحيط بها جو قاس كئيب. شفتها السفلى ممتلئة تمضغها بحقد حين تفقد صبرها، وعيناها باردتان مدورتان، بلون الأزرق الصيني الباهت، يتصبب عرقاً كلما ثبتتهما عليه. إلا أن لوسيين فتاة طيبة، على الرغم من صورتها الجانبية التي تبدو أقرب شبهاً بنسر الكوندور حين يبدأ الشجار. وحقيبة يدها دائماً ملأى بالدراهم، فإذا كانت حريصة في إنفاقها فذلك فقط لكي لا تشجع عاداته السيئة. وكانت شخصيته ضعيفة، إذا أخذنا تأنيباتها المطولة بعين الجد. وقد ينفق خمسين

فرنكاً حصيلة ليلة وهو ينتظر قدومها، وحين تأتي النادلة لتتلقى طلبه يكون قد فقد شهيته، وتزبجر لوسيين "أوه، ها أنت غير جائع من جديد! همبف! أظنك كنت تنتظرني في الفوبورج موعاتر. آمل أن تكون قد قضيت وقتاً ممتعاً هناك بينما أنا أكدح من أجلك. تكلم يا أبله، أين كنت؟".

حين تستشيط غضباً هكذا، حين تثار، ينظر إليها في خوف ومن ثم، وكأنه قد قرر أن السكوت هو أفضل حل، يخفض رأسه ويروح يعبث بفوطته. لكن هذه الحركة الصغيرة تعرفها حق المعرفة وطبعاً تسر لها سراً لأنها باتت مقتنعة الآن بأنه مذنب، لا تعمل إلا على تفاقم غضبها وتزعق "تكلم، يا أبله!" وبصوت متكسر وخائف وضعيف يشرح لها أنه بينما هو ينتظرها وصل به الجوع إلى مداه واضطر إلى التوقف لتناول شطيرة وكأس من البيرة. وكان ذلك كافياً لتدمير شهيته ـ يقول هذا بحزن بالرغم من أن من الواضح أن الطعام صار آخر ما يقلقه. ثم يردف فجأة "ولكن" ـ محاولاً أن يكون صوته أكثر إقناعاً ـ "كنت بانتظارك طوال الوقت".

وتزعق "كذاب! كذاب! آه، لحسن الحظ أني أنا أيضاً كاذبة.... كاذبة حاذقة. أنت تسقمني بأكاذيبك الصغيرة الحقيرة. لماذا لا تخبرني كذبة كبيرة؟".

ومن جديد يحني رأسه ويروح يلملم بذهن شارد كسرات من الخبز ويضعها في فمه، وعلى الأثر تصفعه على يده "لا تفعل هذا! أنت تضجرني. يا لك من أبله كذاب! انتظرني قليلاً! لا زال لدي ما أقوله! أنا أيضاً كذابة، لكني لست بلهاء".

لكنهما سرعان ما يجلسان متقاربين، متشابكي الأيدي، وهي تهمهم بنعومة:"آه، يا أرنبي الصغير، يصعب علي أن أتركك الآن. تعال إلى هنا، قبلني! ماذا لديك هذا المساء؟ قل لي الحقيقة، يا صغيري... آسفة على مزاجي السيء"، ويقبلها بخوف كأرينب بأذنين قرمزيتين، ينقر بلطف على شفتيها وكأنه يقضم ورقة ملفوف. وفي الوقت نفسه تهبط عيناه المستديرتان إلى كيس نقودها لتداعباه وهو ملقى مفتوحاً بجانبها على المقعد. إنه فقط ينتظر اللحظة المناسبة ليفلت منها بلباقة، يتلهف للهرب، ليجلس في إحد المقاهي

الهادئة في شارع فوبورج مونمارتر.

أعرف هذا الشيطان الصغير الري‏ء، بعينيه الأرنبيتين المستديرتين الخائفتين، وأعرف أي شارع شيطاني هو شارع فوبورج مونمارتر بلوحاته النحاسية الصفراء وبضاعته المطاطية، والأنوار تتلألأ طوال الليل والجنس يجري على طول الشارع كالمجرور. والسير في شارع لافاييت إلى الجادة هو ضرب من التحدي، فهن يلتصقن بك كالقشريات البحرية، ينهشنك كالنمل، ويلاطمن ويداهن ويتوسلن ويتضرعن ويكررن هذا بالألمانية، والانكليزية والإسبانية، يرينك قلوبهن الممزقة وأحذيتهن المشقوقة، وحتى بعد أن تتخلص من مجساتهن، وبعد أن يخفت الهس والبس بزمن طويل يظل عبق "الغسول" عالقاً بمنخريك - إنه عبير perfum de danse المضمون التأثير على مسافة عشرين سنتمتراً فقط. يمكن للمرء أن يتبول حياته كلها في ذاك الامتداد ما بين الجادة وشارع لافاييت. كل بار يضج بالحياة، ينبض، وأحجار النرد تلقى، وأمناء الصناديق يجثمون كصقور فوق مقاعدهم العالية وللنقود التي يتداولونها رائحة نتنة كرائحة البشر. لا يوجد في بنك فرنسا ما يعادل النقود المراقة للتداول هنا. النقود التي تنضح بالعرق البشري، تمتد كحريق غابة من يد إلى أخرى تاركة وراءها دخاناً ونتانة. إن من يتمكن من السير عبر الفوبورج مونمارتر ليلاً دون أن يلهث أو يتصبب عرقاً، دون أن يتلو صلاة أو تتردد لعنة على شفتيه، رجلاً كهذا ليس لديه خصيتان، وإذا كان لديه، فيجب أن يخصى.

ماذا لو أن ذاك الأرنب الصغير الخائف أنفق خمسين فرنكاً حصيلة ليلة واحدة وهو ينتظر لوسيين؟ ماذا لو أنه جاع فعلاً فاشترى شطيرة وكأساً من البيرة، أو أنه توقف ليتبادل الحديث مع عاهرة رحل آخر؟ أتظن أنه يجب أن يمل هذه الجولة ليلة بعد أخرى؟ أتعتقد أنها يجب أن تثقل عليه، تغمه، تضجره حتى الموت؟ آمل أن لا تعتقد أن القواد مخلوق غير إنساني فللقواد أحزانه الخاصة وبؤسه أيضاً، لا تنس هذا. لعله لن يجد ما هو أفضل من الوقوف كل ليلة عند الزاوية مع زوج من الكلاب البيضاء ويراقبهما وهما يتبولان. لعله سيفضل ذلك، إذا ما فتح الباب فوجدها هناك تقرأ الباري -

سوار، وعيناها مثقلتان بخدر النعاس. لعله ليس شيئاً رائعاً حداً حين يميل على حبيبته لوسيين، أن يتذوق أنفاس رجل آخر. ربما من الأفضل أن لا يكون معك إلا ثلاثة فرنكات وزوج من الكلاب البيضاء يتبولان عند الزاوية على أن تتذوق تلك الشفاه المرضوضة. أراهنك على أنها حين تضمه بقوة بين ذراعيها، حين تستجدي منه لفافة الحب تلك التي لا أحد غيره يعرف كيف يمدها بها، أراهنك على أنه يقاتل كألف من الشياطين ليدكه، ليزيل كل محل أثر لذاك الفوج الذي مشى قدماً بين ساقيها. ربما عندما يأخذ جسدها ويباشر التدرب على نغم جديد فإنه لن يثير فيه انفعالاً وفضولاً، بل قتال في الظلام، قتال بيد واحدة ضد الجيش الذي اقتحم الأبواب، الجيش الذي وطئها، داسها، تركها، مع نهم شرهٍ لا يكفي لإشباعه ولا حتى رودلف فالانتينو. وحين أنصت إلى الملامات المنهالة على فتاة مثل لوسيين، حين أسمع أحدهم يشوه سمعتها أو يحقرها لأنها باردة ومرتزقة، لأنها آلية جداً، أو لأنها دائماً في عجلة من أمرها، أو لهذا السبب أو ذاك، أقول لنفسي، تمهل يا هذا، على رسلك! أتذكر أنك تقف في آخر الموكب، تذكر أن فيلقاً كاملاً يحاصرها، وأنها تركت حطاماً، مسلوبة منهوبة. أقول لنفسي، اسمع يا هذا، لا تضن بالخمسة عشر فرنكاً التي أعطيتها لعلمك أن قوادها يبددها في الفوبورج مونمارتر، فالنقود نقودها والقواد قوادها. إنها نقود الدم. نقود لن تسحب من التداول لأنه لا يوجد في بنك فرنسا ما يعوضها.

هكذا أفكر في الأمر غالباً وأنا جالس في محرابي الصغير أتلاعب بتقارير "هافاس" أو أفك البرقيات القادمة من تشيكاغو ولندن ومونتريال. وبين سوقي المطاط والحرائر وسوق حبوب وينيبينغ ينز قليل من ضجيج الفوبورج مونمارتر وطشيشها. وعندما تصبح الأربطة ضعيفة ورخوة، وتتوقف المحاور عن دورانها والمواد المتطايرة تفور، وينساب سوق الحبوب وينزلق، وتخور الثيران، وتكون كل كارثة لعينة، وإعلان تجاري، ونبأ رياضي وخبر جديد، ووصول زورق، ومحاضرة مصورة، وثرثرة متلاحقة قد ضبطت، وفحصت، وروجعت، وصنفت، ومررت بين الأساور الفضية، حين أسمع الصفحة الأولى تطرق وتضرب وأرى الضفادع تتراقص كمفرقعات سكرى، أفكر في لوسيين وهي تشق عباب الشارع مفروشة الجناحين، كنسر كوندور فضي

هائل معلق فوق حركة المرور الكسلى، كطائر غريب يطل من ذرى جبال الأنديز ببطن بيضاء كالورد وعورة صغيرة متماسكة. أحياناً أتمشى إلى البيت وحدي وأتبعها عبر الشوارع المظلمة، أتبعها خلال قاعة اللوفر، من فوق جسر الفنون من تحت القناطر، عبر الصدوع والشقوق، والنعاس، والبياض المخدر، ومحل اللوكسمبورغ للشواء، والأغصان المتشابكة، والشخير والأنين، والشرائح الخضر، والنقر على الأوتار والرنين، وأطراف النجوم المدببة وبريق الترتر، وحواجز الماء، والمظلات المخططة بخطوط زرق وبيض التي لامستها بأطراف جناحيها.

في زرقة الفجر الكهربائي تبدو قشور الجوز شاحبة متغضنة، وعلى طول الشاطىء من مونبارناس تنحني أزهار ليلك الماء وتتكسر. وحين ينحسر المد لا يبقى إلا بضع حوريات مصابات بالسفلس جانحات على الأقذار، يبدو الدوم كرواق الرماية الذي ضربه إعصار. كل شيء يقطر ببطء عائداً إلى البالوعة. وتمر قرابة الساعة من السكون الأقرب شبهاً بالموت يزال خلالها القيء. وفجأة إذا بالأشجار تصرخ، ومن أدنى الجادة إلى أقصاها تتصاعد أغنية معتوهة، أشبه بالإشارة التي تعلن عن إغلاق سوق البورصة، وتجرف كل الآمال. ويحين الوقت لإفراغ آخر حقيبة ملأى بالبول. ويتسلل النهار كمجذوم.....

***

أحد الأشياء التي يجب عليك أن تتفاداها أثناء العمل الليلي هو أن لا تخرق جدول عملك، فإذا لم تأو إلى السرير قبل أن تبدأ العصافير بالصياح فلا فائدة مطلقاً من الإيواء إلى السرير. وهذا الصباح وبما أنه لم يكن لدي أي شيء أعمله، زرت الـjardin des plants . هنا تنظر إليك طيور البطريق الرائعة من تشابولتابك وطواويس بمراوح مرصعة بعيون بلهاء. وفجأة بدأ المطر يهطل.

وأثناء عودتي إلى مونبرناس بالباص لاحظت امرأة فرنسية تجلس قبالتي جلسة منتصبة وكأنها تستعد لتتهندم. كانت تجلس على طرف المقعد وكأنها تخشى أن تفسد طية ثوبها الفخم. فقلت في نفسي، رائع لو أنها تهز نفسها

فجأة ليقفز من مؤخرتها ذيل هائل مرصع ذو ريش طويل حريري.

في مقهى الجادة، حيث أتوقف لأتناول وجبة سريعة، ثمة امرأة ذات بطن مُنتفخ تحاول أن تثير اهتمامي بحالتها الجيدة. تود لو نذهب معاً إلى غرفة لقضاء ساعة أو ساعتين. إنها المرة الأولى التي يقدم لي فيها عرض من امرأة حامل: بل أكاد أرغب في المحاولة. حالما يولد الطفل ويسلّم إلى السلطات سوف تعود إلى مهنتها، كما تقول. إنها تصنع القبعات. وحين تلاحظ أن اهتمامي يفتر تتناول يدي وتضعها على بطنها، فأشعر بشيء يتحرك في الداخل، مما يذهب بشهيتي.

لم أر في حياتي مكاناً يشبه باريس في احتوائه على تشكيلات من القوت الجنسي. فحالما تفقد امرأة أحد أسنانها الأمامية أو عيناً أو ساقاً تحل نفسها من قيود الأخلاق. في أميركا قد تموت جوعاً إذا لم يكن لديها ما يزكيها غير عاهتها. أما هنا فالأمر يختلف. ففقدان سن أو بتر أنف أو هبوط فرج، أو أية بلية من شأنها أن تشوه طبيعة بساطة الأنثى، تبدو وكأنها مجرد بهارات تضاف إلى الطعام، عامل مثير لشهية الذكر المنهك القوى.

وأنا أتكلم طبعاً عن ذاك العالم الخاص بالمدن الكبرى، عالم من الرجال والنساء عصرت الآلة آخر قطرة من عصارتهم - فهم شهداء التقدم الحديث. هذه الكومة من العظام وأزرار الياقات يصعب على الرسام أن يلبسها لحماً.

لم أعد ثانية إلى التخوم الصحيحة للعالم الإنساني إلا في وقت متأخر من بعد الظهر، عندما وجدتني في معرض للفن في شارع سيز، يحيط بي رجال ماتيس ونساؤه. وعلى عتبة تلك القاعة الهائلة التي صارت جدرانها الآن تتلظى، توقفت لحظة لأبرأ من الصدمة التي يمر بها المرء حين تتبعثر قتامة العالم المعتادة شذراً وتنبجس بهجة الحياة غناءاً وشعراً. وأجدني في عالم فطري تماماً، وكامل إلى درجة أني احس بالضياع، أشعر كأني مغمور في قلب شبكة الحياة، في محرق أي مكان أختاره، أو موقع أو موقف أتخذه. ضائع كما كنت قد شعرت عندما غصت ذات مرة في قلب أيكة متبرعمة، وجلست في غرفة طعام عالم بعلبك الهائل، ولأول مرة قبضت على المعنى الأعمق لتلك الصور الساكنة الداخلية التي يتحلى حضورها من خلال تعويذة

الرؤية واللمس. وقفت على عتبة ذاك العالم الذي أبدعه ماتيس لأمر من جديد بتجربة قوة ذاك الإلهام الذي أتاح لبروست أن يشوه صورة الحياة تشويهاً بالغاً بحيث أنه لا يقدر على تحويل واقعية الحياة السلبية إلى الخطوط الأساسية وذات المغزى للفن إلا من هم على قدر عال من الحساسية، مثله، أمام كيمياء الصوت والإحساس. فقط الذين يستطيعون السماح للنور بالنفاذ إلى أحشائهم يمكنهم أن يترجموا ما في القلب. والآن أتذكر وبحيوية كيف تناثرت ومضة الضوء وشرارته المرتدتان من الشمعدانات الضخمة وجرت دماً، مرقشة زوائب الأمواج التي تضرب برتابة على الذهب الباهت خارج النوافذ. وعلى الشاطىء تضافرت الصواري والمداخن، وكظل قاتم انزلقت قامة ألبرتين[1] خلال الأمواج، ملتحمة مع سرعة وتنوع عالم البروتوبلازم الطيفي، ضامة ظلها إلى الحلم ونذير الموت. ومع انصرام النهار، يتصاعد الألم كالضباب من الأرض، وينطوي الحزن مسدلاً الستار على مشهد البحر والسماء اللامتناهي. وتستلقي يدان شمعيتان بتكاسل على غطاء السرير وعلى طول الشرايين الشاحبة تردد همهمة الصدفة الموسيقية أسطورة ولادتها.

في كل قصيدة رسمها ماتيس دون تاريخ كل ذرة من اللحم الإنساني الذي رفض اكتمال الموت. وانسياب الجسم كله، من الشعر إلى الظفر، يحكي معجزة التنفس، وكأن العين الداخلية، في ظمئها إلى حقيقة أعظم، حولت مسام الجسد إلى أفواه جائعة مبصرة. وكيفما ينظر المرء يمر بتجربة عبق وضجيج رحلة بحرية. ويكون من المستحيل أن يحدق حتى إلى زاوية من أحلامه دون أن يشعر بارتفاع الموج وبرودة رذاذ الماء المتطايرة المنعشة. إنه يقف عند دفة المركب يحدق بعينين زرقاوين ثابتتين إلى حقيبة الزمن. أية زوايا نائية لم تمتد إليها نظرته الثاقبة الطويلة المائلة؟ ويهبط بنظرته أسفل نتوء أنفه الهائل ليرى كل شيء ـ سلاسل الجبال تهبط غائصة في الباسيفيك، وتاريخ الدياسبورا يكتب على ورق رقي، ومصاريع نوافذ تغرد خرير مياه الشاطىء، والبيانو ينحني كالمحارة، وتويجات تنثر تناغمات الضوء، وحرابي[2]

---

[1](١) هي احدى بطلات الروائي الفرنسي مارسيل بروست ـ المترجم.

[2](١) حرابي: جمع حرباء . من الزواحف التي يتغير جلدها مع الطبيعة ـ المترجم.

تتلوى تحت مكبس الكتب، وسرايات سلطانية تتلاشى في محيطات من الغبار، وموسيقى تنبعث كالنار من اكتناف الألم الخفي، وبوغ ومرجان متشعب يخصبون الأرض، وسرر تلفظ نتاج كربها البراق.... هو حكيم لامع، عراف راقص يزيل، بحركة من الفرشاة، السقالة البشعة التي أوثقت بها حقائق الحياة التي لا تقبل الجدل الجسد الإنساني. وهو الذي يعرف، إن كان ثمة من يتمتع بهذه الموهبة، أين يلغي الشكل الإنساني، ولديه الشجاعة ليضحي ببيت شعر متناغم ليتبع إيقاع وغمغمة الدم، ويأخذ الضوء المنكسر داخله ويدعه يغمر تنوعات اللون. هو يتقصى، خلف تفاصيل الحياة، وفوضاها، وسخريتها، النموذج الخفي، يعلن عن اكتشافاته في الخضاب الميتافيزيقي للفضاء. لا يحث عن مصطلح، لا صلب لأفكار ولا قسر بدل الخلق. وحتى بينما العالم يتفتت يبقى هناك رجل واحد متمركز في لبه، يزداد ثباته ورسوخه صلابة، ونبذه قوة كلما أسرعت عملية التحلل.

يزداد العالم أكثر فأكثر شبهاً بحلم عالم حشرات، فالأرض تخرج عن مدارها، والمحور غير مركزه، ومن الشمال تهب عواصف الثلوج بهبات عاتية قاطعة كحد السكين، إن عصراً جليدياً جديداً يحل، والخيوط المعترضة تتقارب وفي جميع أنحاء النطاق المخروطي يموت العالم الجنيني، متحولاً إلى خشاء mostoid ميت. وتجف الدلتات إنشاً بعد إنش وأحواض الأنهار تصبح ملساء كسطح الزجاج. ثمة نهار جديد يبزغ، نهار معدني حين ستصلصل الأرض برذاذ من فلز أصفر براق. ومع هبوط مقياس الحرارة، تسربل الغشاوة شكل العالم، ويبقى التنافذ موجوداً، وترى هنا وهناك تمفصلاً، ولكن على السطح الخارجي كل الأوردة متوسعة، على السطح الخارجي تنحني أمواج الضوء والشمس تدمي كمعي مستقيم محطم.

في محور هذا الدولاب الذي يتفكك يكون ماتيس. وسوف يتابع دورانه إلى أن ينحل كل ما يكون الدولاب. لقد تدحرج حتى الآن قاطعاً رقعة كبيرة من الكرة الرضية، فوق بلاد فارس والهند والصين، وعلقت به ذرات مجهرية من بلاد الأكراد، وبالوخستان، وتمبكتو، والصومال، وأنغكور، وتييرا دل فيوغو، وكأنه مغناطيس. والمحظيات اللواتي رصعهن بمعدن الملكيت

دل فيوغو، وكأنه مغناطيس. والمحظيات اللواتي رصعهن بمعدن الملكيت وأحجار اليشب، أجسادهن مستورة بألف عين، عيون معطرة ومغموسة في مني حيتان البحر. وأينما هب السيم ثمة نهود طرية كالهلام، وتأتي الحمامات البيض لترفرف وتحفر في أوردة الهيمالايا الزرقاء كالثلج.

ورق الجدران الذي غطى به رجال العلم عالم الحقيقة يتساقط ويتفتت. والحياة جعلوا منها ماخوراً هائلاً لا يحتاج إلى أية زخارف، الشيء الوحيد الأساسي هو أن تكون المجارير جارية بانتظام. أما الجمال، الجمال الماكر، الذي قبض علينا من خصيتنا في أميركا، فقد انتهى. ولكي نسبر أعماق الحقيقة الجديدة يلزم أولاً أن نفك المجارير، ونفتح القنوات المصابة بالغرغرينا حتى آخرها والتي تشكل النظام البولي التناسلي الذي يغذي نفايات الفن. النهار يعبق برائحة البرمنغنات والفورماألدهيد، والمجاري مسدودة بالأجنة المخنوقة.

عالم ماتيس مازال جميلاً على طريقة غرفة النوم القديمة. لا يرى فيه حامل كريات، لا صحن، غلاية، لا مكبس، لا مفتاح إنكليزي. إنه العالم القديم نفسه الذي ذهب بمرح إلى الغابة في العصور الريفية أيام الخمر والمجون. إن مما يخفف عني ويبعثني أن أتنقل بين تلك المخلوقات ذات المسام الحية التي تتنفس، والخلفية الثابتة الصلبة كالضوء ذاته. أشعر بهذا بحدة حين أتمشى في شارع المادلين والمومسات تحف أثوابها بقربي، حيث مجرد النظر إليهن يجعلني أرتعش. ألأنهن أجنبيات أم حسنات التغذية؟ لا، فمن النادر أن تجد امرأة جميلة على طول بولفار المادلين. أما في رسوم ماتيس، وباكتشاف من ريشته، هناك تألق مرتعش لعالم لا يتطلب إلا وجود أنثى حتى يبلور أكثر الإيحاءات تملصاً. إن رؤية امرأة تعرض نفسها خارج مبولة حيث ألصقت إعلانات ورق السجائر، وشراب الرم، والألعاب البهلوانية، وسباقات الخيل، حيث تخرق أوراق الشجار الكثيفة سُمك الجدران والسقوف، هي تجربة تبدأ حيث ينتهي حدود العالم المعروف. وفي المساء، بينما أطوف حول جدران المقبرة، أتعثر، بين حين وآخر، بأشباح محظيات ماتيس موثقات إلى الأشجار، عروقهن المتشابكة مشبعة بالنسغ. وعلى مبعدة بضعة أقدام، يتمدد الشبح

المحنط الملفوف منكفئاً لبودلير، أو لعالم كامل لن يتردد في جنباته نفس واحد بعد الآن، وقد فصلته دهور لا متناهية من الزمن. وفي زوايا المقهى المعتمة يقف رجال ونساء متشابكي الأيدي، وأعضاؤهم التناسلية مبرقشة بغزارة، وعلى مقربة يقف النادل، وجيب مئزره مملوء بالسوات، ينتظر بصبر حلول الاستراحة لينطرح على زوجته ويحفرها. حتى والعالم ينهار ترتعش باريس ماتيس برعشات جنسية فاتنة لاهثة، الهواء نفسه مثبت بمني راكد، والأشجار متشابكة كالشعر. وعلى محوره المتذبذب يتحرج الدولاب بانتظام إلى أسفل التل، وليس فيه مكابح، أو حاملات كريات أو دواليب منطادية. الدولاب ينهار، لكن الثورة سليمة معافاة......

ذات يوم تصلني رسالة غير متوقعة من بوريس الذي لم أكن قد رأيته منذ شهور عديدة. إنها وثيقة غريبة ولا أدعي فهمي الكامل لها:"إن ما حدث بيننا ـ بالنسبة لي، على الأقل ـ هو أنك أثرت بي، أثرت في حياتي، أي، عند النقطة التي لا أزال عندها حياً: موتي. لقد انتقلت بالدفق الشعوري إلى انغمار آخر. عشت ثانية، بت حياً، ليس بالذكريات كالسابق، كما أفعل مع الآخرين، بل بالحياة".

هكذا بدأ الأمر. بلا كلمة ترحيب، بلا تاريخ، ولا عنوان. وكتبت بخربشة ناعمة فخمة على ورقة مسطرة اقتطعت من دفتر فارغ، "لهذا، سواء أعجبت بي أم لم تعجب ـ أميل في قرارتي إلى الاعتقاد أنك تكرهني ـ فأنت شديد القرب مني. بواسطتك أعرف كيف مت: أرى نفسي أموت ثانية: وأنا أموت فعلاً. وهذا رائع. أروع من أن أكون ميتاً ببساطة. ربما هذا هو سبب خوفي الشديد من مقابلتك: فلعلك خدعتني ومت. فالأحداث تقع بسرعة هذه الأيام".

إنني أعيد قراءتها سطراً سطراً، وأنا واقف بالقرب من طاولات التنضيد. تبدو لي غريبة الأطوار، بهذا اللغو عن الحياة والموت والأشياء التي تحدث بسرعة. لا شيء يحدث حسبما أرى عدا الكوارث المعتادة المدرجة على الصفحة الأولى. كان يعيش وحده خلال الشهور الستة الماضية، منزوياً في غرفة صغيرة رخيصة ـ وربما يقيم اتصالات تخاطرية telepathic مع كرونستادت. وهو يتحدث عن القوات المتقهقرة، عن إخلاء قطاع من الجبهة، وهلم جرا، وكأنه يقبع داخل خندق ويكتب تقريراً إلى مركز القيادة، ولعله كان يرتدي

معطف الفراك عندما جلس ليحط هذه الرسالة، وربما فرك يديه عدة مرات كما اعتاد أن يفعل حين يخبره أحد الزبائن عن رغبته في استئجار الشقة. ويبدأ من جديد قائلاً:"السبب في أنني أردتك أن تنتحر..."، وهنا أنفجر بالضحك، لقد كان يتمشى في طول المكان وعرضه، ويده مدسوسة في طية ذيل سترته في فيلا بورعيز، أو في بيت كرونستادت ـ وحيثما وجد فسحة مكان، كما كان الحال دائماً ـ يروح يسرد بسرعة كل ذاك الهراء حول العيش والموت، حتى يشفي غليله. ويجب أن أعترف أنني لم أفهم دهري كلمة مما يقول، غير أنه كان عرضاً جيداً، وبما أني رجل مهذب، فكان من الطبيعي أن أهتم بما يجري داخل معرض الوحوش في قحف دماغه. وأحياناً كان يستلقي على مقعده ممداً على طوله، مرهقاً من فيض الأفكار التي تجتاح رأسه. وتمس قدماه مساً رفيقاً حامل الكتب حيث يحتفظ بمؤلفات أفلاطون واسبينوزا ـ إنه لا يفهم لماذا لا ألجأ إليهما. ويجب أن أعترف بأنه كان يجعلهما يبدوان ممتعين، بالرغم من أنني لم أكن أعرف شيئاً عنهما. أحياناً كنت ألقي نظرة مختلسة إلى أحد المجلدات، لأطلع على تلك الأفكار الوحشية التي عزاها إليهما ـ بيد أن الصلة كانت واهية، ضعيفة. وحين كنت أنفرد به أقصد بوريس، كان يستخدم لغة خاصة به، ولكن حين أنصت إلى كرونستادت بدات لي أن بوريس قد انتحل أفكاره الرائعة. كانا يتكلمان شيئاً أشبه بالرياضيات العالية، لا يبدو فيه أي أثر للحم أو الدم، كان حديثاً مجرداً، عجيباً، شبحياً، غولياً. وحين يصلان إلى موضوع الموت يبدو حديثهما أكثر تماسكاً: فقبل كل شيء، يجب أن يكون للساطور أو للفأس مقبض. لقد استمتعت بتلك الجلسات أيما استمتاع. كانت المرة الأولى في حياتي التي بدا لي فيها الموت فاتناً ـ كل تلك الميتات المجردة التي تتضمن نوعاً من النزع الخالي من الدم. وكانا بين الحين والآخر يقرظاني لكوني مملوءاً بالحياة، ولكن بطريقة تربكني. لقد جعلاني أشعر أني أعاصر القرن التاسع عشر، اني نوع من رفاة رجعيةatavestic remenant ، أو مزقة رومانطيقية، أو انتصاب مفعم بالانفعال عند إنسان حاوا. وبوريس بشكل خاص كان لا يحصد إلا الخيبة جراء تماسه معي، أرادني أن أكون حياً حتى يموت هو من كل قلبه. كنت تطن من طريقته في النظر إلي وملامستي أن كل تلك الملايين من الناس السائرين في الشارع ما هم إلا أبقار ميتة. ولكن

الرسالة... إني أنسى الرسالة......"

"إن سبب رغبتي في أن تنتحر في تلك الليلة في بيت كرونستادت، حين أصبح مولدورف هو الله، يعود إلى أني كنت شديد القرب منك عندئذٍ. وربما أكثر قرباً مما سأكون يوماً. كنت خائفاً، خائفاً جداً، من أن يأتي يوم وتتخلى عني، أن تموت بسبب. عندئذ سأبقى ببساطة وحيداً منبوذاً لا أملك غير فكرتي عنك، وبلا أي سند. ولن أسامحك على ذلك".

قد تتصوره أنت يقول شيئاً من هذا القبيل! أما أنا فلا أفهم ماذا كانت فكرته عني، أو على الأقل، أفهم أني كنت محض فكرة، فكرة بقيت على قيد الحياة بلا قوت. إن بوريس لم يول بالغ أهمية لمشكلة القوت. لقد حاول أن يغذيني بالأفكار، فكل شيء كان فكرة. ومع ذلك، حين كان يصمم على تأجير الشقة، كان ينسى أن يضع مغسلة جديدة في المرحاض. على أية حال، لم يردني أن أموت بسببه. ويكتب قائلاً:"يجب أن تكون مصدراً لحياتي حتى النهاية. هذه هي الطريقة الوحيدة لمؤازرة فكرتي عنك. لأنك، كما ترى، مرتبط بشيء فائق الحيوية بالنسبة لي، ولا أعتقد أني سأتخلص منك، ولا أرغب في ذلك. أريدك أن تعيش بحيوية أكثر كل يوم، بقدر ما أنا ميت. لذا فحين أحدث عنك الآخرين أشعر بشيء من الخجل. فمن الصعب أن يتحدث المرء عن نفسه بحميمية شديدة".

لعلك تتصور أنه كان مشتاقاً إلى رؤيتي، أو يود أن يعرف ما أفعل ـ ولكن لا، لا يوجد سطر واحد عن شيء ملموس أو شخصي، اللهم إلا في لغة الحياة والموت هذه، لا شيء غير هذه الرسالة الصغيرة الآتية من الخنادق، ونفخة من الغاز السام يخبر بها كل من هب ودب أن الحرب لا تزال ناشبة. أحياناً أتساءل لماذا لا أنجح إلا في اجتذاب مشروخي العقول، ومرهقي الأعصاب، وعصابيين، ومضطربين عقلياً ـــ وخاصة من اليهود. لا بد أن شيئاً في الإنسان المهذب الصحيح يثير العقل اليهودي، كما يحدث عندما يرى، مثلاً، رغيفاً أسودَ عفناً. هناك على سبيل المثال، مولدورف، الذي جعل نفسه الله، كما يقول بوريس وكرونستادت. وهو يكرهني دون شك، ذاك الثعبان الحقير ـ ومع ذلك ما كان ليستطيع أن يبتعد عني. إنه يعرّج بانتظام ليتناول جرعته الصغيرة من الإهانات ـــ

فهي بمثابة مقولـه. صحيح أني في البدء تساهلت معه، فقد كان يدفع لي لأنصت إليه. وعلى الرغم من أني لم أظهر مرة تعاطفاً زائداً كنت أعرف كيف أصمت حين يكون الأمر متعلقاً بوجبة ومبلغ صغير من المال. غير أني وبعد فترة من الوقت، بعد أن عرفت مدى مازوشيته، سمحت لنفسي بالضحك في وجهه بين حين وآخر، مما كان يعمل عمل السوط عليه، ويجعل الحزن والأسى يتفجران منه بنشاط متجدد. وكان من الممكن أن يجري كل شيء على ما يرام لو لم يشعر أن من واجبه أن يحمي تانيا. ولكن كون تانيا يهودية أثار لديه مشكلات أخلاقية. وانتظر مني أن ألازم الآنسة كلود التي أعترف أني ضمرت لها حباً حقيقياً، بل إنه كان يدفع لي نقوداً أحياناً لأضاجعها. إلى أن أدرك أني فاسق لا أمل يرجى منه.

أذكر تانيا الآن أنها عادت لتوها من روسيا ـ قبل بضعة أيام فقط. وتخلف سيلفستر عن الحضور ليتدبر أمر العثور على عمل. لقد تخلى عن الأدب نهائياً، وسخر نفسه للمدينة الفاضلة الجديدة. وتانيا تريدني أن أعود معها إلى هناك، وتفضل مدينة "كريميا"، لنبدأ فيها حياة جديدة. قبل ايام تناولنا مقداراً لا بأس به من المشروب في غرفة كارل ونحن نناقش الإمكانات المتوفرة. أردت أن أعرف ما يمكنني القيام به لأكسب عيشي هناك ـ ليت بإمكاني أن أعمل مصحح مطبوعات مثلاً. قالت إنه لا مبرر لقلقي حول ما علي أن أعمله ـ هم سيجدون لي عملاً طالما إني جاد مخلص. حاولت أن أبدو جاداً، ولم أنجح إلا في أن أبدو حزيناً. هم لا يريدون أن يروا وجوهاً حزينة في روسيا، يريدونك أن تكون مرحاً، متحمساً، جذلاً، متفائلاً. وبدا لي ذلك أقرب شبهاً بالجو العام في أميركا. لم أكن قد ورثت هذا النوع من الحماس. وطبعاً لم أبح لها بهذا، لكني كنت أصلي بيني وبين نفسي لتتركني وشأني، لأعود إلى محرابي الصغير، وأبقى هناك إلى أن تندلع الحرب. كل ذاك الهراء عن روسيا أزعجني قليلاً. أما هي، تانيا، فكانت متحمسة لهذا الأمر حتى أننا شربنا نحو نصف دزينة من الـ "vin ordinaire" النبيذ العادي. كان كارل يقفز كالصرصار. وفيه من الصفات كيهودي ما جعله يفقد عقله عند ذكر روسيا. لن يحل الأمر إلا تزويجنا ـ وعلى الفور. ويقول "هيا! ليس لديك ما تفقده!" ومن ثم يتظاهر بالقيام بمهمة صغيرة حتى يتيح لنا أن نقوم

بمضاجعة سريعة. ومع أنها كانت راغبة فيها، أقصد تانيا، غير أن قضية روسيا بقيت تتجذر بقوة في دماغها حتى أنها بددت فترة الاستراحة وهي تمضغ أذني بها، وجعلتني نكداً مضطرباً. على أية حال، كان علينا أن نفكر في الأكل والذهاب إلى المكتب، وهكذا تكومنا في تاكسي في شارع ادغار ـ كينه على مرمى حجر من المقبرة، وانطلقنا. كانت ساعة ممتعة طفنا خلالها باريس في سيارة مكشوفة، والخمر الدائر في خوابينا جعل النزهة تبدو أكثر إمتاعاً من المعتاد. جلس كارل قبالتنا على الكرسي المسنود، ووجهه أحمر كالشوندر. كان سعيداً، ابن الحرام المسكين، وهو يفكر في الحياة الجديدة الفخمة التي سيعيشها في الجانب الآخر من أوروبا. ولكنه في الوقت نفسه كان يشعر أيضاً بشيء من الحزن ـ كما لا حظت. ورغبته في مغادرة باريس لم تكن أكبر من رغبتي. ولم تكن باريس منصفة له أو لأي إنسان آخر، ولكن حين تكون قد تألمت هنا وعانيت الأمرين عندئذ تسلب باريس لبك، وتقبض عليك من خصيتيك، إن صح التعبير، مثل عاهرة أضناها الحب تفضل الموت على أن تفلت من قبضتها. هكذا بدا الأمر له، في نظري. وننطلق عبر السين وترتسم على وجهه تكشيرة ويتلفت حوله إلى الأبنية والتماثيل وكأنه يراها في الحلم. وكالحلم بدت لي أيضاً: يدي تتلمس صدر تانيا وتضغط حلمتيها بكل قواي وأرى الماء يجري تحت الجسور والمراكب وكنيسة نوتردام في السفل، كما تصورها بطاقات البريد، وأفكر ثملاً وأنا أقول في دخيلتي هكذا يُناك المرء، لكني كنت أيضاً ماكراً بهذا الشأن وأدرك أني ما كنت لأقايض كل هذا الدوار الذي يلف رأسي بروسيا أو بالجنة أو بأي شيء على الأرض. قلت في نفسي الجو رائع، وبعد قليل تدفع بالطعام إلى بطوننا وبكل ما يسعنا أن نطلبه في مناسبة خاصة، مع نبيذ ثقيل جيد كفيل بمسح كل ذاك الحديث عن روسيا. ومع امرأة كتانيا، مملوءة بالحيوية وكل شيء، لا يأبهون لما قد يحدث لك طالما هناك فكرة تستحوذ على تفكيرهم. اتركهم يتمادون معك وسترى كيف يجردونك من ملابسك وأنت قابع في التاكسي. كانت نزهتنا فخمة، نمخر عباب حركة المرور، ووجوهنا ملطخة بأحمر الشفاه والنبيذ يغرغر داخلنا كما في بالوعة، خاصة ونحن ندخل شارع لافييت العريض بما يكفي ليبرز المعبد الموجود في نهاية الشارع وفوقه كنيسة القلب الأقدس،

وهي نوع من الهندسة المختلطة الغريبة، فكرة فرسية نيرة تخترق ثمالتك وتتركك سابحاً عاجزاً في الماضي، في حلم متدفق يجعلك يقظاً تماماً ولكن دون أن يوتر أعصابك.

مع عودة تانيا إلى مسرح الأحداث، وإيجاد عمل ثابت، والحديث المنتشي عن روسيا، والتمشي باتجاه البيت، وباريس في قلب الصيف، تبدو الحياة كأنها ترفع رأسها أعلى قليلاً. وربما كان هذا هو السبب في أن رسالة كالتي أرسلها لي بوريس تبدو حولاء تماماً. أقابل تانيا كل يوم تقريباً عند نحو الساعة الخامسة، لأتناول البورتو معها، هكذا تسميه، وأدعها تأخذني إلى أماكن لم أرتدها من قبل، إلى حانات مزدحمة في منطقة الشانزيليزيه حيث يبدو صدح موسيقى الجاز مع دندنة أصوات الأطفال كأنها تشبع خشب الماهوغاني. وحتى حين تذهب إلى المغسلة تلاحقك الأصوات الريانة اللينة، وتطير إليك داخلة المرحاض خلال المكيفات وتجعل الحياة كلها صابون وفقاعات متعددة الألوان، وسواء أبسبب غياب سيلفستر وشعورها بأنها حرة، أو مهما كان السبب، تحاول تانيا طبعاً أن تتصرف كملاك. وتقول لي في أحد الأيام": لقد عاملتني معاملة سيئة قبيل رحيلي. لماذا أردت أن تفعل ذلك؟ أنا لم أسبب لك أي أذى، أليس كذلك؟". وأصبح مزاجنا رومانطيقياً، مع وجود الأنوار الخافتة وتلك الموسيقى الدسمة الماهوغانية التي تنساب في المكان. واقترب وقت التوجه إلى العمل ولم نكن قد تناولنا الطعام بعد. كانت الأرومات ملقاة أمامنا ـ ستة فرنكات، أربعة فرنكات وخمسون سنتيماً، سبعة فرنكات، فرنكان وخمسون سنتيماً، كنت أعدها بشكل آلي متسائلاً في الوقت نفسه إن كنت أفضل أن أكون ساقياً في حانة. وفي أحيان كثيرة كتلك، وأثناء تحدثها معي، وهي تنطلق في الحديث عن روسيا، والمستقبل، والحب وكل ذاك الخراء، أنشغل أنا بالتفكير في أمور أبعد ما تكون عن ذاك الموضوع، عن أحذية لماعة أو عن كوني حارس مراحيض، وخاصة حسب ما أعتقد لأن الأماكن التي أخذتني إليها كانت أليفة جداً ولم يخطر ببالي قط أني سوف أغدو وقوراً أو ربما عجوزاً محني الظهر..... لا، كنت دائماً أتخيل أن المستقبل، مهما كان متواضعاً، سيكون شيئاً شبيهاً بتلك الصورة، مع الأنغام نفسها التي تصدح في رأسي والكؤوس التي ترن، وخلف

كل مؤخرة أنيقة ذيل من العطر عرضه بـاردة كفيـل بمحـو التناشة مـن الحيـاة كلها، حتى تلك الموجودة في المغاسل.

الغريب في الأمر هو أني لم أفسد بالتردد معها على الحانات الراقية على ذاك الشكل. طبعـاً، كـان صعباً علي أن أتركهـا. كنـت أقودهـا إلى رواق كنيسـة كائنـة بـالقرب مـن المكتـب ونقـف هنـاك في الظـلام نتعـانق للمـرة الأخيرة، وتهمس لي "يا إلهي، مـاذا سـأفعل الآن؟". أرادتـني أن أتـرك العمـل لأمارس معها الحب ليل نهار، و لم تعد تأبه حتى بروسيا، ما دمنا معاً. ولكـن حالما غادرتها صفا ذهني. وحين دفعت الباب الهزاز داخـلاً رحبـت موسيقى من نوع آخر، ليست دندنة رقيقة لكنها جيدة مع ذلـك، بـأذني. وبـدا كـأن نوعاً آخر من العطر، عرضه ليس فقط بـاردة، بـل هـو كلـي الوجـود، وهـو مزيج من العرق وعبـق الباتشـولي ينبعـث مـن الآلات. ودخلـت وأنـا ممتلـىء بالخمر، كما هي عادتي، وكأني أسقط فجأة إلى علـو منخفـض. وفي العـادة أتوجه من فوري إلى المرحاض ـ لأجدد قواي. فهناك الجو أكثر برودة أو ربما خرير الماء الجداري يجعله يبدو بارداً. ولطالما كان المرحاض بمثابة دوش بـارد، بحق. وقبـل أن تدخـل كـان عليـك أن تخـترق صفـاً مـن الفرنسـيين يخلعـون ملابسهم. تفووه! رائحتهم كريهة، أولئـك الشـياطين! وكـانوا ينـالون سـعراً عاليـاً لهـذا أيضـاً. ولكـن هـا هـم، عـراة، بعضهـم بسـراويل داخليـة طويلـة، ولبعضهم لحى، وأغلبهم شـاحب لـون السـحنة، كجـرذان سـقيمة يجـري في عروقها الرصاص. وداخل المرحاض يمكنك أن تجري عمليـة جـرد لأفكـارهم البليدة. الجدران مزدحمة برسوم مرتجلة وألقاب، كلها بذيئة بـذاءة مضحكـة، سهلة الفهم، وبشكل عام جميلة ومتجانسة. لا بد أن بعضها احتاج إلى سـلم لتدوينه في أماكن معينة، لكنني أعتقد أن الأمر كان يستحق العناء حتى لمجرد الاطلاع عليه من وجهة النظر النفسية. أحياناً كنت أتساءل، وأنا واقـف هنـا أتبول، عن الانطباع الذي يمكن أن أتركه لدى تلك النسوة المؤثـرات اللواتي رأيتهن داخلات خارجات من المراحيض الجميلة في الشانزليزيه. تسـاءلت إن كن سيرفعن أذيال أثوابهن عالياً جداً تباهياً لو رأين ما كتب عن المؤخرة هنا. لا شك في أن كل شيء في عالمهن شفاف مخملي ـ أو هكذا يجعلونـك تعتقـد بالعطور الرائعة التي يفوح عبقها منهن، أثناء مرورهن بك. بل إن بعضهـن لم

يكن دائماً من السيدات الراقيات، وبعضهن يتمشى ذهاباً وإياباً فقط لعرض بضاعته. وربما حين يختلين بأنفسهن، حين يتكلمن بصوت عال في غرف الزينة، تفلت من أفواههن بعض الأمور الغريبة أيضاً، لأن في ذاك العالم، كما في أي عالم آخر، القسم الأكبر مما يحدث هو مجرد قذارة وفحش، قذر كأي برميل زبالة، كل ما في الأمر أن لديهن من الحظ ما يتيح لهن وضع غطاء على البرميل.

وكما كنت أقول، في ظهيرة ذلك اليوم لم يكن للحياة مع تانيا حتى ذلك الحين أي أثر سيء عليّ. أحياناً كنت أسرف في الشرب فأضع أصبعي في حنجرتي لأتقيأ ـ لأنه من الصعب قراءة بروفة طباعية إذا لم تكن في كامل وعيك. فالتفتيش عن فاصلة ضائعة يحتاج من التركيز أكثر مما يتطلبه تلخيص فلسفة نيتشه. وحين تكون ثملاً يمكنك أحياناً أن تتفوق، ولكن التفوق في قسم تصحيح المطبوعات لا مكان له. التواريخ، الأجزاء الصغيرة، والفواصل المنقوطة، هي الأشياء المهمة. وهي الأشياء التي يصعب جداً تقصيها حين يكون الذهن متوقداً. وبين حين وآخر كنت أرتكب الأخطاء الفاحشة، ولو لم أتعلم كيف أقبل مؤخرة الرئيس، لطردت حتماً. بل إني تسلمت رسالة ذات يوم من المغولي الضخم القاطن في الطابق العلوي، مع أني لم اقابله قط، وكان قوي النفوذ، وقد ألمح لي بوضوح تام، بين بضع فقرات تهكمية حول ذكائي غير العادي، إلى أنه من الأفضل لي أن أعرف مقامي وألزمه وإلا دفعت الثمن. وبصراحة، لقد بث فيّ هذا الكلام رعباً شديداً. وبعد ذلك لم أعد أستخدم قط كلمة مؤلفة من عدة مقاطع في أي حديث، والواقع، لم أعد أفتح بوزي طوال الليل. ومثلت دور الأبله الراقي، وهو ما أرادوه منا. كنت، بين حين وآخر، وعلى سبيل تملق الرئيس، أذهب إليه لأسأله بأدب عن معنى هذه الكلمة أو تلك. وكان يحب ذلك. فصاحبنا كان أشبه بقاموس وقائمة أسماء. ومهما جرع من البيرة أثناء الاستراحة ـ وهو أيضاً يقرر استراحاته الخاصة حسب تقديره لسرعة سير العمل ـ لا يمكنك أن توقعه في خطأ تاريخ أو تعريف. لقد ولد لهذا العمل. أسفي الوحيد أني كنت أعرف أكثر مما ينبغي. وهذه المعرفة كانت تفلت مني أحياناً، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها. وإذا تصادف وأتيت إلى العمل وأنا أتأبط كتاباً فإن

صاحبنا الرئيس يلاحظه، فإذا كان كتاباً جيداً أثار ضغينته. غير أني لم أقم بأي عمل قصد إزعاجه، لقد أحببت العمل كثيراً بحيث لا يمكن أن أضع الأنشوطة حول عنقي. ومع ذلك يصعب التحدث إلى رجل لا تشترك معه في أي شيء، حينئذ تخدع نفسك، حتى وإن لم تستخدم إلا الكلمات ذوات المقاطع الأحادية. كان يعلم جيداً، أقصد الرئيس، أني لا أولي أدنى اهتمام لحكاياته، ومع ذلك، وكيفما فهمت الموضوع، كان يسعده أن يقصيني عن أحلامي ويملأني حتى آخري بالتواريخ والأحداث التاريخية. وأعتقد أن تلك كانت طريقته في الأخذ بالثأر.

والنتيجة أني ازددت عصابية. وصار مجرد ملامستي للهواء تجعلني متهوراً. ومهما كان موضوع الحديث الدائر أثناء عودتنا إلى مونبرناس في الصباح الباكر، فإني سرعان ما أصب النار عليه، أحمده، لكي أعرض للعيان أحلامي المارقة. وأحببت أكثر ما أحببت التحدث عن تلك الأشياء التي لا أحد منا يعرف أي شيء عنها. وكنت قد نميت نوعاً معتدلاً من الجنون، يسمى بالمصاداة[1] (echalabia) . وكل بقايا ليلة من مراجعة المطبوعات كانت ترقص على طرف لساني. "دالماتيا" ـ حملت نسخة من إعلان عن ذاك المصيف الجميل النادر. حسن، فلتكن دالماتيا. أستقل قطاراً ومع حلول الصباح تبدأ مسامك تنضح بالعرق وتكاد حبات العنب تمزق قشورها. كان بإمكاني أن أطوف كل دالماتيا من الشارع الكبير إلى قصر الكاردينال مازاران، بل وإلى أبعد من ذلك لو أردت. إني حتى لا أعرف أين تقع على الخريطة، ولا أريد أن أعرف، ولكن عندما تكون الساعة الثالثة فجراً والرصاص يجري في عروقك وثيابك منقوعة بالعرق، وعبق باتشولي مع قرقعة الأصفاد المارة عبر العصّارة والحكايا التي تدور مع كأس البيرة وكنت مولعاً بها، لا تعود أشياء صغيرة كالجغرافيا، والبدلة، والخطاب، وفن العمارة، تعني أي شيء. دالماتيا تنتمي إلى ساعة معينة من الليل بعد أن تسكت تلك الأجراس الكهربائية وتبدو قاعة اللوفر مثيرة للسخرية بشكل رائع حتى أنك تشعر برغبة في البكاء بلا أي داع، فقط لأن ثمة صمتاً رائع الجمال، وفراغاً،

---

[1] (١) المصاداة : الترداد المرضي لمايقوله الآخرون ـ المترجم.

لأن الجو يختلف تمام الاختلاف عما يظهر في الصفحة الأولى، وعن الشبان الذين يدحلجون النرد في الطابق العلوي. ومع وجود مكان صغير كدالماتيا يجثم على أعصابي النابضة كحد سكين بارد أمكنني اختبار أكثر أحاسيس الرحيل روعة. والطريف في الأمر أنه أمكنني أن أطوف العالم دون أن تخطر أميركا على بالي، كانت أكثر ضياعاً حتى من قارة مفقودة، لأني كنت أشعر نحو القارات المفقودة برباط غامض، في حين أنني لم اشعر بأي شيء نحو أميركا. صحيح أني كنت بين حين وآخر أفكر بمونا، ولكن ليس كما أفكر في شخص ضمن هالة محددة من الزمان والمكان، بل بشكل منفصل، منفرد، وكأنها تفجرت فصارت كتلة من السحاب عظيمة طمست الماضي. لم أستطع السماح لنفسي بالتفكير طويلاً، ولو فعلت لقفزت من فوق الجسر. شيء غريب. لقد صرت متوافقاً كثيراً مع هذه الحياة بدونها، ومع ذلك فلو فكرت فيها ولو لدقيقة لكانت كافية لخرق عظام رضاي ولبه، ولقذفتني ثانية، إلى حمأة الماضي التعيس المؤلمة.

سبع سنين وأنا أتنقل، ليل نهار، لا أحمل إلا فكرة واحدة في رأسي — هي لو كان هناك مسيحي مخلص لربه كإخلاصي لها لبات كل منا الآن يسوع مسيح. فكرت فيها ليل نهار، حتى وأنا اخدعها. والآن أحياناً، في غمرة الأشياء، حين أشعر أني متحرر حرية تامة من كل ذلك، إذ فجأة، وربما عند منعطف زاوية، تظهر بغتة ساحة صغيرة، بضع شجيرات ومقعد خشبي، بقعة مهجورة كنا قد وقفنا عندها وحسمنا الأمر بيننا، وأثار كل منا جنون الآخر بمشاهد مريرة غيور. ثمة دائماً بعض البقع المنبوذة، مثل بلاس دو لسيتراباد، أو تلك الشوارع القذرة المملوءة أسى في الطرف الآخر للجامع، أو المحاذية لقبر شارع دو بريتوي المفتوح، تغدو عند الساعة العاشرة ليلاً في منتهى السكون، والموت، تدفع المرء إلى التفكير في جرائم القتل أو في الانتحار، أو في أي شيء من شأنه أن يخلق أثراً من الدراما الإنسانية. وحين أدرك أنها رحلت، وربما إلى الأبد، يفغر فراغ عظيم فاه وأشعر أنني أغوص، أغوص، أغوص إلى الخواء الأسود اللامتناهي. وهذا أسوأ من ذرف الدموع، أعمق من الندم أو الألم أو الأسى، هو اللجة التي غاص فيها الشيطان. ولا سبيل للتراجع، لا بارقة نور، لا نبرة صوت إنساني أو لمسة يد إنسانية.

كم ألف مرة ومرة تساءلت، وأنا أجوس الشوارع ليلاً، إن كان سيعود اليوم الذي أجدها فيه إلى جانبي: منحت كل تلك النظرات المشتاقة للأبنية والتماثيل، نظرت إليها بنهم عظيم، ويأس، إلى درجة أن أفكاري أضحت الآن جزءاً من تلك الأبنية والتماثيل، ولا بد أنها أشبعت بألمي. ولا يسعني إلا أن أتذكر أيضاً أننا كنا نسير جنباً إلى جنب في تلك الشوارع الوسخة المترعة بالغم والتي باتت الآن مشبعة بأحلامي وحنيني، لم تلاحظ شيئاً، ولم تشعر بشيء، كانت بالنسبة لها كغيرها من الشوارع، ربما أكثر قذارة بقليل، ولا أكثر. لم تتذكر أني عند ركن معين وقفت لألتقط دبوس شعرها، أو أني حين انحنيت لأربط حذاءها، تعرفت على البقعة التي استقرت قدمها عليها وقلت إنها ستبقى هناك إلى الأبد، حتى بعد أن تهدم الكاتدرائيات وتفنى الحضارة اللاتينية كلها عن بكرة أبيها وإلى أبد الآبدين.

بينما أنا أشق طريقي في شارع لومون ذات أمسية وسط نوبة من الألم والوحشة غير العاديين، تبدت لي أشياء معينة بوضوح حاد. ولا أدري إن كان السبب هو أني كثيراً ما مشيت في هذه الشوارع تملأني المرارة واليأس أو أني تذكرت عبارة ألقتها في إحدى الليالي ونحن واقفان في ساحة لوسيان ـ هر، حين قالت:" لماذا لا تريني تلك الباريس التي كتبت عنها؟". ثمة شيء واحد أعرفه، هو أنه عند تذكري لهذه الكلمات أدركت فجأة استحالة أن أوضح لها أن باريس التي عرفتها، الباريس ذات الأبعاد اللامتناهية، هي باريس لم توجد إلا كإفراز من وحدتي، وشوقي إليها. وما أضخمها من باريس! ويحتاج اكتشافها إلى حياة بأكملها. هذه الباريس التي لم تعط مفاتيحها لغيري، لا تكاد تمنح نفسها مقابل جولة قصيرة، حتى بوجود أفضل النوايا، إنها باريس التي يجب معايشتها، معاناتها يومياً بألف شكل مختلف من العذاب، باريس التي تنمو كالسرطان، وتنمو وتنمو حتى تستهلكك تماماً.

وأطرق شارع موفيتار، حاملاً هذه الذكريات التي تشب في رأسي، وأذكر حادثة أخرى غريبة من الماضي، من ذاك الكتاب المرشد الذي طلبت مني أن أمزق أوراقه، بيد أني، وبسبب ثقل غلافه الكبير، لم أتمكن من فتحه ولا بالقوة. وبدون أدنى سبب ــ ولأن أفكاري في هذه اللحظة كانت

مشغولة بسالافان الذي صرت أهيم على وجهي في تخومه المقدسة الآن ـ أقول وبدون أي سبب، خطرت على بالي ذكرى أحد الأيام حين دخلت مندفعاً نزل أورفيلا، يلهمني دبوس زينة كنت أمر به يوماً بعد يوم، وطلبت رؤية غرفة ستريندبرغ التي كان يشغلها. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد وقع لي أي حدث مريع، على رغم أنني كنت قد فقدت لتوي جميع ممتلكاتي الدنيوية وعرفت معنى التسكع في الشوارع على الطوى والخوف من الشرطة. حتى ذلك الحين لم أكن قد عثرت على صديق واحد في باريس، وهي حالة لم تكن مقبضة قدر كونها محيرة، لأني حيثما همت على وجهي في هذا العالم كان أسهل شيء بالنسبة لي هو اكتشاف صديق. ولكن على أرض الواقع لم يكن قد حدث أمر مريع بعد. يمكن للإنسان أن يحيا بلا أصدقاء، مثلما يستطيع أن يحيا بلا حب، أو حتى بلا نقود، التي تعتبر شيئاً لا غنى عنه sine qua non. يمكن للإنسان أن يعيش في باريس ـ هذا ما اكتشفته! ـ على قوت الأسى والألم. فالعلقم ـ بالنسبة لبعض الناس هو أفضل غذاء. على أية حال، لم أكن قد وصلت بعد إلى نهاية أمدي. كنت فقط الهو مع الكارثة. كان لدي من الوقت والعاطفة ما يكفي ويزيد لأتلصص على حيوات الآخرين، لأعبث بنتاج الرومانسية الميت الذي، مهما بدا مرضياً، فإنه حين يغلف بدفتي كتاب يبدو نائياً بشكل لذيذ ومجهول الهوية. وبينما أنا أغادر المكان وعيت وجود ابتسامة ساخرة تحوم لترتسم على شفتي، وكأني أقول لنفسي "ليس الآن، يا نُزُل أورفيلا".

ومنذ ذلك الحين طبعاً تعلمت ما يكتشفه كل مجنون في باريس عاجلاً أم آجلاً، أي أنه ليس هناك جهنمات جاهزة للمعذبين.

يبدو لي أني بت الآن أفهم بشكل أفضل قليلاً سبب استمتاعها المفرط بقراءة ستريندبرغ. أكاد أراها وهي ترفع بصرها عن الكتاب بعد قراءة فقرة "لذيذة" وتقول لي، ودموع الضحك تطفر من عينيها:" أنت مجنون مثله تماماً.... ترغب بتلقي العقاب!". ما أعظم متعة السادية حين تكتشف مازوشيتها الخاصة! حين تعض نفسها لتختبر حدة أسنانها. في تلك الأيام، حين تعرفت إليها للمرة الأولى، كانت متخمة بستريندبرغ. ومهرجان

البرقات الماجن ذاك الـذي قصـف فيـه، تلـك المبـارزة الأبدية بـين الجنسـين، والضراوة العنكبوتية التي حببته إلى البلهاء الخرق الشماليين، كـل ذلـك كـان سبب تقاربنا. لقد اجتمعنا لنرقص رقصة الموت وسرعان ما ابتلعتني الدوامة بحيث أني حين عدت إلى السطح ثانية كانت الموسيقى قـد سـكتت، وانتهـى المهرجان وخرجت منه نقياً.....

بعد مغادرتي لنزل أورفيـلا بعـد ظهـيرة ذاك اليوم توجهـت إلى المكتبـة وهناك، وبعد أن اغتسلت في نهر الغـانج وتفكـرت في رمـوز دائـرة البـروج، رحت أتأمل في معنى ذاك الجحيم الذي رسمه سترينبدبرغ بلا رحمة. بينمـا أنـا هكذا، أخذت الصـورة تتضـح لي، سـر جحتـه، وتحليـق الشـاعر فـوق وجـه الأرض ومـن ثـم، وكأنمـا كتـب عليـه أن يعيـد أداء درامـا ضائعـة، والهبـوط البطولي إلى أعماق الأرض، والمقام المظلم المخيف في بطـن الحـوت والصـراع الدموي لتحرير نفسه، ليخرج من الماضي نظيفاً، شمساً ساطعة تجمـد الـدم في العروق ألقى الله ضياءها على شاطئ غريب. لم يعد سراً بالنسـبة لي سـبب جحـه والآخريـن (دانـتي، رابليـه، فـان غـوغ، إلخ، إلخ) إلى بـاريس. فهمـت عندئذ لماذا جذبت باريس المعذبين، والمهلوسين، والعشاق المهووسين العظـام. فهمـت لمـاذا يمكـن للمـرء هنـا، في محـور الـولاب بـالذات، أن يعـانق أشـد النظريات روعة، وأكثرها استحالة، دون أن يجد فيها أدنى قـدر مـن الغرابـة، هنا يعيد المرء قراءة كتب فترة الشباب الأول وتتخـذ الألغـاز معـان جديـدة، معنى لكـل شعرة بيضـاء. ويمشـي المـرء في الشـارع وهـو يعلـم أنـه مجنـون، ممسـوس، لأنـه مـن الواضـح أن تلـك الوجـوه البـاردة اللامباليـة هـي وجـوه سجّانيه. هنا تتمحي كل الحدود ويتضح أن العالم هو مسلخ مجنون. يظل فيـه دولاب التعذيـب يشـد إلى الأبـد وتغلـق المنـافذ الصغـيرة بإحكـام، ويتفشـى المنطق، ويومض ساطور يقطر دماً. الهواء بارد قارس وراكد، واللغة رؤيويـة. لا أثر لشارة مخرج في أي مكان، لا منفذ إلا إلى الموت. زقـاق مسـدود عنـد نهايته مشنقة.

خالدة، باريس! أكثر خلوداً من روما، أشد روعة من نينوى. هـي سـرة العالم يزحف المرء عائداً إليهـا، كمعتـوه أعمـى يتعـثر، على يديـه وركبتيـه،

ويطفو كقطعة فلين جرفت إلى قلب المحيط، هنا وسط خبث البحار وتخلفاتها، فاتر الهمة، يائساً، غافلاً حتى عن كولومبوس لو مر بقربه. إن مهود الحضارة ما هي إلا بلاليع فاسدة للعالم، مقبرة إليها تعهد الأرحام العفنة بلفائفها اللعينة من اللحم والعظم.

كانت الشوارع ملاجئي. ولا يمكن لإنسان أن يفهم فتنة الشوارع إلى أن يضطر إلى اللجوء إليها، إلى أن يغدو قشة تذروها زفرة من الريح إلى هنا وهناك. يسير المرء في أحد الشوارع في يوم شتائي فيرى كلباً معروضاً للبيع فإذا به يتأثر حتى تطفر الدموع من عينيه. في حين يقوم في الطرف الآخر من الشارع، جذلاً كمقبرة، كوخ بائس يسمى "فندق ضريح الأرانب hotel du tombeau des lapins" يدفع المرء إلى الضحك، الضحك حتى الموت. إلى أن يلاحظ أن ثمة فنادق في كل مكان للأرانب، والكلاب، والقمل، والأباطرة والوزراء، والمسترهنين، وتجار الخيول وما إليهم. وبعد كل فندق هناك آخر يدعى "فندق المستقبل"، مما يثير أكثر فأكثر حفيظة المرء. ما أكثر فنادق المستقبل! لا توجد فنادق لاسم المفعول، ولا لا للصيغ الشرطية، ولا لالتهابات الملتحمة. كل شيء وقور، رهيب، مرح بشكل يوقف شعر الرأس، متورم بالمستقبل، كأنه خراج اللثة. وأترنح ثملاً من أكزيما المستقبل الفاسقة هذه وأنا في طريقي إلى بلاس فيوليت، كل الألوان خبازي واردوازي، والأبواب واطئة جداً بحيث لا يستطيع الولوج منها إلا الأقزام والعفاريت، وفوق جمجمة "زولا" الباهتة تنفث المداخن فحماً صرفاً، بينما مادونا الشطائر تنصت بأذنين تشبهان ورقتي ملفوف إلى بقبقة أوعية الغاز، إلى تلك الضفادع المنتفخة الجميلة المقرفصة على جانبي الطريق.

لماذا أتذكر فجأة ممر التير موبيل؟ لأنه في ذلك اليوم كانت هناك امرأة تخاطب جروتها بلغة المسلخ الرؤيوية، وكانت الجروة الصغير تفهم ما تقوله تلك "الداية" العاهرة المزيّتة. كم كدرني ذلك! أكثر حتى من مشهد تلك الكلاب التي تباع وهي تئن على طريق برانسيون، إذ ليست الكلاب هي التي كانت تملأني بالشفقة، بل الحاجز الحديدي الكبير، والنتوءات المدببة الصدئة التي بدت كأنها تقف حائلاً بيني وبين حياتي الملائمة. وفي الزقاق الصغير

اللطيف قرب الأباتوار دو فوجيرار (مسلخ لحم الخيول) والذي يسمى طريق البيريشو، لاحظت وجدود بقع متناثرة من الدم. وكما كان ستريندبرغ أثناء فترة جنونه قد رأى بشائر وإشارات المعجزة في ممشى نزل أورفيلا نفسه، كذا أنا، بينما كنت أتجول بلا وجهة في هذا الزقاق الموحل الملطخ بالدم، طفت أمام عيني بتكاسل مزق منفصلة من الماضي، تنذرني بأوخم العواقب. تراءى لي من أبعد نقطة في ذاكرتي، بل من بدايتها الأولى، دمي يراق، والطريق الموحلة تتلطخ به. إن الإنسان ليقذف به إلى العالم كمومياء قذرة حقيرة، الطرقات زلقة من الدم ولا أحد يعلم لماذا هي كذلك. كل يسير في طريقه وعلى رغم أن الأرض تتعفن بالطيبات، فليس هناك متسع من الوقت لقطف الثمار، ويتدافع الموكب بالمناكب نحو إشارة تدل على المخرج، وكم من رعب هائل يعم، وكم من العرق ينضح جهاداً للهرب، حتى أن الضعفاء واليائسين يداسون في الوحل ولا من يسمع صراخهم.

اندثر عالمي الذي يقطنه الآدميون، وبت وحيداً تماماً في العالم واتخذت من الشوارع أصدقاء، وتحدثت الشوارع إلي بتلك اللغة الحزينة المريرة المؤلفة من البؤس، والشوق، والندم والفشل، والجهد المهدور الإنساني. وأثناء مروري من تحت الجسر على شارع بروكا، في الليلة التي تلت علمي أن مونا مريضة وتقاسي الجوع، تذكرت فجأة أنها هنا في قذارة وكآبة هذا الشارع الغائر، تشبثت بي، مرتعبة ربما من هاجس مستقبلي، وتوسلت إلي بصوت متهدج أن أعدها بأن لا أتخلى عنها، أبداً، ومهما حدث. وبعد ذلك بأيام قليلة وقفت على رصيف محطة القديس أليعازر أراقب القطار يقلع، القطار الذي يحملها: كانت تطل من النافذة، تماماً كما أطلت من النافذة حين تركتها في نيويورك، وهناك أيضاً كانت الابتسامة الحزينة المبهمة نفسها على وجهها، نظرة اللحظة الأخيرة تلك المقصود بها أن تعبر عن الكثير، لكنها ليست إلا قناعاً التَوَتْ قسماته لترسم ابتسامة فارغة. وقبل ذلك ببضعة أيام فقط كانت قد تشبثتْ بي تشبثاً يائساً ومن ثم حدث أمر، أمر لم تتضح لي ابعاده حتى الآن، وباختيارها الكامل استقلت القطار وراحت تنظر إلي ثانية مع تلك الابتسامة الحزينة المبهمة التي تحيرني، الظالمة، الشاذة، التي أرتاب فيها من كل روحي. الآن حان دوري، وأنا أقف في ظل الجسر، لأرحل إليها،

لأتعلق بها بهيام ولترتسم الابتسامة الغامضة نفسها على شفتي، القناع الذي أحكمت تركيبه فوق ألمي. يمكنني أن أقف هنا وأبتسم ابتسامة فارغة، ومهما بلغ توهج صلواتي، مهما بلغ قنوط اشتياقي، سيظل يفصلنا محيط كامل، ستبقى هي هناك تعاني الجوع، وأبقى أنا هنا أتسكع متنقلاً من شارع إلى آخر، تلسع الدموع الحارة وجهي.

مثل ذاك النوع من الوحشية هو الذي ينطمر في الشوارع، "ذاك" هو الشيء الذي يحدق إلينا من الجدران ويرعبنا حين تستجيب فجأة إلى خوف لا إسم له، حين يغزو أرواحنا فجأة رعب مقزز للنفس. "ذاك" هو الشيء الذي يضفي على مصابيح الشارع انحناءاتها الغولية، يجعلها تومىء إلينا وتغوينا إلى أن نقع في قبضتها الخانقة، "ذاك" هو الشيء الذي يجعل بيوتاً معينة تبدو كحماة لجرائم سرية وتجعل نوافذها المظلمة كمحاجر خاوية لعيون رأت أكثر مما ينبغي. مثل ذاك الشيء، المكتوب داخل الأسارير الإنسانية للشوارع، هو الذي يدفعني إلى الهرب حين أرى فجأة فوقي لوحة مكتوب عليها "طريق مسدود. شيطان". هو الذي يجعلني أرتجف حين ارى على مدخل الجامع مباشرة عبارة تقول:"أيام الإثنين والخميس سُلٌ، والأربعاء والجمعة سفلس". في كل محطة للمترو توجد جماجم مكشرة تحييك بعبارة "إحذر من السفلس!Defendez - vous contre la syphilis"!. وحيث وجدت جدران هناك ملصقات تمثل سلطعونات بشعة لامعة تعلن عن وصول مرض السرطان. وأينما تتوجه، وفي كل ما تلمس، يوجد السرطان السفلس. إنه مكتوب على صفحة السماء، يتلظى ويرقص، كنذير الشؤم. لقد نخر عميقاً في أرواحنا و لم نعد نشكل غير عنصر ميت كالقمر.

أعتقد أنه كان الرابع من تموز حين أخذوا الكرسي من تحتي ثانية. بلا كلمة تحذير. فقد قرر أحد القذرين الكبار من الطرف الآخر-للمحيط أن يقتصد، فالاقتطاع من أجور مصححي المطبوعات وضاربي الآلة الكاتبة الصغار المساكين سيمكنه من تسديد نفقات رحلاته ذهاباً وإياباً والشقق الفخمة التي يشغلها في الريتز. وبعد أن سددت الديون الصغيرة التي ترتبت علي بين عمال المنضدة السطرية ودفعت عربون المودة في المقهى الصغير الكائن عبر الشارع، لكي احافظ على سمعتي، و لم يبق معي شيء من أجري الأخير. كان علي أن أبلغ صاحب الفندق بأني سأغادره، و لم أعطه سبباً لأنه سيقلق على المثني فرنك الحقيرة التي له علي.

"ماذا ستفعل إذا فقدت عملك؟". هذه هي العبارة التي كانت ترن في أذني باستمرار"ca' y est maintenant! ausgespielt!" . لا شيء افعله غير أن أنزل إلى الشارع من جديد، أمشي، أتسكع، أجلس على المقاعد، أقتل الوقت. وطبعاً، بات وجهي مألوفاً في مونبرناس، وبقيت فترة أدعي أني لا أزال أعمل في الصحيفة. وكان ذلك يسهل علي قليلاً الحصول على وجبة إفطار أو عشاء. كان الوقت صيفاً والسياح يتدفقون. وكنت أخفي خططاً في كمي لتغريمهم. "ماذا ستفعل....؟". حسن لن أموت جوعاً، هذا كل شيء. ولو أني اكتفيت بالتركيز على الطعام لمنعني هذا من الانهيار. وتمكنت على مدى أسبوع أو اسبوعين من أن اتوجه إلى محل المسيوبول وأتناول وجبة مشبعة كل مساء، دون أن يعلم إن كنت أعمل أم لا. فالأكل هو أهم شيء. وكل ما عداه إعهد به إلى العناية الإلهية!.

طبيعي أني أصخت سمعي إلى كل ما له رنين الدراهم. وسعيت إلى تكوين مجموعة جديدة كاملة من المعارف ـ مضجرون كنت حتى ذلك الحين أتجنبهم بإلحاح، وسكارى كنت أشمئز منهم، وفنانون لا يكادون يملكون أي مال، ورجال نالوا جائزة غوغنهايم، إلخ. وليس من الصعب أن تعقد صداقات وأنت قابع على مصطبة أثنتي عشرة ساعة كل يوم. هناك ستتعرف على كل سكير في مونبرناس. إنهم يتعلقون بك كالقمل، حتى وإن لم يكن لديك ما تعيرهم غير أذنيك.

والآن بعد أن فقدت عملي صار لدى كارل وفان نوردن عبارة جديدة يلقيانها على مسمعي. "وماذا لو وصلت زوجتك الآن؟". حسن، وماذا في الأمر؟ سأطعم فمين بدل فم. سيصبح لدي رفيق في البؤس. وإذا لم تكن قد فقدت شكلها الحسن، فربما من الأفضل لي وجود زوجة من أن أكون وحيداً: إن العالم لا يسمح بوجود امرأة جميلة تعاني الجوع. ولم أتمكن من الاعتماد على تانيا في مساعدتي، لقد كانت ترسل النقود إلى سيلفستر. وفي أول الأمر اعتقدت أنها قد تسمح لي بمشاركتها غرفتها، لكنها كانت تخشى التعرض للسمعة السيئة، ثم إنه كان عليها أن تعامل رئيسها بلطف.

إن أول من هم جديرون بالاعتماد عليهم بين الناس حين تكون مقهوراً هم اليهود. وكان لدي ثلاثة منهم بين يدي دفعة واحدة. إنهم أرواح متعاطفة. أحدهم تاجر فرو متقاعد يتوق إلى أن يرى اسمه مكتوباً في الصحف، اقترح علي أن أكتب سلسلة من المقالات موقعة باسمه في جريدة يهودية يومية تطبع في نيويورك. وكان علي أن أقوم بجولة استكشاف في الدوم والكوبول بحثاً عن يهود مرموقين. وأول من قابلت كان عالم رياضيات شهيراً، لم يكن يحسن النطق بكلمة انكليزية واحدة. وكان علي أن أكتب عن نظرية الصدمة من المخططات التي تركها على الفوطات الورقية، وأن أصف حركات الأجسام الفضائية وأفند مفهوم إينشتاين في الوقت نفسه. كل هذا مقابل خمسة وعشرين فرنكاً. وعندما رأيت مقالاتي في الصحيفة لم أتمكن من قراءتها، إلا أنها بدت مؤثرة، والنتيجة واحدة، خاصة حين تكون موقعة بالاسم الزائف لتاجر فرو.

حلال هذه الفترة حررت الكثير من الكتابات بأسماء مستعارة. وحين افتتح الماخور الكبير الجديد أبوابه في بولفار إدغار ـ كينه حصلت على عمولة صغيرة مقابل كتابة كراريس المناسبة. تعني، زجاجة شمبانيا ونياكة مجانية في إحدى الغرف المصرية. وإذا نجحت في جلب زبون أحصل على العمولة، تماماً كما كان كيي يحصل عليها سابقاً. وفي إحدى الأمسيات أحضرت فان نوردن، وكان سيتيح لي فرصة ربح مبلغ مقابل توفير المتعة له في الطابق العلوي. زجاجة شمبانيا ونياكة مجانية. ولم ينلني شيء من الصفقة. والحقيقة هي أني اضطررت إلى أن أكتب القصة نيابة عنه لأنه لم يكن يعرف كيف يبدأ الموضوع دون ذكر نوع المكان الذي حدثت فيه. وتمر الأمور على هذه الوتيرة. وكنت أنا أناك على أعلى مستوى.

أما أسوأ عمل على الإطلاق فكان دراسة تكفلت بكتابتها لعالم نفسي اصم وأبكم. وهي رسالة في موضوع العناية بالأطفال المعاقين. وامتلأ رأسي بالعاهات والمشابك ومناضد العمل ونظريات الهواء الطلق، واستغرق هذا العمل مدة متقطعة مجموعها ستة أسابيع، ومن ثم، مما زاد الطين بلة، كان يجب أن أراجع ذلك الشيء اللعين. كانت مكتوبة بالفرنسية، بتلك الفرنسية التي لم أر أو أسمع مثيلاً لها في حياتي. لكنها وفرت لي يومياً إفطاراً جيداً، إفطاراً أمريكياً، مع عصير برتقال، وطحين الشوفان، والكريما، وقهوة، وأحياناً لحم خنزير وبيض على سبيل التغيير. كانت الفترة الوحيدة من أيامي في باريس التي انغمست أثناءها بتناول إفطار محترم، والفضل للأطفال المعاقين في روكا واي بيتش، والحي الشرقي وجميع الخلجان الصغيرة والمنافذ البحرية التي تحد هذه النقاط المترعة بالألم.

وذات يوم قابلت مصوراً، كان يجمع تشكيلة من الصور من الملاهي القذرة الباريسية لبعض المنحطين في ميونيخ. أراد أن يعرف إن كنت أرغب أن يصورني بدون سروال داخلي، وبأوضاع أخرى. وفكرت بأولئك الأقزام الصغار الهزليين الذين يبدون كخدم الفنادق وصبية البريد الذي نراهم أحياناً على البطاقات البريدية الإباحية التي تعرض في واجهات المكتبات الصغيرة، بالأشباح الغامضة التي تسكن شارع دولالون وزوايا أخرى من المدينة التي

تفوح منها الروائح الكريهة. لم تعجبني كثيراً فكرة عرض تضاريسي الطبيعية برفقة تلك النحبة. ولكن بما أنهم أكدوا لي ان الصور هي من أجل مجموعة خاصة محاطة بسرية تامة، وبما أنها سترسل إلى ميونيخ، وافقت. فحين لا تكون في مسقط رأسك يمكنك أن تسمح لنفسك بقليل من الحرية، وخاصة من أجل دافع وجيه مثل كسب قوت يومك. فأولاً، لم أكن مثيراً للتقزز كثيراً، حين أفكر بالأمر، حتى وأنا في نيويورك. لقد مرت علي ليال كنت أغرق خلالها في اليأس هناك، إلى درجة أنني كنت أخرج إلى حيّنا نفسه وأستجدي.

لم نكن نذهب إلى أماكن الآثار المعروفة لدى السياح، بل إلى المرابع الصغيرة الحقيرة حيث الجو العام أكثر ملاءمة، إلى حيث يمكننا أن نلعب لعبة ورق بعد الظهر قبل التوجه إلى العمل. كان ذاك المصور رفيقاً جيداً، ويعرف المدينة كلها وخاصة الأسوار، وكثيراً ما حدثني عن غوته، وأيام هوهنشتاوفن، وعن مذبحة اليهود أثناء تفشي الطاعون الأسود. مواضيع ممتعة ودائماً تتعلق بطريقة غامضة بأشياء كان يقوم بها. ولديه أفكار تصلح سيناريوهات أيضاً، أفكار مذهلة، ولكن لا أحد كانت لديه الشجاعة لتنفيذها. كان منظر حصان مشطور ومفتوح كباب حانة يمكن أن يلهمه بالحديث عن دانتي أو ليوناردو دافينتشي أو رامبرانت، ومن المسلخ في الفيليت قد يقفز إلى سيارة تاكسي ويدفعني إلى متحف التروكاديرو لكي يلفت انتباهي إلى جمجمة أو مومياء كانت قد سحرته. وقمنا بمسح المناطق الإدارية الخامسة والثالثة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين كلها. وكانت أماكن استراحتنا المفضلة عبارة عن بقاع صغيرة كئيبة مثل الساحة الوطنية وساحة أشجار الحور، وساحة سور الخندق، وساحة بول فرلين. وأغلب هذه الأماكن كان مألوفاً لدي مسبقاً، أما الآن فبتُّ أراها جميعاً بشكل مختلف على ضوء النكهة النادرة الحديثة. فإذا تصادف ومررت في هذه الأيام من شارع قصر النبلاء، مثلاً، وشممت عبق النتانة القوي المنبعث من أسرة المستشفى التي تكتنف جنبات الدائرة الثالثة عشرة، لانتفخت بلا شك فتحتا أنفي بهجة، لأن ذلك سيكون عبير رحلاتنا الخيالية خلال مشرحة أوروبا التي أوجدها الطاعون الأسود، ممزوجاً مع عبق البول الجاف والفورمالدهايد.

من خلاله تعرّفتُ على شخص ذي تفكير روحاني اسمه كروغر، وكـان نحاتاً ورساماً. وأولعت به لسبب أو لآخر، فقد استحال علي الإفلات منه بعدما اكتشف أني راغب في الاستماع إلى أفكاره "السرية". ففي هذا العالم أناس يبدو أن لكلمة "سري" فعل دم الآلهة المقدس عليهم، ككلمة "راسخ" بالنسبة للهر بيبر كورن في رواية "الجبل السحري". كان كروغر أحد أولئك القديسين الذين أصابهم خلل، فهو مازوشي، نموذج شرجي قانونه الشك والاستقامة والضمير الحي، في يوم عطلته يضرب رجلاً ويجعله يبتلع أسنانه دون أن يهتز له طرف. كان يعتقد أني من النضج بحيث أستحق أن أنتقل إلى مستوى آخر، "مستوى أعلى"، كما كان يقول. وكنت مستعداً للانتقال إلى أي مستوى يقرره، شريطة أن لا يضطرني إلى الإقلال من الأكل والشرب. وقد هرس رأسي بحديثه عن "الروح الخيطية" و"الجسد السببي" و"الاستئصال" و"الأوبانيشاد، وبلوتونيوس، وكرشنا مورتي" و"كساء الروح القدري" و"الوعي النيرفاني"، وكل ذاك الهراء الذي يهب من الشرق كاجتياح الوباء. أحياناً كان يدخل في غيبوبة ويتكلم عن تجسداته السابقة، أو هكذا كان يتخيلها، على الأقل. أو يسرد أحلامه التي، حسبما رأيت، كانت تافهة تماماً ومبتذلة، ولا تكاد تستحق ولا حتى التفاتة واحدة من أحد أنصار فرويد، أما هو فرأى أنها تنطوي على عدد كبير من الأعاجيب السرية في أعماقها، وكان علي أن أعينه على فك مغاليقها، وكشف عن دخيلته، كمعطف اهترأ زغبه.

وشيئاً فشيئاً كسبت ثقته، وشققت طريقي إلى قلبه. سيطرت عليه إلى درجة أنه بات يركض خلفي، في الشارع، ليسألني إن كان يستطيع أن يقرضني بضعة فرنكات. أراد أن يتحد معي ليعايش عملية الانتقال إلى المستوى الأعلى. وتصرفت كإجاصة تنضج على الشجرة. وكانت لي نكسات أحياناً فأعترف بحاجتي إلى مزيد من القوت الأرضي – إلى زيارة إلى السفينكس أو شارع سان أبولين حيث علمت أنه كان يذهب في لحظات ضعف حين تصبح متطلبات الجسد فائقة الإلحاح.

كرسام كان لا شيء، وكنحات كان أقل من لا شيء. كان رجل بيت

ناجحاً، وأنا أشهد بذلك، واقتصادياً حتى أخمصه. لا شيء يهدر، ولا حتى الورقة التي يلف بها اللحم. في اماسي أيام الجمعة يفتح باب مرسمه لرفاقه من الفنانين، حيث يدور الكثير من الشراب والشطائر اللذيذة، فإذا حدث وتخلف عنهم أي شيء آتي في اليوم التالي وألممه.

وخلف بال بوليه كان هناك مرسم آخر اعتدت أن اتردد عليه ــ هو مرسم مارك سويفت ـ وإذا لم نقل أنه عبقري فهذا الإيرلندي الساخر حتماً من غريبي الأطوار. كان يتخذ من إحدى اليهوديات موديلاً وكان يعاشرها قبلها بسنين عديدة، أما الآن فقد سئمها وأخذ يبحث عن ذريعة للتخلص منها. ولكن بما أنه استولى على المهر الذي أحضرته معها، فقد احتار كيف يتحرر منها دون أن يعطيها تعويضاً. وكان أسهل حل ان يثير عداوتها بحيث تختار الموت جوعاً على أن تتحمل وحشيته.

كانت مخلوقة رائعة، خليلته تلك، وأسوأ ما كان يمكن لأي مخلوق أن يقوله ضدها هو أنها فقدت شكلها الحسن، ثم أنها لم تعد قادرة على إعالته قط. وهي بدورها رسامة، وكان يقال، بين العارفين، أن موهبتها تفوق موهبته بمراحل. لكن بالرغم من كل محاولاته لينغص حياتها كانت عادلة، فلم تسمح لأي كان أن يقول إنه ليس رساماً عظيماً. وكانت تقول إن عبقريته بالذات هي سبب كونه إنساناً عفناً. ولا ترى أياً من رسومها معلقة على الجدران ــ كلها رسومه هو. رسوماتها كانت محشورة في المطبخ. وحدث مرة في حضورها أن ألح أحدهم على مشاهدة أعمالها هي. وكانت النتيجة مؤلمة. قال سويفت "أترى هذا الشكل"، مشيراً إلى إحدى لوحاتها بقدمه الكبيرة، "الرجل الواقف عند مدخل الباب ينوي أن يخرج ليتبول. وهو لن يتمكن من العودة لأن رأسه موضوع بشكل خطأ.... والآن إليك هذه العارية هناك.... كانت جيدة تماماً إلى أن بدأت برسم الكس. لا أدري بماذا كانت تفكر، إلا أنها جعلته كبيراً إلى حد أن الفرشاة انزلقت فيه ولم تستطع إخراجها بعد ذلك".

ولكي يرينا كيف يجب أن ترسم العارية يسحب لوحة كبيرة كان قد انتهى من رسمها حديثاً. كانت صورتها هي، لوحة تمثل انتقاماً ألهمه بها

إحساس بالذنب. كان عمل رجل مجنون ـ شرير، حقير، خبيث، لامع. وينتابك شعور بأنه تلصص عليها من ثقب الباب، بأنه فاجأها في لحظة شرود، وهي تعبث بأنفها أوهي تهرش مؤخرتها. كانت تجلس هناك على مقعدها في غرفة تفتقر إلى التهوية، غرفة هائلة الحجم ليس فيها نافذة واحدة، ولعلها كانت في السابق فلقة أمامية من غدة صنوبرية. وإلى الخلف منها امتد درج سلم متعرج يؤدي إلى الشرفة، غطي بسجادة ذات لون أخضر مصفر، لون أخضر لا ينبثق إلا من كون ذوى. أما أبرز ما فيها فردفاها، المتكفئان والمملوءان بالجرب، وقد بدت وكأنها رفعت مؤخرتها قليلاً عن الصوفا، كأنما لتضرط بصوت عال. وقد رسم لها وجهها بشكل مثالي: بدا حلواً بريئاً، نقياً كقرص السعال. لكن صدرها كان منتفخاً بغاز المجارير، وكأنها تسبح في بحر حيضي، كجنين متضخم له نظرة ملاك بلهاء حلوة كالشراب.

مع ذلك لم يكن يملك المرء إلا أن يعجب به. كان شغّيلاً لا يمل، رجلاً لا يحمل في رأسه إلا فكرة الرسم. وكان فوق ذلك ماكراً كوَشَق. وهو الذي أدخل في رأسي أن انمي صداقتي مع فيلمور، وهو شاب يعمل في السلك الدبلوماسي اهتدى إلى الفريق الصغير المحيط بكروغر وسويفت. قال:"اطلب منه أن يساعدك، إنه لا يدري ماذا يفعل بنقوده".

عندما ينفق المرء ماله على نفسه، عندما يقضي وقتاً طيباً بفضل نقوده، يقول الناس "إنه لا يدري ماذا يفعل بنقوده". أما أنا فلا أرى طريقة أفضل لإنفاق النقود. ولا يمكن أن يقال عن أناس كهؤلاء إنهم كرماء أو نتنون. هم يطرحون نقودهم للتداول ـ هذا هو المبدأ الأساسي. وكان فيلمور يعلم أن ايامه في فرنسا قد أضحت معدودة، وصمم على الاستمتاع بها. ولما كان الانسان يستمتع دائماً بشكل أفضل بصحبة صديق فمن الطبيعي أن يلتفت إلى صديق مثلي، لديه الكثير من الوقت ليتصرف به، ليوفر له الصحبة التي يحتاجها. وقال الناس عنه إنه ممل.

وأعتقد أن هذا صحيح، ولكن عندما تكون بأمس الحاجة إلى الطعام فإن بإمكانك أن تتحمل أشياء أسوأ من كونك مملولاً. وعلى كل حال، وعلى رغم أنه كان لا يكف عن الكلام، وغالباً ما كان كلامه يدور حول

نفسه أو عن المؤلفين المعجب بهم بخضوع ـ بعصافير أمثال أناطول فرانس وجوزيف كونراد ـ إلا أنه أضفى السرور على أمسياتي بطرق أخرى. كان يحب الرقص، والخمر الجيدة والنساء. وأمكنني أن أغفر له إعجابه ببايرون وفيكتور هوغو أيضاً، فلم يكن قد مضى على تخرجه من الجامعة إلا بضع سنين، وكان أمامه الكثير من الوقت ليشفى من مثل تلك الأذواق. أما ما أحببته فيه فهو حس المغامرة.

يمكنني أن أقول إن معرفتنا قد تطورت إلى الأفضل، أضحت أكثر حميمية، وذلك بعد حادثة وقعت أثناء إقامتي القصيرة مع كروغر. حدث ذلك بعد وصول كولينز، وهو بحار تعرف عليه فيلمور في طريق قدومه من أميركا. كنا نحن الثلاثة نتقابل بانتظام على مصطبة مقهى الروتوند قبل تناول طعام العشاء. وكان شرابنا الدائم هو البرنو، الذي كان يجعل كولينز في مزاج مرح، ويشكل قاعدة لبدء شرب النبيذ والبيرة، و"الروائع" إلخ، التي يجب ازدرادها جميعاً بعد ذلك. وطوال فترة مكوث كولينز في باريس عشت كدوق، لا آكل إلا الدجاج، ولا أشرب إلا الخمور الجيدة، بالإضافة إلى الفاكهة التي لم أكن حتى سمعت بها من قبل. ولو استمر ذلك النظام شهراً آخر لكان لزاماً علي ان اذهب إلى بادن ـ بادن أو فيشي أو إيه ـ ليه بين. في تلك الأثناء كان كروغر يبيتني في مرسمه. وصرت مصدر إزعاج لأنني لم أكن أظهر قبل الساعة الثالثة صباحاً، وكان من الصعب انتزاعي من السرير قبل الظهيرة. ولم يتفوه كروغر صراحة بكلمة تأنيب لكن مظهره كان يدل بما يكفي من الوضوح إلى أن أتحول إلى متبطل متطفل.

في أحد الأيام وقعت مريضاً. فقد أخذ النظام الغذائي الغني يترك أثره علي. لا أدري ماذا ألم بي حتى عجزت عن مغادرة الفراش. فقدت تماماً قدرتي على الاحتمال ومعها ما كنت أملك من شجاعة، واضطر كروغر إلى الاعتناء بي، وإعداد الحساء لي، وما إلى ذلك. كانت فترة تجربة بالنسبة له، وعلى الأخص لأنه كان على وشك أن يقيم معرضاً هاماً في مرسمه، وهو عرض خاص لبعض الخبراء من الأغنياء الذين كان ينتظر منهم بعض المساعدة. كان السرير النقال الذي أستلقي عليه موجوداً في المرسم، ولا

وجود لغرفة أخرى أنتقل إليها.

وفي صباح يوم إقامة المعرض استيقظ كروغر وهو حانق تماماً. ولو كان باستطاعتي أن أقف على قدمي أعرف أنه كان سيضربني ويرميني إلى الخارج. إلا أني كنت مسجى، وضعيفاً كقطة. وحاول أن يستدرجني لأغادر الفراش، مبيتاً أن يوصد علي باب المطبخ عند وصول الزوار. وأدركت أني أسبب له فوضى عظيمة. إذ لا يمكن للناس أن ينظروا إلى اللوحات والتماثيل بحماس حين يكون هناك رجل يحتضر أمام عيونهم. لا شك في أن كروغر كان يعتقد ويحق أني موشك على الموت، وكذا أنا. ولهذا، وعلى رغم شعوري بالذنب، لم أستطع حشد أي قدر من الحماس حين اقترح استدعاء الإسعاف لنقلي إلى المستشفى الأميركي. أردت أن أموت حيث كنت، براحة، في قلب المرسم، لم يعجبني حتى على مغادرة المكان لأموت في آخر افضل. لم يكن يهمني أين أموت، حقا، ما دمت لن أضطر إلى النهوض.

حين سمع كروغر كلامي هذا أصيب بالرعب. فأسوأ من وجود رجل مريض عند وصول الزوار كان وجود رجل ميت. مما كان جديراً بتدمير آماله تدميراً كاملاً، على ضآلتها. وهو طبعاً لم يصرح بهذا لكني لاحظت من توتره أن هذا ما يقلقه، ودفعني إلى أن أقف موقف المعاند. فرفضت قبول الاتصال بالمستشفى، ورفضت قبول استدعاء الطبيب. رفضت كل شيء.

أخيراً تصاعد غضبه مني، حتى أنه، على رغم احتجاجاتي، بدأ يلبسني ثيابي، وكنت أضعف من أن أقاوم. وأقصى ما استطعت عمله، كان أن أغمغم بوهن –"أنت يا ابن الحرام!"، ومع أن الجو في الخارج كان دافئاً كنت أرتجف ككلب. وبعد أن وضع علي كل ثيابي رمى بمعطف على كتفي وانسل خارجاً ليجري اتصالاً هاتفياً، ورحت أردد "لا أريد أن أذهب! لا أريد أن أذهب!" لكنه وببساطة صفع الباب في وجهي. وبعد بضع دقائق ودون أن يخاطبني بكلمة واحدة، شغل نفسه في المرسم باستعدادات الدقيقة الأخيرة. وبعد قليل سمع قرع جرس الباب. كان فيلمور. قال إن كولينز ينتظر في الأسفل.

تعاون الإثنان، فيلمور وكروغر على حملي وأوقفاني على قدمي.

وجراني إلى المصعد، وهدأ غضب كروغـر وقـال "إن هـذا لصـالحك. ثـم إن وجودك سيضر بي. أنت تعلم كم ناضلت طوال تلك السنين. يجب أن تفكر بي أيضاً". وأو شكت الدموع أن تطفر من عينيه.

على الرغم من إحساسي بيؤسي وقلة حيلتي فإن كلماتـه كـادت ترسـم الابتسامة على شفتي. كان أكبر مني سناً بكثير، وعلى رغم أنـه كـان رسـاما عفناً، فناناً عفناً على طول الخط، فقد كان يستحق فترة استراحة ــ ولـو مـرة في حياته.

غمغمتُ :"إني لا أتحامل عليك وأفهم وضعك" وأجاب "أنت تعلم أنـي أحببتك دائماً، وحين تتحسن حالك يمكنك أن تعود .... ويمكنك أن تمكـث قدر ما تشاء".

"طبعاً أعلم هذا..... سوف أكف عن النقيق"، ونجحت في الخروج.

حين رأيت كولينز في الأسفل استعدت شـيئاً مـن معنويـاتي. فـإذا كـان هناك من يتمتع بحيوية فائقة، والثروة، والمـرح، والشـهامة، فهـو. لقـد رفعـني بيديه كأني لعبة ووضعني على مقعد السيارة ـ وبرفق أيضـاً، وقـد قـدرت لـه هذا بعد طريقة كروغر الخشنة في المعاملة.

حين ذهبنا إلى الفندق ـ الفندق الـذي كـان ينزل فيـه كولينـز ــ دارت مناقشة قصيرة مع المالك، كنت أثناءها ممداً في الخـارج على صوفا في غرفـة المكتب. واستطعت سماع كولينز وهو يقول للمـالك إن مرضـه ليـس خطـيراً ..... إنها مجرد وعكة بسيطة...... سيكون على ما يـرام خـلال أيـام قليلـة. ورأيته يضع في يد الرجل ورقة نقدية متغضنة ومن ثم استدار بسرعة ورشـاقة وعاد إلى حيث كنت وقال "هيا، انهض لا تجعله يظن أنك تحتضر" ثم شدني لأقف على قدمي وأحاطني بذراع واحدة، ورافقني إلى المصعد.

"لا تجعله يظن أنك تحتضرا". كان واضحاً أن من قلة الـذوق أن يمـوت المرء بين أيدي الناس. على المرء أن يموت بين أحضـان عائلتـه سراً، إذا صـح التعبير. كانت كلماته مشجعة. وبدأت أرى الأمر علـى أنـه مزحـة سـخيفة. وفي الطابق العلوي، وبعد أن أوصدوا الباب، خلعـوا ملابسـي ودسـوني بـين الملاءات، وقال لي كولينز:"لا يمكن أن تمـوت الآن، اللعنـة سـوف توقعـني في

ورطة... ثم، ماذا ألم بك بحق الجحيم؟ ألا تحتمل العيش الرغيد؟ إرفع رأسك عالياً! ستعود إلى تناول الشريحة من البيت بعد يوم أو يومين. وتظن أنك مريض! يا إلهي، انتظر حتى تصاب بالسفلس! ذاك مرض سيجعلك تقلق حقاً...". وبدأ يحكي، بطريقة فكهة، رحلته إلى يانغتس كيانغ، وكيف أخذ شعره يسقط وأسنانه تتعفن وتهترىء، وفي حالة الضعف التي كنت فيها كان لقصته التي يلفقها تأثير مهدىء غير عادي. أبعدتني عن نفسي تماماً. شجاع ذاك الفتى. ربما كان يضيف ويغالي فيها قليلاً، لأجلي، لكني لم أكن أنصت في تلك الأثناء بحس نقدي. كنت مؤلفاً فقط من آذان وعيون. رايت مصب النهر الأصفر القذر، والأنوار تشمخ فوق هانكو، وبحراً من الوجوه الصفر، وزوارق السامبان تندفع خلال المضائق والمنحدرات النهرية تلتهب بنفث التنين الكبريتي. ويا لها من قصة! الحمالون البؤساء الذين يحتشدون حول القارب كل يوم، ليلتقطوا النفايات المقذوفة إلى اليم، وتوم سلا ترى ينهض وهو على فراش الموت ليلقي نظرة أخيرة على أضواء هانكو، وذاك الأوراسي الجميل الذي يستلقي في غرفة مظلمة وقد ملأ شرايينه بالسم، ورتابة الجاكتات الزرق والوجوه الصفر، وملايين ملايين منهم غائرون من شدة الجوع، مهترئون من المرض، يقتاتون على الجرذان والكلاب والجذور، يمضغون العشب عن الأرض ويلتهمون أطفالهم. كان من الصعب تصور أن جسد هذا الرجل كان يوماً كتلة من القروح، وأنه قد نبذ كمجذوم، كان صوته هادئاً جداً ورقيقاً، وكأن روحه قد تطهرت جراء كل الآلام التي تحملها. وبينما هو يمد يده ليتناول مشروبه أخذت تعابير وجهه ترق شيئاً فشيئاً بل إن كلماته بدت وكأنها تداعبي. وطوال الوقت كانت الصين تخيم علينا كالقدر المحتوم نفسه. صين تتعفن وتهترىء، تتهدم حتى تصبح تراباً كديناصور هائل، لكنها تحتفظ حتى النهاية ببريق، بسحر، بغموض، بقسوة أساطيرها الجليلة.

لم أعد أستطيع متابعة قصته، فقد ارتد عقلي إلى الرابع من تموز حين ابتعت أول مجموعة مفرقعات ومعها قطعاً طويلة من خشب الصوفان السريعة الانكسار، الخشب الذي تنفخ عليه لتحصل على لهب أحمر جيد، الخشب الذي تعلق رائحته بأصابعك أياماً طويلة وتجعلك تحلم بأشياء غريبة. في الرابع من تموز تشعشع الشوارع بالورق الأحمر اللذاع المزين بأشكال سوداء وذهبية

والمفرقعات الذهبية التي لها أغرب الالتواءات، لفائف ولفائف كثيرة في كل مكان، كلها معلقة معاً من خيوط إمعائها الرفيعة، المسطحة الصغيرة، ولها لون العقول الإنسانية. وطوال اليوم تشم رائحة البارود وخشب الصوفان وغبار الذهب تنتقل من ورق اللف الأحمر اللماع لتعلق بأصابعك. والصين لا تخطر على ذهن المرء أبداً، لكنها متواجدة دائماً على رؤوس أصابعك وتخرش أنفك، وبعد ذلك بوقت طويل، بعد أن تنسى رائحة المفرقعات الأصلية، تستيقظ ذات يوم وورقة ذهب تكاد تخنقك وقطع صغيرة من خشب الصوفان تعيد عبقها الحريف ويمنحك ورق اللف الأحمر اللامع شعوراً بالحنين إلى أناس وتربة لم تعرفهما دهرك، لكنه موجود في دمك، موجود في دمك بشكل غامض، كالإحساس بالزمان أو بالفراغ، هو قيمة هائلة متواصلة تعود إليها أكثر فأكثر كلما تقدمت بك العمر وتحاول أن تقبض عليها بعقلك، ولكن دون فائدة، لأنه في كل ما هو صيني ثمة حكمة وغموض وتعجز عن الإمساك به بيديك أو بعقلك، بل عليك أن تتركه يزول، تدعه يلتصق بأصابعك، تدعه يرشح ببطء إلى شرايينك.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، وإبان تسلمي دعوة ملحة من كولينز االذي كان قد عاد إلى الهافر، استقللنا أنا وفيلمور القطار في صباح أحد الأيام، استعداداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أخرج فيها من باريس منذ وصولي إليها. كنا في مزاج رائع، نحتسي الآنجو طول الطريق إلى الشاطىء، وكان كولينز قد اعطانا عنوان الحانة التي ستتقابل فيها، وهي مكان يدعى حانة جيمي، من المفروض أن يعرفها كل من يقطن الهافر.

استقللنا عربة مكشوفة من المحطة، وانطلقنا بخطوة رشيقة لنلحق موعدنا، وكان لا يزال معنا نصف زجاجة من الآنجو لنسفحها في طريقنا. بدا الهافر بهيجاً، مشمساً والهواء منعشاً، ممزوجاً بتلك النكهة الملحية الحادة القوية التي كادت تجعلني أحن إلى نيويورك. كانت هناك سوار وهياكل سفن تظهر بشكل مفاجىء في كل مكان، وأطراف من ساحات رحبة، متفرقة، براقة، ومقاهٍ عالية سقوفها كتلك التي يراها المرء في الضواحي. وحصلنا في الحال على انطباع رائع، كانت المدينة تستقبلنا بذراعين مفتوحين.

قبل أن نصل إلى الحانة رأينا كولينز يقترب بخطى رشيقة قاصداً المحطة، بلا شك، ومتأخراً قليلاً كعادته. وسرعان ما اقترح فيلمور تناول البرنو، وتبادلنا جميعاً الربت على الأكتاف ونحن نضحك ونبصق، وقد سكرنا لتونا من أشعة الشمس وهواء البحر المملح. في أول الأمر بدا كولينز متردداً بشأن البرنو. ثم أخبرنا أنه أصيب إصابة خفيفة بالسيلان. لا شيء يدعو إلى القلق ـ هو من "الإجهاد" على الأغلب. وأرانا زجاجة كان يضعها في جيبه ـــ وتدعى "venetienne"إن لم تخني ذاكرتي. وهي علاج البحارة ضد السيلان.

توقفنا في أحد المطاعم لتناول وجبة خفيفة قبل أن نلجأ إلى حانة جيمي. كانت حانة فسيحة، في سقفها عوارض مائلة وموائد تنوء بما عليها من طعام. وشربنا بإفراط من الخمور التي أوصى كولينز بطلبها. ثم جلسنا على المصطبة وتناولنا قهوة ومشروبات معطرة. كان كولينز يتحدث عن بارون دو شارلو، وهو رجل يعيش كما يهوى تماماً، كما قال. ويقطن الهافر منذ عام تقريباً ويعيش من النقود التي جمعها خلال أيام التهريب. كانت أذواقه بسيطة، طعام، شراب، نساء، كتب. وحمام خاص! وهذا ما يصر عليه.

حين وصلنا حانة جيمي كنا لا نزال نتحدث عن البارون دو شارلو. كان المساء أخذ يقترب وقد بدأ المكان يمتلىء. كان جيمي موجوداً هناك، بوجهه الأحمر كالشوندر، وإلى جانبه جلست زوجته، وهي امرأة فرنسية رائعة وممتلئة لها عينان براقتان. واحتفى الجميع بنا. وضعت أمامنا كؤوس البرنو من جديد، وكان الحاكي يزعق، والناس يغمغمون بالإنكليزية والفرنسية والهولندية والنرويجية والإسبانية، وجيمي وزوجته، وقد بدا كل منهما في منتهى الانتعاش والنشاط، يتبادلان الصفعات العابثة والقبل بود ويرفعان كأسيهما ويقرعانهما ـ ومع كل هذا الهرج المرج تنتابك رغبة في خلع ملابسك وأداء رقصة الحرب. والنساء يتجمهرن عند البار كحشد من الذباب. وإذا كنا أصدقاء كولينز فهذا يعني إننا أغنياء، ولا يهم إن أتينا بملابسنا القديمة، فكل الإنكليز يلبسون هكذا. ولم أكن أحمل سوا واحداً في جيبي، وهذا لا يهم، بالطبع، ما دمت ضيف شرف. ومع ذلك شعرت بشيء من الحرج بوجود عاهرتين رائعتي الجمال تتعلقان بذراعي، تنتظران أن أطلب

لهما شيئاً. وقررت أن أقبض على الثور من قرنيه. لم يعد بالإمكان التمييز بين المشارب التي تقدم على حساب المحل وتلك التي عليك أن تدفع ثمنها. وكان علي أن أتصرف كجنتلمان، حتى وإن لم يكن في جيبي سو واحد.

كانت إيفيت - زوجة جيمي - غاية في الكرم والمودة معنا. كانت تعد وليمة صغيرة على شرفنا، وسيستغرق تحضيرها بعض الوقت. وعلينا أن لا نسرف في الشراب - فقد أرادتنا أن نستمتع بتناول الطعام. الحاكي يزأر كالوحش وقد نهض فيلمور ليراقص خلاسية جميلة ترتدي ثوباً مخملياً ضيقاً يكشف عن جميع مفاتنها. وانزلق كولينز إلى جانبي وهمس لي بضع كلمات عن الفتاة الجالسة إلى جواري، قال "ستعزمها المدام إلى طاولة العشاء، إن كنت ترغب في الحصول عليها". كانت عاهرة سابقة تملك منزلاً جميلاً في ضواحي المدينة، وهي الآن خليلة قبطان بحري، وهو غائب وليس ثمة ما يخشى منه، وأضاف "إذا أعجبتها ستدعوك لتبقى معها".

كان ذلك كافياً بالنسبة لي. وفي الحال استدرت إلى مارسيل وبدأت أمطرها بالمديح. ووقفنا عند زاوية البار، نتظاهر بالرقص، ونحتك ببعضنا بشكل مسعور. وأرسل لي جيمي غمزة حصان كبيرة وهز رأسه مستحسناً. كانت عاهرة شبقة، هذه المارسيل، ولطيفة في الوقت نفسه. وما لبثت أن تخلصت من الفتاة الأخرى، كما لاحظت، وبعدها جلسنا ودار حديث طويل وودي قطعه ويا لسوء الحظ إعلان أن العشاء بات جاهزاً.

كنا عشرين شخصاً على المائدة، وجلست مع مارسيل في طرف واحد مقابل جيمي وزوجته. وبدأت الوليمة بفرقعة فلين الشمبانيا وسرعان ما تبعتها خطابات سكرى، وأثناءها كنت ومارسيل نعبث معاً من تحت الطاولة، وحين جاء دوري لأقف وألقي بعض كلمات كان علي أن أضع فوطة أمامي. وكان موقفاً مؤلماً ومثيراً في وقت واحد. واضطررت إلى اختصار خطابي كثيراً لأن مارسيل كانت تدغدغني طوال الوقت من ملتقى فخذي.

استمرت وجبة العشاء حتى قرابة منتصف الليل. وكنت أصبو إلى قضاء الليل مع مارسيل في ذاك المنزل الجميل القائم فوق الجرف. لكن الحلم لم يتحقق، فقد قرر كوليز أن يرينا المنطقة و لم أتمكن من الرفض هكذا ببساطة.

قال لي "لا تقلق بشأنها، سوف تشبع من مضاجعتها قبل أن تغادر المكان. قل لها أن تنتظرك هنا حتى نعود".

أضحت مارسيل نكدة بعض الشيء لسماع هذا الكلام، ولكن عندما أبلغناها أنه لا زال أمامنا عدة أيام ابتهجت. ولدى خروجنا استوقفنا فيلمور ممسكاً بنا من ذراعينا بمنتهى الجدية وقال أن لديه اعترافاً صغيراً يدلي به إلينا. وبدا شاحباً وقلقاً.

قال كولينز بمرح "حسن، ماذا لديك؟ انطق!" و لم يتمكن فيلمور من النطق هكذا دفعة واحدة. فهمهم وتنحنح، وأخيراً اندفع قائلاً "الواقع، حين ذهبت قبل قليل إلى المرحاض لاحظت شيئاً...... "

قال كولينز بلهجة المنتصر "إذن فقد أصبت به!"، وهو يلوح بقنينة الـ "venetienne"ثم أضاف بحقد "لا تذهب إلى أي طبيب فسيمتصون دمك، أولاد الحرام الجشعون. ولا تتوقف عن الشرب أيضاً..... فكل هذا هراء. خذ من هذا مرتين في اليوم.... رجّها جيداً قبل الاستعمال. واعلم أن لا شيء أسوأ من القلق، أتفهم؟ هيا بنا الآن، سأعطيك حقنة وبعض البرمنغنات عند عودتنا".

وهكذا انطلقنا نخوض في الليل، متجهين صوب الشاطىء حيث كانت تنبعث الألحان الموسيقية والصيحات وتجديفات السكارى، ويتحدث كولينز طوال الوقت بهدوء عن هذا الشي وذاك، عن فتى وقع في غرامه، وعن الوقت الشيطاني الذي استغرقه ليخرج من الورطة حين علم أبواه الأمر. ومن ثم عاد ثانية إلى الحديث عن بارون دو شارلو ومنه انتقل إلى كورتز الذي صعد أعالي النهر وضاع. وهذا موضوعه المفضل. كنت أحب طريقة كولينز في التحرك أمام هذه الخلفية الأدبية بشكل مستمر، وكأنه مليونير لا يغادر سيارته الرولز رويس مطلقاً. بالنسبة له لم يكن هناك وجود لعالم وسيط بين الواقع والفكر. وحين دخلنا الماخور في الكويه فولتير، وبعد أن ارتمى على الديوان ورن الجرس طالباً حضور الفتيات والمشروبات، كان لا يزال يسرد قصته عن النهر وكروتز، و لم تتوقف تهياماته إلا حين تقلبت الفتيات معه على السرير وحشت فمه بالقبل. ثم، وكأنه أدرك فجأة أين هو، التفت إلى

الأم العجوز التي تدير المنزل وبدأ يحدثها بكلام منمق عن صديقيه اللذين جاءا من باريس خصيصاً لزيارة المربع. وكان في الغرفة نحو نصف دزينة من الفتيات، جميعهن عاريات ومتعة للنظر، يجب أن أعترف بهذا. كن يقفزن كالعصافير في حين حاولنا نحن الثلاثة أن ندبر مصاجعة الجدة. وأخيراً استأذنت هذه الأخيرة وطلبت ما أن نتصرف وكأننا في بيوتنا وكانت قد استحوذت على اهتمامي تماماً، فقد كانت غاية في الظرف واللطف، غاية في الرقة والعطف، وشو أكابر! ولو كانت أصغر سناً بقليل لقدمت لها عروضي، وطبعاً ما كان ليخطر ببالك أننا كنا في ما يسمى "بؤرة رذيلة".

مهما يكن، مكثنا هناك ساعة أو نحوها، ولما كنت الوحيد الذي استمتع بامتيازات المحل، بقي كل من كولينز وفيلمور في الطابق السفلي يثرثران مع الفتيات. ولدى عودتي رأيتهما متمددان معاً في السرير، والفتيات يشكلن نصف دائرة حول السرير وهن يغنين بأجمل الأصوات الجماعية الملائكية أغنية "ورود في بيكاردي". وعندما غادرنا المنزل شعرنا بانقباض عاطفي - وخاصة فيلمور. وفي الحال قادنا كولينز إلى مربع ضاج مزدحم بالبحارة السكارى الذين في إجازة على الشاطىء، وجلسنا هناك بعض الوقت نستمتع بهرج الشاذين جنسياً الذي كان في أوجه. وفي طريق العودة كان علينا أن نمر من المنطقة الحمراء حيث المزيد من الجدات اللواتي يلفعن أعناقهن بالشالات وهن جالسات على عتبات الأبواب يلوحن بالمراوح طلباً للبرودة، ويومئن بدماثة للمارة. وكلهن من الأرواح المبهجة للنظر والرقيقة، وكأنهن يحرسن داراً للحضانة. وكانت جماعات صغيرة من البحارة تشق طريقها متهادية وتندفع مع كثير من الضجيج لتلج المرابع المبهرجة. الجنس في كل مكان: يجتاح كل شيء، كمد محاقي يقوض الدعامات من تحت المدينة. وتابعنا عبثنا عند حافة حوض السفن حيث يختلط كل شيء ويتشابك، ويخيل إليك أن تلك السفن، ومراكب الصيد، واليخوت والمراكب الشراعية والبوارج قد جرفت إلى الشاطىء بفعل عاصفة عاتية.

في غضون ثمان وأربعين ساعة حدثت أمور كثيرة حتى بدا وكأننا كنا موجودين في الهافر منذ شهر وأكثر. كنا نعد للسفر في صباح الإثنين الباكر، لأنه كان على فيلمور أن يلتحق بعمله. وقضينا يوم الأحد نشرب ونصخب،

رغم أنف السيلان. بعد ظهيرة ذاك اليوم أسرّ كولينز إلينا بأنه يفكر في العودة إلى مزرعته الكبيرة في أيداهو، فلم يكن قد زار بيته منذ ثماني سنوات، وأراد أن يلقي نظرة على الجبال ثانية قبل أن يقوم برحلة أخرى شرقاً.

في ذلك الحين كنا جالسين في ماخور، بانتظار مجيء إحدى الفتيات، وكان قد وعدها أن يهرب لها بعض الكوكايين. وأخبرنا أنه سئم الهافر. فهناك الكثير من الصقور يتعلقن بعنقه. ثم إن زوجة جيمي عشقته وقد أخذت تنغص عليه بنوبات غيرتها. وفي كل ليلة تقريباً كان يقع فصل. وقد التزمت بسلوكها المهذب منذ وصولنا، إلا أن ذلك لن يدوم طويلاً، كما وعدنا. كانت تغير بصورة خاصة من فتاة روسية تأتي إلى الحانة أحياناً عندما تسكر. وهي مثيرة مشاكل. وفوق كل ذلك كان واقعاً بصورة يائسة في حب ذاك الفتى الذي حكى لنا عنه في أول يوم. قال "يمكن لفتى أن يحطم قلبك، يا لله ما أجمله! وما أقساه!" وكان علينا أن نضحك على هذا. فقد بدا منافياً للطبيعة وللعقل. لكن كولينز كان جاداً.

عند نحو منتصف ليلة الأحد انسحبت مع فيلمور، وكانوا قد خصصوا لنا غرفة في الطابق العلوي من الحانة. كانت شديدة الحرارة والرطوبة كالجحيم، ولا تدخلها نسمة هواء. وكانت تتناهى إلينا من خلال النوافذ صيحاتهم آتية من الطابق السفلي، والحاكي يدور طول الوقت. وفجأة هبت عاصفة ـ قصف رعد عادي. وبين قصف الرعود وهبات الريح المصاحبة للمطر التي تصفع زجاج النوافذ تناهى إلى آذاننا صوت عاصفة من نوع آخر تحتدم أسفلاً في الحانة. بدت قريبة جداً، ومخيفة، وتنذر بالشر المستطير، وكانت النسوة تزعق من أعماقها، وزجاجات تتهشم، وطاولات تقلب، وسمع ذاك الصوت المكتوم المألوف المقزز للنفس الذي يصدر عن الجسم الإنساني حين يرتطم بالأرض.

نحو الساعة السادسة أطل كولينز برأسه من الباب. كان وجهه مضمداً كله وإحدى ذراعيه معلقة بحمالة وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

قال "كما قلت تماماً، لقد فقدت أعصابها في الليلة الفائتة. أظنك سمعت الجلبة؟".

ارتدينا ملابسنا على عجل وهبطنا إلى أسفل لتوديع جيمي. كان المكان مهشماً تماماً، لا توجد زجاجة واحدة في مكانها، ولا كرسي غير مكسور. والمرآة وواجهة المعروضات تحطمت شذراً. وكان جيمي يعد لنفسه شراب البيض.

في طريقنا إلى المحطة رحنا نركب خيوط القصة معاً. فقد أتت الفتاة الروسية بعد أن أوينا إلى أسرتنا وسرعان ما وجهت لها إيفيت إهانة، دون أن تنتظر توفر مبرر ما. وبدأت كل منهما تشد شعر الأخرى، ووسط هذه المعمعة تقدم سويدي ضخم وصفع الفتاة الروسية صفعة رنانة على فكها ـ ليعيدها إلى صوابها. واشتعلت النار. أراد كولينز أن يفهم بأي حق يتدخل هذا السكير الضخم في شجار خاص. وجاءه الجواب على شكل لكمة على فكه، لكمة جيدة أطاحت به إلى الطرف الآخر من الحانة. "تستاهل!". هكذا صرخت إيفيت، وانتهزت الفرصة وأطاحت بزجاجة إلى رأس الفتاة الروسية. وفي هذه اللحظة تفجرت الصاعقة. ومرت فترة من الصخب المنتظم، النسوة مهسترات ومشتاقات لنتهاز الفرصة لإطلاق العنان لأحقادهن الخاصة. لا شيء يماثل شجاراً في حانة ..... ليس أسهل من غرز سكين في ظهر رجل أو ضربه بزجاجة حين يكون مستلقياً تحت طاولة. وألفى السويدي المسكين نفسه في عش للدبابير، كان الجميع يكرهونه، وخاصة رفاقه من البحارة. وودوا لو يرونه ميتاً. فأغلقوا الباب، ونحوا الطاولات جانباً وتركوا مساحة صغيرة أمام البار بحيث يتمكن إثنان منهم من إنهاء الأمر، وأنهياه! واضطروا إلى نقل الشيطان المسكين إلى المستشفى بعد أن انتهوا. وكان كولينز محظوظاً ـ خرج فقط برسغ ملوي وأصبعين مخلوعين، وأنف مدمى وعين سوداء. إنها مجرد خدوش بسيطة، هكذا وصفها. ولكن لو أنه اشتبك مع ذاك السويدي لأجهز عليه. لكن الأمر لم ينته بعد. كما وعدنا.

ولم تكن تلك نهاية الشجار أيضاً. فبعد ذلك اضطرت إيفيت إلى التوجه إلى حانة أخرى لتشرب. لقد أهينت وقررت أن تضع حداً لكل شيء. وهكذا استأجرت سيارة تاكسي وأمرت السائق ان يوصلها إلى حافة الجرف المطل على البحر. لقد قررت أن تقتل نفسها، هذا ما ستفعله. غير أنها كانت شديدة السكر بحيث أنها حين انطرحت خارج التاكسي بدأت تبكي وقبل أن يتمكن من تهدئتها أخذت تخلع ثيابها. وأعادها السائق إلى البيت وهي

على هذه الحال، نصف عارية، ولما رأى جيمي حالها هذه غضب أشد الغضب وتناول مشحذ الموسى وأخذ يضربها به ضرباً مبرحاً، وأعجبها هذا، تلك العاهرة، وتوسلت إليه "إضربني أيضاً!". وركعت على ركبتيها وتشبثت بساقيه بكلتا ذراعيها. لكن جيمي كان قد اكتفى، وقال لها "ما أنت إلا خنزيرة عجوز قذرة!"، وسدد بحذائه رفسة إلى أحشائها أخرجت ريحها ـ وأصاب أيضاً عضوها الجنسي التافه أيضاً.

حان وقت الرحيل. بدت المدينة مختلفة في ضوء الصباح الباكر. وآخر ما تحدثنا فيه، ونحن واقفون ننتظر القطار ليقلنا، كان ايداهو. كنا نحن الثلاثة أميركيين. أتينا من مناطق مختلفة، ولكن كان بيننا قاسم مشترك ـ يمكن القول إننا كنا وحدة واحدة. وصار مزاجنا عاطفياً، وهذا ما يحدث للأمريكيين عند الفراق. كانت حماقتنا تزداد باضطراد ونحن نتحدث عن الأبقار والأغنام والمساحات الشاسعة المكشوفة حيث الرجال رجال وكل ذاك الهراء. ولو أن بدل القطار تهادى إلينا من بعيد قارب لقفزنا فوقه وقلنا وداعاً لكل شيء. ولكن قدر لكولينز أن لا يرى أميركا قط كما عرفت فيما بعد، وفيلمور.... الواقع لقد قدر لفيلمور أن ينال عقابه أيضاً، بطريقة لم يتوقعها أي منا. إن من الأفضل أن تبقى أميركا كما هي، دائماً في الخلفية، أشبه بصورة على بطاقة بريدية، تنظر إليها في لحظة ضعف. وهكذا، تتصور دائماً أنها كانت تنتظرك، لا تتغير، لا تفسد، مساحة شاسعة وطنية مكشوفة فيها أبقار ورجال رقيقو القلوب مستعدون للواط كل ما يقع عليه نظرهم، رجلاً أو امرأة أو بهيمة. أميركا غير موجودة، إنها اسم تطلقه على فكرة مجردة......

باريس أشبه بعاهرة. من بعيد تبدو لك فاتنة، ولا تطيق صبراً لتضمها بين ذراعيك. وبعد خمس دقائق تشعر بالخواء، بالإشمئزاز من نفسك. تشعر أنك مخدوع.

عدت إلى باريس وفي جيبي بعض النقود ـ بضع مئات من الفرنكات ـ دسها كولينز في جيبي حالما استقللت القطار. وكانت كافية لدفع أجرة غرفة ومصروف طعام لما لا يقل عن أسبوع. مبلغ يفوق أي مبلغ وقع في يدي مرة واحدة طوال سنين عديدة. شعرت بالابتهاج، وكأنما حياة جديدة تفتح

أبوابها أمامي. ورغبت أيضاً في أن أصونها، فبحثت عن فندق رخيص فوق أحد الفران في شارع شاتو، لا يبعد كثيراً عن شارع فانف، وهو مكان كان أوجين قد دلني إليه ذات يوم. وعلى مبعدة منه كان الجسر الذي يمتد فوق مونبرناس. وهو حي معروف.

وكان بإمكاني أن أستأجر غرفة مقابل مائة فرنك في الشهر، مع العلم أنها غرفة لا تتوفر فيها أي وسيلة من وسائل الراحة - ولا حتى نوافذ - وربما كنت أخذتها، فقط لأضمن مكاناً أهجع إليه لبعض الوقت، لولا أني لكي أصل إلى غرفتي كنت سأضطر إلى المرور أولاً بغرفة رجل ضرير. لقد كان لمجرد فكرة المرور بالقرب من سريره كل مساء أثر مقبض علي. لذا قررت أن أبحث في مكان آخر. فانتقلت إلى شارع سل الواقع وراء المقبرة مباشرة، فرأيت ما يشبه مصيدة فئران لها شرفات تطل على الفناء من كل الجهات. وقد عُلّقت أيضاً أقفاص عصافير في الشرفة، وعلى طول الطابق السفلي. لعله كان مشهداً ساراً، بيد أنه بالنسبة لي بدا كجناح عام في مستشفى. حتى المالك لم يكن يبدو أنه يسيطر على كامل قواه العقلية. وقررت أن أنتظر حتى المساء، لألقي نظرة شاملة إلى الجوار، ومن ثم أختار مسكناً جميلاً صغيراً في جانب هادئ من الشارع.

أنفقت خمسة عشر فرنكاً على العشاء، وهو مقدار يزيد بنسبة الضعف على ما كنت قررت أن أنفقه. مما جعلني تعيساً جداً حتى أني حرمت نفسي من البقاء لتناول القهوة، بالرغم من أنها كانت قد بدأت تمطر. لا، سأتمشى قليلاً ثم آوي بهدوء إلى فراشي، في ساعة معقولة. وسيطر علي الغم بسبب محاولتي ادخار مواردي بهذه الطريقة. إنني لم أفعل ذلك مرة في حياتي، فليس ذلك من طبيعتي.

أخيراً أخذت تمطر بغزارة. وكنت سعيداً، فهذا سيمنحني عذراً أحتاجه لأنلس في مكان ما وأمدد قدمي على طولهما. كان الوقت لا يزال باكراً للإيواء إلى السرير. ورحت أحث خطاي، عائداً إلى بولفار راسبيل. وفجأة إذ بامرأة تتقدم مني وتستوقفني، تحت وابل المطر. تريد أن تعرف كم الساعة. أخبرتها أني لا أحمل ساعة يد وإذ بها تهتف فجأة قائلة: "أوه يا سيدي الطيب، أتراك تتكلم الإنكليزية صدفة؟". فهززت رأسي إيجاباً. باتت الآن تمطر سيولاً. "لعلك يا سيدي الطيب العزيز، تتلطف وتصحبني إلى المقهى، فالسماء تمطر وليس معي

نقود لأجلس في اي مكان. ستعذرني، يا سيدي الطيب، لكن وجهك سمح.... وعرفت على الفور أنك إنكليزي". قالت هذا وابتسمت لي ابتسامة غريبة نصف معتوهة، "وربما يمكنك أن تعطيني نصيحة صغيرة، يا سيدي العزيز. فأنا وحيدة في هذا العالم... يا إلهي، ما أبشع أن لا يكون معك نقود.....".

أوصلتني هذه "السيدي العزيز" و "سيدي اللطيف" و"سيدي الطيب"، إلخ، إلى حافة الجنون. وقد شعرت بالرثاء لأجلها ومع ذلك كان يجب أن أضحك. وضحكت في وجهها. وبعدها ضحكت هي أيضاً، ضحكة عجيبة، عالية النبرة، ونشاز، وكلها معاً قهقهة غير متوقعة. وأمسكتها من ذراعها وهرعنا إلى أقرب مقهى. كانت لا تزال تقهقه حين دخلنا إلى المقهى الصغير. وعادت تقول من جديد "يا سيدي العزيز الطيب، ربما تظن أني لا أقول لك الحقيقة. أنني فتاة طيبة ... أنحدر من عائلة كريمة ... غير أبي" ـ وهنا ابتسمت لي تلك الابتسامة الباهتة المتصدعة ـ "غير أني ذات حظ عاثر لأني لا أجد مكاناً أجلس فيه"، وهنا أخذت أضحك من جديد. لم أستطع كبح نفسي ـ العبارات التي تستخدمها، النبرة الغريبة، والقبعة البلهاء التي تعتمرها، وتلك الابتسامة المعتوهة....

وقاطعتها "اسمعي، ما هي جنسيتك؟".

أجابت "أنا إنكليزية، أقصد أني ولدت في بولندا، لكن أبي إيرلندي".

"وهذا يجعلك إنكليزية؟".

قالت "نعم"، وبدأت تقهقه من جديد، بارتباك، مدعية الخجل.

"أعتقد أنك تعرفين فندقاً جميلاً صغيراً ستأخذينني إليه؟". لم أقل هذا لأنه في نيتي أن أصحبها، بل لمجرد أن أوفر عليها التوطئات المعتادة.

قالت وكأني ارتكبت خطأً جسيماً "أوه سيدي العزيز، أنا متأكدة من أنك لا تقصد ما تقول! لست من هذا النوع. كنت تمزح أفهم ذلك. أنت طيب جداً... ولك وجه سمح. ما كنت لأجرؤ على مخاطبة رجل فرنسي كما فعلت معك. إنهم يهينونك على الفور....".

تابعت كلامها على هذه الوتيرة لبعض الوقت. وأردت أن أفلت منها. لكنها لم تكن ترغب في أن تُترك وحدها. كانت خائفة ـ فأوراقها غير نظامية.

فهل أتلطف وأصحبها إلى فندقها.؟ وربما بإمكاني أن "أقرضها" خمسة عشر أو عشرين فرنكاً، لإسكات صاحب الفندق؟. وصحبتها إلى الفندق الذي قالت أنها تنزل فيه ووضعت في يدها ورقة من فئة الخمسين فرنكاً. إما أنها كانت في منتهى الذكاء أو في منتهى البراءة ـ أحياناً يصعب إيجاد الفرق ـ لكنها على أية حال أرادتني أن أنتظر ريثما تسرع إلى المقهى الصغير لتعيد إليّ الباقي. قلت لها أن لا تزعج نفسها. وهنا أمسكت بيدي باندفاع ورفعتها إلى شفتيها. وصعقت. وشعرت برغبة في إعطائها كل ما كنت أملك. لقد أثرت بي تلك الإيماءة الصغيرة المجنونة. وقلت لنفسي، جميل أن تكون غنياً ولو لمرة واحدة، لمجرد أن تحصل على إثارة مثل هذه. سيان لدي، فلم أفقد رأسي. خمسون فرنكاً! يكفي هذا التبديد في ليلة ماطرة. وحين رحت أبتعد لوحت لي بتلك الطاقية التي لم تكن تعرف كيف تعتمرها. وكأننا أصدقاء قدامى. وشعرت أنني أبله ورأسي يدور. "سيدي العزيز اللطيف.... يا لسماحة وجهك..... أنت طيب حداً، إلخ.... وشعرت أني قديس.

حين تشعر أنك منتفخ من الداخل ليس من السهل أن تلجأ إلى السرير فوراً. إنك تشعر وكأن عليك أن تكفر عن نوبات الطيبة هذه غير المتوقعة، ولدى مروري بـ "الغاب" ألقيت نظرة على صالة الرقص، رأيت نسوة بظهور عارية وحبال من اللآلىء تكاد تخنقهن ــ أو هكذا بدا ــ يهززن مؤخراتهن الجميلة في وجهي. وتوجهت رأساً إلى البار وطلبت كأساً من الشمبانيا. وعندما سكتت الموسيقى، اتخذت شقراء جميلة ـ بدت نرويجية ـ مجلسها إلى جانبي. ولم يكن المكان مزدحماً أو يشيع فيه المرح كما بدا من الخارج، لم يكن هناك غير عدد قليل من الراقصين ـ ويبدو أنهم جميعاً كانوا يرقصون في وقت واحد. وطلبت كأساً أخرى من الشمبانيا حتى لا تغادرني شجاعتي.

عندما نهضت لأطلب من الشقراء مراقصتي لم يكن هناك غيرنا في الحلبة. ولو حدث هذا في أي وقت آخر لغلبني الخجل، لكن تأثير الشمبانيا وطريقتها في التشبث بي، والأضواء الخافتة والاحساس المتين بالأمان الذي منحتني إياه المئات القليلة من الفرنكات، حسن.... ورقصنا معاً ثانية، على سبيل العرض الخاص، ثم انهمكنا في الحديث. وبدأت تبكي ـ هكذا بدأ الأمر. وفكرت أنها

ربما شربت كثيراً، فتظاهرت بعدم الاهتمام. وأخذت أقلب ناظري فيما حولي لأرى إن كان هناك أحد غيرنا. لكن المكان بات قفراً تماماً.

أفضل شيء تفعله حين تقع في فخ هو أن تتنفس - وعلى الفور. فإذا لم تفعل، ضعت. وما استقاني، ويا للغرابة، كان تخافتي من أن أفكر في دفع مبلغ آخر مقابل خدعة. والمرء دائماً يدع نفسه يقع في مثل تلك الخدع لسبب تافه.

سرعان ما اكتشفت أن سبب بكائها هو أنها قد دفنت وليدها لتوها. وهي ليست نرويجية، بل فرنسية، وهي قابلة حتى أخمصها. ويجب أن أعترف أنها قابلة أنيقة، حتى من الدموع التي جرت على وجهها. وسألتها إن كان كأس صغير يساعد على مواساتها، وعلى الأثر طلبت ويسكي وجرعته دفعة واحدة وفي لمح البصر. واقترحت قائلاً "كأساً أخرى؟"، فوافقت، إن حالتها سيئة جداً، وهي في منتهى الغم. واعتقدت أنها ترغب في علبة سجائر "كامل" أيضاً، ثم أردفت "لا، أنتظر لحظة، أظنني أفضل البول مول"، وقلت في نفسي، اطلبي ما شئت ولكن كفاك بكاءاً، حباً بالمسيح، لقد انهارت أعصابي. وساعدتها لتقف على قدميها لنرقص رقصة أخرى، وحين وقفت على قدميها بدت شخصاً آخر. ربما لأن الأسى يجعل الإنسان يبدو أكثر فسقاً، لا أدري. وغمغمت بشيء عن خروجنا، فقالت بلهفة "إلى أين؟ أوه، إلى أي مكان. إلى مكان هادئ حيث يمكننا أن نتحدث".

ذهبت إلى المرحاض لأعد النقود من جديد هناك. خبأتُ قطعة بمئة فرنك في جيب الساعة وأبقيت قطعة بخمسين فرنكاً والقطع الصغيرة في جيب البنطلون، وعدت إلى البار وأنا أنوي أن أتحدث بصراحة تامة.

سهلت الأمر علي لأنها هي التي دخلت في الموضوع. كانت تعاني من مشاكل، ليس فقط لأنها فقدت وليدتها، بل لأن أمها في البيت مريضة، بل هي في حالة متردية، ويجب أن تدفع للطبيب ويجب أن تشتري الدواء وهكذا دواليك. لم اصدق كلمة واحدة مما قالت، طبعاً. ولما كان علي أن أجد فندقاً لنفسي، اقترحت عليها أن تأتي معي وتمضي هذه الليلة. وقلت لنفسي سأقتصد قليلاً. لكنها رفضت. وأصرت على أن نذهب إلى البيت، قالت إن

لديها شقة خاصة بها - ثم إن عليها أن تعتني بأمها. وبعد تفكير قررت أنه من الأفضل أن أبيت عندها، فوافقت وذهبنا على الفور. وقبل أن ننطلق، قررت أنه من الأفضل أن تعرف وضعي، وذلك كي لا يكون هناك أية شكوى في اللحظة الأخيرة. وأعتقد أنه كاد يغمى عليها حين علمت مقدار ما معي من نقود. قالت "سيان عندي!"، وبدت مهانة جداً. وظننتها ستثور.... بيد أني اتخذت موقفاً صارماً، غير هياب، وقلت بهدوء "حسن جداً، أنا ذاهب، لعلي ارتكبت خطأ".

وأعلنت قائلة:"نعم ارتكبت!"، لكنها في الوقت نفسه تشبثت بذراعي "Ecoute، cheri ..... "sois raisonable!"إسمع يا عزيزي ..... كن عاقلاً!". ولما سمعت هذا استعدت ثقتي بنفسي، وعرفت أن المسألة كلها تتعلق بوعدها بالمزيد وبعدئذ سيكون كل شيء على ما يرام، قلت ضجراً "حسن، سأكون لطيفاً معك وسترين".

قالت "إذن كنت تكذب علي؟".

ابتسمت "نعم، كنت أكذب...".

قبل أن أضع قبعتي على رأسي كانت قد هتفت لسيارة أجرة. وسمعتها تعطيه عنوانها في بولفار دو كليشي. وقلت في نفسي إن هذا يساوي أكثر من أجرة غرفة. أوه، حسن لا يزال هناك متسع من الوقت.... سنرى. لم أعد أذكر كيف بدأ الأمر، لكنها سرعان ما راحت تهذي عن هنري بوردو. وحتى ذلك الحين لم أكن قد قابلت عاهرة لا تعرف هنري بوردو. لكن هذه بالذات موهوبة تماماً، وقد أضحت لغتها الآن جميلة، رقيقة جداً، وفطنة جداً، حتى أني تساءلت كم سأعطيها. لقد خيل إلي أني سمعتها تقول عبارة "quand iln'y- aura plus de temps" "حين لن يتبقى متسع من الوقت". أو شيئاً من هذا القبيل، على أي حال. وفي حالتي تلك كانت عبارة كهذه تساوي مائة فرنك. وتساءلت إن كانت من عندها أو سرقتها من هنري بوردو. لا يهم. كانت العبارة هي الأمثل لنعبر بها أسفل مونمارتر. وقلت لنفسي "عمت مساءاً، يا أم، ابنتك وأنا سنعتني بك -"quand iln'y aura plus de temps" . وكانت تنوي أن تريني شهادتها أيضاً، لقد تذكرت الآن.

حالما أغلق الباب خلفنا، اهتاجت أعصابها. تبلبلت. أخذت تعصر كفيها وتتخذ أوضاعاً على طريقة سارة برنار، وهي نصف عارية، وتتوقف بين الحين والآخر لتحتني على الإسراع، لخلع ملابسي، لأفعل هذا أو ذاك. وأخيرا، بعدما تعرت وراحت تتنقل في المكان وهي تحمل قميصها بيدها، تبحث عن ثوب الكيمونو، احتضنتها وعصرتها بقوة. وعندما حرَّرتها كان على وجهها علائم الكرب. وهتفت "يا إلهي! يا إلهي! يجب أن انزل لألقي نظرة على أمي! يمكنك أن تستحم إذا أردت، شيري. هناك! وسأعود بعد دقائق"، وعند الباب عانقتها من جديد. كنت بملابسي الداخلية وقد حصل لدي انتصاب هائل. وبشكل ما زاد كل هذا الحزن والإثارة، كل هذا الأسى والحركات المصطنعة من شهيتي. ربما كانت ستنزل إلى أسفل لمجرد أن تهدىء من ثورة "قوادها". وتكون لدي إحساس بأن شيئاً غير عادي يجري، أشبه بحدث درامي سأقرأ عنه في صحف الصباح. وألقيت نظرة سريعة على المكان. هناك غرفتان وحمام، لابأس في أثاثهما. تغلب عليه الخلاعة. شهادتها معلقة على الجدار ـ "درجة أولى" ككل الشهادات. وثمة صورة لطفلة، فتاة صغيرة لها خصلات جميلة، موضوعة على طاولة الزينة. فتحت الصنبور استعداداً للإستحمام، ثم غيرت رأيي. إذا حدث شيء وأنا جالس في حوض الاستحمام ..... لم تعجبني الفكرة. ورحت أتمشى جيئة وذهاباً، وأزداد قلقاً مع مرور الوقتُ.

حين رجعت كانت أشد ارتباكاً من ذي قبل. قالت وهي تئن "إنها تحتضر .... إنها تحتضر!". للوهلة الأولى خطر لي أن أغادر المكان، فكيف يمكن لإنسان أن يمتطي امرأة وأمها تلفظ أنفاسها الأخيرة في الطابق السفلي، وربما تحتك مباشرة؟ وأحطتها بذراعي، أولاً بدافع الشفقة وثانياً لأنني صممت على نيل ما جئت لأجله. وبينما نحن واقفان هكذا همست، وكأنها حزينة فعلا تعلن عن حاجتها إلى النقود التي وعدتها بها. إنها للـ "ماما". خراء، لم أكن أرغب في المساومة حول الفرنكات في تلك اللحظة. ومشيت إلى الكرسي حيث كانت ملابسي وأخذت مائة فرنك من جيب الساعة وأنا أحرص أن أدير ظهري لها. وزيادة في الحذر وضعت بنطالي على طرف السرير حيث عرفت أنني سأضطجع. ولم ترض تماماً بالمائة فرنك، لكني فهمت من احتجاجها الواهن أن المبلغ كاف جداً. وثم، وبنشاط منها أدهشني، نفضت

عنها الكيمونو وقفزت إلى السرير. وحالما أحطتها بذراعي وشددتها إلي ضغطت على مفتاح النور وغمر الظلام المكان. عانقتني بشبق، وراحت تئن ككل العاهرات الفرنسيات حين يذهبن معك إلى السرير. كانت تهيجني بصورة مخيفة بتصرفها، فمسألة إطفاء الأنوار كانت جديدة لدي.... وكأن الموقف حقيقي. لكن ارتبت أيضاً، وحالما بدأت أعمل بشكل جيد مددت يدي خارج السرير لأتحسس إن كان مكان بنطالي لا يزال على الكرسي.

أظن أننا قضينا ليلة رائعة. كان السرير مريحاً جداً، أكثر نعومة من أسرة فندق متوسط - والملاءات نظيفة، كما لاحظت. لكن ليتها لم تكن تكثر من التلوي والارتجاف وكأنها لم تضاجع رجلاً منذ شهر. وددت لو أطيل مكوثي، أردت أن أنال القيمة الكاملة مقابل مئة فرنك. لكنها كانت تغمغم بأشياء كثيرة بتلك اللغة السريرية المجنونة التي تتغلغل في دمك بسرعة أكبر في الظلام. لقد كنت أواجه قتالاً عنيفاً، لكنه كان مستحيلاً وهي تتأوه وتلهث، وتتمتم "أسرع يا حبيبي! أسرع يا حبيبي! أوه، هذا رائع! أوه، أوه، أسرع، أسرع، أسرع، يا حبيبي!". حاولت أن اعد تأوهاتها، غير أنها كانت كإنذار الحريق لا تتوقف. "أسرع يا حبيبي!". وهذه المرة أصدرت تأوهاً مرتعشاً انطلق، بانغو! سمعت النجوم تقرع وها هي المائة فرنك قد ذهبت هباءاً والخمسون فرنك التي نسيت كل شيء عنها وأضيئت الأنوار من جديد وبالرشاقة التي قفزت بها إلى السرير قفزت بها منه أيضاً وهي تنخر وتشتكي كخنزيرة عجوز. استلقيت على ظهري ورحت أدخن سيجارة متأملاً ثيابي الداخلية بكآبة، كانت مجعدة كثيراً. وفي الحال عادت إلى طبيعتها، وهي تلتفع بالكيمونو، وتخبرني بطريقتها القلقة التي بدأت تؤثر على أعصابي بأن أتصرف بحرية. وقالت «سأنزل لأرى أمي، ولكن يمكنك أن تتصرف وكأنك في بيتك، يا عزيزي. سأعود حالاً"

بعد مضي ربع ساعة بدأت أشعر بقلق غامر. ثم ولجت إلى الداخل ورحت أقرأ رسالة وجدتها على الطاولة. لم تكن على أي جانب من الأهمية - مجرد رسالة حب. وفي الحمام تفحصت جميع الزجاجات الموجودة على الرف، لديها كل ما تتطلبه المرأة لتجعل رائحتها جميلة. كنت لا أزال آمل في

أن تعود لتمنحني ما يعادل خمسين فرنكاً. لكن الوقت مر و لم يظهر أثر. وبدأ ينتابني الذعر. فربما كان هناك من يموت حقاً في الطابق السفلي. وبذهن شارد وبدافع من حب الذات على ما أعتقد، رحت أرتدي ملابسي. وبينما أنا أعقد حزامي تذكرت فجأة كيف حشرت المائة فرنك في كيس النقود. فوسط إثارة تلك اللحظة وضعت كيس النقود في خزانة الملابس، على الرف العلوي... تذكرت حركتها ـ وهي تشرئب على أطراف أصابع قدميها لتصل إلى الرف. وفي الحال فتحت الخزانة وتحسست المكان بحثاً عن كيس النقود. كان لا يزال هناك. فتحته على عجل ورأيت ورقة المائة فرنك لا تزال مستقرة في مكانها باستكانة بين تضاعيف الحرير. أعدت الكيس كما كان وانزلقت داخل معطفي وحذائي، وذهبت إلى مبسط الدرج وارهفت سمعي. لم اسمع شيئاً. المسيح وحده يعلم إلى أين ذهبت. وعدت بسرعة البرق إلى الخزانة ورحت أحوس داخل كيسها. وضعت المائة فرنك في جيبي وجميع القطع الصغيرة أيضاً. ومن ثم أغلقت الباب بهدوء ورائي ونزلت الدرج بأسرع ما أوتيت من قوة في ساقي. وتوقفت قليلاً في مقهى بودون. كانت العاهرات هناك يستمتعن بوقتهن وهن يضربن رجلاً سميناً نام أثناء تناول وجبته. كان غارقاً في النوم، ويشخر، ومع ذلك كان فكاه لا يزالان يعملان بصورة آلية. كان المكان غارقاً في الفوضى والضجيج، وثمة من يصرخ "الجميع إلى متن السفينة!"، وتبع ذلك رنين مختلط لسكاكين وأشواك. فتح عينيه فجأة ورفرفهما بغباء، ومن ثم مال رأسه ثانية على صدره. وضعت فئة المائة فرنك بحذر في جيب الساعة وعددت الفراطة. كانت الجلبة حولي تزداد ووجدت صعوبة في تذكر إن كنت قد رأيت بوضوح عبارة "درجة أولى" على شهادتها أم لا. وأزعجني ذلك. أما أمها فلم آبه لها. إنه أطيب من أن يصدق، مع "أسرع يا حبيبي، أسرع، أسرع!"، وتلك الأخرى نصف المعتوهة مع "سيدي الطيب" و"إن لك وجهاً سمحاً" التي بت أتساءل إن كانت حقاً استأجرت غرفة في ذاك الفندق الذي توقفنا عنده.

قرابة نهاية الصيف دعاني فيلمور لآتي وأعيش معه. كان يملك شقة صغيرة تطل على ثكنة الفرسان القريبة من بلاس دوبلي. وكانت لقاءاتنا قد تكررت منذ رحلتنا القصيرة تلك إلى الهافر. ولولا فيلمور لا أدري إلام كان سيؤول حالي اليوم - ربما الموت، على الأغلب.

قال لي:"كان من الممكن أن أطلب منك الحضور قبل الآن بوقت طويل لولا تلك العاهرة الحقيرة جاكي. لم أدر كيف أتخلص منها".

كان يجب أن أبتسم. هكذا الأمر دائماً مع فيلمور، كان عبقرياً في اجتذاب العاهرات المشردات. على أية حال لقد رحلت جاكي اخيراً برضاها.

كان فصل الأمطار يقترب، وهو فترة طويلة موحشة من اللزوجة والضباب وسيول الأمطار التي تجعلك رطباً ومكتئباً. باريس! يا لذاك المكان المقيت في الشتاء. مناخها يستهلك روحك، يتركك عارياً كشاطيء لابرادور. ولاحظت مع بعض القلق أن الوسيلة الوحيدة لتدفئة المكان كانت مدفأة صغيرة موجودة في الشقة الصغيرة. ومع ذلك، ظل البيت مريحاً. والمشهد من النافذة بديع.

في كل صباح كان فيلمور يوقظني بهزة عنيفة ويترك لي ورقة من فئة العشر فرنكات على المخدة. وحالما يذهب أعود لأغفو غفوة أخيرة. أحياناً كنت أظل في السرير حتى الظهيرة، فلم يكن ثمة ما يستدعي العجلة، عدا إنهاء الكتاب، وهذا ما لم يكن يقلقني كثيراً لأني كنت مقتنعاً سلفاً بأن أحداً لن يقبله مني في كل الأحوال. ومع ذلك كان فيلمور هو الأكثر تأثراً به. وعقب عودته في المساء حاملاً قنينة تحت ذراعه كان أول ما يقوم به هو أن

يتوجه إلى الطاولة ليرى كم صفحة أنهيت. في أول الأمر استمتعت بهذا المظهر من الحماس ولكن فيما بعد، حين جفت ينابيعي، صرت كالشيطان المضطرب وأنا أراه يفتش في المكان، بحثاً عن الصفحات التي من المفروض أن تقطر مني كالماء من الصنبور. وحين لا يكون ثمة ما أكتبه أشعر تماماً كإحدى العاهرات التي أواها يوماً عنده. كان يتحدث عن جاكي عادة قائلاً، حسب ما أذكر -"كان يمكن أن يغدو كل شيء على ما يرام لو أنها سمحت لي بمضاجعتها أحياناً". لو كنت امرأة لسمحت له بمضاجعتي، إذ أن ذلك أسهل بكثير من تزويده بالصفحات التي يتوقعها.

غير أنه حاول أن يوفر الراحة لي. فكان هناك دائماً الكثير من الطعام والخمر، وأحياناً كان يصر على اصطحابي إلى حفلة راقصة. وكان ولوعاً بارتياد ملهى للزنوج في شارع أوديسا حيث يلتقي مع خلاسية كانت تصحبنا أحياناً إلى المنزل. الشيء الوحيد الذي أزعجه هو أنه لم يتمكن من إيجاد فتاة فرنسية ترغب في الشرب. كن جميعاً أكثر اتزاناً من أن يرضينه ـ كان يجب أن يصحب معه امرأة إلى الشقة لمعاقرة الشراب معه قبيل الانصراف إلى العمل. وكان أيضاً يحب أن يُدخِل في خلدها أنه فنان. ولما كان الرجل الذي استأجر منه المكان رساماً، فلم يكن من الصعب ترك انطباع قوي لديه، وسرعان ما وزعت اللوحات التي وجدناها في الخزانة حول المكان ووضعت إحدى اللوحات غير المكتملة على الحامل. ولسوء الحظ كانت جميعاً من النوع السريالي والانطباع الذي تخلقه ليس مشجعاً. وفيما يتعلق بتذوق اللوحات الفنية ليس هناك كبير فرق بين عاهرة أو بوابة أو أحد الوزراء. كانت زيارات مارك سويفت المنتظمة لنا بقصد رسم لوحة شخصية لي مصدر ارتياح لفيلمور. فقد كان فيلمور شديد الاعجاب بسويفت وقال عنه أنه عبقري. وعلى رغم أن شيئاً ضارياً كان يحيط بكل ما يعالجه، إلا أنه عندما كان يرسم رجلاً أو شيئاً ما كان بالإمكان التعرف عليه.

تركت لحيتي تسترسل حسب طلب سويفت. قال إن شكل جمجمتي لا يكتمل إلا بلحية. وطلب مني أن أجلس بالقرب من النافذة وإلى الخلف مني

برج إيفل لأنه أراد أيضاً أن يظهر معي برج إيفل. وأراد أيضاً إظهار الآلة الكاتبة. واعتاد كروغر أن يصل فجأة في مثل ذاك الوقت، وكان يؤكد أن سويفت لا يفهم شيئاً في الرسم. ويغضبه أن يرى الأشياء بدون أبعادها المعتادة، ويؤمن إيماناً مطلقاً بقوانين الطبيعة. أما سويفت فلم يكن يأبه للطبيعة، وكان يريد أن يرسم ما في رأسه. على أية حال، صورتي موجودة على الحامل الآن، وعلى رغم أن كل شيء دون أبعاده الطبيعية، فيمكن حتى لأي وزير أن يرى أنه رأس مخلوق بشري، لرجل ملتح. وقد بدأت البوابة بإظهار اهتمام هائل بالصورة ورأت أن التشابه مذهل. وأعجبتها فكرة إظهر برج إيفل في الخلفية.

استمرت الأمور على هذا المنوال بسلام قرابة الشهر أو أكثر. أعجبني الحي، خاصة أثناء الليل عندما يكشف المكان عن كآبته وقذارته. إن الساحة الصغيرة، التي تبدو غاية في السحر والهدوء عند الفجر، يمكن أن تتخذ أشد السمات كآبة وشؤماً عندما يحل الظلام. كان هناك ذاك الجدار الممتد، العالي الذي يخفي أحد جوانب الثكنة حيث ترى دائماً عنده عاشقين يتعانقان خلسة ـ وغالباً تحت المطر. إن لمن المقبض رؤية إثنين من العشاق مضغوطين على جدار السجن تحت نور شارع كئيب، وكأنهما قد جرفا إلى آخر الحدود. وما كان يجري داخل المكان المغلق لا يقل إثارة للانقباض. وقد اعتدت أن أقف في يوم ممطر عند النافذة وأنظر إلى ما يجري في الأسفل، فيبدو تماماً كأنه يجري على سطح كوكب آخر. كان يبدو لي شيئاً عصياً على الفهم، كل شيء يتم طبقاً لجدول معين، ولكن لا بد أنه كان جدولاً من تصميم مجنون. ها هم يتخبطون في الوحل، الأبواق تنفخ، والأحصنة تسرج، وكله يحدث بين أربعة جدران. إنها معركة كاذبة. وعدد كبير من جنود التنك ليس لديهم أدنى اهتمام بتعلم فنون القتل أو بتلميع أحذيتهم أو بتمشيط شعر الجياد. كل شيء سخيف سخافة مطلقة، بيد أنه جزء في مخطط الأشياء. وحين لا يبقى ما يفعلونه يبدون أكثر سخافة : يهرشون أنفسهم، يتجولون في المكان، أيديهم في جيوبهم، يرفعون أبصارهم إلى السماء. وعندما يأتي ملازم يضمون أكعابهم ويحيون. إنه مأوى للمجانين، كما يبدو لي. حتى الجياد تبدو بلهاء. أحياناً يجرون المدافع إلى الخارج وينطلقون وهم

يقعقعون علـى أرض الشـارع في استعراضٍ عسكري ويقف الناس فاغري الأفواه إعجابا بملابسهم الجميلة. كانوا دائماً يبدون كفيلق مسلح يتراجع، يحيط بهم جو من الرثاثة، والوساخة والاكتئاب، ثيابهم مترهلة فوق أجسادهم، وكل النشاط، الذي كانوا يملكونه كأفراد إلى درجة رائعة، قد زال عنهم.

لكن عند بزوغ الشمس كان كل شيء يبدو مختلفاً. يظهر في عيونهم شعاع من أمل، يمشون بمرونة أكثر، ويبدون القليل من الحماس. عندئذ يطل الجانب المبهج من الأشياء بصورة فاتنة، ويصدر ذلك الضجيج والقرقعة اللذان يميزان الفرنسيين. وفي المقهى الصغير الكائن عند الزاوية يتحادثون بمرح وهم يشربون الخمر ويبدو الضباط أكثر إنسانية، أكثر فرنسية. وحين تبزغ الشمس تبدو أية بقعة من باريس جميلة، ففي كل مقهى صغير به ظلة مرخية، وبضع طاولات موضوعة على الرصيف ومشروبات ملونة في الكؤوس، يبدو الناس أكثر إنسانية، يكونون حقاً بشراً ـ أروع أناس في العالم وقت شروق الشمس! متوقدي الذكاء، متكاسلين جداً، سعداء جداً! إنها لجريمة أن يحشر هؤلاء الشبان في ثكنة، لإخضاعهم للتدريب، لتصنيفهم إلى جنود ورقباء وكولونيلات ورتب أخرى...

وكما أقول، كانت الأمور على أحسن ما يرام، وكان كارل يسعى بين حين وآخر ليوفر لي عملاً، هو مقالات عن السفر كان يكره أن يقوم بها بنفسه. فهم لا يدفعون إلا خمسين فرنكاً على القطعة، لكنها كانت سهلة لأن كل ما كان علي أن أفعله هو أن أراجع الإصدارات السابقة وأنقح المقالات القديمة. فالناس لا يقرأون هذه الأشياء إلا وهم جالسون في المرحاض أو يقتلون الوقت في غرفة الانتظار. الشيء الأساسي هو الحفاظ على الصفات مصقولة جيداً ـ أما الباقي فمسألة تواريخ وإحصاءات. فإذا كانت المقالة مهمة وقع عليها رئيس القسم بنفسه، وكان شبه معتوه لا يحسن التحدث بأية لغة بشكل جيد، لكنه يعرف كيف يكتشف الأخطاء. فإذا وجد أن إحدى الفقرات قد كتبت بشكل جيد يقول "هكذا أريدك أن تكتب! هذه جميلة. أسمح لك باستخدامها في كتابك". وهذه الفقرات الجميلة

نكون أحياناً قد اقتبسناها من الموسوعة أو من مرشد قديم. وكان كارل يستخدم بعضها في كتابه ـ فقد كانت تتميز بصبغة سريالية.

وفي إحدى الأمسيات، إبان عودتي من نزهتي، فتحت الباب وإذا بامرأة تقفز من غرفة النوم وتهتف على الفور "إذن أنت الكاتب!" وتنظر إلى لحيتي وكأنما لتؤكد فكرتها عني "ما أبشعها من لحية! أعتقد أنكم القاطنون هنا كلكم مجانين"، وإذ بفيلمور يتبعها وهو يحمل الملاءة في يده ويقول "إنها أميرة" ويفرقع بشفتيه وكأنه يتذوق الكافيار لأول مرة. كانا يستعدان للخروج، ولم أفهم ماذا كانا يفعلان بملاءات السرير، وتبين لي على الفور أنه لا بد أن فيلمور جرها إلى غرفة النوم ليريها حقيبة الغسيل القذر. وهو دائماً يفعل هذا بالجديدات، خاصة إذا كانت فرنسية. "لا أكياس مخدات، لا قمصان!". هذا ما كان مخاطاً على حقيبة الغسيل القذر، وكان فيلمور مهووساً بشرح هذا الشعار لكل أنثى تصل. ولكن هذه السيدة ليست فرنسية ـ وقد أوضح لي هذه النقطة على الفور. هي روسية ـ وأميرة، لا أقل.

كان يتدفق بالإثارة، كطفل عثر لتوه على دمية. قال:" إنها تتكلم خمس لغات!". وكان واضحاً أن شديد الفرح بهذه المأثرة.

وتصحح له على الفور "لا، أربع"!.

"حسن، أربع إذن.... لابأس، إنها ذكية جداً. يجب أن تسمعها وهي تتكلم".

الأميرة عصبية ـ ظلت طول الوقت تهرش فخذها وتعرك أنفها. وسألتني على فوراً "لماذا يريد أن يعد سريره الآن؟ أيظن أنه سينال مني بهذه الطريقة؟ إنه طفل كبير. يتصرف بطريقة شائنة. لقد صحبته إلى مطعم روسي فأخذ يرقص كالزنوج"، وراحت تهز نصفها الأسفل لتصور لي ما فعل. "ثم إنه يتكلم كثيراً. وبصوت عال. وحديثه بايخ". وبدأت تتجول في الغرفة، تتفحص الرسومات والكتب، وهي تشمخ بذقنها طوال الوقت لكنها كانت تهرش نفسها بشكل متقطع. وبين الحين والآخر كانت تمخر طريقها كسفينة حربية مصوبة مدافعها الجانبية. وكان فيلمور يتبعها وهو يحمل قنينة في يد

وكأساً في الأخرى، حتى صاحت "كفاك متابعة لي! ثم أليس لديك إلا هذا تشربه؟ ألا تستطيع أن تحضر زجاجة شمبانيا؟ يجب أن أشرب شمبانيا. أعصابي! أعصابي"!.

ويحاول فيلمور أن يهمس ببعض الكلمات في أذني "ممثلة .... نجمة سينمائية .... هجرها أحدهم ولا تستطيع نسيان المر... سأسكرها....".

"سأذهب إذن" كنت أقول هذا حين قاطعتنا بصرخة "لماذا تتهامسان هكذا؟". وهي تضرب قدمها بالأرض "ألا تعلمان أن هذا قلة أدب؟ وأنت، ظننتك ستأخذني لنسهر؟ يجب أن أسكر هذه الليلة، لقد قلت لك هذا لتوي".

قال فيلمور "نعم، نعم، سنذهب بعد دقيقة، أريد فقط أن أشرب كأساً أخرى".

وزعقت "أنت خنزير! لكنك فتى لطيف أيضاً. لكن صوتك عال، وقليل التهذيب". ثم التفتت نحوي "هل يمكنني الاعتماد عليه في حسن السلوك؟ يجب أن أسكر هذه الليلة ولكن لا أريده أن يخزيني. قد اعود إلى هنا فيما بعد. أود أن أتحدث معك. تبدو لي أكثر ذكاء".

حين قررا الذهاب شدت الأميرة على يدي بمودة ووعدت بالمجيء على العشاء في إحدى الأمسيات ـ وقالت"حين أكون بكامل وعيي".

قلت "عظيم! أحضري معك أميرة أخرى ـ أو كونتيسة على الأقل. إننا نغير الملاءات كل يوم سبت".

عند قرابة الثالثة صباحاً عاد فيلمور وهو يترنح.... وحده، مشرقاً كمنارة المحيط، وهو يثير ضجيجاً كأعمى يضرب عصاه، تاب، تاب، تاب على أرض الزقاق، ويقول وهو يتجاوزني "إلى السرير فوراً، سأخبرك بكل شيء في الغد". ويدخل غرفته ويزيح الأغطية جانباً. وأسمعه يزمجر "يا لها من امرأة! يا لها من امرأة!". وبعد لحظة يخرج ثانية، معتمراً قبعته وعصاه في يده "كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحدث. إنها مجنونة"!.

ويدور في المطبخ باحثاً، ويعود بعد قليل إلى الداخل مع زجاجة من

الآنجو. وأضطر إلى الجلوس لأشاركه معاقرة الخمر.

حسبما تسعفني الذاكرة على لملمة أطراف القصة فإن كل شيء بدأ في الرون ـ بوان دو شانزيليزيه حيث توقف لشرب كأس في الطريق إلى المنزل. وكالعادة في تلك الساعة كانت المصطبة مزدحمة بالصقور، وهذه المرأة كانت جالسة في الممشى وقد وضعت أمامها كومة من الصحاف، كانت جالسة وحدها تسكر بهدوء حين تصادف أن مر فيلمور ووقع نظره عليها. وقهقهت قائلة "إنني سكرى، ألا تود أن تجالسني؟"، ثم، وكأن ما تفعله هو أكثر الأمور عادية في العالم بدأت تصخب وهي تتحدث عن قصتها مع مخرجها السينمائي، وكيف أساء معاملتها وكيف رمت بنفسها في السين وهكذا، إلخ، إلخ. ولم تعد تذكر على أي جسر حدث هذا، لا تتذكر إلا الحشد الذي تجمع بعد أن انتشلوها من الماء. ثم، أية أهمية في معرفة الجسر الذي رمت بنفسها منه ـ لماذا يسأل مثل هذه الأسئلة؟ كانت تضحك ضحكاً هستيرياً على ما حدث، وفجأة تملكتها رغبة بالانطلاق ـ أرادت أن ترقص. ولما رأت تردده فتحت حقيبتها باندفاع وأخرجت ورقة بمئة فرنك. وفي اللحظة التالي قررت أن المائة فرنك لن تكفي. قالت "ألا تحمل أية نقود؟". لا، لا يحمل الكثير منه في جيبه، ولكن لديه دفتر شيكات في المنزل. وهكذا انطلقا طلباً لدفتر الشيكات. وبعدئذ، طبعاً، تصادف أن دخلت في الوقت الذي كان يشرح لها الـ "لا أكياس مخدات، لا قمصان"!.

في طريقهما إلى المنزل توقفا في محل "السمكة الذهبية" لتناول التزويقة التي ازدردتها مع قليل من الفودكا. كانت وسط الجو الذي يلائمها والكل يقبل يدها ويغمغم "أميرتي، أميرتي". وعلى رغم سكرها تمكنت من الحفاظ على وقارها، وبينما هما يرقصان راحت تكرر "كفاك هزاً لمؤخرتك هكذا"!.

كانت فكرة فيلمور، حين أعادها إلى الشقة الصغيرة، أن يمكثا هناك، ولكن لما كانت فتاة ذكية وغريبة الأطوار، قرر أن يصبر على نزواتها ويؤجل الحدث الجلل. بل إنه تصور إمكانية إيجاد أميرة أخرى والعودة بهما معاً إلى المنزل. لذا حين خرجا لقضاء الأمسية كان مزاجه رائقاً ومستعداً، عند

الضرورة، لإنفاق بضع مئات من الفرنكات عليها. فقبل كل شيء، لا يصادف المرء أميرة كل يوم.

هذه المرة جرته إلى مكان آخر، مكان كانت فيه معروفة أكثر، حيث لم يحدث التباس حول صرف الشيك، كما قالت. الجميع يرتدون ثياب السهرة وكان هناك الكثير من التفاهات مثل الانحناءات التي تكسر الظهر، وتقبيل الأيدي بينما النادل يقودهما إلى المائدة.

في منتصف الرقصة إذا بها فجأة تندفع خارجة من الحلبة والدموع في عينيها، فقال "ماذا حدث؟ ماذا فعلت هذه المرة؟"، وبحركة عفوية وضع يده على عجزه مخافة أن يكون ما يزال يهتز. قالت "لا شيء، أنت لم تفعل أي شيء. هيا، أنت ولد طيب". وبهذه الكلمات سحبته ثانية إلى الحلبة وانخرطا في الرقص، وغمغم "ولكن ما بك؟" وكررت "لا شيء، رأيت أحدهم، هذا كل شيء" ثم، وبنوبة غضب مفاجئة ـــ "لماذا أسكرتني؟ ألا تعرف أن هذا يجنني؟".

ثم اردفت "هل معك شيك؟ يجب أن نخرج من هنا". ثم نادت على النادل وهمست له بالروسية. وبعد ذهاب النادل، سألته "هل هوشيك مضمون؟". وبعد ذلك تابعت باندفاع "انتظرني في الطابق السفلي في غرفة الملابس. يجب أن أتلفن لأحدهم".

بعد أن أحضر النادل باقي النقود هبط فيلمور الدرج متهادياً إلى غرفة الملابس في الطابق السفلي لينتظرها. وراح يتمشى جيئة وذهاباً، مهمهماً ومصفراً بصوت ناعم، يتلمظ بشفتيه متوقعاً مجيء الكافيار. ومرت خمس دقائق. ثم عشر. ولا يزال يصفر بهدوء. ولما مرت عشرون دقيقة ولم تعد الأميرة بدأت ريبته تتعاظم. وقال له خادم غرفة الملابس إنها غادرت منذ زمن طويل، فاندفع إلى الخارج. كان هناك زنجي في زيه الرسمي يقف هناك وعلى وجهه ابتسامة عريضة. فهل يعرف الزنجي إلى أين فرت؟ ويبتسم الزنجي، ويقول الزنجي "سمعت كلمة الكوبول، فقط يا سيدي"!.

في الكوبول، في الطابق السفلي، يجدها جالسة أمام كأس من الكوكتيل وعلى وجهها تعبير حالم هو أقرب إلى النشوة. وحين تراه تبتسم. فيقول

"أمن اللباقة أن تهربي هكذا؟ كان من الممكن أن تقولي إني لا أعجبك.....".

استعرت غضباً لهذا الكلام، وتلبستها مسحة مسرحية. وبعد الكثير من الصراخ بدأت تئن وتريّل، وقالت وهي تنتحب "أنا مجنونة، وأنت أيضاً مجنون. وتريدني أن أنام معك، وأنا لا أريد أن أنام معك". ثم باشرت هذيانها عن حبيبها، المخرج السينمائي الذي رأته في حلبة الرقص. هذا هو سبب هروبها. ولهذا هي تتعاطى المخدرات وتسكر لكل ليلة. ولهذا رمت بنفسها في السين. وتابعت ثرثرتها فتحدثت عن مدى جنونها، وفجأة خطرت على بالها فكرة، "فلنذهب إلى محل بريكتوب" فهناك رجل تعرفه .... وعدها ذات مرة بعمل، وهي متأكدة من أنه سيساعدها.

سألها فيلمور بحذر "وكم سيكلف هذا؟".

سيكلف كثيراً، أخبرته بهذا دون مواربة "ولكن اسمع، إذا أخذتني إلى محل بريكتوب، أعدك بالذهاب معك إلى البيت". كانت صادقة إلى درجة أنها اضافت أن هذا سيكلفه خمسمئة أو ستمئة فرنك. "لكني أستاهل هذا المبلغ! أنت لا تعلم قيمتي كامرأة. لن تجد مثيلة لي في باريس كلها....".

وثارت حميته الأميركية "هذا رأيك أنت! أما أنا فلا أرى هذا. أنا لا أرى أنك تستحقين أي شيء. ما أنت غير عاهرة حقيرة مجنونة. بصراحة، أفضل أن أعطي خمسين فرنكاً لفتاة فرنسية مسكينة، فهن على الأقل يعطينني شيئاً في المقابل".

كادت ترتطم بالسقف عند ذكر الفرنسيات "إياك أن تذكر أولائي النسوة! أنا أكرههن! إنهن حمقاوات .... ودميمات ..... إنهن مرتزقات. أقول لك كفى"!.

خلال دقيقة من الزمن كانت قد خمدت من جديد. وبدأت نغمة جديدة، فغمغمت "حبيبي، أنت لا تعرف كيف ابدو حين أتعرى. أنا جميلة!". وحملت ثدييها بكلتا يديها.

لكن فيلمور ظل جامداً وقال ببرود "أنت عاهرة! لن أنفق عليك ولا حتى بضع مئات من الفرنكات، لكنك معتوهة. إنك حتى لم تغسلي

وجهك. وأنفاسك كريهة. لا يهمني إن كنت أميرة أم لا..... لا أريد أي شيء من تشكيلتك الروسية ذوات المؤخرات العالية. يجب أن تخرجي إلى الشارع وتتحرشي بالرحال لتحصلي على ما تريدين. لست أفضل من فتاة فرنسية مسكينة. ولا تجارينها في الجودة. لن أتبول سواً واحداً عليك. يجب أن تذهبي إلى أميركا - فهي المكان المناسب لعلقة مصاصة دماء مثلك...".

لم يبد عليها أنها تأثرت بهذا الكلام، بل قالت "أعتقد أنك تخافني قليلاً".

"أنا أخاف منك؟ أنت؟".

قالت "ما أنت إلا ولد صغير. ولست لبقاً. حين ستعرفني بشكل أفضل ستغير طريقة حديثك معي.... لماذا لا تحاول أن تكون رقيقاً؟ إذا لم تكن ترغب في الذهاب معي هذه الليلة، لابأس سأكون في الرون - بوان غداً بين الساعة الخامسة والحادية عشرة. أنت تعجبني".

"لن أكون في الرون - بوان غداً، ولا في أية أمسية أخرى! لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن.... أبداً. انتهى كل شيء بيننا. سأذهب لأبحث لنفسي عن فتاة فرنسية صغيرة وجميلة. أما أنت فاذهبي إلى الجحيم"!.

نظرت إليه وابتسمت بضجر "هذا ما تقوله الآن. لكن مهلاً! مهلاً حتى تضاجعني. أنت لا تعرف بعد أي جسم جميل لدي. أنت تعتقد أن الفرنسيات يعرفن ممارسة الحب .... ولكن انتظر! سأجعلك تجن بي. أنت تعجبني. كل ما في الأمر أنك غير متحضر. ما أنت غير صبي. وثرثار....".

قال فيلمور "أنت مجنونة، لن أقع في حبائلك، ولو كنت آخر امرأة على وجه الأرض. اذهبي إلى بيتك واغسلي وجهك". وابتعد دون أن يدفع ثمن المشروب.

وفي غضون بضعة أيام نُصِّبت الأميرة. إنها أميرة حقيقية، ونحن متأكدون تماماً من هذا. لكنها مصابة بالسيلان. مهما يكن، الحياة أبعد ما تكون عن الملل هنا. وأصيب فيلمور بالنزلة الشعبية. وكما قلت، أصيبت الأميرة بالسيلان، وأصبت أنا بالبواسير. لم أكن أقوم سوى بتبديل الزجاجات الست الفارغة من عند البقال الروسي الكائن في الطرف الآخر من الشارع.

ولم تنزل منها قطرة واحدة في حنجرتي. لا لحم، لا خمر، لا طرائد دسمة، لا نساء. فقط فاكهة وزيت البرافين، وقطرات الأرنيكا ومرهم الأدرنالين، وممنوع الجلوس على مقعد مريح جداً. والآن، وأنا أنظر إلى الأميرة، أنتصب في جلستي كأني باشا. باشا! هذا يذكرني باسمها: ماشا. لا يبدو لي اسماً ارستقراطياً. يذكرني بقصة "الجثة الميتة".

في أول الأمر ظننت أنها ستكون شيئاً مربكاً، أقصد هذه "العلاقة الثلاثية" لكنها لم تكن كذلك قط. وحين رأيتها تدخل ظننت أنه لم يعد لي شأن في البيت، وأن علي أن أجد لي مكاناً آخر. لكن سرعان ما أفهمني فيلمور أنه فقط ينزلها عنده ريثما تقف على قدميها. ولا أعرف ماذا تعني عبارة كهذه مع امرأة مثلها، فحسبما أرى كانت أحوالها رخية طوال حياتها. تقول إن الثورة سببت نزوحها عن روسيا، لكني متأكد من أنه لو لم تكن الثورة لكان شيئاً آخر. وهي تتوهم دائماً أنها ممثلة عظيمة، ولم نحاول أن نعارضها في اي شيء تقوله لأنه مضيعة للوقت. وفيلمور يجدها مسلية. حين يتوجه إلى مكتبه صباحاً يترك عشر فرنكات على وسادتها وعشراً على وسادتي، وفي المساء نذهب نحن الثلاثة إلى المطعم الروسي في المنطقة السفلى. الحي مملوء بالروس وقد وجدت ماشا لتوها مكاناً تلجأ إليه عندما تحتاج إلى المال. وطبعاً عشر فرنكات في اليوم لا تساوي أي شيء بالنسبة لأميرة، فهي تريد كافياراً بين الحين والآخر مع شمبانيا، وهي بحاجة إلى خزانة ملابس جديدة تماماً لتعود إلى العمل في السينما من جديد. ليس لديها ما تفعله سوى قتل الوقت. وهي تزداد بدانة.

هذا الصباح أصبت برعب حقيقي. فبعد أن غسلت وجهي تناولت منشفتها خطأً. ويبدو أننا لا ننجح في تعويدها على تعليق منشفتها على المشجب المخصص لها. وحين وبختها لأجل هذا أجابت بنعومة "يا عزيزي، لو أن هذا يسبب العمى لأحد لأصبت بالعمى منذ سنين طويلة".

ثم هناك المرحاض، وكلنا يستعمله. حاولت أن أكلمها بطريقة أبوية عن مقعد المرحاض، فإذا بها تقول "أوه، اللعنة! إن كنت خائفاً إلى هذا الحد سأذهب إلى مرحاض المقهى"، فأشرح لها أن لا داعي لذلك. فقط كوني

حريصة في استخدامه، فتقول "تت، تت إذن لن أجلس .... سأبقى واقفة".

في وجودها اضطربت كل الأمور. أولاً أخـذت تتحاشـانا لأنهـا كـانت تمر بدورتها الشهرية. استمرت ثمانية أيام. وبدأنا نظن أنها تخدعنا. ولكن لا، لم تكن تخدعنا، ففي أحد الأيام، بينما كنت أرتب المكان، عثرت على بعـض القطن محشوراً تحت السرير ملطخ بالدم. وكل شيء معها يذهب تحت السرير قشور البرتقال، حشـوة السـطم، قطـع الفلـين، زجاجـات فارغـة، مقـص، واقيات ذكرية مستعملة، كتب، وسائد..... ولا تعد السرير إلا عندمـا تريـد اللجوء إليه. طوال الوقت تضطجع على السرير تقرأ صحفها الروسية، وتقول "يا عزيزي، لولا صحفي لما خرجت من السرير أبداً". هذا هـو حالهـا تمامـاً! لاشيء غير الصحـف الروسية. ولا تجـد قطعـة واحـدة مـن ورق المراحيـض حولك ـ لا تجد غير الصحف الروسية لتمسح بها مؤخرتك.

على أية حال بمناسبة الحديث عن حساسـياتها المفرطـة، فبعـد أن انتهـى حيضها الشهري، وبعد أن استراحت كما يجب وكدست كمية لا بـأس بهـا من الدهن حول بطنها، ظلت تتحاشانا، مدعيـة أنهـا لا تميـل إلا إلى النسـاء، ولكي تقبل برجل يجب أن تستشار أولاً كما يجب. وطلبت منا أن نأخذها إلى بيت للدعارة حيث يعرضـون فصـل الكلـب والرجـل. أو ليتـه يكـون، كمـا قالت، مشهد ليدا والبجعة: فإن تصفيق الجناحين يثيرها بقوة.

وذات ليلة وعلى سبيل اختبارها، صحبناها إلى مكـان اقترحتـه بنفسـها. ولكن قبل أن تتاح لنا فرصة شرح الموضـوع للمـدام، انخرط إنكليزي ثمـل، كان يجلس على المائدة المجاورة في الحديث معنـا. كـان قـد صعـد إلى الطـابق العلوي مرتين حتى الآن ولكنه اراد أن يجرب مـرة أخـرى. لم يكـن في جيبـه غير عشرين فرنكاً، ولا يعرف أية كلمة فرنسية، فطلب أن نسـاعده في عقـد صفقة مع فتاة وضع عينه عليها. وتصادف أن كـانت زنجيـة، فتـاة قويـة مـن المارتينيك، وجميلة جمال فهد. وكان مزاجها رائقاً أيضاً. ولكي يقنعها بقبـول فرنكات الإنكليزي المتبقية كان على فيلمور أن يعدها بالذهـاب معهـا حالمـا تنتهي من الإنكليزي. ورأت الأميرة وسمعت كل ما قيـل، وأظهـرت تحفظهـا المتعض. لقد أهينت. قال فيلمور "حسن، لقد اردت بعض الإثارة ـ يمكنـك

أن تراقبيي وأنا أمارس الجنس!". لم ترغب بمشاهدته بل أرادت أن تراقب ذكر البط، فقال "يا إلهي! إنني جيد مثل ذكر البط في أي يوم تريدين .... بل ربما كنت أفضل بقليل". وهكذا كلمة جرت أخرى، ووجدنا أخيراً أن الطريقة الوحيدة لتهدئتها هي إحضار إحدى الفتيات لتدغدغ إحداهما الأخرى.... ولما عاد فيلمور مع الزنجية كانت عيناها تلتهبان. وفهمت من طريقة فيلمور في النظر إليها أنها قامت بأداء فائق للعادة، وبدأت أهتاج بدوري، ولا بد أن فيلمور أحس بشعوري هذا، وبمدى صعوبة محنة مجرد الجلوس والنظر، لأنه فجأة تناول من جيبه ورقة بمئة فرنك وقال وهو يضعها بقوة أمامه "أنظر هنا، ربما كنت بحاجة إلى مضاجعة أكثر من أي إنسان. خذ هذه واختر لنفسك من تشاء"، وقد جعلته هذه اللفتة محبباً لدي أكثر من أي شيء آخر فعله لأجلي، وقد فعل الكثير. وقبلت النقود بالروح نفسها التي منحت لي وعلى الفور أشرت إلى الزنجية بالاستعداد لمضاجعة أخرى. ويبدو أن هذا أثار سخط الأميرة إلى أقصى حد. وأرادت أن تعرف ألا يوجد في المكان أفضل من هذه الزنجية. فأجبتها بفظاظة لا. وبت الأمر ــ وكانت الزنجية هي ملكة الحريم. كان يكفيك أن تنظر إلى وجهها حتى يحصل لديك انتصاب. كانت عيناها تبدوان وكأنهما تسبحان في المني. وكانت ثملة بالطلبات المنهالة عليها. ولم تعد تستطيع أن تسير باستقامة ــ أو على الأقل هذا ما خيل إلي. كنت وأنا أتبعها صاعداً الدرج الضيق اللولبي لا أقوى على مقاومة إغراء زلق يدي في فرجها، وتابعنا طريقنا صعوداً ونحن على هذا المنوال، وهي تنظر إلي وتبتسم بمرح وتهز مؤخرتها قليلاً حين لا تعود تصبر على شدة الدغدغة.

كانت جلسة طيبة على الجميع. والكل سعيد. حتى ماشا بدت بمزاج طيب. وفي الليلة التالية، بعد أن نالت نصيبها من الشمبانيا والكافيار، ذهب فيلمور ليعمل فيها، وبدا وكأنه قد أوشك على الفوز بجائزته أخيراً، فقد توقفت عن إثارة الشجار، واستلقت على ظهرها وباعدت ما بين ساقيها وتركته يحاورها ويداورها ومن ثم، وما أن بدأ باعتلائها، وكاد أن يدخله فيها تخبره بلا مبالاة أنها مصابة بالسيلان. ورفسها بعيداً عنه كقطعة من الخشب. وأسمعه يتحسس في المطبخ بحثاً عن الصابونة السوداء التي كان

يستخدمها في مناسبات خاصة، وبعد قليل وقف بجوار سريري وهو يحمل منشفة بيديه ويقول "أرأيت؟ بنت الحرام الأميرة مصابة بالسيلان"، وبدا عليه الخوف الكامل. وكانت الأميرة في تلك الأثناء تمضغ تفاحة وتتصل هاتفياً لإحضار صحفها الروسية. فالأمر بالنسبة لها محض فكاهة. وتخاطبنا وهي مستلقية هناك على السرير من خلال الباب المفتوح "ثمة أشياء أسوأ من هذا". وأخيراً يبدأ فيلمور بدوره بتقبل الأمر على أنه فكاهة فيفتح قنينة آنجو ويصب لنفسه كأساً ويعبه عباً. ولم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً لذا جلس ليتحدث معي قليلاً. قال لي إنه لن يدع أمراً كهذا يخذله. وطبعاً عليه أن يأخذ حذره... فلا يزال يذكر المرض القديم الذي أصيب به في الهافر. ولم يعد يذكر كيف وقع ذلك. أحياناً حين يسكر ينسى أن ينظف نفسه. والأمر ليس مريعاً جداً، ولكن لا يعلم المرء كيف يمكن أن يتطور. لم يكن يرغب في أن يدلك له أحد غدة البروستات. لا، لم يكن يستسيغ ذلك. وقد أصيب به لأول مرة حين كان في الجامعة. ولا يعرف إن كانت الفتاة هي التي نقلت المرض له أو هو الذي نقله إليها، فثمة الكثير من الأشياء الغريبة تجري حول حرم الجامعة حتى أنك لا تعرف من تصدق. جميع الطالبات تقريباً كن يحبلن في وقت من الأوقات. إنهن جاهلات تماماً.... حتى الأساتذة أيضاً كانوا جهلة. وأحدهم أخصى نفسه، كما أشيع....

مهما يكن، في الليلة التالية قرر أن يجازف ـ بغلاف واق. لا كبير مجازفة في هذا، إلا إذا تمزق. لقد اشترى واحداً من مجموعة جلد السمك الطويل ـ وأكد لي أنه الأجود. ولكن، حتى هذا لم ينجح. لقد كانت كتيمة جداً. وقال "يا إلهي! ليس بي ما هو غير سوي، فكيف تفهم هذا؟ لا شك في أن أحدهم قد دخل فيها ونقل إليها المرض. لا بد أنه كان قصيراً بصورة شاذة".

وهكذا تتالى الفشل بعد الآخر، وتخلي عن الأمر كله. وأصبحا الآن يستلقيان هناك كأخ وأخت، يحلمان أحلاماً سفاحية. وتقول ماشا، بأسلوبها الفلسفي "في روسيا كثيراً ما يحدث أن ينام رجل مع امرأة دون أن يلمسها. ويمكنهما أن يستمرا على هذا الشكل مدة أسابيع وأسابيع دون أن يفكرا

بالعملية. وفجأة ما أن يلمسها حتى .... بف! بف! وبعد ذلك يستمر البف، بف، بف"!.

تتركز جميع الجهود الآن لعلاج ماشا. ويفكر فيلمور أنه إذا شفاها من سيلانها فقد تلين. فكرة غريبة. لذا ابتاع لها حقيبة دوش، وبعض البرمنغنات، وحقنة دوارة وأشياء صغيرة أخرى كان أوصاه بها طبيب هنغاري، وهو دجال اختصاصي في الإجهاض يقطن قريباً من البلاس داليغر. ويبدو أن رئيسه كان قد تسبب في حبل فتاة في السادسة عشرة ذات مرة وهي التي عرفته بالهنغاري، ومن ثم أصيب الرئيس بقرحة تناسلية جميلة واستدعى الهنغاري مرة أخرى. هكذا يتعارف الناس في باريس - إنها صداقات بول - تناسليةgeneto - urinary . مهما يكن، أخذت ماشا تعتني بنفسها تحت إشرافنا الصارم. إلا أننا ذات ليلة وقعنا في مأزق صغير. ففقد وضعت التحميلة داخلها و لم نعثر على الخيط المعلق بها وصرخت "يا إلهي أين الخيط؟ يا إلهي! إنني لا ارى الخيط"!.

فقال لها فيلمور "هل بحثت تحت السرير؟".

وأخيراً هدأت. ولكن فقط لبضع دقائق. أما الحدث الثاني فكان: "يا إلهي! إنني أنزف من جديد. لقد أنهيت دورتي للتو وها أنا أرى اللطخ من جديد. لا بد أنه بسبب تلك الشمبانيا الرخيصة التي جلبتها. يا إلهي أتريدني أن أنزف حتى الموت؟". وتخرج بثوب الكيمونو وقد حشرت منشفة بين فخذيها، محاولة كعادتها، أن تبدو محترمة. وتقول "حياتي كلها على هذا الشكل. إنني منهارة الأعصاب. طوال النهار ألف وأدور وفي الليل أسكر ثانية. حين أتيت إلى باريس كنت لا أزال فتاة بريئة. لم أقرأ إلا فيلون وبودلير. ولكن لما كنت أملك عندئذ ٣٠٠٠٠٠ فرنكاً سويسرياً في البنك كدت أجن رغبة بالانغماس في المتعة، لأنهم في روسيا كانوا متشددين معي. وكنت عندئذ أكثر جمالاً مما أنا الآن، كان الرجال يرتمون تحت قدمي". وهنا رفعت بسرعة ثوبها المتراكم عند الخصر "لا يجب أن تظن أنه كان لي كرش كهذا حين أتيت إلى هنا.... إنه من السموم التي قدمت لي وشربتها... تلك المشهيات الرهيبة التي يولع الفرنسيون بشربها.... وبعد هذا قابلت مخرجي

السينمائي وطلب مني أن أمثل لـه مشـهداً تمثيليـاً. قـال إنـي أروع مخلوقـة في العالم وتوسل إلي أن أضاجعه كل ليلة. كنت عـذراء صغـيرة بلهـاء، وهكـذا سمحت له باغتصابي ذات ليلة. لقد أردت أن أكون ممثلة عظيمـة و لم أعـرف أنه مملوء بالسم الزعاف. وأصابني بالسيلان.... والآن أريده أن يأخذه ثانيـة. لقـد حـاولت الانتحـار في السـين بسببه... لماذا تضحـك؟ ألا تصـدق أنـي حاولت الانتحار؟ يمكنني أن أريك الصحف.... إن صورتـي تظهـر في جميع الصحف. سأريك الصحـف الروسية ذات يـوم.... لقـد كتبـوا عـني كلامـاً رائعاً... لكن، يا عزيزي، أنت تعرف أني أولاً يجـب أن أحصـل علـى ثـوب جديد. لا يمكنني أن أغوي هذا الرجل بهذه الأسمال القذرة التي أرتديهـا. ثـم أني ما زلت أدين للخياط بـ ١٢٠٠٠ فرنك....".

ومنذ هذه النقطة فصـاعداً تبـدأ قصـة طويلـة عـن الميراث الـذي تحـاول تحصيله. لديها محام شاب، فرنسي، وهو رعديد، على مـا يبـدو، ويحـاول أن يربح قضية استعادة ثروتها. وبين آن وآخر يعطيها مائة فرنك أو نحوهـا علـى الحساب. وتقول عنه "إنه شحيح، كجميع الفرنسيين. ثـم إنـي كنـت جميلـة جداً أيضاً، حتى أنه لم يكن يبعد عينيـه عـني. وظـل يتوسـل إلي كـي أنيكـه. ومللـت الاستمـاع إليـه حتـى أنـي في إحـدى الأمسيات قلـت نعـم، فقـط لإسـكاته، وأيضـاً لكـي لا أخسـر المائـة فرنـك الـتي أحصـل عليهـا أحيانـاً". وسكتت لحظة لتضحك بعصبيـة. ثـم تـابعت "يـا عزيـزي إن مـا حـدث لي مضحك بحيث يعسر التعبير عنه بالكلمات. فقد اتصـل بـي ذات يـوم هاتفيـاً ليقول لي يجب أن أراك الآن.... لأمر هـام جـداً. وحـين قابلتـه عـرض علـي ورقة من الطبيب ـ إنه السيلان! يا إلهي، لقد ضحكت في وجهه. كيف كـان يمكن أن أعرف أني ما زلت مصابة به؟ قلت له "أردت أن تنيكـني فنكتـك"، فسكت. هـذه هـي الحيـاة.... في أول الأمـر لا ينتـابك أي ريـب في شـيء، وفجأة بف، بف، بف! لقد كان مغفلاً كبيراً حتى يقع في حبائلي مرة ثانيـة. كل ما طلبه مني كان أن أحتشم ولا أقضي الليل متجولة في أرجاء مونبرنـاس أسكر وأنيك. وقال إني أدفعه إلى الجنون. وطلب أن يتزوجني ثـم سمـع أهلـه عني وأقنعوه بالذهاب إلى الهند الصينية...".

ومن هذا الموضوع تحولت ماشيا بهدوء إلى علاقة كانت تقيمها مع إحدى السحاقيات. "كان أمراً مضحكاً، يا عزيزي، حين أخذتني معها ذات ليلة. كنت في "الفتيش" وكنت ثملة كالعادة. وراحت تنقلني من مكان إلى مكان ومارست الحب معي تحت الطاولة طوال الليل حتى هلكت. ثم صحبتني إلى شقتها ومقابل مثيّ فرنك تركتها تمتصني. أرادت أن تستبقيني لأعيش معها لكني كرهت أن تمتصني كل ليلة....... إنه شيء مهلك. ثم أؤكد لك أني لم أعد آبه بالسحاقيات كما كنت قبلاً. وأفضل أن أضطجع مع رجل على رغم أن هذا يؤذيني. فحين يصل هياجي إلى أقصاه لا أستطيع منع نفسي .... ثلاث، أربع، خمس مرات.... ومن ثم هكذا بف، بف، بف! وأنزف وهذا غير صحي بالنسبة لي لأن لدي استعداداً للإصابة بفقر الدم. لهذا كما ترى يجب أن أدع إحدى السحاقيات تمتصني مرة كل حين....".

ما إن حل فصل البرد حتى اختفت الأميرة. وازداد الوضع قساوة مع قلة فحم المدفأة في الشقة الصغيرة، وباتت غرفة النوم كعلبة من الجليد، و لم يكـن المطبخ أحسن حالاً. كانت هناك فقط دائرة صغيرة حول المدفأة تتمتع بدفء حقيقي. وعثرت ماشا على نحات مخصي. وأخبرتنا بشأنه قبل ذهابها. وبعد بضعة أيام حاولت أن تعود إلينا، لكن فيلمور لم يقبلها. اشتكت من أن النحات حرمها من نوم الليل وهو يقبلها. ثم إنه لا يوجد ماء ساخن لتأخذ دوشها. لكنها أخيراً قررت أنها مع ذلك لا تود أن تعود. "فلا أريد أن أجد ذاك الشمعدان بجانبي بعد اليوم، دائماً أجد ذاك الشمعدان .... إنه يثير أعصابي. لو أنك كنت شاذاً جنسياً لبقيت معك....".

وبذهاب ماشا أصبح لأمسياتنا طابع مختلف. كنا كثيراً ما نجلس بالقرب من الموقد نشرب التودى الساخن ونناقش حياتنا حين كنا في الولايات المتحدة. كنا نتحدث عنها وكأننا لا نتوقع أن نعود إلى هناك قط. وكان لدى فيلمور خريطة لمدينة نيويورك، معلقة على الجدار، واعتدنا أن نقضي أمسيات بكاملها ونحن نقيم مقارنة بين حسنات كل من باريس ونيويورك النسبية. وكان لا بد من أن يتسلل إلى مناقشاتنا شخص ويتمان، ذاك العملاق الفريد الذي أنجبته لنا أميركا خلال حياتها القصيرة. في ويتمان يبعث المشهد الأميركي كله حياً، ماضيها ومستقبلها، ميلادها وموتها. وقد عبر ويتمان عن كل قيمة موجودة في أميركا، و لم يبق شيء ليقال. المستقبل هو للإله، للبشر الآليين. كان ويتمان شاعر الجسد والروح. أول وآخر شاعر. ويكاد اليوم يكون مغلقاً على الفهم، نصباً مغطى بكلمات هيروغليفية

بدائية لا مجال لحل طلسمها. بل إنه لمن الغريب تقريباً ذكر اسمه هنا، فلا مثيل في اللغات الأوربية للغة الروح التي خلدها. أوربا مشبعة بالفن وتربتها مفعمة بعظام الموتى، ومتاحفها تضيق بكنوز مسلوبة، أما ما تفتقده أوربا فهو روح حرة سليمة الصحة، يمكنك أن تسميها "إنسان". كان غوته أقرب مدخل، لكن غوته كان قميصاً محشواً، بالمقارنة. غوته كان مواطناً محترماً، متحذلقاً، ملولاً، روحاً كونية، لكنه مختوم بالعلامة الألمانية التجارية، بالصقر المزدوج. إن صفاء غوته، وهدوءه، وموقفه الأوليمبي، ما هو إلا غيبوبة النوم لإله برجوازي ألماني. إن غوته هو نهاية شيء، ويتمان هو بدايته.

بعد مناقشة من هذا النوع كنت أحياناً أرتدي ثيابي وأخرج لأتمشى، مرتدياً كنزة سميكة، ومعطف فيلمور الربيعي وفوقه رداء الكتفين. إن البرد الرطب الشنيع لا مجال لمجابهته إلا بروح قوية. يقال إن أميركا هي بلد الدرجات القصوى، وصحيح أن ميزان الحرارة يسجل درجات من البرودة لا يسمع بها، عملياً، أحد هنا، لكن برد شتاء باريس هو برد لا تعرفه أميركا، إنه نفسي، داخلي بقدر ما هو خارجي. فإذا كان البرد لا يصل إلى درجة التجمد هنا فإنه لا يزول أيضاً. وكما يحتمي الناس ضد غزو عزلتهم بجدرانهم العالية، بأقفالهم ومصاريع نوافذهم، بحجابهم المزمجرين، البذيئين، ذوي الألفاظ القذرة، كذلك تعلموا أن يحتموا ضد برودة وحرارة مناخ قوي ومنشط. لقد حصنوا أنفسهم: الحماية هي كلمة السر. الحماية والأمان. وذلك كي يتعفنوا بارتياح. وفي ليلة شتائية رطبة ليس من الضروري أن ننظر إلى الخريطة لنكتشف خط عرض باريس. إنها مدينة شمالية، مخفر أمامي أقيم فوق مستنقع مملوء بالجماجم والعظام. على طول الشوارع تمتد محاكاة كهربائية باردة للحرارة. وعبارة "tout va bein"كتبت بأشعة فوق بنفسجية تجعل زبائن سلسلة مقاهي دوبون يبدون كجثث مصابة بالآكال. "tout va bien" هذا هو الشعار الذي يقتات عليه المتسولون البائسون الذين يتسكعون طوال الليل تحت رذاذ الأشعة البنفسجية. حيثما توجد الأضواء يوجد قليل من الدفء. ويتدفأ المرء بالنظر إلى أولاد حرام بدينين مطمئنين وهم يجرعون مشروباتهم، ويرتشفون أكواب القهوة السوداء المتبخرة. وحيثما توجد الأضواء يوجد أناس يقفون على الأرصفة، يحك بعضهم بعضاً، يعثون قليلاً من الحرارة الحيوانية من خلال

ثيابهم الداخلية القذرة، وأنفاسهم الكريهة المجدفة. وقد يبدو على مدى ثمانية أو عشرة من الأبنية مظهر من البهجة، وفجأة يتراجع مسرعاً داخل الليل، ليل موحش، بشع، أسود كتسحم متجمد في وعاء حساء. كتل وكتل من المباني المتلمة، كل نافذة فيها موصدة بإحكام، كل واجهة محل مزلجة ومقفلة. أميال وأميال من السجون الحجرية تخلو من أوهى وهج من دفء، الكلاب والقطط كلها في الداخل مع عصافير الكناري. حتى الصراصير وبق الفراش محجوزة بأمان. tout va bien . إذا لم يكن معك سو واحد فلماذا لا تأخذ صحفاً قديمة وتفترش درج الكاتدرائية. الأبواب محكمة الإغلاق ولا خوف من إزعاج التيارات الهوائية. وأفضل من هذا أن تنام على عتبة أبواب المترو، فهناك ستجد لنفسك رفيقاً. أنظر إليهم في ليلة ماطرة، متمددون هناك، متيبسون كالحشيات ـ رجال، نساء، قمل، كلهم رابضون معاً تحميهم الصحف من البصاق والهوام التي تمشي بلا سيقان. أنظر إليهم تحت الجسور أو تحت سقيفات السوق العامة. كم يبدون حقيرين بالمقارنة مع الخضروات النظيفة المعلقة المرصعة كالجواهر. حتى الخيول الميتة والأبقار والمواشي المعلقة من الخطافات المشحمة تبدو أكثر إغراءاً. إننا على الأقل سنأكل هذه اللحوم غداً وحتى الإمعاء ستكون ذات نفع. لكن هؤلاء المعدمين القذرين المستلقين تحت المطر، إلام يهدفون؟ ماذا يمكن أن يقدموا لنا؟ إنهم يجعلون قلوبنا تنفطر عليهم مدة خمس دقائق، وهذا كل شيء.

آه، حسن، ما هذه إلا أفكار ليلية يفرزها المشي تحت المطر بعد ألفي عام من سواد المسيحية. على الأقل الآن أطعمت العصافير والقطط والكلاب جيداً. كلما أمر تحت نافذة الحاجبة ألمح نظرتها الجليدية القاسية تمسني رغبة مجنونة في خنق جميع عصافير الكون. ففي قرارة كل قلب متجمد ثمة قطرة أو قطرتان من الحب ـ كافيتان لإطعام العصافير.

ما زلت عاجزاً عن نسيان مدى التناقض القائم بين الفكر والحياة. إنه تشويش مستمر، بالرغم من أننا نحاول تغطيتهما بكساء لماع. لكنه لن ينفع. فيجب أن تكون الأفكار مقرونة بالعمل، فبدون الجنس بدون الحيوية، لا عمل. الأفكار لا توجد في فراغ العقل. الأفكار متصلة بالعيش: أفكار كبدية، أفكار

كلوية، أفكار معوية.... إلخ. لو أن الفكر هو للفكر نفسه لحطم كوبرنيكوس الوجود ولغرق كولومبوس في بحر سارغاسو. إن جمالية الأفكار تنتج أصص الزهور وأنت تضع أصص الزهور على طرف النافذة. ولكن إذا لم يكن ثمة مطر أو شمس فما نفع وضع أصص الزهور خارج النافذة؟

لدى فيلمور الكثير من الأفكار عن الذهب. ويسميها "أساطير" الذهب. أحب الـ "أساطير" وأحب فكرة الذهب، لكن لا اهتمام لدي بالموضوع ولا أرى داعياً لصنع أصص للزهور، حتى وإن تكن من ذهب. يقول لي إن الفرنسيين يخفون ذهبهم داخل حجيرات مملوءة حتى آخرها بالماء وهي بدورها موجودة عميقاً تحت الأرض، ويقول لي إن ثمة قطاراً صغيراً يتجول داخل هذه الأقبية والأروقة التحت أرضية. تعجبني الفكرة أيما إعجاب. صمت عميق، لا يعكره شيء، يغفو فيه الذهب بهدوء في درجة حرارة تبلغ ٥،١٧ درجة مئوية. وهو يقول إن جيشاً يعمل ٤٦ يوماً و٣٧ ساعة لن يكون كافياً لإحصاء كل الذهب المخبأ تحت بنك فرنسا، وأنه يوجد مخزون من الأسنان المستعارة، والأساور وخواتيم الزواج، إلخ، ويوجد أيضاً طعام يكفي ثمانية أيام وثمة بحيرة فوق كومة الذهب لمقاومة الهزة الناجمة عن الانفجارات الهائلة. ويقول إن الذهب يغدو خفياً أكثر فأكثر، أسطورة، ولن تحدث اختلاسات أخرى. رائع! أتساءل ماذا سيحدث للعالم حين سنبتعد عن قاعدة الذهب في الأفكار، والملبس، والأخلاق، إلخ، عن "قاعدة الذهب في الحب"!.

حتى هذا الوقت كانت فكرتي عن تعاوني مع نفسي هي في الابتعاد عن قاعدة الذهب في الأدب. لقد كانت فكرتي باختصار هي أن أحدث نهضة في المشاعر، أن أصور سلوك كائن بشري ضمن جو ستراتفوري من الأفكار، أي، في قبضة الهذيان، أن أرسم مخلوقاً ما قبل ـ سقراطي، نصفه تيس، ونصفه جبار. باختصار أن أقيم عالماً على أساس النصب المركزي omphalos، وليس على فكرة مجردة مسمرة على صليب. وقد تصادف فيه هنا وهناك تماثيل مهملة، وواحات لم تطأها قدم، وطواحين هواء عاينها سرفانتيس، أنهاراً تصعد التل، نساء ذوات خمسة أو ستة أثداء مرتبة طولانياً على طول الجذع، (كتب ستريندبرغ إلى غوغان، قال:" رأيت أشجاراً لم

يعرفها عالم نبات، وحيوانـات لم تكن لتخطر على بـال كوفييه وأناساً لا يستطيع غيرك خلقهم").

حين بلغ رامبرانت القيمة الإسمية هبط مع قوالب الذهب والطعام والأسرة الخفيفة. الذهب كلمة ليلية تنتمي إلى العقل التحـت أرضي:chthonian [14] تحتوي على حلـم وأساطير. إننـا نرتـد إلى علـم الخيميـاء، إلى تلـك الحكمـة الإسكندرية الزائفة التي أنتجت رموزنا الضخمة. لقد خزن بخلاء المعرفة الحكمة الحقيقية في أقبية تحتية، وسـيأتي اليـوم الـذي سيلوورون فيـه حـول أنفسـهم في الطبقة الجوية الوسـطى مزوديـن بـأجهزة ممغنطـة، ولكـي تعثر علـى قطعـة فـلز سيكون عليـك عندئـذ أن تصعـد في الجـو عشـرة آلاف قـدم مزوداً بـآلتين ـــ ويفضل أن يكون هــذا في منطقـة بـاردة ـ وتقيـم اتصـالاً تخاطريـاً مـع أحشـاء الأرض وأشباح الموتى. لم يعد هناك مناجم ذهب، ولا مناجم ثـراء. عليـك أن تتعلم قليلاً من الغناء والطفر، أن تقرأ الطالع وتدرس أحشاءك. إن كل الذهـب المخبأ بعيداً في جيوب الأرض يجب أن يعاد استخراجه، يجب إخراج كـل هـذه المظاهر الرمزية من أحشاء الإنسان. ولكن يجـب أولاً أن تحسـن الأدوات حتـى الكمـال. مـن الضـروري أولاً أن تبتكـر طـائرات أفضـل، أن تعـرف "مصـدر" التشويش وأن لا تخرج عن وعيك لمجرد أن تسمع انفجارا من تحتك. وثانيـاً مـن الضروري أن تعتاد على الطبقات الجوية الباردة الســتراتفورية، أن تصبـح سمكـة فضائية ذات دم بارد. لا توقير. لا شـفقة. لا ندامـات. لا هذيـان. وقبـل كـل شيء، وكما يقول فيليب داتس "لا إحباط "!

هذه أفكار مشرقة ألهمني إياها خمر فـيرموث في البـلاس دو لاترينيتـه. إنـه بعد ظهر يوم سبت وبين يدي كتاب "تخفق". كل شيء يسبح في سائل مخاطي مقدس. الخمر يخلف وراءه مذاقاً عشبياً مراً في فمي، ورواسب حضارتنا الغربية العظمى تتعفن الآن كأظافر أقدام القديسين. النسوة تمر ـ أفواجاً أفواجاً ـ كلهن يهززن مؤخراتها أمامي، وأجـراس الكنيسـة تقـرع والباصـات ترتقـي الأرصفـة وتقبل بعضهـا. صـبي المقهـى يمسـح الطاولـة بخرقـة قـذرة بينمـا سيده يدغـدغ صندوق المحاسبة بطرب شيطاني. وعلى وجهي نظرة بلهـاء، سـكرى، غامضـة

---

[14] ـ الأصل باللغة الفرنسية ـ المترجم.

بحدة، تقرص المؤخرات التي تحف بي. وفي بـرج الكنيسـة عنـد الطـرف المقـابل يقرع الأحدث الأجراس بمطرقة من ذهـب والحمـام يصرخ مـن الفـزع. أفتـح الكتـاب الـذي سمـاه نيتشـه "أفضـل كتـاب المـاني موجـود". يقـول:" سيصبح الرجال أكثر حذقاً وأكثر ذكـاءاً، ولكـن ليس أفضـل، أو أسـعد، أو أقـوى في الفعل - هذا ما سيحدث، على الأقل، في عهود معينة. إني أستشرف وقـت لـن يبقي الله فيهم أية بهجة، بل سيبيد كل شيء ليبدأ خلقاً جديداً. أنا متأكد مـن أن كل شيء مقرر له أن ينتهي هذه النهاية، وأن زمن ذلك وساعته محـددان في المستقبل البعيد. ولكن قبل ذلك سـينقضي ردح مـن الزمـان، وقـد نبقـى آلافـا وآلافاً من السنين نتسلى على هذه الأرض العتيقة العزيزة".

ممتاز! على الأقل فقبل مئة عام كان هناك رجل لديه رؤى كافية ليـدرك أن العالم قد تورم. "عالمنا الغربي!" ـــ حين أشـاهد قامـات الرجـال والنسـاء تتحرك بلا مبالاة خلف جدران سجنهم مطمئنـين، منعزلـين لبضـع سـاعات، أرتعد من الطاقات الهائلة التي لا تزال كامنة في هذه الأجساد الواهنـة. خلـف الجدران القائمة ثمة شرارات إنسانية، ومـع ذلـك فـلا حريـق. وأتسـاءل، هـل هؤلاء رجال ونساء، أم هم ظلال، ظلال دمى، معلقة بخيوط خفيـة؟ ظاهريـا يبدو وكأنهم يتحركون بحرية، ولكن ليست لديهم وجهة يبغونها. هـم أحـرار في عالم واحد فقط يتنقلون فيه على هواهم ــ لكنهـم لم يتعلمـوا بعـد كيـف يحلقون. حتى الآن لم توجد بعد أحلام محلقة. لم يولد بعد رجـل خفيـف بمـا يكفي، "مرح" بما يكفي، ليقدر على مغـادرة الأرض! الصقـور الـتي صفقـت قليلاً بأجنحتها الجبارة تحطمت بقوة علىالأرض. أصابتنا بالدوار من تصفيـق وخفقان أجنحتها. إبقي على الأرض يا صقور المستقبل! السـماوات ريـدت، وهي خاوية. وما تحت الأرض خواء أيضـاً، مملـوء فقـط بالعظـام والأشـباح. إبقي على الأرض واسبحي بضع مئات أخرى من آلاف السنين!.

السـاعة الآن الثالثـة صباحـاً ومعنـا عاهرتـان تقومـان بشـقلباتهما علـى البلاط. فيلمور يتجول وهـو عـار وفي يـده كـأس، وبطنـه مشـدود كـالطبل وقاس كالناسور. وكل البرنو والشمبانيا والكونيـاك والآنجـو الـذي عبـه منـذ الثالثة من بعد الظهر وحتى الآن، يغرغر في محبسه كـالمجرور. وتضـع الفتاتـان

أذنيهما على بطنه وكأنه صندوق موسيقى، وتفتحان فمه بالمزررة وتضعان قرصاً معدنياً في الشق. وحين يغرغر المجرور أسمع الوطاويط تطير خارجة من برج الكنيسة وينزلق الحلم ليغدو خدعة بارعة.

تعرت الفتاتان وأخذنا نتفحص الأرضية لنتأكد من أنهما لن تصابا بأية شظية في مؤخرتيهما. لا زالتا ترتديان حذاءيهما ذوا الكعب العالي. ولكن المؤخرة! المؤخرة مهترئة، مكشوطة، ومسنفرة، ناعمة، صلبة، لامعة ككرة البليارد أو كجمجمة المجذوم. على الجدار علقت صورة مونا: إنها تواجه ناحية الشمال الشرقي على خط واحد معه كلمة "كراكو" مكتوبة بالحبر الأخضر. إلى يسارها كلمة "دوردوني" محاطة بدائرة بقلم خشب أحمر. وفجأة ارى شقاً معتماً شعراً على كرة بليارد صقيلة لامعة، وتضمني الساقان كطرفي مقص. وألقي نظرة إلى ذاك الجرح المعتم المفتوح، فينفتح في رأسي صدع عميق: وتتدفق منه كل الصور والذكريات التي، بقصد أو بلا قصد، صنفت، وبوبت، ودعمت بالوثائق، وضبرت، وختمت، ووضع عليها الطابع، تتدفق عشوائياً كنمل ينهمر من شق على الرصيف، ويكف العالم عن الدوران ويتوقف الزمن، حتى ترابط أحلامي يتفكك وينحل وتندلق أحشائي باندفاع انفصامي عظيم، إنه تفريغ يتركني وجهاً لوجه مع المطلق. أرى من جديد أمهات بيكاسو المتمددات الضخمات، أثداءهن مغطاة بالعناكب، أسطورتهن مخبأة عميقاً في المتاهة، ومولي بلوم[١٥] مستلقية على حشية قذرة إلى الأبد. وعلى باب المرحاض رُسمت أيور ذكرية حمراء بالطباشير والسيدة العذراء تطلق صرخة متناغمة من هول الكارثة. وأسمع ضحكة وحشية هستيرية، وثمة غرفة ملأى بالكزاز، والجسم الذي كان أسود صار يتوهج كالفسفور. ضحك وحشي، وحشي لا يمكن كبحه بحال من الأحوال، وذاك الشق يضحك من خلال سبلتيه الطحلبيتين، ضحكة تغضن سطح كرة البليارد اللامع الصقيل. عاهرة عظيمة وأم الإنسان في عروقها يجري شراب الجن. يا أم جميع العاهرات، العنكبوت يدحرجنا إلى قبرك اللوغاريتمي، قبرك النهم، شيطان رجيم يمزقني ضحكه! أنظر داخل فوهة البركان الغائصة تلك، إلى عالم ضائع لم يخلف وراءه

---

[١٥] ـ بطلة رواية "عوليس" لجيمس جويس ـ المترجم.

أي أثر، وأسمع أحراساً تقرع، وثمة راهبتان في ساحة ستانيسلاس ورائحة زبد فاسد تنبعث من تحت أثوابهن، وبيان رسمي يطبع لأنها كانت تمطر، وحرب أضرمت تأييداً للجراحة التقويمية، وأمير ويلز يطير حول العالم ليزين قبور أبطال مجهولين. وكل وطواط يطير خارجاً من برج الكنيسة هو سبب ضائع، كل صيحة فرح هي أنين منبعث من المذياع من الخنادق الخاصة بالملعونين. من ذاك الجرح، المظلم ، المفتوح، بالوعة الأحقاد تلك، مهد مدن غارقة في السواد حيث تغرق موسيقى الأفكار في شحم بارد، ومن مدن فاضلة مشنوقة ولد مهرج، مخلوق موزع بين الجمال والقباحة، بين النور والفوضى، مهرج حين ينظر إلى أسفل وبشكل منحرف يكون الشيطان عينه، وحين ينظر إلى أعلى يرى ملاكاً مدهوناً بالزبد، حلزوناً مجنحاً.

عندما أنظر داخل ذاك الشق أرى إشارة مساواة، العالم في حالة توازن، عالماً مختصراً إلى الصفر ولا أثر لباق. إنه ليس صفراً كالذي سلط عليه فان نوردن ضوءه الكاشف، ليس الشق الفارغ للإنسان المحبط قبل الأوان، بل هو أقرب إلى الصفر العربي، الإشارة التي تنبثق منها عوالم رياضية لا نهاية لها، نقطة الارتكاز التي توازن النحوم والأحلام الخفيفة والآلات الأخف وزناً من الهواء والأعضاء الخفيفة الوزن والمتفجرات التي تنتجهم جميعاً. أود أن أنفذ إلى داخل ذاك الشق وأصعد منه إلى العينين، وأجعلهما تهتزان بعنف، تينك العينين، العزيزيتين، المجنونتين، اللتين تنتميان إلى علم المعادن. عندما ستهتز العينان سأسمع من جديد كلمات دوستويفسكي، أسمعها تتدحرج على صفحة بعد صفحة، بانتباه عظيم الرفاهة، بأكثر طرق الاستبطان جنوناً، بكل أصوات البؤس الخفيضة التي تارة تلمس برقة وطرافة، وطوراً كنغمة الأرغن حتى يكاد القلب ينفجر ولا يبقى إلا ضوء مبهر حاد، مشع يحمل بذور النحوم المخصبة. إنها قصة الفن الذي تمتد جذوره في المذبحة.

حين أنظر إلى عمق ذاك الكس المتناك تماماً لعاهرة أشعر بالعالم كله تحت قدمي، عالم يتداعى وينهار، عالم مستهلك وملمع كجمجمة مجذوم. لو أن هناك رجلاً يجرؤ على قول كل ما يدور في خلده عن هذا العالم لما بقي له قدم مربع واحد على الأرض ليقف عليه. وعندما يظهر للوجود رجل حق ينقض

عليه العالم كله ويقصم ظهره. هناك دائماً الكثير من الأعمدة العفنة تظل قائمة، وهناك الكثير من الإنسانية المقترحة تنتظر الإنسان ليزهرها. البناء الفوقي كذبة والأساس خوف هائل مزلزل. فإذا ظهر بين تضاعيف القرون رجل يحمل في عينيه نظرة يأس وجوع، رجل قادر على قلب العالم رأساً على عقب لكي يخلق سلالة جديدة، يحول الحب الذي يجلبه إلى العالم إلى نكد ويصبح هو بلاءً. لو أننا نصادف بين حين وآخر صفحات تتفجر، صفحات تجرح وتلفح، تنتزع الأنين والدموع واللعنات، فاعلم أنها آتية من رجل منتصب القامة، رجل ليس لديه ما يحميه إلا كلماته وكلماته هي دائماً أقوى من ثقل العالم الجاثم الساحق، أقوى من كل مخالع ودواليب التعذيب التي يخترعها الجبناء لسحق معجزة الذات الشخصية. لو جرؤ أي رجل على ترجمة كل ما يعتلج في قلبه، أن يخط تجربته الحقة، حقيقته الفعلية، فأعتقد أن العالم سيتفتت، سينسف إلى ذرات ولن يتمكن أي إله، أو حدث جلل، أو إرادة أن تعيد تجميع هذه الشذر، الذرات، العناصر الخالدة التي بات من المستحيل أن تعيد تكوين العالم.

خلال الأربعمائة سنة منذ ظهور آخر روح مفترس، أي آخر رجل عرف معنى النشوة، كان هناك انحدار مستمر ومضطرد للإنسان في الفن، في الفكر، وفي الفعل. العالم متورم: ولم يبق أي ضراط جاف. مَنْ ممن له عين يائسة جائعة يمكنه أن يولي أدنى اعتبار لهذه الحكومات، والقوانين، والدساتير، والمبادىء، والمثل، والأفكار والرموز المقدسة، والمحظورات المقدسة السائدة؟ لو أن أي إنسان عرف مغزى قراءة لغز هذا الشيء الذي يسمى هذه الأيام "شق" أو "ثقب" لو كان لأي امرىء أدنى حس بالغموض الذي يحيط بالظاهرة التي توصف بالـ "فاسقة" لصعق هذا العالم أشلاءً. إن الرعب الفاسق، الجانب الجاف، المنتاك تماماً من الأشياء هو الذي يجعل هذه الحضارة المجنونة تبدو كفوهة بركان. هذه الهوة العظيمة الفاغرة من العدم هي ما تحمله الأرواح الخلاقة وأمهات الجنس البشري بين سيقانهم. حين يظهر للوجود روح جائع يائس ويدفع الخنازير الغينية على الزعيق فذلك لأنه يعرف أين يضع سلك الجنس الحي، لأنه يعرف أن تحت درع اللامبالاة يختفي الجرح البليغ البشع، الجرح الذي لا يلتئم. ويضع السلك الحي بين الساقين بالضبط، ويضرب تحت الحزام، ويسفع الأحشاء نفسها. لا فائدة من ارتداء قفاز

مطاطي، فكل ما يمكن أن يُعمل بروية وذكاء يتعلق بالدرّع القاسي والإنسان المصمم على الخلق دائماً يغوص أعمق، حتى يصل إلى الجرح المفتوح، إلى الرعب الفاسق العفن. إنه يحرك المحرك حتى أدق أجزائه، ولو لم يبق غير جرح مفتوح إذن لكان شيئاً رائعاً. إذن فالفوهة البركانية الجافة المتاكة هي فاسقة. إن الأشد فسقاً من أي شيء هو الجمود، والأشد كفراً من العن تجديف هو الشلل. ولو لم يبق غير جرح مفتوح فيجب أن ينبجس حتى وإن كان كل ما يخرج منه شراغف ووطاويط وأقزام.

كل شيء محصور داخل لحظة وهي إما مكتملة وإما غير مكتملة. الأرض ليست نجداً قاحلاً من الصحة والراحة، بل أنثى ضخمة متمددة على طولها لها جذع مخملي ينتفخ ويرتفع كأمواج المحيط، إنها تتلوى تحت تاج من العرق والألم. وتتدحرج بين السحب عارية مثيرة يغمرها ضوء النجوم البنفسجي. كلها، من ثدييها السخيين إلى فخذيها المتلألئين، تتقد بحرارة ملتهبة. تتنقل بين الفصول والسنين بصخب مرح عظيم يلف جذعها بنوبة غضب، ينفض خيوط العنكبوت عن السماء، إنها تستقر على مدارها المحوري بارتعاشات بركانية. أحياناً تبلو كظبية، ظبية وقعت في شرك ولبثت تنتظر بقلب خافق ضجيج الصنوج وعواء الكلاب. حب وكراهية، يأس، شفقة، غضب، اشمئزاز ــ ما أهمية كل هذا وسط آثام الكواكب؟ ما الحرب، والمرض، والقسوة، والرعب، حين يمنح الليل نشوة شموس ملتهبة لا تحصى؟ ما هذا التبن الذي نمضغه أثناء نومنا إن لم يكن ذكرى ناب ملتو ومجموعة نجوم.

كانت مونا دائماً تقول لي، في فورات شعورية، "أنت مخلوق عظيم". وعلى رغم أنها تركتني هنا لأفنى، على رغم أنها وضعت تحت قدمي هاوية عظيمة تعوي من العدم، فإن الكلمات التي تقبع في أعماق روحي تنتفض وتضيء الظلام الكامن أسفلي. أنا إنسان ضاع في الحشد، دوختني الأضواء التي تمور، صفر رأى كل ما حوله يمسخ إلى زيف. مر بي رجال ونساء يشتعلون بالكبريت، وحمالون بأثواب من كالسيوم يفتحون فوهة الجحيم، وشهرة تمشي على عكاز، ضاءلتها ناطحات السحاب، مضغتها الآلات بفمها الشائك حتى الاهتراء. مشيت بين الأبنية الشاهقة متوجهاً إلى برودة النهر ورأيت الضوء

تُقذف عالياً من بين أضلاع الهياكل العظيمة كالصواريخ. لو أنني كنت مخلوقاً عظيماً حقاً، كما قالت، فما معنى تلك البلاهة المستعبدة التي كانت تحيط بي؟ لقد كنت رجلاً ذا جسد وروح، ذا قلب لا تحميه قنطرة فولاذية. مررت بأوقات نشوة وصدحت بشرر مشتعل. غنيت عن منطقة الاستواء، عن ساقيها ذَوَي الريش الأحمر، وعن الجزر وهي تغيب عن الأنظار. ولكن لا أحد سمع. أطلقت عيارات نارية من بندقية عبر الشلالات الباسيفيكية نحو الفضاء لأن الأرض كروية والحمائم تطير وهي مقلوبة. رأيتها تنظر إلي عبر الطاولة بعينين حزينتين، والأسى يمتد نحو الداخل ويفلطح أنفه على عمودها الفقري، نقي العظام الممخض ليصير شفقة تحول إلى سائل. كانت خفيفة كجثة طافية في البحر الميت. أصابعها تنزف حزناً والدم تحول إلى لعاب. مع مجيء الصبح الندي ضج قرع النواقيس المتواصل على طول شبكة أعصابي وكانت ألسنتها تطرق على جدار قلبي وترن بخبث معدني. والغريب هو أن تضج النواقيس هكذا، ولكن الأكثر غرابة هو تفجر الجسد، وتحول هذه المرأة إلى ليل وكلماتها اليرقية تنخر في الحشية. وانتقلت إلى ما تحت خط الاستواء، سمعت الضحك الشنيع للضبع ذي اللثة الخضراء، رأيت ابن آوى ذا الذيل الحريري والحمار والفهد المنقط، كلهم بقوا في جنة عدن. ثم اتسع حزنها، كاتساع قوس المدرعة وغمر ثقل غرقها أذني. الطمي اللزج والياقوت الأزرق ينزلق، يتدفق حلال الخلايا العصبية المرحة، والأطياف تتراكب والشفائر تغوص. سمعت عربات المدافع تدور بوقع كخطوة الأسد المكتومة، رأيتها تتقيأ وتريل: قبة السماء تراخت والنجوم اسودت. ومحيط أسود ينزف والنجوم الحاضنة تلد قطعاً من اللحم الدسم الطري والعصافير في الفضاء انطلقت مسرعة ومن السماء المهلوسة سقط الميزان مع هاون ومدقته وعيني العدالة المعصوبتين. وكل ما أذكره هنا يتحرك بخطوة خيالية على طول الخطوط المتوازية لأجرام سماوية مندثرة، وكل ما رأته المحاجر الخاوية يتفجر كعشب مزهر. من العدم تنهض بشارة الأبدية، وتتعمق ببطء الحفرة الواسعة تحت اللوالب الصاعدة أبداً. اليابسة والماء يصلان الأرقام ببعضها البعض، وقصيدة مكتوبة باللحم وهي أقوى من الفولاذ أو الغرانيت. وتدوم الأرض في ليل أبدي متجهة نحو خلق مجهول....

اليوم استيقظت من نوم عميق وعلى شفتي سباب منبعه الفرح، وعلى

لساني بربرة مبهمة، أردد لنفسي شيئاً كالابتهال ـ "إفعل ما يحلو لك!... إفعل ما يحلو لك! إفعل أي شيء، ولكن ليكن ناشراً للفرح. إفعل أي شيء، ولكن ليكن باعثاً للنشوة. عندما أقول هذا لمسي تموج في رأسي حشود غفيرة: صورة بعضها مرح، بعضها فظيع، بعضها يثير الجنون، الذئب والعنزة، العنكبوت، السلطعون، سفلس بجناحين مفروشين وباب الرحم دائماً مزلج، دائماً مفتوح، مهيأ كالقبر. شبق، جريمة، قداسة: حيوات أحبائي، فشل أحبائي، الكلمات التي خلفوها، الكلمات التي لم يكملوها، الخير الذي جروه وراءهم والشر، والحزن، والتنافر، والضغينة، والصراع الذي خلقوه. ولكن قبل كل هذا "النشوة"!.

أشياء، أشياء معينة عن أحبائي القدامى تثير الدموع في عيني: المقاطعات أثناء الكلام، الفوضى، وقبل كل شيء، الحقد الذي أثاروه. حين أفكر في تشوهاتهم، في الأزياء الرهيبة التي كانوا يختارونها، في الادعاء الفارغ لأعمالهم والضحر الذي أثارته، في كل الفوضى العارمة والبلبلة التي كانوا يتخبطون فيها، والموانع التي أقاموها حولهم، أشعر بفيض من الانتشاء. كانوا جميعاً يتمرغون في قذارتهم. وكلهم رجال مغالون في التدقيق. وصحيح تماماً أنني أميل إلى القول:" أرني رجلاً يغالي في التدقيق أُرِكَ رجلاً عظيماً". إن ما يسمى بـ "مغالاتهم في التدقيق" هو ما أحتاج إليه: إنها دلالة الصراع، هي الصراع نفسه مع كل الطبائع المتعلقة به، إنها هالة الروح المتناقضة وحوها الخاص. وحين تريني رجلا يعبر عن نفسه بدقة فلن أقول إنه ليس عظيماً،ولكن سأقول إنه لا يثير اهتمامي.... إنني مشتاق إلى الخواص المتخمة. حين أفكر كيف أن المهمة التي يتنكبها الفنان ضمناً هي قلب القيم السائدة، وتنظيم الفوضى التي تعيث حوله، على طريقته، وإثارة الشقاق والهياج وذلك كي يعود الموتى إلى الحياة عن طريق تحرير الشعور، عندئذ أهرع بفرح إلى العظماء غير الكاملين، لأن اضطرابهم يغذيني، وتأتأتهم في أذني موسيقى عُلوية. أرى في الصفحات المتنفخة بشكل جميل التي تلي المقاطعات الكلامية آثار محو تعديلات صغيرة، وآثار الأقدام القذرة، إذا جاز التعبير، للجبناء، والكذابين، واللصوص، والمخربين، والمفترين. أرى في العضلات المنفوحة لحناجرهم الصداحة الجهد المذهل الواجب الذي بذلوه لتدوير الدولاب، للانطلاق من جديد من حيث كان التوقف. أرى أن

وراء المزعجات اليومية والتعديات، خلف الخبث الرخيص المتألق للضعفاء والكسالى يقف رمز قوة الحياة المحبطة، وإن من استطاع أن يخلق نظاماً، من يزرع بذور الشقاق والفوضى، لأنه مشبع بالإرادة، مثل هذا الرجل يجب أن يذهب مراراً وتكراراً إلى الخازوق والمشنقة. أرى أن خلف نبالة إيماءاته يكمن شبح سخافة كل شيء - إنه ليس فقط سامياً، بل وتافه.

في وقت من الأوقات اعتقدت أن أسمى هدف يمكن لإنسان أن يبلغه هو أن يكون إنسانياً، أما الآن فأرى أن ذاك الاعتقاد كان جديراً بتدميري. اليوم أنا فخور إذ أقول إني "لا إنساني"، إني لا أنتمي إلى الناس والحكومات، وأنه لا شأن لي بآلية الإنسانية الصارة - أنا أنتمي إلى الأرض! أقول هذا وأنا أسند رأسي إلى الوسادة، وأكاد أشعر بقرنين ينبتان من صدغي. أرى حولي جميع أسلافي المعتوهين يرقصون حول السرير، يواسونني، يحثونني على الاستمرار، يسوطونني بألسنتهم الأفعوانية، يكشرون وينظرون إلي شزرا بجماجمهم المتسللة. "أنا لا إنساني"!.

أقولها وأنا أرسم ابتسامة عريضة بجنونة هاذية، وسأظل أقولها على رغم أن الدنيا تمطر تماسيحَ. خلف كلماتي تكمن تلك الجماجم المتسللة بابتساماتها العريضة ونظراتها الشزرة، بعضها ميت يرسم تكشيرته العريضة منذ زمن طويل، واخرى تكشر وكأنها مصابة بالكزاز، وبعضها يكشر وكأنه يدعي التكشير العريض، إنه الدلالة السابقة والنتيجة اللاحقة لكل ما يجري دائماً. أما ما أراه أوضح من كل شيء فجمجمتي المكشرة، أرى الهيكل العظمي يرقص في وجه الريح، وأفاعي تنبثق من اللسان العفن والصفحات المتنفخة بالنشوة ملطخة بالغائط. وأضم قذارتي، وغائطي، وجنوني، ونشوتي إلى الدارة الضخمة التي تجري خلال الأقواس تحت الأرضية للحم. سيجري كل هذا القيء الذي لا يريده أحد ولا يطلبه، قيء السكر، بلا توقف عبر عقول أولئك القادمين ليصب في الوعاء الذي لا يكل ويحوي تاريخ البشر. وجنباً إلى جنب مع السلالة البشرية تجري سلالة أخرى من المخلوقات، السلالة اللاإنسانية، سلالة الفنانين الذين، بإلحاح من دوافع مجهولة، يأخذون الكتلة الميتة من الإنسانية ويحولون، بالحمية والهياج نفسيهما اللتين تشرباها، هذه العجينة الرطبة

إلى خبز، والخبز إلى خمر والخمر إلى أغنية. ومن السماد الميت والخبث الراكد يستخرجون أغنية تلوث. أرى هذه السلالة الأخرى من أفراد يفتشون الكون بدقة، يقلبون كل شيء رأساً على عقب، وأقدامهم تغوص باضطراد في الدم والدموع، وأيديهم دائماً فارغة، ودائماً تتشبت وتتمسك بالغيب، بإله بعيد المنال، يذبحون كل ما يقع تحت أيديهم لتهدئة الوحش الهائل الذي ينهش أعضاءهم الحيوية. أرى أنهم حين ينتفون شعورهم وهم يركزون بقوة ليفهموا، ليقبضوا على ذاك البعيد المنال أبداً، أرى أنهم عندما يجأرون كوحوش مخبولة ويمزقون ويخربون، أرى أن هذا حق، أنه لا وجود لدرب آخر يسلك. إن أنساناً ينتمي إلى هذه السلالة يجب أن يقف فوق مكان عال وفي فمه بربرة ويمزق أحشاءه. وهذا حق وعدل لأنه يجب أن يفعل هذا! وكل ما يقل عن مستوى هذا المشهد المريع، كل ما هو أقل بثاً للقشعريرة، أقل رعباً، أقل جنوناً، أقل ثمالة، أقل تلويثاً، ليس فناً. كل ما عداه تزييف. كل ما عداه إنساني. كل ما عداه ينتمي إلى الحياة واللاحياة.

حين أفكر مثلاً في ستافروجين، أفكر في وحش قدسي يقف فوق مكان عال يقذف إلينا أحساءه الممزقة. في قصة "الممسوسون" تهتز الأرض: ليس كارثة ما يحل بالفرد الواسع الخيال، بل زلزال دفن فيه قسم هائل من الإنسانية وزال إلى الأبد. ستافروجين كان دوستويفسكي ودوستويفسكي كان مجموع كل تلك التناقضات التي إما تشل الإنسان أو تقوده إلى الأعالي. لم يكن هناك عالم أصغر من أن يدخله، ولا مكان من العلو بحيث يخشى أن يرتقيه. لقد مر على السلسلة كلها من اللجة إلى النجوم. ومن المؤسف أنه لن تتاح لنا فرصة أخرى لرؤية إنسان جالس في قلب الغموض يضيء لنا بوميضه المبهر أعماق الظلام وحلكته.

اليوم أنا أعي نسبي، ولا حاجة بي إلى استشارة طالعي أو شجرة العائلة. إن ما هو مكتوب في النجوم، أو في دمي لا أعرف عنه شيء. أعرف أني انحدرت من مؤسسي السلالة البشرية الأسطورية. إني الرجل الذي يرفع الزجاجة المقدسة إلى شفتيه، والمجرم الذي يجثو وسط السوق، والبريء الذي يكتشف أن "كل" الجثث تفوح نتانة، والمجنون الذي يرقص والبرق بين يديه،

والراهب الذي يرفع أطراف ثوبه ليتبول على العالم، والمتعصب الذي ينبش المكتبات لكي يجد "الكلمة" - كل هؤلاء معاً هم أنا، كل هؤلاء يشكلون فوصاي، شوتي. فإذا كنت لا إنسانياً فذلك لأن عالمي تخطى حدوده الإنسانية، لأنه أن تكون إنساناً يبدو وضعاً مسكيناً، آسفاً، وبائساً، محدوداً بالأحاسيس، محاصراً بالأخلاقيات والدساتير، ومعرفاً من خلال التفاهات والمذاهب السائدة. أصب عصير العنب في جوفي وأجد فيه الحكمة، لكن حكمتي تنشأ من العنب، وثمالتي لا تدين بشيء للخمر.....

أريد أن أصنع نقطة تحول من تلك السلالة الجبلية القاحلة السامقة حيث يموت الإنسان من العطش والبرد، من ذاك التاريخ "اللازمني"، ذاك المطلق من الزمان والفراغ حيث لا وجود لإنسان، أو حيوان، أو نبات، حيث يجن المرء من الوحدة مع لغة هي مجرد مجموعة كلمات، حيث كل شيء محلول، معطل، مفصول عن الأزمنة. أريد عالماً من رجال ونساء، من أشجار لا تتكلم (لأن في العالم كما هو ما يكفي من الكلام!) عن أنهار تحملك إلى أماكن شتى، ليس عن أنهار أساطير، بل أنهار تجعلك على اتصال مع رجال ونساء آخرين، مع أنماط العمارة، والدين والنبات، والحيوانات، أنهار تبحر فيها زوارق وفيها يغرق رجال ليس في الخرافة، والأسطورة والكتب والغبار والماضي، بل في الزمان والفراغ والتاريخ. أريد أنهاراً تصنع محيطات أمثال شكسبير ودانتي، أنهاراً لا تجف في هوة الماضي. محيطات، نعم دعونا نحصل على مزيد من المحيطات، محيطات جديدة تمحو الماضي، محيطات تخلق تشكيلات جيولوجية جديدة، يمكننا أن نبحر فيها، أن ننطلق منها إلى مكتشفات جديدة، آفاق جديدة. فلنحصل على مزيد من المحيطات، مزيد من النهضات، مزيد من الحروب، مزيد من المحرقات. فليكن لدينا عالم من رجال ونساء بين سيقانهم مولدات فعالة، عالم يتسم بعنفوان فطري، بحماس، بقدرة على الفعل، بالإثارة، بالأحلام، بالجنون، عالم يولد نشوة وليس ضراطاً جافاً. أؤمن أن اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، يجب البحث عن كتاب حتى وإن لم يكن يحتوي على فلز، عن أي شيء قادر على إنعاش الجسد والروح.

لعل الهلاك هو قدرنا، وليس لدينا، "لدى أي منا"، أي أمل، ولكن إذا كان

الأمر كذلك دعونا نطلق صرخة أخيرة معذبة، عواءاً مريعاً، صرخة تحـد، صيحة حرب، كفانا عويلاً! كفانا مراثي وترانيم جنائزية! كفانا تراجـم ذاتيـة وتواريخ، ومكتبات ومتاحف! دعوا الموتى يأكلون الموتى. دعونا نحن معشر الأحياء نرقـص حول حافة فوهة البركان، رقصة الرمق الأخير. ولكن ليكن رقصاً!.

"أحب ما يتدفق"، هذا ما قاله الأعمى العظيم ملتون زماننا. فكرت فيـه هذا الصباح لدى استيقاظي وأنـا أصـرخ صرخـة عظيمـة لعينـة مـن الفـرح: فكرت في أنهاره وأشجاره وفي كل ذاك العـالم الليلـي الـذي يكتشـفه. نعم، قلت لنفسي، أنا أيضاً أحب كل ما يتدفق: الأنهار، المجـارير، حمـم الـبراكين، المني، الدم، الصفـراء، الكلمـات، الجمـل. أحـب الدفـق النخطـيamniotic floidحين يقذف من الكيس. أحب الكلية بحصياتها المؤلمة، وأحجارها وكل شيء، أحب البول الذي ينصب باندفاع والسـيلان الـذي لا يتوقـف، أحـب كلمات المهسترين والجمل الـتي تنهمـر كالزحـار وتعكـس جميـع التصـورات المريضة للروح، أحب الأنهار العظيمة كالأمازون والأورينوكو، حيـث يبحـر رجال مجانين أمثال موراڤاجين في الحلم والأسطورة علـى مـتن زورق مفتـوح ليغرقوا في المصبات الخفية للنهر. أحب كل ما يتدفق، سواء أكان بلغة هيريـة hieratic، أم خفية، أم منحرفة، أم متعددة الأشكال، أم مكتوباً على جـانب واحد. أحب كل ما يتدفق، وكل ما يحتـوي علـى زمـن وصيرورة، كـل مـا يعيدنا إلى البداية حيث لا نهاية: عنـف الأنبيـاء، والفسـق الـذي هـو نشـوة، وحكمة التعصب، والكاهن مع ابتهالاته المطاطية، وكلمات العـاهرة البلهـاء، والبصاق العائم مع تيار المجرور، وحليب الثدي والعسل المر الذي يتدفـق مـن الفرج، وكل ما يتدفق، يذوب، ما هو فاسق ومذيب، وكل القيـح والقـذارة التي تتطهر مع تدفقهـا، وكـل مـا يفقـد الحـس بـالأصل، ومـا يقـوم بـالدورة العظمى باتجاه المـوت والفنـاء. إن الرغبـة السـفاحية العظمـى هـي في التدفـق المستمر، بإيقاع واحد مع الزمن، في دمـج الصـورة العظمـى للغيـب مـن هنـا والآن. هي رغبة حمقاء انتحارية مصابة بإمساك الكلمات ومشلولة بالفكر.

كان الوقت يقترب من فجر يوم عيد الميلاد حين عدنا إلى المنزل من شارع أوديسا مع زنجيتين من شركة الهاتف. كانت النار قد خمدت ونحن تعبون حتى أننا لجأنا إلى السرير ولا نزال بملابسنا وعرقت فتاتي، وكانت طوال الأمسية كفهد مقيد، في نوم عميق وأنا أمتطيها. وبقيت أعمل فيها فترة كما يعمل المرء في شخص غارق أو مختنق. ثم تخليت بدوري عن الأمر ورحت في نوم عميق.

كنا أثناء العطل نشرب الشمبانيا صباحاً وظهراً ومساءاً ـ من أرخص الأنواع وأفضلها. ومع اقتراب نهاية العام كان علي أن أسافر إلى ديجون حيث عرضت علي وظيفة تافهة كأستاذ إنكليزي بديل، وهي إحد عقود الصداقة الفرانكو ـ أميركية التي كان من المفترض أن تزيد التفاهم والنية الطيبة بين الأخوة الجمهوريات. وكان فيلمور أكثر ابتهاجاً مني بالعرض ـ وكان لديه سبب معقول لذلك. كان الأمر بالنسبة لي مجرد انتقال من مطهر purgatoryإلى آخر. لم يكن أمامي مستقبل، ولم يكن هناك حتى راتب مع الوظيفة. فقد كان على المرء منا أن يعتبر نفسه محظوظاً لأنه يحظى بامتياز نشر الصداقة الفرانكو ـ أميريكية. لقد كانت وظيفة خليقة بابن رجل ثري.

في الليلة التي سبقت مغادرتي قضينا وقتاً ممتعاً. وعند الفجر بدأ الثلج يتساقط، ورحنا نتنقل من حي إلى آخر نلقي نظرة أخيرة على باريس. وأثناء مرورنا في شارع سان دومنيك عثرنا فجأة على ساحة صغيرة حيث كنيسة كلوتيد. كان الناس ذاهبين لحضور القداس، فأبدى فيلمور بدوره، وكان لا يزال مشوش الذهن قليلاً، رغبة في المشاركة في القداس. "لمجرد المتعة!"، كما

قال. وشعرت بنوع من عدم الارتياح، فأولاً أنا لم أحضر أي قداس في حياتي، وثانياً كان مظهري يبدو رثاً وكنت أشعر بتوعك. وفيلمور أيضاً بدا زرياً، بل وأكثر رثاثة مني، وكانت قبعته الكبيرة المترهلة كأنها تعرضت للجلوس عليها مراراً ومعطفه كان لا يزال مملوءاً بالنشارة من آخر حانة كنا فيها. وعلى كل حال، دخلنا. وأسوأ ما كان يمكن أن يفعلوه هو أن يرموا بنا إلى الخارج.

ذهلت للمشهد الذي استقبل عيني حتى أنني تخلصت من اضطرابي. واستغرق تعودي على الضوء الخافت بعض الوقت. وتعثرت في خطاي خلف فيلمور، وأنا أتمسك بكمه. وأغار على أذني ضجيج سحري علوي، نوع من الأزيز الأجوف انبعث من المشي اللوحي البارد. كان المكان أشبه بضريح موحش والنائحون يندفعون دخولاً إليه وخروجاً منه، حجرة مؤدية إلى العالم السفلي. كانت الحرارة تبلغ نحو ٥٥ أو ٦٠ فاهرانهايت. لا موسيقى غير هذه الترنيمة الجنائزية المبهمة المصنعة في القبو السفلي ـ كمليون رأس من القرنبيط ينتحبون في الظلام. وأناس ملفعون بأكفانهم يواصلون المضغ وعلى وجوههم نظرة الشحاذين اليائسة المكتئبة الذين يمدون أيديهم في غشية ويتمتمون باستجداء غير مفهوم.

كنت أعرف أن شيئاً كهذا موجود، لكن المرء يعرف أيضاً أن هناك مسالخ ومشارح وغرف تشريح. والإنسان يتجنب غريزياً مثل تلك الأماكن. إنني كثيراً ما مررت في الشارع بكاهن وبين يديه كتاب صغير للصلوات وهو يستظهر بجد أمثولته. فأقول لنفسي، "أبله!"، وأوقف الأمر عند هذا الحد. إن المرء ليقابل في الشارع جميع أشكال الخبل والكاهن ليس أكثرها إثارة للدهشة. إن ألفين من السنين خدرتنا حتى البلاهة. ولكن حين تنقل فجأة إلى قلب عالمه حين ترى العالم الصغير الذي يعمل فيه الكاهن كالساعة المنبهة، فلا شك أنك تحصل على أحاسيس مختلفة تماماً.

وفي الحال بدأ كل هذا اللعاب السائل والتواءات الشفتين يكتسبان معنى، ثمة شيء يحدث، نوع من المشهد الصامت الذي، لا أقول أذهلني تماماً، بل سحرني. وفي جميع أنحاء العالم، وحيثما وجدت الأضرحة ذات الأنوار الخافتة، ترى مثل هذا المشهد الذي لا يكاد يصدق ـ ترى درجة الحرارة المعتدلة نفسها،

الوهج الغسقي نفسه، الطنين والأزيز نفسيهما في جميع أنحاء العالم المسيحي، وفي ساعات مشروطة، ينبطح أناس يتلفعون بأردية سوداء أمام المذبح، حيث يقف الكاهن يحمل في إحدى يديه كتاباً صغيراً وجرس الإعلان عن وجبة العشاء أو مرذاذاً في الأخرى ويغمغم إليهم بلغة، حتى وإن كانت مفهومة، لم تعد تحوي مزقة من معنى، هو يباركهم على الأغلب، يبارك البلد، يبارك الحاكم، يبارك الأسلحة الصغيرة والسفن الحربية والذخيرة والقنابل اليدوية. ويحيط به على المذبح صبية صغار يلبسون أردية كملائكة الرب الذين يغنون بطبقتي الصوت القرار والجواب. حملان بريئة. كلهم يرتدون التنانير، لا جنس لهم، كالكاهن الذي هو نفسه أمسح وقصير النظر حتى أخمص قدميه. خنثى رائعة تموء. جنس في حمالة الأعضاء التناسلية، على مقام جي ـ مول.

كنت أشمل المشهد قدر ما أتاح لي النور الخافت. شيء فاتن ومذهل في وقت واحد. قلت لنفسي، الحال هو نفسه في جميع أرجاء العالم المتحضر. في جميع أركان العالم. رائع. أكان مطراً أم صحواً، برداً أم مطراً نصف متجمد، ثلجاً، رعداً برقاً، حرباً، مجاعة، وباءاً ـ فإنه لا يشكل أدنى فرق. دائماً درجة الحرارة المعتدلة نفسها، اللغو الفارغ نفسه، الحذاء ذو الرقبة العالية نفسه وملائكة الرب الصغار بطبقة الصوت القرار والجواب. وبالقرب من باب الخروج صندوق ذو شق ـ مهمته متابعة العمل الرباني، عسى ولعل بركة الرب تنهمر مدراراً على الملك والبلاد والقوات المسلحة والمتفجرات العالية الانفجار والدبابات والطائرات، وعسى ولعل تزداد قوة ساعدي العامل، قوة لذبح الخيول والأبقار والأغنام، قوة في المثاقب الحديدية لحفر الثقوب، قوة لخياطة الأزرار في سراويل الآخرين الداخلية، قوة لبيع الجزر وآلات الخياطة السيارات، قوة لإبادة الحشرات وتنظيف الاسطبلات وتفريغ براميل القمامة وحك المغاسل والمراحيض، قوة لكتابة العناوين الرئيسية وشق البطاقات في أنفاق القطارات. قوة .... قوة. كل مضغ الشفاه ذاك والنفخ في البوق هو من أجل استمداد قليل من القوة !

كنا ننتقل من بقعة إلى أخرى، نستعرض المشهد بذاك الصفاء الذهني الذي يأتي بعد جلسة استغرقت الليل كله. ولا بد أننا لم نرسم مرة إشارة الصليب، ولم

نحرك شفاهنا إلا لنهمس بملاحظة فظة. وربما كان كل شيء قد مر بسلام دون أن يلاحظنا أحد لو لم يصر فيلمور على أن نسير أمام المذبح في وسط سير الموكب. كان يبحث عن المخرج، وأعتقد أنه أثناء ذلك فكر في أن يلقي نظرة على قدس الأقداس، وأن يقترب منه كثيراً. وكدنا نمر بسلام ونحن نتجه صوب شرخ من ضوء بدا أنه المخرج حين ظهر لنا من الظلام فجأة كاهن وسد علينا السبيل. أراد أن يعرف إلى أين نحن ذاهبان وماذا نفعل. أخبرناه بأدب أننا نبحث عن مخرج. قلنا "مخرج" لأننا في تلك اللحظة كنا من الذهول بحيث لم نتمكن من التفكير في المرادف لكلمة "مخرج" بالفرنسية. وبدون أن يجيب بكلمة واحدة أخذنا عنوة من يدينا، ثم فتح باباً جانبياً ودفعنا إلى الخارج، لنتدحرج إلى ضوء النهار المبهر. حدث ذلك بغتة وبشكل غير متوقع، حتى أننا حين اصطدمنا بالرصيف كنا منبهرين. ومشينا عدة خطوات، نطرف عيوننا، ومن ثم وبحركة غريزية استدرنا، فإذا بالكاهن لا يزال واقفاً على الدرج، شاحباً كشبح، عبوساً كالشيطان نفسه. لا بد أنه كان يغلي كالجحيم. وحين أستعيد التفكير في الحادثة، لا ألومه. ولكن في تلك اللحظة، وأنا أراه بردائه الطويل وقلنسوته الضيقة الجاثمة على جمجمته، بدا لي مثيراً للسخرية، حتى أنني انفجرت في نوبة من الضحك. ونظرت إلى فيلمور فأخذ يضحك بدوره. وطوال دقيقة كاملة وقفنا نضحك في وجه ذلك اللوطي المسكين. كان مرتبكاً أيما ارتباك، على ما أعتقد، حتى أنه ظل على مدى دقيقة لا يعرف ماذا يفعل، وفجأة بدأ يهبط الدرج إلى الطريق وهو يهز قبضته في وجهينا، وكأنه جاد فيما ينوي. وحالما أصبح خارج الأسوار راح يركض. عندئذ وبتحذير من غريزة حب البقاء تحركتُ. قبضتُ على فيلمور من كمه وبدأنا نركض. وكان يقول كالأبله "لا، لا، لا أريد أن أركض!" ـ فصرخت :"هيا! يجب أن نبتعد من هنا. لقد جن الرجل تماماً". وانطلقنا نطرق الطريق بأسرع ما تسعفنا به أرجلنا.

في الطريق إلى ديجون، وكنا لا نزال نضحك على ما جرى، إتجهت أفكاري إلى واقعة مضحكة، مشابهة لهذه تقريباً، وقعت أثناء إقامتي القصيرة في فلوريدا. كان ذلك أثناء الضجة الشهيرة حين وجدتني، مع آلاف غيري، في وضع لا أحسد عليه. وقد قبض علي في آخر لحظة أثناء محاولتي، مع صديق لي، الهرب. وكانت مدينة جاكسونفل، حيث تركنا ونحن في حالة مزرية فترة ستة

أسابيع، في حالة حصار فعلي. وبدا أن جميع مشردي الأرض وحتى الكثير من الشبان الذين لم يتسكعوا مرة في حياتهم، قد حشروا في مدينة جاكسونفل. كانت جميع الأماكن ممتلئة حتى آخرها: جمعية الشبان المسيحية، جيش الخلاص، المطافيء، مراكز الشرطة، الفنادق، والشقق المؤجرة. "ملأى" تماماً. واللافتات التي تشير إلى ذاك في كل مكان. وأصبح المقيمون في مدينة جاكسونفل محشورين إلى درجة بدوا وكأنهم كانوا يتجولون بمعاطف درع الزرد. وكالمعتاد كانت هناك مشكلة الطعام. طعام ومكان للنوم. كان الطعام يأتي من الأسفل في قطار محمل ـ برتقال وعنب وجميع أنواع المأكولات اللذيذة. كنا نمر على السقيفات المحملة نبحث عن فاكهة عفنة ولكن حتى هذه كانت عزيزة.

ذات ليلة، وبدافع من اليأس، سحبت صديقي جو إلى أحد المعابد اليهودية، أثناء القداس. كانت أبرشية مصلحة، وقد ترك الحاخام لدي أثراً مرضياً. والموسيقى أيضاً جذبت انتباهي ـ ذاك النواح الثاقب الصادر عن المصلين اليهود. وحالما انتهى القداس توجهت إلى مكتب الحاخام وطلبت التحدث معه. استقبلني بما يكفي من الكياسة ـ إلى أن أوضحت له طبيعة مهمتي. فإذا به يصبح مخيفاً حقاً. كل ما طلبته منه هو تقديم يد العون لي ولصديقي جو. ولو رأيت كيف نظر إلي لاعتقدت أني طلبت منه استئجار الكنيس لاستخدامه كملعب للبولينغ.

وفوق كل هذا كله إذا به يسألني فجأة ودون مواربة إن كنت يهودياً أو لا. وحين أجبت بلا، بدا أن غضبه قد بلغ أقصاه. ولكن، بحق الله، لماذا أتيت إلى كاهن يهودي طالباً العون، فقلت له بسذاجة أني كنت دائماً أشد ولاءاً لليهود مني للمسيحيين. قلت ذلك بتواضع وكأنه أحد أبرز عيوبي. وهذه هي الحقيقة فعلاً. ولكي يتخلص مني حرر ملاحظة لجماعة جيش الخلاص. قال "عليك أن تتوجه بطلبك إلى هذا المكان"، قال هذا ثم استدار بفظاظة ليرعى شؤون رعيته.

طبعاً لم يكن لدى جيش الخلاص ما يسعفنا به. ولو كان مع كل منا ربع دولار لاستأجرنا حشية ونمنا على الأرض. ولم يكن معنا نكلة واحدة.

فتوجهنا إلى الحديقة العامة وتمددنا على المقعد. وكانت تمطر فتدثرنا بأوراق الصحف. وأعتقد أننا لم نكن قد أمضينا أكثر من نصف ساعة حين جاء شرطي، ودون أن يتفوه بكلمة واحدة كتحذير، ضربنا ضربة قوية جعلتنا نقفز على أقدامنا للتو، بل ورقصنا أيضاً بقليل من الألم، على رغم أننا لم نكن نرغب في الرقص. وشعرت أنني في أقصى حالات الغضب واليأس، والاكتئاب، والقذارة، بعد أن ضربنا ابن الحرام المخبول على مؤخرتينا، حتى كان بوسعي أن أنسف المبنى الحكومي.

في صباح اليوم التالي، وعلى سبيل التعادل مع أولاد الحرام المضيافين أولئك، تقدمنا مشرقين ومبكرين من باب الكاهن الكاثوليكي. في هذه المرة تركت الكلام لجو. كان ايرلندياً ولهجته مميزة قليلاً، وله أيضاً عينان زرقاوان ناعستان وكان باستطاعته أن يجعلهما تدمعان قليلاً كلما أراد. فتحت الباب راهبة بلباس أسود، ولم تطلب منا الدخول. كان علينا أن ننتظر في الردهة ريثما تنادي على الأب الطيب. وجاء الأب الطيب بعد بضع دقائق ينفث كقطار. وماذا نطلب حتى نزعج أمثاله في تلك الساعة من الصباح؟ نريد شيئاً نأكله ومكاناً ننام فيه، هكذا أجبنا ببراءة. ومن أين أتينا، أراد الأب الطيب أن يعرف بلا تلكؤ. من نيويورك. من نيويورك، هه؟ إذن فمن الأفضل لكما أن تعودا من حيث أتيتما بأسرع ما يمكنكما، يا ولدي، ودون أن يضيف كلمة أخرى صفع ابن الحرام الضخم، دو الوجه الذي يشبه اللفت المنفوخ، الباب في وجهينا.

بعد ذلك بساعة، وبينما نحن نسير هكذا على غير هدى لا حيلة لنا، كإثنين من السكارى، تصادف أن مررنا ببيت القسيس من جديد. ويشهد الله على أني رأيت رأس اللفت الداعر الضخم يتسلل من الشارع الخلفي في سيارته الليموزين! ولدى مروره بنا نفخ سحابة من الدخان في عيوننا. وكأنه يقول ـ "هذا لأجلكما!". سيارة ليموزين جميلة، لها إطاران إضافيان خلفها، والأب الطيب جالس وراء المقود وفي فمه سيجار ضخم. إنه حتماً من نوع كورونا كورونا، ضخم جداً وذكي الرائحة. لقد كان وضعه المادي حسناً جداً، ولا شك في ذلك. لم أتمكن من ملاحظة إن كان لا يزال يرتدي رداءه الكهنوتي أم لا. لم أر إلا اللعاب يسيل من شفتيه ــ والسيجار الضخم ذا

النكهة بخمسين سنتا.

طوال الطريق إلى ديجون كنت أتذكر الماضي. فكرت في كل الأشياء التي قد أكون قلتها وفعلتها، وتلك التي لم أقلها أو أفعلها، في اللحظات المريرة المذلة حين كان مجرد استجداء كسرة خبز يجعلك تشعر أنك أحقر من دودة. ولما كنت مفرط الرزانة، ظللت أشعر بوخز تلك الإهانات والإساءات اللاذعة القديمة. بل لا أزال أشعر بتلك الرفسة على مؤخرتي التي كالها لي الشرطي في الحديقة العامة - على رغم أنه كان أمراً تافهاً، أو درساً صغيراً في الرقص، إن صح التعبير. لقد طفت جميع الولايات، ووصلت كندا ومكسيكو، والقصة هي دائما نفسها في كل مكان، إذا أردت خبزاً فيجب أن تسرَج، أن تستعبَد. إن سطح الأرض كله مغطى بصحراء غبراء، ببساط من الفولاذ والإسمنت. الإنتاج! مزيداً من بسكويت الكلاب، مزيداً من العزقات والأقفال، مزيداً من الأسلاك الشائكة، مزيداً من قصاصات العشب، مزيداً من حاملات الكريات، مزيداً من المتفجرات عالية الانفجار، مزيداً من الدبابات، مزيداً من الغازات السامة، مزيداً من الصابون، مزيداً من معجون الأسنان، مزيداً من الصحف، مزيداً من الثقافة، مزيداً من الكنائس، مزيداً من المكتبات العامة، مزيداً من المتاحف. إلى الأمام! فالوقت ضيق. الجنين يشق طريقه عبر عنق الرحم، ولا يوجد حتى مقدار بصقة لتسهل مروره. إنها ولادة شاقة تقطع الأنفاس. لا نواح، لا زقزقة. salut au monde! أهلا بك إلى العالم! أهلا مع إحدى وعشرين طلقة تطلق من المعي المستقيم. قال والت "أعتمر قبعتي كما أريد في البيت أو خارجه". قاله حين كان لا يزال باستطاعتك أن تحصل على قبعة تناسب رأسك. لكن الزمن يتغير. والآن لكي تحصل على قبعة تناسب راسك عليك أولاً أن تتوجه إلى الكرسي الكهربائي. وهناك يعطونك قبعة تناسب جمجمتك كلها. تجدها محكمة كثيراً، ماذا؟ لا يهم! إنها مضبوطة.

يجب أن تكون في بلد غريب كفرنسا، تسير على الخط الفاصل بين نصفي كرة الحياة والموت، لتعرف أية آفاق مستقبلية لا تحصى مفتوحة أمامك. "الشبكة الكهربائية! الروح الديموقراطية! طغيان الفيضان!". يا أم الرب المقدسة، ماذا يعني هذا الهراء؟ الأرض محمصة ومشققة. يحتشد الرحال

والنساء معاً كأفراخ الصقور فوق جثة عفنة، ليتزاوجوا ثم يتفرقون من جديد. صقور تسقط من السحاب كأحجار ثقيلة. مخالب ومنقار، هذا نحن! جهاز معوي هائل لا نشتهي إلا اللحم الميت. "إلى الأمام!"، إلى الأمام بلا رحمة، بلا شفقة، بلا حب، بلا مغفرة. لا تطلب ربع دولار، ولا تعط شيئاً! مزيداً من السفن الحربية، مزيداً من الغازات السامة، مزيداً من المتفجرات العالية الانفجار! مزيداً من جراثيم داء السيلان! مزيداً من المكورات العقدية! مزيداً من قاذفات القنابل! مزيداً ومزيداً منها - وإلى أن تنفجر جميع المعامل اللعينة إلى ذرات صغيرة، ومعها الأرض.

حالما خطوت خارج القطار عرفت على الفور أني ارتكبت خطأ مميتاً. كانت المدرسة لا تبعد إلا قليلاً عن المحطة، مشيت في الشارع الرئيسي في غروب يوم شتائي، ألتمس الطريق إلى وجهتي. كان الندف الخفيف يهطل، والأشجار تلمع من الصقيع. مررت بإثنين من المقاهي الخاوية الهائلة الحجم التي بدت أشبه بغرف الانتظار الموحشة. وحشة صامتة، خاوية - هذا هو الإحساس الذي تركته في نفسي. بلدة بائسة، نائية. ينتج فيها الخردل بكميات كبيرة، بأوعية ضخمة وبراميل وقدور، وبرطمانات صغيرة جذابة المظهر.

أول نظرة إلى المدرسة أشاعت القشعريرة بي. وشعرت بتردد شديد حتى أني توقفت عند المدخل أتساءل أأدخل أم لا. ولكن لما لم يكن معي ثمن تذكرة عودة فلم يكن من المفيد التفكير في المسألة. وخطر لي للحظة أن أرسل برقية إلى فيلمور، لكني لم أكن أعرف بماذا أتعلل. وكان الشيء الوحيد الباقي هو أن أدخل وأنا مغمض العينين.

تصادف أن كان السيد المدير غائباً - إنها عطلته، هكذا قالوا. وتقدم مني أحدب وعرض علي أن يقودني إلى مكتب السيد المراقب، المسؤول الثاني. تخلفت عنه قليلاً، مسحوراً بطريقته في العرج. كان مسخاً صغيراً، كالذي كان يمكن رؤيته فوق أية كاتدرائية نصف بلهاء في أوربا.

كان مكتب السيد المراقب فسيحاً وخالياً من الأثاث. جلست على كرسي قاس أنتظر بينما انطلق الأحدب ليبحث عنه. وشعرت بإلفة في المكان. ذكرني الجو العام كثيراً بمكتب للإحسان في الولايات المتحدة حيث

اعتدت أن أجلس ساعات طويلة منتظراً أحد أولاد الحرام ذوي الأفواه الطحينية ليستجوبني.

فجأة فتح الباب وبخطوة متبخترة وثب السيد المراقب داخلاً وجاهدت كي أكبت ضحكي. كان يرتدي رداءاً يشبه تماماً معطفاً كان بوريس يرتديه، وقد ارخى فوق جبينه خصلة شعر، عقصة ملصقة جديرة بسميردياكوف. كان وقوراً وهشاً، له عين كعين الوشق لم يهدر كلماته في الترحيب بي. وفي الحال أحضر أوراقاً كتب عليها أسماء الطلاب، والساعات، والصفوف، إلخ، وكل ذلك بخط يدوي مشوش. وأخبرني عن كمية الفحم والخشب المخصصة لي وبعد ذلك اسرع بإخباري بأني حر التصرف في وقت فراغي. وكان ذاك الخبر الأخير هو أفضل ما سمعت منه. وبدا الأمر مطمئناً حتى أني أسرعت بالصلاة لأجل فرنسا ـ لأجل الجيش والبحرية، والجهاز الثقافي، والمقاهي الصغيرة، ولكل "الأعمال اللعينة".

بعد إتمام هذه الأمور التافهة، قرع جرساً صغيراً، وعلى الأثر ظهر الأحدب ليقودني إلى مكتب السيد "إقتصاد". هنا اختلف الجو قليلاً. كان أقرب شبهاً بمحطة شحن، بوجود فواتير الشحن والأختام المطاطية في كل مكان، والموظفين ذوي الوجوه الفطيرية الشاحبة الذين يخربشون بأقلام مكسورة في دفاتر حسابات هائلة الحجم ثقيلة. وأفرزت صدقتي من الفحم والخشب، وانطلقنا، أنا والأحدب، مع عربة يد، إلى غرفة المنامة. وخصصت لي غرفة في الطابق العلوي، تقع في جناح واحد مع الحجاب. وصار الوضع يأخذ طابعاً فكهاً ولم أعرف ماذا أتوقع بعدئذ. ربما مبصقة. كان كل شيء بطريقة تشبه كثيراً الاستعداد للقيام بحملة، لم يكن ينقصني غير حقيبة ظهر وبندقية ـ ورصاصة نحاسية.

كانت الغرفة المخصصة لي كبيرة نوعاً ما، فيها مدفأة وصلت بها ماسورة معقوفة مع كوع فوق السرير الحديدي الصغير. وثمة صندوق كبير لحفظ الفحم والخشب موجود بالقرب من الباب. وكانت النوافذ تطل على صف من البيوت البائسة كلها من الحجر ويقطنها السمان والخباز، والحذاء واللحام، إلخ ـ وكل الريفيين بمظهرهم الأبله. وألقيت نظرة عبر الأسطحة نحو

التلال الجرداء حيث كان قطار يدمدم. وزعق صفير القطار حزيناً مهروعاً.

بعد أن أضرم الأحدب النار لأجلي سألته عن الطعام، و لم يكن وقت العشاء قد حان. تمددت على السرير، ولا يزال معطفي علي، ورددت اللحاف فوقي. إلى جانبي كانت الطاولة الليلية المزعزعة الأبدية التي أخفي فيها وعاء البول. أوقفت المنبه على الطاولة وراقبت الدقائق وهي تتك منصرمة. وفي عمق الغرفة نبض ضوء خافت يميل إلى الزرقة آتياً من الشارع. أنصت إلى قرقعة الشاحنات تمر وأنا أحدق بنظرة خاوية إلى ماسورة المدفأة وإلى الكوع الذي ثبت بقطع من الأسلاك وأسر الصندوق انتباهي. لم يكن قد حدث قط من قبل أن شغلت غرفة فيها صندوق للفحم. و لم أضرم مرة في حياتي ناراً أو أعلم أطفالاً. و لم يحدث قط أن عملت دون أجر. وشعرت أني حر ومقيد في الوقت نفسه ـ كما يشعر المرء عادة قبيل الانتخاب، حين يكون جميع المحتالين قد رشحوا وتوسلوا إليك أن تصوت للرجل المناسب. شعرت وكأني مستأجر، كأني رجل الصنائع السبع، :اني قرصان، كأني أعيد عبد في سفينة، كأني معلم، ودودة وقطة. كنت حراً، لكن أطرافي مقيدة، روحاً ديموقراطية مع بطاقة توفر وجبة مجانية، ولكن بلا قدرة على التنقل، بلا صوت. شعرت كأني قنديل بحر مسمر إلى لوح خشبي. وفوق كل ذلك، شعرت بالجوع. كانت يداي تتحركان بتثاقل. بقيت لدي عشر دقائق أقتلها قبل أن ينطلق إنذار الحريق. الظلال في الغرفة ازدادت قتامة. وثقل الصمت بشكل مخيف، وتكثف السكون حتى توترت أعصابي. وعلق ندف الثلج بزجاج النافذة. ومن بعيد أطلق قطار زعقة ثاقبة. ثم ساد صمت تام من جديد. وبدأت المدفأة تتأجج، ولكن لم تنبعث منها حرارة. وبدأت أخشى أن أغفو ويفوتني العشاء. وكان هذا يعني أن أبقى يقظاً ببطن خاوية طول الليل. وانتابني الرعب.

قبيل انطلاق رنين الجرس بلحظة قفزت من السرير، وبعد أن أغلقت الباب ورائي، اندفعت أهبط الدرج إلى الفناء. وهناك ضعت. مصطبة بعد أخرى، وسلماً بعد آخر. وتجولت داخل البناء، وخارجه أبحث باهتياج عن غرفة الطعام. ومررت بصف طويل من الأولاد الصغار يمشون في طابور إلى حيث لا يعلم إلا الله، كانوا يتقدمون كعصبة مكبلة، وعلى رأسهم قائد

العبيد، وأخيراً رأيت شخصاً يبدو نشطاً، بقبعة سوداء مستديرة يتجه صوبي. أوقفته لأسأله عن الطريق إلى قاعة الطعام. وكأني أوقفت الرجل المناسب. فقد كان هو السيد المراقب، وبدا مبتهجاً لأنه تعثر بي. وطلب أن يعرف بلا مقدمات إن كنت مرتاحاً، وإن كان ثمة أي شيء آخر بوسعه أن يقوم به لأجلي. فأخبرته أن كل شيء على ما يرام، وغامرت فأضفت قائلاً إن الغرفة باردة قليلاً. فأكد لي أن هذا الطقس غير عادي. أحياناً يحل بعض الضباب ويهطل قليل من الثلج، وعندئذ يصبح الطقس مزعجاً لبعض الوقت، وهلم جرا. كان طوال الوقت يمسك بي من ذراعي، ويقودني إلى غرفة الطعام. بدا لي رجلاً دمثاً كيساً. وقلت في نفسي، شاب مثالي. بل لقد بالغت فتصورت أني قد أقيم معه صداقة حميمية فيما بعد، وأنه قد يعزمني إلى غرفته في ليلة قارسة ويقدم لي شراباً حاراً. وتخيلت جميع أنواع الأشياء الودية في اللحظات القليلة التي يستغرقها الوصول إلى قاعة الطعام. وهنا، وبينما عقلي يجري بسرعة ميل في الدقيقة، إذا به فجأة يصافحني، ويلمس طرف قبعته، ثم يتمنى لي ليلة سعيدة. ووقعت في ارتباك شديد بحيث أني بلوري لمست طرف قبعتي. فقد كان ذلك هو التصرف المتعارف عليه، كما اكتشفت سريعاً. فكلما مررت بأستاذ، أو حتى بالسيد "إقتصاد"، فيجب أن تلمس قبعتك. وربما تمر بالشخص نفسه مراراً في اليوم الواحد، يجب أن تؤدي التحية، حتى وإن كانت قبعتك مهترئة. فهو التصرف المهذب.

مهما يكن، عثرت على قاعة الطعام. كانت أشبه بمستوصف في الإيست سايد، بجدران مكسوة بالآجر، وضوء ضئيل جداً، وطاولات مكسو أعلاها بالرخام. وطبعاً مدفأة كبيرة بمواسير معقوفة. لم تكن وجبة العشاء قد وزعت بعد. وثمة شخص أعرج يدخل ويخرج بالصحاف والسكاكين والشوك وزجاجات الخمر. وفي إحدى الزوايا جلس بضعة شبان يتحادثون بود. توجهت إليهم وقدمت نفسي فاستقبلوني استقبالاً حاراً. بل ومبالغ في حرارته، في الحقيقة. ولم أفهم السبب. وسرعان ما بدأت الغرفة تمتلىء، ورحت أتعرف عليهم بسرعة واحداً بعد آخر. ومن ثم شكلوا حولي دائرة، وبعد أن ملأوا الكؤوس راحوا يغنون......

خطرت لي فكرة ذات مساء
أن أبتكر اسم زيوس من صمغ مدلى،
الريح تهب على المشنقة
ها هو مشنوقي متوازن،
يجب أن أجعل الصمغ يقفز،
أبتكر اسم زيوس، لست سعيداً أبداً.
قبلة على كس صغير جداً،
أبتكر اسم زيوس، وأزيد في السرعة،
قبلة على كس كبير جداً،
لا أعرف أين أفرغ،
إنه يهتز لأنه منزعج جداً،
أبتكر اسم زيوس، لست سعيداً أبداً.[١٦]
وهنا دخل كوازيمودو داعياً لتناول طعام العشاء.

كانت مجموعة مرحة، أولئك "المراقبين". كان هناك كروا الذي يتجشأ كالخنزير ودائماً يطلق ضراطاً عالياً أثناء جلوسه إلى المائدة. كان بإمكانه أن يضرط ثلاثين مرة متتالية، هكذا أخبروني. وقد حافظ على الرقم القياسي. ثم المسيو لو برانس، رياضي مغرم بارتداء ملابس السهرة في المساء عندما يذهب إلى المدينة، بشرته جميلة، كفتاة، ولا يقرب الخمر ولا يقرأ أي شيء من شأنه أن يذهب بوعيه. وإلى جانبه جلس بول الصغير، من الميدي، وهو لا يفكر إلا في العاهرات طول الوقت، ويكرر القول كل يوم ـ" اعتباراً من يوم الخميس لن أعود إلى الحديث عن النساء". وكان هو والمسيو لو برانس كلا لا يتجزأ. ومن ثم هناك باسيلو، وهو وغد حقيقي شاب يدرس الطب ويستدين من كل من هب ودب، ويتحدث بلا توقف عن رونسار، وفيلون، ورابليه. وقبالتي جلس موليس، وهو محرض ومنظم المشرفين، ويصر على وزن اللحم ليرى إن لم يكن

---

[١٦] ـ الأصل بالعامية الفرنسية ـ المترجم.

ناقصا بضعة غرامات. يشغل غرفـة صغيرة في المشفى. والسيد "إقتصاد" هـو عدوه الأمثل، و لم يكن ذلك ليؤثر بشكل خاص على سمعتـه الحسنة مـا دام أن الكل يكرهون هذا الشخص. صديق موليس الوحيد هو لوبينيبـل، وهـو شـاب قاسي الملامح وصورته الحابية تشبه وجه الصقر، يمارس أشد أشـكال الاقتصـاد صرامة ويتعاطى المرابـاة. ويشبه حفراً من عمل البريشت دورر[١٧] ـ أي مركـب مـن جميع الشياطين الأوغـاد الفاسـدين، الكذيـن، اللدوديـن، المنحوسـين، المشؤومين، والاستطانيين الذين يؤلفون مدفن العظماء من فرسان ألمانيا القـرون الوسطى. كان يهودياً، دون شك. على أية حـال، لقـد قتل في حـادث سيارة بعد وصولي بفترة قصيرة، وهو ظرف جلب لي ثلاثـة وعشـرين فرنكـاً حـلالاً. وباستثناء رينو الذي جلس إلى جواري، امّحت ذكرى جميع الباقين من رأسي، فهـم ينتمـون إلى تلـك الفئـة مـن النـاس الذيـن لا لـون لهـم، ويشـكلون عـالم المهندسين والمعماريين وأطباء الأسنان، والصيادلة والمعلمين، إلخ. لم يكن ثمة مـا يميزهم عن البلهاء الذين سيمسحون فيما بعد أحذيتهم. كانوا أصفاراً بكـل مـا في الكلمة من معنى، نكرات يمتلون نوى جماعة المواطنين المحترمين الذين يعشـون على الأسى. يأكلون ورؤوسهم منكسة، وهم دائماً الأوائـل في طلـب المزيـد. ينـامون نومـاً عميقـاً ولا يتذمـرون، وهـم ليسـوا مرحـين ولا بائسـين، إنهـم اللامبالون الذين أودعهم دانتي ردهة الجحيم، إنهم القشور السطحية.

جرت العادة بعد العشاء أن يذهبوا من فورهـم إلى المدينـة، إلا إذا كـان واحدهم يؤدي خدمته في المنامات. وفي مركـز المدينـة تقـع المقـاهي ــ وهـي عبارة عن قاعات واسعة كئيبة يجتمع فيها تجار ديجون الناعسون ليلعبوا الورق وليستمعوا إلى الموسيقى. والمقاهي دافئة، وهذا أفضل ما بوسـعي قولـه عنهـا. وأيضاً مقاعدها مريحة، وهناك دائماً حفنة مـن العـاهرات يتجولـن في المكـان مستعدات، مقابل كأس من البيرة أو فنجان من القهـوة، أن يجلسـن ويمضغـن الشحم معك. من جهة أخرى، كانت الموسيقى شنيعة. ويا لها من موسـيقى! ففي الليلة الشـتائية، في بؤرة قـذرة كديجـون لا شـيء أكثر إرهاقـاً، وإثـارة للأعصاب، من صـوت أوركسـترا فرنسـية. خاصـة إذا كـانت إحـدى تلـك

---

[١٧] ـ ألبريشت دورر (١٤٧١ ـ ١٥٢٨) نحات ورسام ألماني.

الأوركسترات النسائية الموحشة التي كان يصدر عنها صرير وضراط، مع إيقاع حاف، جبري algebric ، وبقوام معجون أسنان صحي. إنها أزيز وصريف يؤدى مقابل الكثير جداً من الفرنكات في الساعة - فليأخذ الشيطان هذه الأخيرة! ما أشد كآبتها! وكأنما إقليدس العجوز وقف على قدميه الخلفيتين وابتلع حامض البروسيك. لقد استغل العقل فكرة الموسيقى برمتها أيما استغلال حتى لم يبق منها شيء لخلق الموسيقى، اللهم ما عدا ضربات الأوكورديون الفارغة، الذي تصفر الريح من خلاله وتمزق الأثير شذراً. على أية حال، إن الكلام عن الموسيقى في مثل ذاك المكان كأنك تحلم بالشمبانيا وأنت حبيس زنزانة الموت. لقد كانت الموسيقى هي آخر اهتماماتي. إنني حتى لم أفكر في عاهرة، لقد كان كل شيء كئيباً جداً، بارداً جداً، عقيماً جداً، وموحشاً جداً. وفي طريق عودتي إلى البيت في الليلة الأولى لاحظت على باب إحد المقاهي عبارة مأخوذة من كتاب "غارغانتوا"[١٨] . وكان داخلها أشبه بمشرحة. ولكن لا يهم، "إلى الأمام"!.

كان يتوفر لدي الكثير من الوقت ولا سواً واحداً لأنفقه. في اليوم الواحد هناك ساعتان أو ثلاث من دروس المحادثة، وهذا كل شيء. وما فائدة تعليم أولاد الحرام الفقراء أولئك اللغة الإنكليزية؟ كنت أشعر بأسف جحيمي لأجلهم. فطوال فترة الصباح يغوصون في قراءة قصيدة "رحلة جون غيلبن"، وبعد الظهر يأتون ليتعلموا لغة ميتة. ورحت أفكر في الوقت التمين الذي أضعته في قراءة فيرجيل أو في الخوض في هراء غير مفهوم مثل "هيرمن ودوروثه". يا لجنون هذا! إن التعلم ما هو إلا سلة خبز فارغة! وتذكرت كارل الذي كان يتقن تلاوة "فاوست" بالمقلوب، ولم يؤلف كتاباً دون أن يقرظ فيه خراء معبوده الخالد، الذي لا يفنى، غوته. ومع ذلك فلم يكن لديه ما يكفي من الحس ليستقبل عاهرة ثرية ويشتري لنفسه ثياباً داخلية جديدة. ثمة في عشق الأيام الماضية هذا شيء ما فاسق ينتهي بطوابير توزيع الخبز والمخابيء. ثمة نوع من الفسق في هذا الصخب الروحاني الذي يسمح للأبله

---

(١٨) ـ غارغانتوا. شخصية في رواية ساخرة تحمل اسم بطلها. للكاتب الفرنسي رابليه (١٤٩٣-١٥٥٣).

أن يرش مـاءاً مقدساً على مدافع يبغ نيرثا والمدرعات والمتفجرات عالية الانفجار. إن كل رجل متخم بالكلاسيكيات هو عدو للجنس البشري.

ها أنا ذا، المنتظر مني أن أنشر مزمور المحبة المرانكو ـ أميركية ـ مبعوث جثة، بعد أن نهبت من كل حدب وصوب، وسببت ما لا يحصى من الألم والبؤس، حلمت بإقامة سلام عالمي. هراء! عم يتوقعون مني أن أتحدث، أريد أن أعرف؟ عن "أوراق العشب"، عن التعرفات الجمركية، عن إعلان الاستقلال أم عن آخر أخبار العصابات؟ عم؟ فقط عم، أود لو أعرف، حسن، سأقول لك ـ لم أذكر هذه الأمور من قبل. بدأت فوراً بدرس عن سيسيولوجيا الحب. كيف تمارس الفيلة الحب ـ هذا هو! وأشاع ما يشبه النار في الهشيم. بعد اليوم الأول لم يبق أي مقعد خال، وبعد ذلك الدرس الأول في اللغة الإنكليزية أصبحوا يقفون عند الباب ينتظروني وسارت الأمور على أحسن ما يرام. وسألوا جميع أنواع الأسئلة، وكأنهم لم يتعلموا أي شيء. تركتهم يطلقون كل نيرانهم. علمتهم أن يسألوا مزيداً من الأسئلة الدقيقة. إسألوا أي شيء! هذا كان شعاري. أنا هنا مبعوث مطلق الصلاحية قادم من عالم الأرواح الحرة. أنا هنا أثير الحمى والهيجان. يقول أحد علماء الفلك البارزين "إن الكون المادي يبدو، بشكل ما، وكأنه يمر كحكاية تحكى، تنحل في العدم كرؤيا". ويبدو أن هذا هو الشعور العام الكامن تحت سلة العلم الفارغة. أما أنا، فلا أصدق هذا. لا أصدق أي شيء منيك مما يحاول أولئك أولاد الحرام أن يقحموه في حناجرنا.

بين الجلسات إذا لم يكن معي كتاب أقرأه، أصعد إلى الطابق العلوي إلى المنامة وأثرثر مع المشرفين. كانوا جاهلين بشكل مبهج بكل ما يجري ـ وخاصة في عالم الفن. وربما كانوا متعادلين في مقدار الجهل مع الطلاب. وكأني دخلت إلى دار خاصة صغيرة للمجانين لا توجد فيها إشارة تدل إلى مخرج. أحياناً كنت أستطلع بفضول تحت القناطر، أراقب الأولاد أثناء مرورهم وهم يحملون قطعاً هائلة من الخبز محشوة في أفواههم القذرة. وكنت أنا دائم الجوع، بما أنه كان من المستحيل علي أن أدرك وجبة الإفطار التي تقدم في ساعة لعينة من الصباح، حين يكون السرير بالكاد قد بدأ يدفأ. وهي

مؤلفة من أوعية ضخمة من القهوة ذات اللون الأزرق وشرائح الخبز الأبيض بدون زبد. أما الغداء ففاصولياء، أو عدس بلا ذوق في الطبخ. وكان المسيو "إقتصاد" هو المسؤول عن كل هذا. هكذا قالوا. لا أصدق هذا الكلام أيضاً. لقد كان يقبض نقوداً ليبقي رؤوسنا بالكاد فوق سطح الماء. لم يكن يسأل إن كنا نعاني من البواسير أو من الدمامل، لم يكن يستعلم إن كانت لدينا حواس مرهفة أو إمعاء الذئاب. ولم يفعل؟ إنه مستأجر ليضع العديد من الغرامات في كل صحن لينتج الكثير من الكيلواتات من الطاقة. كل شيء كان يقاس بقوة الحصان، كل شيء كان محسوباً بعناية في الدفاتر الضخمة التي يخربش فيها الموظفون ذوو الوجوه العجينية صباحاً، وظهراً، ومساءاً. مدين ودائن مع خط أحمر مرسوم على طول منتصف الصفحة.

أطوف في أنحاء المربع بيطن خاوية معظم الوقت حتى أشعر أني مجنون قليلاً. كأني تشارلز الأحمق، المسكين - ولكن بدون أوديت شانديفر لألعب معها لعبة الإصبع التتنة. أقضي نصف الوقت أنبش السجائر من الطلاب، وأحياناً أثناء الدروس أشاركهم في قرقشة الخبز اليابس. ولما كانت النار دائماً تخمد نكاية بي فسرعان ما نفدت حصتي من الخشب. ويا لها من تجربة مريرة مررت بها وأنا أتملق ماسكي الدفاتر لأحصل على بعض الخشب. وأخيراً استشاط غيظي وصرت أخرج إلى الشارع وأبحث عن الخشب، كالعرب الرحل، ويا للغرابة ما أقل ما يمكنك الحصول عليه من الخشب في شوارع ديجون. مهما يكن، جرتني حملات الإغارة تلك إلى ضواحي غريبة. وتعرفت على الشارع الصغير المسمى باسم السيد فيليبير بابيون - وهو موسيقي متوفى، على ما أعتقد - حيث توجد شبكة من بيوت الدعارة. وكانت المناطق المجاورة دائماً أكثر إشاعة للمرح: حيت رائحة الطبخ، والغسيل المعلق ليجف. وأحياناً كنت ألمح أحد المساكين أنصاف المجانين الجالسين بتكاسل في الداخل. لقد كانوا أفضل حالاً من الشياطين المساكين في وسط المدينة الذين كنت أرتطم بهم كلما دخلت أحد المتاجر التنويعية. كنت أتردد إلى هناك غالباً طلباً للدفء. وأعتقد أنهم كانوا يفعلون ذلك لسبب نفسه، بحثاً عمن يدعونهم إلى قدح من القهوة. كان يبدو عليهم شيء من الجنون، بسبب البرد والوحشة. وكان يخيم على المدينة كلها قليل من الجنون حين تهبط عليها زرقة المساء.

كان بإمكانك أن تتمشى على طول الشارع الرئيسي في أحد أيام الخميس وحتى يوم القيامة دون أن تقابل نفساً واحداً ذا نزعة خيرية. ستون أو سبعون ألفاً من البشر - وربما أكثر - ملفعون بثياب داخلية صوفية ولا وجهة لهم ولا شيء لديهم يفعلونه. يتنحون الخردل بكميات هائلة. وأوركسترات نسائية تطحن لحن "الأرملة الطروب". خدمة ممتازة في الفنادق الكبرى. قصر اللوقية يتعفن، حجراً بعد حجر، طرفاً بعد طرف. الأشجار تصرخ من الصقيع. قرقعة مستمرة من أحذية خشبية. الجامعة تحتفل بذكرى وفاة غوته، أو لعله ميلاده، لم أعد أذكر. (وعادة تكون مناسبات الوفاة هي التي يحتفل بها)، قضية بلهاء، على أية حال. الكل فيها يتثاءب ويتمطى.

كنت كلما وصلت إلى أعلى الشارع حيث ساحة مربعة يغمرني دائماً إحساس بالعبث المطبق. الخارج كالح وخاوٍ، وداخلي كالح وخاوٍ. وتخيم على المدينة طفاوة من الجدب، ضبابة من علم الكتب. خبثُ الماضي ورماده. وحول القاعات الداخلية اصطفت قاعات الدرس، وهي أكواخ صغيرة كالتي سيكون على مواطني الجمهورية القادمين أن يقضوا حياتهم في نسيانها. وكان يتم أحياناً استقبال آباء الأولاد في غرفة الاستقبال الكبرى القريبة جداً من الشارع، حيث توجد التماثيل النصفية للأبطال القدامى، أمثال موليير، راسين، فولتير، إلخ، أي جميع الفزاعات التي يذكرها مجلس الوزراء بتلذذ كلما أضيف أحد الخالدين إلى التماثيل الشمعية. (ولا وجود لتمثال فيلون، لا تمثال لرابليه، لا تمثال لرامبو). مهما يكن، هنا كانوا يعقدون اجتماعاً سرياً مهيباً، الآباء والقمصان المحشوة الذين تستأجرهم الدولة لتطويع عقول النشء. وكنت دائماً تجد عملية التطويع هذه، هذا التهذيب للمشهد العام، من أجل جعل العقل أكثر جاذبية. وكان الصغار أيضاً يأتون، أحياناً - أزهار دوار الشمس تلك التي ستنتزع من غرفة الحضانة لكي تزين أراضي البلدية المعشوشبة. بعضهم كان مجرد نباتات مطاطية يمكن تنظيفها بسهولة بخرقة من قميص. وكلهم يهتزون طرباً بالحياة العزيزة في المنامات حالما يحل الليل. المنامات! حيث تتألق الأضواء الحمراء، حيث يقرع الجرس كإنذار الحريق، وحيث يضج وطء الأقدام أثناء التزاحم للوصول إلى زنزانات الثقافة.

ثـم كـان هنـاك الأسـاتذة! خـلال الأيـام القليلـة الأولى توصلـت إلى أن أصافح بعضهم، وطبعـاً كـانت هنـاك التحيـة بالقبعـة أثنـاء المـرور مـن تحـت القناطر. أما حديث القلب للقلـب، أمـا التمشـي إلى المنعطـف والمشـاركة في شرب كأس فلا سبيل إليهما. لقـد كـان هـذا بيسـاطة أمـراً لا يمكـن تصـور حدوثه. أغلبهم كان يبدو وكأن الرعب قد أمسك بتلابيبه. على كـل حـال، كنت أنتمي إلى طبقة مختلفة. لم يكونوا يشتركون حتى في القمل مـع أمثـالي. لقد كان مجرد النظر إليهم يثير سخطي، حتى أني كنت أصب لعنـاتي عليهـم في سري حالما ألمحهم من بعيد. كنت ألـزم مكـاني، مسـتنداً إلى عـامود، وفي زاوية فمي سيجارة وقبعتي مرخية على عيـني، وحـين يصبحـون علـى مسـافة توجب إلقاء التحية أبخ بصقة كبيرة وأرفع قبعتي. لم أكن أزعج نفسي حتـى بفتح بوزي وإخبارهـم عن الوقت. ومن تحت أسناني أقول ببساطة :

"أيري فيك، جاك!"، وأدع الأمر عند هذا الحد.

بعد أسبوع بدا لي أني أمضيت هنـا حيـاتي بكاملهـا. كـان الوضـع أشبه بكابوس لعين منيك لا يمكنك التخلص منه. وكنت دائماً أقع في سبات التفكير فيه. ولم أكن قد وصلت إلا منذ أيام قلائل. ويهبط الظلام، ويهـرع النـاس إلى بيوتهم كالفئران تحت الأنوار التي يغلفها الضباب. الأشجار تتلألأ بخبـث معين الشكل. فكرت في الأمر وقلبت التفكير فيه ألف مرة ومرة. المسـافة مـن المحطـة إلى المدرسـة كـانت كـالتنزه داخـل نفـق دانتزيغ، كـل شـيء حـاد الحـواف، متصدع، يحطم الأعصاب. زقاق من عظام الموتى، وأشـباح منحنيـة، منكمشـة رعباً وملفعة بالأكفان. أعمدتهم الفقريـة مـن عظـام السـمك. المدرسـة نفسـها بدت كأنها تنهض من وسط بحيرة مـن النـدف الهش، جبـل مقلوبـة قمتـه إلى أسفل باتجاه مركز الأرض حيث يعمل الله أو الشيطان دائماً وهو يرتدي سـترة المجانين يطحن حنطة لتلك الجنة التي هي دائمـاً حلـم رطـب. لم أعـد اذكـر إن كانت الشمس قد أشرقت مرة. لا أذكر إلا الضباب الـلزج البـارد الـذي كـان يهـب من جهة المستنقعات المتجمدة البعيدة حيث حفرت سكة القطـار طريقهـا داخل الهضاب الرهيبة. وكان بالقرب من المحطة قناة، أو لعله نهـرٌ، مسـتترٌ عـن العيون تحت سماء صفراء وأكواخ صغيرة ألصقت بضربة قوية على ضفـتي النهـر

المرتفعتين. وكانت هناك أيضاً ثكنات عسكرية، ودهشت، فقد كنت أقابل بين حين وآخر رجالاً صغاراً صفراً من أقزام دجاج الصين المرتبك ذوي وجوه أفيونية يتلصصون من داخل بذاتهم النظامية الفضفاضة كهياكل عظمية مصبوغة معبأة داخل النجارة. كان الطابع القرن أوسطي اللعين بمجمله متقلقلاً ومتململاً بشكل جهنمي، يهتز إلى الأمام وإلى الخلف، ويصدر أنيناً خافتاً، ويقفز باتجاهك من الأفريز، يتدلى كرقاب المجرمين المكسورة من رؤوس تماثيل الغرغويل. ظللت أنظر خلفي طوال الوقت، وأمشي كالسرطعون المغروز بشوكة طعام قذرة. كان أولئك المسوخ القزمة البدينة، وتلك الصور الملصقة كالدبق على واجهة كنيسة السان ميشيل، كانوا يتبعونني في الأزقة الملتوية وحول المنعطفات. وبدت واجهة السان ميشيل مفتوحة كألبوم صور في الليل، تتركك وجهاً لوجه مع رعب الصفحة المطبوعة. وحين أطفئت الأنوار، وبهتت الشخصيات وتسطحت، أضحت ميتة كالكلمات، إذا بالواجهة تغلو رائعة، وتنبعث من كل شق من الواجهة العتيقة الملأى بالعقد ترنيمة الريح الليلية الجوفاء وفوق الدبش المخرم لأردية الكهنوتية المتيبسة الباردة جرى سائل لعابي قاتم من الضباب والصقيع يشبه شراب الأفسنتين.

هنا، حيث قامت الكنيسة، بدا أن كل شيء تحول إلى واجهة خلفية. ولا بد أن الكنيسة نفسها قد خلعت عن قاعدتها على مدى قرون من التقدم في المطر والثلج. كانت تقع في ساحة إدغار ـ كينه، جاثمة في وجه الريح، كبغل ميت. وكانت الريح تتدفق خلال شارع دو لامونيه كشعر أبيض ينهمر وحشياً: تلوم حول الأعمدة البيضاء المهتزة التي تعيق المرور الحر للحافلات ولفريق من عشرين بغلاً. وبينما أتمايل عابراً هذا المخرج في الساعات الأولى من الصباح قد أتعثر أحياناً بالمسيو رينو المتلفع بقلنسوته كراهب شره، ويبدأ بإلقاء إفتتاحيته علي بلغة القرن السادس عشر. وحين ألتقي بالمسيو رينو، والقمر يندفع بقوة عبر السماء اللزجة كبالون مثقوب، أقع على الفور في عالم من الإبهام. فلدى المسيو رينو كلام محدد، جاف كالمشمش، وثقيل كقاعدة براندنبرغر. كان يشن علي هجوماً سريعاً بدءاً من غوته أو فيخته، بصوت عميق يتلاطم هادراً بين زوايا الساحة المترامية كقصف رعود العالم الفائت. يا رجال يوماتان، يا رجال زنجبار، يا رجال تييرا دل فيوغو، خلصوني من هذا

اللحاء الزغبي الأخضر الشاحب! بلاد الشمال تتكوم حولي، بالأزقة البحرية الجليدية، والأشواك ذات النتوءات المزرقة، والأضواء المجنونة، والترتيل المسيحي الفاسق الذي ينتشر كجلمود هابط من جبل إتنا إلى بحر إيجه. كل شيء متجمد، صلب كالنفاية، العقل موصد ومحاط بإطار من الصقيع، ومن خلال الرزم الحزينة من الثرثرة الذكية تسمع الغرغرة المختنقة لقديسين نهشهم القمل. أبيضٌ أنا حتى العظم، ولكن مع أساس قلوي بارد، وبأصابع أطرافها من الزعفران. أبيض، نعم، لكني لست راهباً مثقفاً، لست مؤمناً كاثوليكياً. أبيض، ومتحجر القلب، كالرجال الذين سبقوني وأبحروا منطلقين من جبال الألب. أنظر إلى البحر، إلى السماء، إلى المبهم والقريب البعيد.

الثلج من تحت القدم يعدو مسرعاً أمام الريح، يعصف، يخز، يقرص، يتناثر، يدوم عالياً، يمطر، يتفتت، ويهبط رذاذاً. لا شمس، لا هدير أمواج، لا تكسر أمواج. الرياح الشمالية الباردة مسلحة بأشواك مدببة حادة، مثلجة، حاقدة، جشعة، مفسدة، شالة. الشوارع تشيح بوجوهها عند منعطفاتها المعقوفة، إنها تبتعد عن المشهد المسرع، عن النظرة المتجهمة، تهرع متعثرة من خلال الشبكية المنحرفة، تدير الجانب الخلفي للكنيسة فتجعله واجهة، تجز التماثيل، تسطح النصب التذكارية، تقتلع الأشجار من جذورها، تيبس العشب، تمتص الشذا من الأرض. وأوراق أشجار جامدة كالإسمنت، أوراق يعجز الندى عن إعادة البريق إليها. لا قمر سيضيء وضعها الفاتر. الفصول وصلت إلى نهاية راكدة، والأشجار تشحب وتذوى، العربات تسير على آثار الدواليب الزجاجية بصوت يشبه نقراً مكتوباً على القيثارة يتسلل كالأفعى. وفي تجويف التلال المتوجة بالبياض تهجع ديجون المتقعة الخالية من العظام. لا مخلوق حياً يخترقها ليلاً عدا الأشباح القلقة متجهة جنوباً صوب الشبكات المتسامتة الصفيرية اللون. ومع ذلك فأنا يقظ وأتجول، شبح سائر، رجل أبيض مرتعب من العقلانية الباردة لهندسة المسلخ هذه. من أنا؟ ماذا أفعل هنا؟ إني أسقط بين أسوار الحقد الإنساني الباردة، قامة بيضاء ترفرف، أغوص في البحيرة الباردة، وجبل من الجماجم فوقي. أنكب على المناطق الباردة، والخطوات الطباشيرية غسلت بالنيلة. الأرض بأروقتها المظلمة تعرف وقع خطوتي، تشعر بانحراف قدم عن السبيل، برفرفة جناح، بلهاث ورعشة.

أسمع الدرس يتحول إلى مزاح وضحك، والأرقام تصعد إلى أعلى، وخفاش يتدلى عالياً كقطر لزج، ويصفق بجناحين كرتونيتين ذهبيتين، وأسمع القطارات تتصادم، والسلاسل تصلصل، والقاطرة تنفث، تشخر، تتنشق، تطلق بخاراً، وتتبول. كل الأشياء تأتي إلي من خلال الضباب الصافي مع نكهة التكرار، والمخلفات الصفراء والـ gadzooks والـwhittikins . في قلب المركز، إلى السفل من ديجون بمسافة طويلة، وبعيداً عن مناطق القطب الشمالي، يقف الإله أجاكس، كتفاه موثوقان إلى دولاب طاحونة هواء، الزيتون يسحق، وماء المستنقع الأخضر يضج بضفادع تنق.

الضباب والثلج، المنطقة الباردة، المعرفة الثقيلة، القهوة الزرقاء، الخبز الخالي من الزبد، الشوربة والعدس، وبقول تاحر لحم الخنزير الثقيلة، والجبن البائت، والطعام الندي، والنبيذ القذر يجعل جميع نزلاء الإصلاحية في حالة إمساك. ولما يشتد إمساك الجميع تتجمد أنابيب مياه المرحاض. ويتكوم الخراء كتلال النمل، ويضطر المرء إلى أن ينزل عن قاعدته ويتغوط على الأرض. ويبقى مكانه جامداً متيبساً، ينتظر ذوبان الثلوج. في أيام الخميس يأتي الأحدب مع عربة اليد ليجرف الكتل المتيبسة بمكنسة وجاروف، ويذهب جاراً ساقه المرتخية. وترش الأروقة بأوراق المرحاض، وتلتصق بقدميك كورق الذباب. وحين يعتدل الطقس ينضج العبق، وتستطيع أن تشمه في وينشستر على بعد أربعين ميل. وعندما تقف في الصباح تنظر إلى الروث الناضج، حاملاً فرشاة أسنان، تكون التنانة من القوة بحيث تجعل رأسك يدور. ونقف في المكان بقمصاننا الداخلية الحمراء، ننتظر أن نتغوض، ويبدو الموقف أشبه بلحن غنائي من إحدى أوبرات فيردي العظيمة ـ كأننا جوقة سندان الحداد مزودين ببكرات وحقن. وفي الليل، حين تضيق بي الحال، أندفع هابطاً إلى المرحاض الخاص بالسيد المراقب القريب من الشارع العام. وكان برازي دائماً مملوءاً بالدم. وحتى مرحاضه لم يكن جارياً كما يجب ولكن على الأقل كانت تتوفر لي متعة الجلوس، ثم أترك له حزمتي الصغيرة كعربون احترام.

بعد انتهاء الوجبة في كل مساء يأتي الحارس الليلي ليأخذ نصيبه من البهجة. وهذا المخلوق البشري هو الوحيد في المؤسسة كلها الذي شعرت معه بألفة. إنه

نكرة. يحمل مصباحاً ومجموعة مفاتيح. يقوم بجولاته خلال الليل، جامداً كإنسان آلي. وما إن يبدأ توزيع الجن البائت حتى يظهر فجأة لينال نصيبه من النبيذ. يقف هناك، ماداً مخلبه، وشعره منتصب كما الأسلاك، كشعر كلب حراسة، وخداه متوردان، وشارباه يتلألآن بالندف. فيغمغم بكلمة أو كلمتين ويحضر له كوازيمودو القنينة. ومن ثم يقف ثابت القدمين، ويرمي برأسه إلى الخلف ويجرع النبيذ، ببطء وبجرعة واحدة طويلة. كان يبدو لي وكأنه يصب في جوفه أحجار ياقوت. وكان في تلك الحركة شيء يقبض علي من شعري. كأنه كان يشرب البقية الباقية من العطف الإنساني، وكأن بالإمكان جرع كل ما في العالم من حب وحنو هكذا دفعة واحدة ـ وكان ذلك هو كل ما يمكن عصره يوماً بعد يوم. لقد عاملوه على أنه أقل مرتبة من أرنب. ففي نظام الأشياء هو لا يساوي الماء المملح اللازم لتخليل سمكة رنجة واحدة. هو مجرد قطعة روث حية. وكان يعلم ذلك. حين كان ينظر حوله بعد أن ينتهي من الشرب ويبتسم لنا، يبدو العالم وكأنه يتهاوى. إنها ابتسامة تلقى عبر لجة، حيث في اسفل الهاوية يقبع كل العالم المتحضر النتن كمستنقع، وفوقه، وكالسراب، تحوم هذه الابتسامة المرفرفة.

الابتسامة هي نفسها التي حيتني ليلاً عند عودتي من تسكعي. أذكر أني في إحدى تلك الأمسيات، كنت واقفاً عند الباب أنتظر الصديق الحميم لينهي جولاته، وتملكني ذاك الإحساس بالسعادة حتى كان بوسعي أن أبقى منتظراً هكذا إلى الأبد. وانتظرت نحو نصف ساعة قبل أن يفتح لي الباب. وأتلفت حولي بهدوء وارتياح، أتشرب كل ما يحيط بي، الشجرة اليابسة المنتصبة أمام باب المدرسة بأغصانها النحيلة الملتوية، والبيوت على الجانب المقابل من الشارع التي غيرت لونها خلال الليل، وقد انحنت الآن بشكل أوضح، وضجيج القطارات المندفع عبر فيافي سيبيريا، والدرابزينات رسمها أوتريللو، والسماء، وآثار دواليب العربة العميقة. وفجأة، وبلا مقدمات، ظهر عاشقان، كانا كلما سارا بضع ياردات يتوقفان ويتعانقان، ولما لم يعد بإمكاني متابعتهما بعيني صرت أتابع وقع خطواتهما، سمعت توقفهما السريع، ومن ثم سيرهما المتهادي البطيء. كدت أشعر بارتخاء جسديهما ثم

سكونهما عند استنادهما على السور، وسمعت طقطقة حذاءيهما حين كانت تنقبض عضلاتهما وقت العناق. وتجولا في أرجاء المدينة، وخلال الشوارع الملتوية، متوجهين إلى القناة ذات المياه الزجاجية حيث يستقر الماء أسود كالفحم. كان شيئاً استثنائياً. ولم يكن في ديجون كلها إثنان مثلهما.

في تلك الأثناء كان الصديق الحميم يقوم بجولاته، وكان باستطاعتي أن أسمع قرقعة مفاتيحه، وسحق حذائه، والخطو الثابت الآلي. وأخيراً سمعته قادماً على الممشى ليفتح الباب الكبير، البوابة الضخمة المقوسة التي لا يوجد أمامها خندق. سمعته يتحسس القفل، بيدين صارمتين، وبذهن حذر. ولما تمايل الباب وهو ينفرج رأيت فوق رأسه كوكبة من نجوم تتوج الكنيسة. كل الأبواب موصدة، كل زنزانة مرتجة. والكتب مغلقة. الليل مخيم قريب، مدبب كنصل خنجر، ثمل كمهووس. وها هو ذا، خواء لا متناهٍ. وفوق الكنيسة، وكتاج الأسقف، شمخت كوكبة النجوم، وكل ليلة، وطوال أشهر الشتاء، تشمخ هناك واطئة فوق الكنيسة. واطئة وبراقة، حفنة من نصال الخناجر، انبهار من الخواء الصرف. تبعني العجوز حتى انعطافه الممشى، ثم أغلق الباب بصمت. وحين ألقيت عليه تحية المساء لمحت ثانية تلك الابتسامة اليائسة، المستحيلة، كومضة نيزكية عبر شفا عالم مفقود، ومن جديد رأيته واقفاً في قاعة الطعام، رأسه مائل إلى الخلف والياقوت ينسكب في جوفه. وكأن البحر المتوسط كله مدفون داخله ـ بساتين البرتقال، وأشجار السرو، والتماثيل المجنحة، والمعابد الخشبية، والبحر الأزرق، والأقنعة الجامدة، الأرقام الصوفية، والعصافير الأسطورية، السماوات الياقوتية الزرقة، وأفراخ العقبان، الخلجان الصغيرة المشمسة، الشعراء العميان، والأبطال الملتحون. كل هذا اختفى، غاص تحت الجلمود الآتي من بلاد الشمال، دفن، مات إلى الأبد، صار ذكرى، أملاً وحشياً.

تلكأت لحظة على درب العربات. كل شيء أشبه بالكفن، بغطاء النعش، بخواء مستحكم لا يوصف. ثم حثثت خطاي على طول الممر المفروش بالحصى المحاذي للسور، ماراً بالأقواس والأعمدة، والسلالم الحديدية، ومن مربع إلى آخر. كل شيء محكم الإغلاق، موصد استعداداً للشتاء. وأجد القنطرة المؤدية

إلى غرفة الطعام. الضوء المقزز للنفس ينتشر على الدرج من النوافذ المتجهمة المصقعة. والدهان يتقشر عن كل شيء. الأحجار تتحوف، وأعمدة الدرابزين تصر، والعرق الرطب ينز من حجارة الرصف اللوحية ويشكل جواً باهتاً، زغبياً، يخترقه النور الأحمر الضعيف عند أعلى الدرج، وارتقيت آخر مجموعة درج، والبريج، وقد سربلني العرق والرعب. وأخذت أتحسس طريقي في الظلام الحالك خلال الممر القفر. كل الغرف خالية، موصدة، تتعفن. يدي تنزلق على طول الحائط باحثة عن مقر المفتاح. ويعسني الرعب حين أمسك أكرة الباب. ثمة دائماً على قبتي يد مستعدة لانتزاعي إلى الخلف. وحالما ألج الغرفة أرتج الباب. إن ما أقوم به كل ليلة إن هو إلا معجزة، معجزة الولوج إلى الداخل دون أن أختنق، دون أن تشق رأسي بفأس. يمكنني أن أسمع الجرذان تعدو خلال الرواق، تقرض فوقي بين عوارض السقف الخشبية. الضوء يسطع ككبريت مشتعل وأقابل الرائحة النتنة الحلوة المقززة للنفس لغرفة لا تهوى على الإطلاق. وفي الزاوية يجثم صندوق الفحم، تماماً كما تركته. النار خامدة. صمت مطبق حتى أنه يهدر كشلالات نياغارا في أذني.

وحدي، مع اشتياق هائل فارغ وخوف. الغرفة كلها من أجل أفكاري. لا شيء غيري وما أفكر، وما أخاف. كان بإمكاني أن أخرج أروع الأفكار، أن أرقص، أبصق، أكشر، ألعن، أنتحب ـ دون أن يعرف أحد بذلك، دون أن يسمعه أحد. إن مجرد التفكير في تلك العزلة المطلقة يكفي لدفعي إلى حافة الجنون. هي أشبه بولادة متيسرة. قطعت كل الروابط. وأضحيت منفصلاً، عارياً، وحيداً. إنه نعيم وألم في آن واحد. الزمن بين يديك. كل لحظة فيه تجثم عليك كجبل. أنت غارق فيها. صحارى، بحار، بحيرات، محيطات. الزمن يضرب باستمرار كساطور اللحم. العالم عدم. الأنا واللا أنا. "أوماهاروموما". على كل شيء أن يحمل إسماً. يجب تعلم، اختبار، ممارسة كل شيء. "تصرف وكأنك في بيتك يا عزيزي".

يهبط الصمت كالسيول البركانية. وهناك، فوق الهضاب المجدبة، تنطلق القطارات قدماً نحو مناطق معدنية شاسعة، تجر منتجات تجارها. تجري على

بحرى من الفولاذ والحديد، والأرض مفروشة بالخبث، والجمر، والفلز الأرجواني. في عربات البضائع أعشاب بحرية، لوح وصل السكة الحديدية، حديد مبروم، راقدات السكة الحديدية، قضبان سلكية، أطباق وملاءات، أدوات صفيحية، أطواق دورت بالتسخين، عربات الصفائح والملاط، وفلز زورهzores . دواليب مقاس 80 ميليمتر أو أكثر. أمر بنماذج بديعة من فن العمارة الأنجلو نورمانية، أمر بمشاة ولوطيين، بأفران الموقد المفتوح، بمطاحن بسمر الساسية، بمحركات ومحولات، بقوالب صب الحديد الخام وسبائك الفولاذ. الناس كافة، مشاة ولوطيين، سمك ذهبي وشجر نخيل من الزجاج المغزول، وقرود تنشج، كلهم يتجولون بحرية في الأزقة التخميسية quincumcialفي ساحة دو بريزيل عين خزامية.

أعود بسرعة البرق إلى امرأة كنت أعرفها. تشبه سلسلة طرقتها من بؤسي. كل واحدة معلقة بالأخرى، نخاف من العيش منفصلين، من البقاء مولودين. باب الرحم دائماً مزلج. رعب واشتياق. عميقاً في الدم يمكن التوق للجنة. الغيب. دائماً الغيب. لا بد أن كل شيء بدأ بالسرة. يقطعون الحبل السري، يصفعون مؤخرتك، وبريستو! يرمون بك إلى العالم، بلا هدف سفينة بلا دفة. وتنظر إلى النجوم ثم تنظر إلى سرتك. يصبح لديك عيون و كل مكان. تحت الإبط، بين الشفاه، في جذور شعرك، في أخمص قدميك. ويغدو البعيد قريباً، والقريب بعيداً. في الداخل والخارج، تدفق مستمر، سلخ جلود، قلب الداخل إلى الخارج، وتنجرف هكذا لسنين وسنين، إلى أن تجد نفسك في المركز تماماً، وهناك تتعفن على مهل، تتفتت ببطء إلى ذرات، وتتبدد من جديد، ولا يبقى غير إسمك.

حل الربيع قبل أن أفلح في الهروب من الإصلاحيـة، ثـم فعلـت وبضربـة حظ. فقد أنبـأني تلغـراف مـن كـارل يومـاً أن ثمـة مكانـاً شـاغراً في الطـابق العلوي، وقال إنه سيرسل لي أجرة العودة إذا قررت القبول. وأجبته بتلغـراف عاجل ولما وصلت النقود هرعت إلى المحطة دون أن أترك كلمة واحدة للسيد المدير أو لأي كان. مغادرة فرنسية، كما يقولون.

ذهبت من فوري إلى الفنـدق الكـائن في إي ـ بي، حيـث كـان يقطـن كارل. فتح لي الباب وهو عار تماماً. كانت ليلة عطلته وكالمعتاد هناك عاهرة في سريره. ويقول:" لا تأبه لهـا، إنهـا نائمـة. إذا كنـت بحاجـة إلى مضاجعـة يمكنك أخذها. لا بأس بها". ويسحب الأغطية عنها ليريني نـوع بضاعتهـا. على أية حال، لم أكن أفكر في المضاجعة عندئذ. كنت متوتراً جـداً، كرجـل هرب لتوه من السجن. أردت فقط أن أرى وأسمع الأشياء. كان قدومي من المحطة أشبه بحلم طويل. وشعرت كأني كنت غائباً منذ سنين عديدة.

لم أدرك تمامـاً أنـي عـدت إلى بـاريس مـن جديـد إلا بعـد أن جلسـت وألقيت نظرة متفحصة إلى الغرفة. إنهـا غرفـة كـارل، ولا سبيل إلى الخطـأ، شبيهة بقفص السنجاب وبيت خراء معاً. وبالكاد وجد مكـان علـى الطاولـة يتسع للآلة الخفيفة التي كان يستخدمها. الأمر هكذا دائماً معه، سواء كـانت معه عاهرة أم لا. وهناك دائماً قاموس ملقى وهـو مفتـوح فـوق نسـخة ذات حواف مذهبة من فاوست، ودائماً هناك كيس التبـغ، وبيريـه، وزجاجـة مـن النبيذ الأحمر، ورسائل، ومخطوطات، وجرائـد قديمـة، ورسـوم مائيـة، وإبريـق شاي، وجوارب قذرة، وعيدان لتنظيف السنان، وملـح كرسشـن، وواقيـات

ذكرية، إلخ. وفي الـ bidet قشور برتقال وبقايا شطيرة لحم خنزير.

قال:" يوجد شيء من الطعام في الخزانة، كل ما تشاء! كنت على وشك أن آخذ حقنة "

عثرت على الشطيرة التي ذكرها وعلى قطعة من الجبن كان قد قضم منها قضمة. وبينما جلس هو على حافة السرير ليأخذ جرعة من مطهر آرغيرول، ازدردت الشطيرة والجبن بعون من قليل من النبيذ.

قال:" أعجبتني الرسالة التي بعثتها إلي وتتحدث عن غوته"، وهو يمسح أيره بسروال داخلي قذر، "سأريك الجواب عليها حالاً ـ إنني أدونه في كتابي. مشكلتك هي أنك لست ألمانياً. يجب أن تكون ألمانياً لتفهم غوته. خراء، لن اشرح لك هذا الآن. لقد كتبت كل شيء في الكتاب... بالمناسبة، لدي عاهرة جديدة الآن ـ ليست هذه ـ هذه شبه مجنونة. على الأقل، كانت معي حتى قبل بضعة أيام. لست متأكداً إن كانت ستعود أم لا. ظلت تعيش معي طوال فترة غيابك. وقبل ايام جاء والداها وأخذاها، قالا إن عمرها لا يتجاوز الخامسة عشرة. أتصدق؟ لقد أخافاني من الرعب.....".

أخذت أضحك، لقد كان من عادة كارل أن يوقع نفسه في ورطة كهذه.

قال:" علام تضحك؟ كان يمكن أن أدخل السجن بسببها. ولحسن الحظ أني لم أحبلها. وهذا مضحك أيضاً، لأنها لم تكن تعتني بنفسها كما يجب. ولكن اتعلم ما الذي أنقذني؟ وهذا ما أعتقده على الأقل، إنه "فاوست". نعم! فقد تصادف أن رأى أبوها العجوز المسرحية ملقاة على الطاولة، فسألني إن كنت أفهم الألمانية. وحديث أدى إلى آخر، وإذا به يقلب النظر في كتبي. ولحسن الحظ كنت قد تركت كتاباً لشكسبير مفتوحاً أيضاً، فترك لديه انطباعاً جيداً جداً، وقال من الواضح أني رجل على قدر كبير من الجدية".

"وماذا عن الفتاة ـ ماذا قالت هي؟".

"كانت خائفة حتى الموت. وما حدث هو أنه كان معها ساعة يد صغيرة حين أتت، ووسط هذا التوتر لم نعثر على الساعة، وأصرت أمها على العثور عليها وإلا طلبت الشرطة. أترى كيف تجري الأمور هنا. وقلبت

المكان رأساً على عقب ـ لكني لم أعثر على الساعة اللعينـة. واستشـاطت الأم غضباً. أعجبتني هي الأخرى، على الرغم من كل شيء. بل إنها كانت أجمـل من ابنتها. خذ ـ سأريك رسالة بدأت بكتابتها لها. إني أحبها....".

"تقصد الأم؟".

"طبعـاً، و لم لا؟ لـو أنـي شـاهدت الأم أولاً لمـا نظـرت إلى الابنـة قـط. وكيف كان لي أن أعرف أن عمرها خمسة عشر عامـاً فقـط؟ إنـك لا تسـأل العاهرة عن عمرها قبل أن تضاجعها، أليس كذلك؟".

"جو، في الأمر شيء مريب. أرجو أن لا تكون ساخراً مني؟".

"أنا أسخر منك؟ خذ ـــ أنظـر إلى هـذه!". وأرانـي الرسـوم المائيـة الـتي رسمتها ـ أشـياء صغيرة فيهـا لفتـة ـــ سـكين ورغيـف خـبز، الطاولـة وإبريـق الشاي، وكلها موضوعة فوق بعضها. قال:" لقد أحبتني. كانت طفلة. كـان علي أن أخبرها متى تنظف أسـنانها وكيـف تعتمـر قبعتهـا. خـذ ـــ أنظـر إلى المصاصات! كنت أشتري لها كل يوم بضع مصاصات ـ وكانت تحبها".

"حسن، وماذا فعلت حين أتى والداها لأخذها؟ ألم تثر شجاراً؟".

"بكت قليلاً، هذا كل شيء. وماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ إنها قـاصر. لقد اضطررت إلى أن أعد بأن لا أراها ثانية. وأن لا أكاتبها أيضاً. وهـذا مـا أنتظر نتيجته الآن ـ سأرى إن كانت ستبقى بعيدة أم لا. لقـد كـانت عـذراء حين أتت إلى هنـا. والمشـكلة الآن هـي إلى متـى سـتقدر علـى البقـاء بـدون مضاجعة؟ لم تكن تشبع منها حين كانت هنا. كادت تهلكني".

في ذلك الوقت استيقظت النائمة وأخذت تفرك عينيها. بـدت لي جميلـة وصغيرة أيضاً لا باس بمظهرهـا، لكنهـا صامتـة كـالجحيم. أرادت أن تعـرف على الفور عما كنا نتحدث.

قـال كـارل:" إنهـا تقطـن في الفنـدق، في الطـابق الثـالث. هـل تـود أن ترافقها إلى غرفتها.؟ سأتدبر الأمر".

لم أكن متأكداً مـن أنـي راغـب فيهـا أم لا، ولكـن حـين رأيـت كـارل يدكها مرة أخرى قررت أني أريدها. سألتها أول الأمر إن كانت تعبة كثيراً.

سؤال بايخ. العاهرة لا تصل قط إلى حالة التعب الشديد من فتح ساقيها. بعضهن يمكن أن ينمن وأنت منهمك فيهن. على أية حال، كان قد تقرر أن نهبط إلى غرفتها. وعلى هذا الأساس فلن يتوجب علي أن أدفع لصاحب الفندق أجر مبيت.

في الصباح استأجرت غرفة تطل على الحديقة العامة الصغيرة حيث يأتي عادة حاملو لوحات الإعلانات لتناول غدائهم. وعند الظهيرة عرجت على كارل لأشاركه طعام الإفطار. كان هو وفان نوردن قد أخذا يكتسبان عادة جديدة أثناء غيابي - هي الذهاب كل يوم لتناول وجبة الإفطار في الكوبول. وسألته:" ولماذا الكوبول بالذات؟" قال:" أتسأل لم الكوبول؟ لأن في الكوبول يقدمون الثريد في كل الأوقات، والثريد يجعلك تخرى". قلت "فهمت".

وهكذا عاد كل شيء إلى سابق عهده، ترددنا نحن الثلاثة ذهاباً وإياباً من وإلى العمل، خلافات حقيرة، تنافسات حقيرة. وفان نوردن لا يزال يعاني من عاهراته ومن رغبته في طرح قذارته من بطنه. غير أنه الان وجد لنفسه تسلية جديدة، اكتشف أن الاستمناء هو أقل إزعاجاً. وذهلت حين زف إلي الخبر. فلم يخطر ببالي أن من الممكن بالنسبة لشاب مثله أن يجد أية متعة في الاستمناء. بل لقد صعقت أكثر حين شرح لي الأمور بالتفصيل. فقد "ابتكر" باباً جديداً، حسب تعبيره. ويقول:"خذ تفاحة وانزع اللب ثم إدهن داخلها بكريما باردة لكي لا تذوب بسرعة كبيرة. جربها مرة! في أول الأمر ستدفعك إلى الجنون. على أية حال، هكذا أرخص ولا يستغرق وقتاً طويلاً".

ثم قال وهو يغير دفة الموضوع:" بالمناسبة، صديقك ذاك، فيلمور، إنه في المستشفى. أعتقد أنه فقد عقله. على أية حال، هذا ما أخبرتني به فتاته. فقد اتخذ له فتاة فرنسية أثناء غيابك، وكانا يثيران شجاراً جحيمياً. إنها عاهرة ضخمة الجثة صحيحة الجسم ـ متوحشة. لا أمانع في مضاجعتها، ولكن أخشى أن تقتلع عيني بمخالبها. كان دائماً يظهر بوجه ويدين مليئتين بالخدوش. وهي أيضاً كانت تبدو بين الحين والاخر مرضوضة ـ أو غالباً. أنت تعرف نوع أولائي النسوة الفرنسيات ـ حين يعشقن يفقدن عقولهن".

واضح أن ثمة أحداثاً قد وقعت أثناء غيابي. وشعرت بالأسف لأجل

فيلمور. لقد كان معي طيباً لعيناً. وبعد أن تركت فان نوردن قفزت إلى الحافلة وتوجهت رأساً إلى المستشفى.

أعتقد أنهم لم يكونوا قد قرروا بعد إن كان قد بات مجنوناً بشكل مطلق أم لا، لأني وجدته في الطابق العلوي في غرفة منفصلة متمتعاً بجميع امتيازات المرضى المواطنين. وكان قد خرج لتوه من الحمام حين وصلت. وما أن وقع بصره علي حتى انفجر باكياً. وقال من فوره "انتهى أمري. يقولون أني مجنون - وقد أكون مصاباً بالسفلس أيضاً. يقولون إني مصاب بأوهام العظمة"، وارتمى على السرير وأخذ يبكي بهدوء. وبعد أن بكى قليلاً رفع رأسه وابتسم - كعصفور استيقظ لتوه من غفوة. وقال:" لماذا يضعوني في غرفة تتكلف كثيراً؟ لماذا لا يضعوني في الجناح العام ـ أو في مستشفى المجانين؟ لا أستطيع تحمل تكاليف هذا. إني أعيش على آخر خمسمائة دولار معي".

"ولهذا يحتفظون بك هنا" قلت "وسوف ينقلونك بسرعة حالما تنفد نقودك فلا تقلق".

ولا بد أن كلماتي تركت تاثيرها عليه، لأني ما أن أنهيت كلامي حتى ناولني ساعة يده والسلسلة، ومحفظة نقوده، ودبوساً يحمل شعار الأخوة، إلخ. وقال" احتفظ لي بهم، سيجردني أولاد الحرام أولئك من كل شيء". وفجأة أخذ يضحك ضحكة من تلك الضحكات العجيبة الخالية من المرح التي تجعلك تؤمن بأن الذي أمامك هو أبله سواء كان كذلك أم لا. قال:" أعرف أنك ستعتقد أني مجنون، لكني أريد أن أكفر عما فعلت. أريد أن أتزوج. إن ماحصل هو أني لم أكن أعرف أني مصاب بالسيلان. وها أنا نقلت إليها المرض ثم حبلتها. قلت للطبيب لا يهمني ما يحدث لي، المهم أن يدعني أتزوج أولاً. وظل يقول لي انتظر حتى تتحسن صحتك ـ ولكن أعرف أني لن أتحسن. إنها النهاية".

ولم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك منه بسبب كلامه بتلك الطريقة. لم أفهم ماذا حدث له. على أية حال، كان يجب أن أعده برؤية الفتاة لأشرح لها كل شيء. وطلب مني أن ألازمها، وأواسيها. وقال إن باستطاعته أن يثق بي، إلخ. فقلت نعم رداً على كل شيء لأهدئه. لم يبد لي مجنوناً حقاً ـ كان

أقرب إلى إنسان كف عن المقاومة. مثال نموذجي للأزمة الأنغلوساكسونية، تفحر الأخلاقيات. كنت تواقاً لمقابلة الفتاة لأحصل على الحقائق المجردة حول الموضوع كله.

في اليوم التلي بحثت عنها. كانت تقطن الحي اللاتيني. وحالما علمت من أنا ازدادت مودة. إسمها جينيت. عملاقة نحيلة، صحيحة الجسم، من النوع القروي بأسنان أمامية نصف متآكلة. مملوءة حيوية وفي عينيها ما يشبه النار المجنونة. وأول شيء فعلته أنها بكت. ومن ثم، لما وجدت أنني صديق قديم لحبيبها حوجو ـ هكذا سمته ـ هرعت إلى أسفل وعادت مع زجاجتين من النبيذ الأبيض، ودعتني للبقاء معها للعشاء ــ وأصرت. وبينما هي تشرب كانت تتذبذب بين المرح ونوبات البكاء، و لم أكن مضطراً إلى طرح أي سؤال عليها ـ فقد أخذت تتكلم كأنها آلة ذاتية الدوران و كان أكثر ما يقلقها هو ـ هل سيستعيد عمله حين يخرج من المستشفى؟ وقالت إن والديها ثريان، ولكن ليسا راضيين عنها، ولا يوافقان على تصرفاتها الرعناء. وهو بالذات لم يكن يستحوذ على رضاها ــ فهو غير مهذب، ثم إنه أميركي. وتوسلت إلي كي أطمئنها بأنه سيستعيد عمله، وفعلت دون تردد. بعدئذ توسلت إلي كي أعلمها إن كان باستطاعتها أن تصدق ما قاله لها ـ وأنه سيتزوجها. لأنها الآن، وهي تحمل طفلاً في أحشائها إلى جانب مرض السيلان، لم تعد تقوى على إشعال عود كبريت ـ مع رجل فرنسي على الأقل. هذا واضح، أليس كذلك؟ طبعاً، هكذا أكدت لها. بالنسبة لي كان كل شيء واضحاً كل الوضوح ـ ما عدا كيف بحق الجحيم وقع فيلمور في حبائلها. مهما يكن، كل شيء في حينه. وكان من واجبي عندئذ أن أواسيها، وهكذا ملأتها بكل أنواع الهراء، قلت لها إن من الغريب أن كل شيء سيكون على ما يرام وأني سأكون عراب الطفل، إلخ. ومن ثم خطر لي فجأة أنه من الغريب تماماً أن تتمكن من الاحتفاظ بطفلها ـ خاصة وأنه على الأغلب سيولد أعمى. وأخبرتها بهذا بأقصى ما يمكن من اللباقة، فقالت:" لا يهم، فأنا أريد طفلاً منه".

سألتها "حتى وإن كان أعمى؟".

فقالت وهي تئن:" يا إلهي، لا تقل هذا! لا تقل هذا"!.

لا يهم، فقد شعرت أن من واجبي أن أخبرها. وانتابتها الهستريا،

وطفقت تبكي كحيوان الفظ، وصبت مزيداً من النبيذ. وخلال بضع لحظات عادت تضحك بصخب. ضحكت لأنها تذكرت كيف كانا يتشاجران في السرير، وقالت:" كان يحب أن أتشاجر معه. كان متوحشاً".

عندما جلسنا نتناول الطعام، جاءت إليها صديقتها ـ وكانت عاهرة وضيعة تقطن في نهاية القاعة وسارعت جينيت بإرسالي إلى أسفل لأحضر مزيداً من النبيذ. وعند عودتي كان من الواضح أنهما تبادلتا حديثاً دسماً. وصديقتها إيفيت تعمل في سلك الشرطة، جاسوسة، كما فهمت منها. على الأقل هذا ما كانت تحاول إقناعي به. كان واضحاً بما يكفي إنها مجرد عاهرة وضيعة، غير أنها مولعة برجال الشرطة وبإنجازاتهم. وظلتا طوال الوجبة تلحان علي لمصاحبتهما إلى حفلة لموسيقى القرب. أرادتا أن تمضيا وقتاً مرحاً ـ فالجو بالنسبة إلى جينيت مع جوجو في المستشفى يثير الضجر. أخبرتهما أن لدي عملاً أقوم به، وأنني في ليلة عطلتي سأعود وأصطحبهما. وأوضحت لهما أيضاً أنه ليس لدي نقود لأنفقها عليهما. وادعت جينيت، التي صعقت حقاً لسماع هذا، أنه لا يهم على الإطلاق. والحقيقة، ولكي تبين لي إلى أي حد لها روح رياضية، أصرت على أن توصلني إلى مقر عملي بسيارة أجرة. وهي تفعل هذا لأنني صديق جوجو الحميم. ولذا فأنا صديقها هي. وقلت في نفسي"إذا حدث أي مكروه لحبيبك جوجو فستهرعين إلي بالسرعة الكلية. عندها سترين أي صديق سأكونا". لقد كنت بالنسبة لها لطيفاً كفطيرة، حتى أني، حين خرجنا من السيارة أمام المكتب، سمحت لها بإقناعي بتناول كأس بيرنو أخيرة معاً. وودت إيفيت لو تعرف إن كان بوسعها أن تعرج علي بعد إنهاء عملي فلديها أشياء كثيرة تخبرني بها على انفراد، كما قالت. لكنني نجحت في الرفض دون أن أؤذي مشاعرها. ولسوء الحظ كنت متهاوناً بحيث أعطيتها عنواني.

أقول "لسوء الحظ" بينما في الحقيقة أني سعيد بهذا حين أعيد التفكير فيه. لأنه في اليوم التالي مباشرة بدأت الأحداث تتوالى. ففي اليوم التالي، حتى قبل أن أنهض من فراشي عرجتا علي معاً. فقد أُخرِجَ جوجو من المستشفى - وقد حجزتاه في قصر صغير في الريف، على مبعدة بضعة أميال من باريس. قالتا إنه "قصر"، إذ ليس من قبيل التهذيب القول "بيت المجانين"، وطلبتا مني

أن أسرع في ارتداء ملابسي لأذهب معهما، وكانتا مرعوبتين.

ربما كان يمكن أن أذهب وحدي - لكني عجزت عن اتخاذ قرار مرافقة هاتين الإثنتين. وطلبت منهما أن تنتظراني في الطابق السفلي ريثما أرتدي ملابسي، معتقداً أن ذلك سيمنحني الوقت لاختلاق عذر لعدم الذهاب. لكنهما رفضتا مغادرة الغرفة، وجلستا تراقباني وأنا أغتسل وألبس، وكأنها مسألة عادية. وبينما نحن كذلك إذا بكارل يظهر فجأة. فشرحت له الوضع باختصار بالإنكليزية، ومن ثم اخترعنا عذراً متعللين بأن لدي عملاً مهماً يجب القيام به. بيد أننا، ولكي نخفف من وطأة الأمر، أحضرنا بعض النبيذ وأخذنا نسليهما بكتاب فيه رسوم قذرة. وفقدت إيفيت كل رغبة بالذهاب إلى القصر، وكانت وكارل يتماديان علانية. ولما حان وقت ذهابنا قرر كارل أن يصحبهما إلى القصر. وقد رأى أن من المضحك رؤية فيلمور يتجول مع جمع من المجانين، وأراد أن يرى ماذا يشبه بيت المجانين. وهكذا انطلقوا، وهم سكارى قليلاً، ومزاجهم على أفضل ما يكون.

طوال وقت وجود فيلمور في القصر لم أذهب قط لزيارته. لم يكن ذلك ضرورياً، لأن جينيت كانت تعوده بانتظام وتنقل لي كل الأخبار، إنهم يأملون في أن يخرجوه في غضون بضعة أشهر، كما قالت. إنهم يعتقدون أنه تسمم من الكحول - لا أكثر. وطبعاً كان مصاباً بالمرض — ولكن ليس من الصعب الشفاء منه. وحسبما يرون، لم يكن مصاباً بالسفلس، وهذا شيء رائع. وكخطوة أولية استخدموا معه مضخة البطن، نظفوا أحشاءه كلها تماماً. وأصبح لفترة من الوقت من الضعف بحيث عجز عن مغادرة الفراش، وركبه الغم أيضاً. قال إنه لا يريد أن يشفى - وأراد أن يموت. وأخذ يكرر هذا الهراء بإصرار إلى درجة أن مخاوفهم زادت في آخر الأمر. وأعتقد أنه ما كان شيئاً حسناً جداً لو أنه انتحر. وعلى أية حال، بدأوا يطبقون عليه علاجاً عقلياً. وبين وقت وآخر ينزعون أسنانه، بالتدريج، حتى لم يتبق له شيء منها في فمه. وكان من المفروض أن تتحسن صحته بعد ذلك، والغريب أنها لم تتحسن. وغدا أكثر قنوطاً من ذي قبل. ثم أخذ شعره يتساقط. وأخيراً ظهرت عليه علائم جنون العظمة - بدأ يوجه إليهم تهماً كثيرة، وطلب أن

يعرف بأي حق يحجز، وماذا فعل حتى يسمح بسحنه.... إلخ، وكان بعد كل نوبة رهيبة من القنوط والاكتئاب تجتاحه حيوية مفاجئة ويبدأ يهدد بنسف المكان إذا لم يطلقوا سراحه. وليزداد الأمر سوءاً، وبما يتعلق بجينيت، كان قد برأ من فكرة الزواج منها، وقال لها صراحة ودون مواربة إنه لا ينوي الزواج منها، وإنها كانت قد جنت وحبلت فعليها أن تتدبر أمرها بنفسها.

فسر الأطباء كل هذا على أنه دلالة طيبة. قالوا إنه يتحسن. أما جينيت، طبعاً، فكانت ترى أنه يزداد جنوناً على جنون، لكنها كانت تصلي كي يطلقوا سراحه لتأخذه إلى الريف حيث الهدوء والسكينة، وهناك سيعود إلى صوابه. في تلك الأثناء قدم والداها إلى باريس في زيارة بل وذهبا إلى أبعد من ذلك وقاما بزيارة صهر المستقبل في القصر. ولعلهم تصوروا بتفكيرهم البعيد النظر أنه من الأفضل لابنتهم أن تتزوج من مجنون على أن لا تتزوج أبداً. ورأى الوالد أن بوسعه أن يجد لفيلمور عملاً ما في المزرعة. وقال إن فيلمور شاب لا بأس به على الإطلاق. ولما علم من جينيت أن لدى فيلمور نقودا أبدى حتى تسامحاً أكبر وتفهماً أكثر.

كان الأمر يجري على ما يرام من كل النواحي. فقد عادت جينيت إلى الأقاليم لفترة من الوقت مع أبويها، وأخذت إيفيت تتردد بانتظام على الفندق لمقابلة كارل. كانت تظن أنه ناشر صحيفة. وشيئاً فشيئاً أصبحت أكثر حميمية. وحين متنت علاقتها معنا تماماً أخبرتنا في أحد الأيام أن جينيت لم تكن أكثر من عاهرة، وأن جينيت عَلَقَة، وأن جينيت لم تكن قط حاملاً. وبشأن الاتهامات الأخرى لم يكن لدينا شك كبير، أنا وكارل، أما عن كونها ليست حاملاً، فذلك ما لم نتأكد منه.

سأل كارل "كيف إذن حصلت على تلك البطن الضخمة؟ فضحكت إيفيت وقالت "ربما استخدمت مفتاح دراجة" ثم أضافت " لا، حقاً، الانتفاخ حصل نتيجة الإفراط في الشرب، إن جينيت تشرب كسمكة. ستريان حين تعود من الريف كيف أصبحت منفوخة أكثر. إن أباها سكير، وجينيت سكيرة. وهي مصابة بالسيلان، نعم ـ لكنها ليست حبلى".

"ولكن لماذا تريد أن تتزوج منه؟ أصحيح أنها تحبه؟".

"حب هراء! جينيت ليس لها قلب. إنها تريد من يعتني بها. لـن يقبـل أي فرنسي أن يتزوج منها - إن لديها سجلاً عند دوائر الشرطة. لا، إنها تريده لأنه أغبى من أن يكتشف أمرها. ووالداها ما عادا يريدانها - إنها تجلب العار. أما إذا استطاعت الزواج من أمـيركي ثـري، عندئـذ سيكون كـل شـيء علـى ما يرام.... لعلكما تعتقدان إنها تكن له شيئاً مـن الحـب، هـه؟ أنتمـا لا تعرفانهـا. حين كانا يعيشان معاً في الفندق، كانت تستقبل رجالاً أثنـاء غيابـه في العمـل. كانت تقول إنه لم يكن يعطيها ما يكفي من النقـود لتنفـق. كـان بخيـلاً. وذاك الفرو الذي كانت ترتديه - قالت له إن والديها أعطياها إياه، أليس كذلـك؟ يـا للأبله البريء! لقد رأيتها بأم عيني تعود إلى الفندق مع رجل وكان هو ما يـزال موجوداً هناك. ووضعت الرجل في الطابق السفلي. لقد رأيـت هـذا بـأم عيـني. وأي رجل! عجوز متهدم. لم يستطع أن يحصل على انتصاب.

لو أن فيلمور عاد إلى باريس بعد إطلاق سراحه من القصر، فربمـا كـانت زودته بمعلومات سرية عن جينيت. ولكن لما كان لا يزال موضوعاً تحت المراقبـة وجدت افتراءات إيفيت السامة حديرة بإقلاقه. ومرت الأحداث، وانتقل مباشـرة من القصر إلى بيت والدي جينيت. وهناك، ظلوا يتملقونه حتى أعلن خطبته علـى الملأ رغماً عنـه. ونشـر خـبر الزواج في الصحـف المحلية وأرسـلت الدعـوات إلى أصدقاء العائلة. وانتهز فيلمور الوضع لينغمس في كل اشـكال الأعمـال الطائشـة. وعلى رغم أنه كان يعي جيداً ما يفعله تظاهر بأنه لا يزال أبله قليلاً. فكان، مثلاً، يستعير سيارة حميه ويطوف بهـا أرجـاء الريـف وحـده، فـإذا رأى مدينـة أعجبتـه افترش لنفسه مكاناً وجلس يستمتع بوقته إلى أن تأتي جينيـت باحثـة عنـه. أحيانـاً كان ينطلق هو وحموه معاً - ربما في رحلة صيد سمك - ثم لا يسـمع أحـد عنهمـا طوال أيام عدة. وأصبح نزوياً بشكل يثـير السـخط وكثـير المطـالب. وأعتقـد أنـه تصور أن بإمكانه أن يحصل على ما يريد بهذه الطريقة.

حين عاد إلى باريس مع جينيت كان لديه ملء خزانة من الثيـاب الجديـدة وجيب مملوء بالنقود. وبدا مرحاً صحيح البدن، وذا بشرة سمراء جميلـة. بـدا لي متيناً كثمرة عليق. ولكن حالما ابتعدنا عـن جينيـت بـدأ يكاشـفني: لقـد خسـر عمله ونفدت نقوده. وقرانه سوف يعقـد في غضـون شـهر أو نحـوه. وفي تلـك

الأثناء كان الوالدان يزودانه بالمال. قال " إذا أحكما قبضتيهما علي فلـن أكـون أكثر من عبد لهما. الأب يظن أنه سيفتح لي دكان قرطاسـية، وستدير جينيت العمل مع الزبائن، وتستلم النقود، إلخ. بينما أجلس أنا في آخر الدكان لأكتـب ـ أو أفعل أي شيء. أتتصورنـي جالساً في خلفيـة دكـان قرطاسية حتى آخر حياتي؟ جينيت تعتقد أنها فكرة ممتازة، وهي تحب أن تدير الشؤون المالية. إنـي أفضل أن أعود إلى القصر على أن أستسلم لهكذا مخطط.

كان يتظاهر، مؤقتاً طبعـاً، بـأن كـل شـيء رائـع. وقـد حـاولت إقناعـه بالعودة إلى أميركا، لكنه رفض وقال إنه لـن يـدع ثلـة مـن الفلاحـين الجهلـة تطرده من فرنسا. كان يفكر في التواري عن الأنظار لفترة مـن الزمـن، وبعـد ذلك يشتري بيتاً خارج نطاق المدينة حيث من المسـتبعد أن يتعثر بهـا ثانيـة. ولكن سرعان ما قررنا أن هذا مستحيل: لا يمكنك أن تتوارى عن العيـون في فرنسا كما هو الحال في أميركا.

اقترحت عليه "يمكنك أن تلجـأ إلى بلجيكـا لبعـض الوقـت" فقـال علـى الفور:" وماذا سأعمل لأكسب المـال، فـلا يمكنـك أن تحصـل علـى عمـل في تلك البلاد اللعينة "

سألته "لماذا لا تتزوجها وبعدئذ تطلقها؟".

"وفي تلك الأثناء تكون قـد رمـت لي بطفـل. ومـن سيعتني بـه، هـه؟". قلت:"وما أدراك أنها ستضع طفلاً؟" مقرراً بهذا أن اللحظة قد حانت للبـوح بكل شيء.

قال :" ما أدراني؟". لم يبد عليه أنه يفهم تماماً إلام كنت ألمّح.

أعطيته ملخصاً لما قالته إيفيت. فأنصت إلي وهو في حـيرة تامـة. وأخـيراً قاطعني قائلاً "لا فائدة من الاسترسـال في هـذا الكـلام، أعـرف أنهـا ستضع طفلاً. لقـد أحسسـت بـه يتحـرك داخلهـا. إيفيـت عـاهرة حقـيرة قـذرة. في الواقع، لم أكن أنوي أن أخبرك، ولكن كنت حتى الوقت الـذي ذهبـت فيه إلى المستشفى لا أزال أمد إيفيت بالمال. ولما وقعت المصيبة لم أعد أستطيع أن أفعل أي شيء لأجلها. وتصورت أني قدمت ما يكفي لكليهما.... وقـررت أن أعتني بنفسي أولاً، فاستشاطت إيفيت غضباً، وقالت لجينيت أنها ستنتقم

مني... لا، ليت ما قالته صحيح، إذن لخرجت من هذه الورطة بسهولة أكبر. ها أنا واقع في فخ. لقد وعدت بالزواج منها ويجب أن لا أتراجع. بعد ذلك لا أدري ماذا سيحل بي. لقد قبضوا علي من خصيتي الآن".

لما كان قد احتل غرفة في الفندق نفسه معي فقد اضطررت إلى أن أقابلهما باستمرار، شئت أم أبيت. وكنت أتناول طعام العشاء معهما كل ليلة تقريباً، مسبوقاً بعدد من كؤوس البرنو. وطوال فترة تناول الطعام كانا يتشاجران بصخب. وكان ذلك مربكاً لأني كنت ملزماً أحياناً بالانحياز إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر. فبعد ظهر يوم أحد، على سبيل المثال، وبعد انتهائنا من تناول طعام الغداء معاً، توجهنا جميعاً إلى مقهى كائن عند زاوية شارع إدغار ـ كينه. وسارت الأمور هذه المرة على أحسن ما يرام. وجلسنا في القسم الداخلي على طاولة صغيرة، جنباً إلى جنب على طرف واحد، وظهورنا إلى المرآة. ويبدو أن الشهوة استبدت بجينيت أو شيئاً من هذا القبيل، فقد سيطر عليها فجأة مزاج عاطفي وأخذت تلاطفه وتقبله أمام الجميع. والفرنسيون يتصرفون هكذا عفوياً. ولم يكن قد مضى على عناقهما المطول طويلاً حين تفوه فيلمور بشيء عن والديها فسرته هي على أنه إهانة. وعلى الفور صعد الدم إلى وجنتيها من الغضب. وحاولنا أن نطيب خاطرها قائلين إنها أخطأت فهم الملاحظة، ومن ثم قال لي فيلمور شيئاً بالإنكليزية بصوت منخفض ـ شيئاً عن تملقها قليلاً. وكان ذلك كافياً لبلوغ غضبها ذروته. قالت إننا نسخر منها. فقلت لها عبارة حادة زادت الطين بلة. ثم حاول فيلمور أن يقول كلمة طيبة. قال:" إنك سريعة الغضب". وحاول أن يربت على خدها، لكنها ظنت أنه رفع يده ليضربها على وجهها، فسبقته بلطمة قوية على فكه بيدها القروية الضخمة تلك. وظل منهولاً برهة من الوقت، فلم يكن يتوقع لكمة كهذه، وكانت تلسعه. ورأيت وجهه يشحب حتى الابيضاض، وفي اللحظة التي تلت نهض عن المقعد وبكامل كفه لطمها لطمة قوية مفرقعة حتى كادت تقع عن مقعدها. "خذي! هذا سيعلمك التهذيب!". قال هذا بلغته الفرنسية الركيكة. ومرت لحظة من الصمت التام. ثم، وكقصف العاصفة، التقطت كأس الكونياك الذي كان أمامها وقذفته نحوه بكل قوتها، فتهشم على المرآة وراءنا. وكان فيلمور قد قبض على ذراعها للتو، لكنها قبضت على كأس القهوة بيدها الحرة وحطمته على الأرض. وأخذت تتلوى

كالمهووسة. وكان ذلك هو أقصى ما كان بإمكاننا عمله لإمساكها. وطبعاً، في تلك الأثناء، كان صاحب المقهى قد أتى راكضاً وأمرنا بالرحيل فوراً. وزعقت جينيت "متشردان! نعم، متشردان، هذا أنتما! أجنبيان قذران! سفاحان! قاطعا طريق! تضربان امرأة حامل!"، وكانت النظرات الحاقدة تتكاثر من حولنا. امرأة فرنسية مسكينة، وأميركيان جلفان. قاطعا طريق. وكنت أفكر كيف بحق الجحيم سنخرج من هذا المكان دون إثارة قتال. كان فيلمور، في هذه الأثناء، صامتاً بقدر ما هو هادىء. وكانت جينيت قد انطلقت خارجة كالسهم، وتركتنا لنواجه الورطة. وبينما هي تعبر الباب التفتت إلى الخلف رافعة قبضتها وصرخت: "سأرد لك الصاع صاعين، أيها المتوحش! سوف ترى، لا يحق لأي أجنبي أن يعامل امرأة فرنسية متحضرة هكذا! أوه، لا! ليس هكذا"!.

لما سمع صاحب المقهى هذا، وكنا قد دفعنا ثمن المشارب والكؤوس المحطمة، شعر بأنه ملزم بإظهار شهامته نحو ممثلة ممتازة للأمومة الفرنسية كجينيت، وهكذا، ودون مزيد من الضجيج بصق على قدمينا ودفع بنا عبر الباب، "خراي عليكما، أيها المتسكعان القذران!". قال هذا، أو ما شابه من المزاح.

حين أصبحنا في الشارع وكف الناس عن رمينا بالأشياء، بدأت أرى الجانب المضحك من الأمر. وقلت في نفسي، كم كانت فكرة رائعة لو أن الأمر كله انتقل هكذا إلى المحكمة. "الأمر برمته!"، مع حكايا إيفيت الصغيرة بوصفها طبقاً جانبياً. فالفرنسيون يتمتعون قبل كل شيء بروح النكتة. وربما لو أن القاضي استمع إلى القصة من فيلمور، لحله من واجب الزواج.

في تلك الأثناء كانت جينيت واقفة على الطرف الآخر من الشارع تلوح مهددة بقبضتها وهي تزعق بكل قواها. وكان الناس يتوقفون ليستمعوا، وليساندواهذا الجانب أو ذاك، كما يفعلون عادة في مشاجرات الشوارع. ولم يدر فيلمور ماذا يفعل، هل يبتعد عنها، أم يذهب أليها ويحاول أن يهدئها. كان واقفاً في وسط الشارع ممدود الذراعين محاولاً عبثاً أن يقول كلمة. وكان جينيت ما تزال تصرخ:" قاطع طريق! متوحش! خنزير قذر!". وأشياء أخرى مكملة. وأخيراً خطا فيلمور خطوة باتجاهها فظننت أنه ينوي أن يكيل لها لكمة أخرى، فأطلقت ساقيها للريح. وعاد فيلمور إلى حيث كنت أقف

وقال:" هيا، دعنا نتبعها بهدوء" وانطلقنا، يتبعنا جمع قليل من المشردين. وبين حين وآخر كانت تلتفت نحونا لتلوح بقبضتها. ولم نقم بأية محاولة للحاق بها، واكتفينا بتعقبها في الشارع بتمهل لنرى مادا ستفعل. أخيراً أبطأت خطوها وعبرنا نحن إلى الطرف الآخر من الشارع. كانت الآن قد هدأت. وتابعنا سيرنا خلفها، أقرب فأقرب. ولم يتبق خلفنا إلا حفنة من الناس ـ أما الباقون فكانوا قد فقدوا اهتمامهم بالأمر. حين اقتربنا من المنعطف توقفت فجأة وانتظرت اقترابنا منها، فقال فيلمور "دع الكلام لي، أعرف كيف أعاملها".

كانت الدموع تنهمر على خديها ونحن نقترب منها. من ناحيتي، لم أكن أعرف ماذا أتوقع منها. لذا دهشت نوعاً ما حين تقدم فيلمور منها وقال بصوت متظلم "أكان جميلاً ما فعلت؟ لماذا تصرفت هكذا؟". أما هي فطوقته بذراعيها وأخذت تجهش بالبكاء كالطفل وهي تناديه بصغيرها فلان وصغيرها علان. ثم التفتت نحوي بنظرة متوسلة وقالت "لقد رأيت كيف ضربني، أهكذا تعامل المرأة؟" وكدت أقول نعم لولا أن أمسكها فيلمور من ذراعها وسار يقودها. قال "كفانا من هذا، إذا بدأت من جديد فسأضربك هنا وسط الشارع".

ظننا أن كل شيء سيبدأ من جديد. كانت النار تتلظى في عينيها. غير أنه من الواضح أنها كانت مرتاعة قليلاً أيضاً، لأن كل شيء خمد بسرعة. حين جلست في المقهى قالت بهدوء وهي عابسة أن عليه أن لا يظن أن كل شيء سوف ينسى بسرعة، بل سيسمع المزيد فيما بعد ..... ربما هذه الليلة. وأوفت بوعدها تماما. فحين قابلته في اليوم التالي كان وجهه ويداه مغطاة بالخدوش. إذ يبدو أنها انتظرت حتى أوى إلى سريره وعندها، ودون أية كلمة، ذهبت إلى خزانة الملابس، وقذفت بجميع أغراضه على الأرض، ثم تناولت كل قطعة على حدة ومزقتها نتفاً. ولما كان هذا قد حدث مرات عديدة من قبل، ولما كانت دائماً تصلحها فيما بعد، فلم يحمل نفسه مغبة الكثير من الاحتجاج. مما جعل غضبها يتعاظم أكثر فأكثر. غير أنها كانت تريد أن تغرز أظافرها فيه، وهذا ما فعلته، بكل ما تستطيع من قوة، وقد أفادها في ذلك أنها حامل.

مسكين فيلمورا لم تكن قضية مضحكة. لقد أرعبته. فإذا هدد بالهرب هددت بقتله. وكأنها تقصد ما تقول. وكانت تقول :"إذا رحلت إلى أميركا فسأتبعك لن تفلت مني. الفتاة الفرنسية تعرف تماماً كيف تثأر لنفسها". وفي اللحظة التالية تلاطفه ليكون "عاقلاً" ليكون "حكيماً"، إلخ. ستصبح الحياة جميلة حالما يحصلان على مخزن القرطاسية. لن يكون عليه أن يقوم بالكثير من العمل. سوف تتولى هي كل شيء. سيبقى هو جالساً في مؤخر المخزن ليكتب ـ أو ليفعل ما يشاء.

استمرت الأمور هكذا، جيئة وذهاباً، كالمنشار، بضعة أسابيع أو نحوها. كنت أتفاداهما قدر ما أستطيع، فقد سئمت العملية كلها مشمئزاً منهما هما الإثنان. ثم ذات يوم صيفي جميل، بينما كنت ماراً من أمام محل "ليونه" فمن غير فيلمور سأراه يهبط الدرج، رحبت به بحرارة، شاعراً بالذنب لأنني تفاديته طويلاً، فسألته بأكثر من مجرد الفضول العادي، كيف الحال معه. فأخبرني جواباً غامضاً ورنة اليأس في صوته.

قال :"لقد سمحت لي بالذهاب إلى المصرف"، قالها بطريقة خاصة منكسرة ذليلة "لدي من الوقت نصف ساعة، لا أكثر. إنها تراقبني مراقبة شديدة"، ثم شد على ذراعي وكأنما يحثني على الابتعاد عن مكان وقوفنا.

انحدرنا صوب شارع ريفولي، والنهار جميل، دافيء، صاف، مشمس ـ أحد تلك الأيام التي تكون فيها باريس في أبهى حللها. ونستيم معتدل سائغ يهب، يكفي لنزع الرائحة النتنة من أنفك. وكان فيلمور حاسر الرأس. ظاهريا بدا مثالاً للصحة ـ كسائح أميركي عادي يمشي مترهلاً والنقود ترن في جيوبه.

قال بهدوء :"لم أعد أعرف ماذا أفعل، يجب أن تفعل شيئاً لأجلي. أنا يائس. لا أستطيع أن أتمالك نفسي. ليت بوسعي أن أهرب منها ولولفترة وجيزة، ربما تحسنت حالي. لكنها لا تدعني أغيب عن ناظريها. إني بالكاد أحصل على إذن بالذهاب إلى المصرف ـ يجب أن أسحب بعض النقود. سأتمشى معك قليلا ثم علي أن أعود مسرعاً ـ وإلا ظلت طوال فترة الغداء تنتظرني".

أنصت إليه بهدوء، وأنا أقول لنفسي إنه حتماً بحاجة إلى من ينتشله من تلك البؤرة. لقد أوقع به تماماً، لم يبق فيه أي قدر من الشجاعة. كان أشبه

بطفل ـ طفل يضرب كل يوم حتى لم يعد يعرف كيف يتصرف عدا أن يجثم منكمشاً مرتعداً. ولدى انحدارنا تحت صف من الأشجار في شارع ريفولي، انفجر في خطبة طويلة لاذعة ضد فرنسا، لقد سئم الفرنسيين. قال "كنت قبلاً مولعاً بهم، ولكن ولعي كان وهماً. بت أعرفهم الآن.... بت أعرف من هم حقاً. إنهم قساة ومرتزقة. في أول الأمر بدا الوضع رائعاً، لأنك تشعر أنك حر. وبعد فترة وجيزة يبدأ بإشاعة الكآبة فيك. ففي العمق كل شيء موات، لا مشاعر، لا تعاطف، لا صداقة. إنهم أنانيون حتى اللب، أكثر الشعوب أنانية على وجه الأرض! لا يفكرون إلا بالمال، المال، المال. ويا لهم من محترمين جداً، وبورجوازيين! وهذا ما يدفعني إلى الجنون. عندما أراها تصلح قمصاني أكاد أضربها بهراوة. دائماً أراها تصلح، وتصلح، وتقتصد، وتقتصد. "يجب أن تقتصد!". هذا كل ما أسمعه منها طول الوقت. إنك تسمع هذا في كل مكان. "كن عاقلاً، يا عزيزي! كن عاقلاً!". لا أريد أن أكون عاقلاً، ومنطقياً، أكره هذا، أريد أن أنطلق، أريد أن أنهل من المتعة. أريد أن "أفعل" شيئاً. لا أريد أن أجلس في مقهى وأثرثر طوال النهار. يا إلهي، صحيح أن لنا أخطاءنا ـ ولكن لدينا الحماس. من الأفضل أن نرتكب الأخطاء على أن لا نفعل شيئاً. أفضّل أن أكون متبطلاً سكيراً في أميركا على أن أبقى جالساً هنا. وهذا ربما لأنني أميركي أصيلyankee ، ولدت في نيو انجلند وأعتقد أنني أنتمي إلى هناك. لا يمكنك أن تصبح أوروبياً بين ليلة وضحاها. ثمة شيء في دمك يجعلك مختلفاً. إنه المناخ العام ـ وكل شيء. إننا نرى الأمور بمنظار مختلف. لا يمكننا أن نغير أنفسنا، مهما أعجبنا بالفرنسيين. نحن أميركيون ويجب أن نبقى أميركيين. لا شك في أني أكره أولئك اللوطيين المتطهرين هناك في الوطن ـ أكرههم بكل كياني. لكني واحد منهم أيضاً. إني لا أنتمي إلى هذا البلد، وقد سئمته".

استمر على هذا الشكل طوال سيرنا بين صفي الأشجار. ولم أنطق بكلمة. تركته يقول كل شيء ـ كان من المفيد أن يزيح كل شيء عن صدره. ومع ذلك، كنت أفكر في أننا لو نعود عاماً إلى الوراء لرأينا هذا الشاب نفسه يضرب على صدره كالغوريلا، ويقول "أي يوم رائع! أي بلد! أي شعب". ولو تصادف أن مر به أميركي يتلفظ بكلمة واحدة ضد فرنسا لحطم فيلمور أنفه. كان مستعداً للموت فداءاً لفرنسا ـ قبل عام. لم أر في حياتي رجلاً مفتوناً ببلد، وسعيداً تحت

سماء أجنبية كما كان هو. لم يكن أمراً طبيعياً. وحين كان يقول "فرنسا" كان يعني الخمر، والنساء، والنقود في الجيب، تأتي بسهولة، وتنفق بسهولة. كان يعني أن تكون أزعر، أن تكون في عطلة. ثم، حين تلقى الضربة، حين طار السقف الذي أواه، ونظر إلى السماء كما يجب أن ينظر، وجد أنه لم يكن مجرد سيرك، بل حلبة قتال، كأي مكان آخر. بل ومكان كئيب لعين. كنت دائماً أفكر حين اسمعه يهذي بفرنسا العظمى، بالحرية وكل ذاك الهراء، ماذا يمكن أن تكون ردة فعل عامل فرنسي لو أنه فهم ما يقوله فيلمور. لا شك في أنهم يظنوننا جميعاً مجانين. ونحن حقاً مجانين بالنسبة لهم. وما نحن غير عصبة من الأطفال. بلهاء خرفون. ما ندعوه بالحياة ما هو إلا مخزن للأوهام الواحد بخمسة شلنات وعشرة بنسات. وهذا الحماس الكامن في العمق - ما هو؟ ذاك التفاؤل الرخيص الذي يقلب معدة أي أوروبي عادي؟ إنه وهم. لا، فكلمة وهم كثيرة جداً عليه. فالوهم يعني شيئاً ما. لا، ليس كذلك إنه "ضلال" محض ضلال، بالضبط. ما نحن غير قطيع من الخيول البرية معصوبي العيون. في حالة هياج. نفر مذعورين. نقفز عبر شفا الهاوية. وبانغو! نريد كل ما من شأنه أن يغذي العنف والفوضى. نركض! نركض! لا يهم إلى أين. والزبد يتشكل على الشفاه طول الوقت. نصرخ: هللويا! هللويا! لماذا؟ الله أعلم. إنه في دمنا. إنه المناخ. إنه أشياء كثيرة. هو النهاية أيضاً. إننا ندمر العالم كله من حولنا. ولا نعرف لماذا. هو قدرنا. أما الباقي فمحض خراء......

في الباليه رويال اقترحت أن نتوقف ونشرب كأساً. فتردد لحظة. ورأيت أنه قلق عليها. وعلى الغداء، والصراخ الذي سيكون من نصيبه. قلت :"إكراماً لمسيح، إنس كل شيء قليلاً عنها. سأطلب شيئاً نشربه وأريدك أن تشربه. لا تقلق، سأخلصك من هذه الورطة اللعينة" وطلبت كأسين من الويسكس القوي.

حين رأى الويسكي قادماً ابتسم لي من جديد كطفل.

قلت :"اجرعه! ودعنا نطلب غيره. سيجعلك تشعر بتحسن. لا يهمني ما يقوله الأطباء - هذه المرة سيكون كل شيء على ما يرام. هيا اجرعه"!.

جرعه دفعة واحدة، ولما اختفى الجرسون ليحضر طلباً آخر نظر إلي

بعيين مترعتين، وكأني كنت آخر صديق على وجه الأرض. كانت شفتاه ترتعشان قليلاً، أيضاً. كان لديه شيء يريد أن يفضي به إلي ولا يعرف كيف يبدأ، فنظرت إليه بهدوء، وكأني أتجاهل استغاثته ثم، بعد أن أزحت الصحاف جانباً، ملت على مرفقي وقلت له برصانة "أنظر هنا، يا فيلمور، ماذا تريد أن تفعل حقاً؟ قل لي"!.

هنا طفرت دموعه وأخذ يفشي مكنونات قلبه "أود لو أكون في وطني مع ناسي. أريد أن أسمع الكلام الإنكليزي". كانت الدموع تنساب غزيرة على خديه. و لم يقم بأية محاولة لإزالتها. بل ترك كل شيء ينبجس، وقلت في نفسي، وحق المسيح، رائع أن يتحرر المرء على هذا الشكل، رائع أن تكون حاناً تماماً ولو مرة في حياتك، أن تنطلق بلا ضابط. عظيم! عظيم! لقد أرحني كثيراً جداً أن أراه ينفجر هكذا حتى أني شعرت أن في وسعي حل أية مشكلة. شعرت أني شجاع وعازم. واحتشدت في رأسي ألف فكرة دفعة واحدة. قلت وأنا أنحني مقترباً منه "اسمع، إذا كنت تعني ما تقول فلماذا لا تنفذه.... لم لا ترحل؟ أتعلم ماذا أفعل لو كنت في مكانك؟ كنت رحلت في هذا اليوم، نعم، وحق المسيح، إني أعني ما أقول.... كنت رحلت على الفور، حتى دون أن أقول لها وداعاً. بل والحق يقال هذا هو السبيل الوحيد لرحيلك - إنها لا تدعك ترحل، وأنت تعلم دلك".

حاء الجرسون بالويسكس. ورأيته ينظر أمامه بتوق يائس ورفع الكأس إلى شفتيه. ولمحت بارقة أمل في عينيه - بعيد، وحشي، يائس. لعله رأى نفسه يسبح قاطعاً المحيط الأطلسي. لقد بدا لي الأمر سهلاً، بسيطاً كدحرجة زند خشب. كان كل شيء يتطور في ذهني بسرعة. كنت أعرف كل خطوة يجب اتخاذها. لقد كان ذهني صافياً كرنين الجرس.

سألته "لمن النقود التي في المصرف؟ أهي لوالدها أم لك؟.

هتف قائلاً "إنها لي، أرسلتها لي أمي. لا أريد شيئاً من نقودها اللعينة".

قلت "عظيم! اسمع، فلنستقل سيارة ونذهب إلى هناك. إسحب كل سنت فيه. بعدئذ نذهب إلى القنصلية البريطانية لنحصل على تأشيرة. ثم تستقل القطار بعد ظهر اليوم قاصداً لندن. ومن لندن تأخذ أول باخرة إلى أميركا. أقول هذا لأنك عندئذ ستكف عن القلق من ملاحقتها لك. إنها لن تشتبه قط في أنك

رحلت عن طريق لندن. فإذا خرجت تبحث عنك فمن الطبيعي أن تتوجه إلى الهافر أولاً أو إلى شيربور.... وثمة شيء آخر - إنك لن تعود لتأخذ حاجياتك، بل ستترك كل شيء هنا. دعها تحتفظ بهم. ومع ذاك الدماغ الفرنسي الذي تحمله لن تحلم أنك فررت دون حقيبة أو متاع. إنه شيء لا يصدق. لن يخطر لأي فرنسي أن يحلم بالقيام بعمل كهذا.... إلا إذا كان مجنوناً مثلك".

هتف قائلاً "أنت محق! لم يخطر هذا على بالي قط. ثم أنك قد ترسلهم إلي فيما بعد - هذا إذا تخلت عنهم! ولكن لا يهم الآن. يا إلهي، إني حتى لا أعتمر قبعة"!.

وما حاجتك إلى قبعة؟ حين تصل إلى لندن يمكنك أن تشتري كل ما تحتاج. كل ما تحتاجه الآن هو أن تسرع، يجب أن نعرف متى يغادر القطار".

قال وهو يمد يده إلى محفظته "إسمع، سأكِل أمر كل شيء إليك. هاك، خذ هذا وقم بكل ما يلزم. إني شديد الوهن... إني مصاب بدوار".

تناولت المحفظة وأفرغتها من النقود التي كان قد سحبها لتوه من المصرف. وكانت هناك سيارة أجرة تقف عند الرصيف. قفزنا إليها. وكان هناك قطار يغادر محطة الشمال في الساعة الرابعة أو نحوها. تصورت الأمر كله - المصرف، القنصلية، الاكسبريس الأميركي، المحطة. رائع! يكاد الأمر يتم.

قلت "والآن ابتهج! تشجع! اللعنة! بعد بضع ساعات ستكون عابراً القنال. والليلة ستتمشى في أنحاء لندن وستملأ بطنك من اللغة الإنكليزية. وغداً ستكون وسط مياه المحيط - وعندئذ، يا إلهي، ستكون رجلاً حراً ولن تأبه لما يحدث. حين ستصل إلى نيويورك لن يكون هذا أكثر من كابوس.

كان من فرط السعادة حتى أن قدميه كانتا تتحركان بعنف، وكأنه يحاول الركض وهو داخل السيارة. في المصرف كانت يداه ترتعشان بحيث أنه بالكاد تمكن من توقيع اسمه. وهذا عمل لم أستطع أن أنوب عنه فيه - أي - أن أوقع باسمه. ولكن أعتقد أنه لو لزم الأمر لأجلسته على المرحاض بنفسي ومسحت له مؤخرته أيضاً. لقد صممت على أن أرحله حتى لو اضطررت إلى طيه ووضعه داخل حقيبة.

حين وصلنا إلى القنصلية كانت ساعة الغداء قد حانت، وهي مغلقة. وهذا يعني الانتظار حتى الساعة الثانية. ولم أتذكر فكرة لقتل الوقت أفضل

من الأكل. وطبعاً، لم يكن فيلمور جائعاً. واكتفى بشطيرة. قلت لـه "اللعنـة، يجب أن تدعوني إلى غداء حافل، فهذه آخر وجبة مشبعة تدعوني إليها هنا ــ وربما لوقت طويل" وسرت به إلى مطعم صغير لطيف وطلبت وليمـة عـامرة. طلبت أفخر نبيذ موجود على اللائحة بغض النظر عن السعر أو المـذاق، فقـد كان في جيبي جميع نقوده ــ كـانت متعـة لي أن أكسر ورقـة بـألف فرنـك. قربتها من الضوء أولاً لأنظـر إلى العلامـة الخفيـة الجميلـة. نقـود جميلـة! إنهـا واحدة من أشياء قليلـة ينتجهـا الفرنسيون على نطـاق واسـع وبطريقـة فنيـة أيضاً، وكأنهم يغذون داخلهم ولهاً عميقاً حتى للرمز.

انتهت الوليمة، وانتقلنا إلى إحـد المقـاهي. طلبـت مـع القهـوة مشـروب الشارتروز. ولم لا؟ وكسرت ورقة أخرى ـ هذه المرة بمبلغ خمس مائة فرنك. كانت ورقة نظيفة، جديدة، نضرة. ممتع التعامل بنقود كهذه. وناولني النـادل كمية كبـيرة مـن الأوراق الماليـة القديمـة القـذرة المرقعـة بشـرائط مـن الـورق اللاصق، وتجمعت لدي كومة مـن الخمسـات والعشـرات ومـلء الحقيبـة مـن الفراطة. نقود صينية متقوبة. لم أعد أدري في أي جيب أحشو النقود. أصبـح بنطالي منتفخاً بالقطع المعدنية والورقية. وقد أزعجـني هـذا قليـلاً أيضـاً، وأنـا أحمل هكذا كل تلك النقود أمام الملأ، حتى أني خشيت أن يظنونا محتالين.

عندما وصلنا إلى الاكسبريس الأميركي لم يكن قد تبقى لدينا الكثير مـن الوقت. فقد تركنا البريطانيون، على طريقتهم المتمهلة التي "بتخري" المعتـادة، ننتظر ونحن على أحر من الجمر. هنا كـان الكـل يتحـول منزلقـاً علـى زيـت خروع. كانوا من السرعة بحيث أن كل شـيء كـان يجـب أن ينجـز مرتـين. فبعد أن وقعت جميع الشيكات وشبكت بممسكات أنيقة، اكتشـفوا أنهـا قـد وقعت في المكان الخطأ. ولم يكن أمامنـا إلا أن نبدأ كـل شـيء مـن جديـد. وأشرفت عليه، وأنا أضـع إحـدى عيـني على السـاعة، ورحـت أراقـب كـل حركات القلم. من المؤلم تسليم النقود. ليس كلها، حمداً لله ـ بل جزء كبـير منها. وبقي معي تقريبا ٢٥٠٠ فرنك في جيبي. أقول تقريباً لأني توقفت عـن عد الفرنكات. أهي مائة، مائتان، أكثر أم أقل ـ لم يعن لي هذا أي شيء. أمـا بالنسبة له، فقد كان الإجراء كله يمر وهـو في حالـة انبهـار. لم يكـن متـأكداً كم سيترك لها ـ وكنا سنقرر ذلك ونحن في طريقنا إلى المحطة.

في غمرة الإثارة نسينا أن نصرف جميع النقود. كنا قد استقللنا سيارة أجرة على أية حال، ولم يعد لدينا وقت نبدده. أهم شيء كان أن نعرف موطىء أقدامنا. فأفرغنا جيوبنا وبدأنا نوزعها. وضعنا بعضها على الأرض، والبعض الآخر على المقعد. كان شيئاً محيراً. نقود فرنسية، وأميركية، وإنكليزية. وإلى جانبها الفراطة. شعرت برغبة في التقاط القطع المعدنية ورميها من النافذة - فقط لأبسط الأمر. وأخيراً تخلناها كلها من جيوبنا، احتفظ هو بالنقود الإنكليزية والأميركية، وتمسكت أنا بالنقود الفرنسية.

كان علينا أن نقرر فوراً ما يجب عمله من أجل جينيت - كم سنعطيها، ماذا نقول لها، إلخ. حاول أن يؤلف قصة لأنقلها عن لسانه - لأنه لا يريد أن يحطم قلبها وكل ما شابه، وكان يجب أن أوقفه.

قلت "لا عليك مما ستقول لها، دع الأمر لي. كم ستعطيها، هذا هو المهم؟ بل لماذا تعطيها أي شيء أصلاً؟".

كان هذا الكلام كوضع قنبلة تحته. وانفجر باكياً. وأي دموع! بكى كما لم يبك من قبل، حتى حسبت أنه سينهار بين يدي، ودون تفكير قلت "حسن، دعنا نعطها كل هذه النقود الفرنسية. وهي كفيلة بإعالتها فترة من الوقت".

سأل واهناً "وكم يبلغ هذا؟".

"لا أدري نحو ٢٠٠٠ فرنك أو ما يقاربها. وهي أكثر مما تستحق على أية حال".

فتوسل إلي قائلاً "يا إلهي! لا تقل هذا! ثم إنه مبلغ حقير. لن يستقبلها أهلها بعد اليوم. لا، إعطها النقود. اعطها كل المال اللعين... لا يهمني كم المبلغ".

تناول منديلاً من جيبه ليمسح به دموعه، وقال "لا أحتمل هذا، إنه عبء ثقيل على كاهلي". ولم أقل شيئاً. وفجأة تمدد على طوله - وظننت أنه أصيب بنوبة أو ما شابه - وقال "يا إلهي، أعتقد أنني يجب أن أعود وأواجه المأزق. إذا حصل لها أي مكروه فلن أغفر لنفسي".

كان هذا بمثابة صدمة عنيفة بالنسبة لي، فصرخت "يا إلهي! لا يمكنك أن تفعل هذا! ليس الآن لقد فات الأوان وستستقل القطار وسأذهب بنفسي لأعنى بها. سأذهب لأراها حالما أتركك، أيها المغفل المسكين، لو أنها تكهنت بأنك حاولت أن تهرب لقتلتك، ألا تعلم؟ لا يمكنك أن تعود على الإطلاق. لقد تم الأمر".

مهما يكن، تساءلت : ما هو الخطر المتوقع؟ أتقتل نفسها؟ هـذا أفضـل. tant mieux.

عندما وصلنا إلى المحطة كان ما يزال أمامنا إثنتا عشرة دقيقـة لنقتلهـا. لم أجرؤ على أن أقول له وداعاً منذ الآن. وفي الدقيقة الأخيرة، وهو علـى حالـه من القلق والتردد، تصورت أنه يمكن أن يقفز من القطار ويهرع إليها. إن أي شيء يمكن أن يحرفه. إنه هش. وهكذا جررته ونحن نعـبر الشـارع إلى الحانـة وقلت "والآن سنجرع كأساً من البرنو ــ آخـر كـأس مـن الـبرنو سـأدفع أنـا ثمنه.... من مالك أنت".

شيء ما في هذه الملاحظة جعله ينظر إلي نظرة قلقة. جرع جرعة كبـيرة من البرنو ومن ثم، بعد أن ألقى علي نظرة كلب جريح، قـال "أعلـم أنـه مـا كان يجب أن أودع لديك كـل نقـودي، ولكـن.... ولكـن.... أوه حسـن. إفعل ما تجده الأفضل. كل ما أريده هو أن لا أدعها تقتل نفسها".

قلت "تقتل نفسها؟ إنها ليست من هذا النـوع! إن كنـت تصـدق شـيئاً كهذا فلا بد أنك تعذب نفسك أكثر مما يجب. أما النقـود، فعلـى رغـم أنـي أكره أن أعطيها أي شيء، فـأعدك أن أتوجـه مـن فـوري إلى مكتـب الـبريد وأرسله إليها على حناح السرعة. ولن أثـق في نفسـي في هـذه العمليـة دقيقـة واحدة زيادة عما هـو ضـروري.". قلـت هـذا ولمحـت حزمـة مـن البطاقـات البريدية معلقة على حامل دوار، فانتزعت واحدة - وهي صورة لبرج إيفـل ــ وجعلته يكتب عليها بضع كلمات "قل لها إنك مبحر الآن. قل لها أنك تحبهـا وإنـك سـتكتب لهـا رسـالة فـور وصولـك .... وسأرسـلها بوسـيلة هوائيـة pneumatique حين أصل إلى مكتب البريد. وهذا المساء سـأذهب لأراهـا. كل شيء سيكون على ما يرام، وسترى".

على الأثر عبرنا الشارع إلى المحطة. بقيت دقيقتان. عندئذ بت أشعر أننـا آمنان. وعند البوابة صفعته على ظهره وأشرت له إلى القطـار. لم أصافحـه ــ لئلا يفيض علي بعواطفه الصبيانية. واكتفيت بـالقول "أسـرع سـيتحرك بعـد دقيقة" ثم استدرت على عقبي ومشيت مبتعداً. حتى أنـي لم ألتفـت لأرى إذا كان قد استقل القطار. خفت أن أفعل.

لم أفكر، حين كنت منشغلاً بتهيئته للرحيل، ماذا سأفعل بعـد أن أتحـرر منه. لقد قطعت له وعوداً كثيرة - ولكن ذلك كان لمجرد تهدئته. أمـا بالنسـبة

لمواجهة جينيت، فلم أكن أتحلى، مثله، بأي قدر من الشجاعة لذلك. كنت بلوري أزداد رعباً. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة حتى بات مستحيلاً الإحاطة بطبيعة ما حصل إحاطة تامة. وابتعدت عن المحطة في نوع من الخدر اللذيذ ـ والبطاقة البريدية في يدي. وقفت مستنداً إلى عمود كهرباء وأخذت أقرأها. بدت منافية للعقل والطبيعة. وأعدت قراءتها، لأتأكد من أني لم أكن أحلم، ثم مزقتها ورميت بها إلى المجرور.

نظرت حولي باضطراب، أكاد أتوقع أن أرى جينيت تهرع خلفي شاهرة فأساً. لا أحد يتبعني. فانطلقت أسير بارتياح متوجهاً إلى ساحة لافاييت. كان نهاراً جميلاً، كما كنت قد نوهت سابقاً. مع بعض الغيوم الخفيفة، المنفوخة، تنساب مع الريح. المظلات ترفرف. لم تبد باريس بتلك الروعة من قبل، حتى أني شعرت بالأسف لأني رحلت اللوطي المسكين. جلست في اللاس لافاييت مواجهة الكنيسة أتأمل في ساعة البرج، واليوم تبدو أشد زرقة من أي وقت مضى. و لم أكن أقوى على إبعاد نظري عنها.

إذا لم يكن قد جن وكتب لها رسالة يشرح فيها كل شيء، فلن تعرف جينيت ما حدث. وحتى لو علمت أنه ترك لها ٢٥٠٠ فرنك أو نحوها فلن تستطيع إثبات ذلك. يمكنني أن أقول دائماً أنه تخيل الأمر. وأن رجلاً مجنوناً مثله يسير دون أن يضع قبعته على رأسه يمكن لجنونه أن يدفعه إلى اختراع ٢٥٠٠ فرنك، أو أي شيء آخر. ولكن كم هو المبلغ؟ تساءلت. كانت جيوبي مثقلة به. أخرجته كله لأحصيه بدقة. كان معي بالضبط ٢٨٧٥ فرنكاً و٣٥ سنتيماً. أي أكثر مما ظننت. إذن يجب التخلص من الـ ٧٥ فرنكاً والـ ٣٥ سنتيماً. أردت مبلغاً صحيحاً ـ ٢٨٠٠ فرنك نظيف. في تلك اللحظة رأيت سيارة تقف عند الرصيف. خرجت منها امرأة تجر في يدها كلباً أبيض من نوع البودل، وكان الكلب يطل من بين طيات ثوبها الحريري. وأزعجتني فكرة أخذ الكلب في نزهة بالسيارة. قلت في نفسي، أنني رائع مثل كلبها، وهنا أشرت إلى السائق كي يتجول في البوا. فأراد أن يعرف أين بالضبط، فقلت "أي مكان، أدخل البوا، وتجول في كل أنحائها ـ وكن على راحتك، لست على عجلة من أمري". وغصت في المقعد وتركت البيوت تمر مسرعة، والسقوف المثلمة، وأعالي المداخن، والجدران الملوثة، والمبولات، وتقاطع الطرق التي تسبب الدوار. لدى

مروري بالرون ـ بوان فكرت في أن أنزل الدرج وأتبول هناك. لا أحد يعلم ما قد يحدث هناك. قلت للسائق أن ينتظر. كانت المرة الأولى في حياتي التي أطلب فيها من سيارة أجرة أن تنتظرني كي أتبول. كم يستغرق منك هذا ليس كثيراً. بوجود المبلغ الذي في جيبي بوسعي أن أدع سيارتي أجرة تنتظراني.

أجلت نظري في أرجاء المكان لكني لم أر ما يستحق المشاهدة. أردت أن أرى شيئاً نضراً ـ شيئاً من ألاسكا أو من الجزر العذراء، جلداً حيوانياً نظيفاً نضراً غير مدبوغ، له رائحة طبيعية، ولا داعي للقول إنه لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل. و لم تكن خيبة أملي كبيرة. و لم يهمني إن وجدت أي شيء أم لم أجد. المهم هو أن لا أغالي في القلق. كل شيء يأتي في وقته.

انطلقنا من جديد مارين بقوس النصر. كان هناك بضعة من المتفرجين يتسكعون حول رفات الجندي المجهول. ولدى ولوجنا البوا نظرت إلى كل العاهرات الثريات وهن يتنزهن بسياراتهن الليموزين. كن يعبرن بسرعة وكأن لهن وجهة معينة. يفعلن هذا، بلا شك، ليضفين الأهمية على أنفسهن ـ ليعرضن للعالم كيف تجري سياراتهن الرولز رويس والهيسبانو سويزاس بسلاسة. وفي داخلي كانت الأشياء تجري أسلس من أية رولز رويس. داخلي كان أشبه بالمخمل، بغشاء مخملي وفقرات مخملية، وشحم محوري مخملي. ماذا؟ رائع أن يكون في جيبك نقود، لمدة نصف ساعة، وتتبولها كأنك بحار سكير. تشعر وكأنما العالم كله ملكك. وأفضل ما في الأمر أنك لا تعرف ماذا تفعل بها. يمكنك أن تسترخي وتدع العداد يجري كالمجنون، والهواء يتخلل شعرك، يمكنك أن تتوقف لتتناول مشروباً، وأن تمنح بقشيشاً كبيراً، ويمكنك أن تختال في مشيتك وكأنه حدث يومي. ولكن لا يمكنك أن تحدث ثورة. لا يمكنك أن تتخلص من كل القذارة التي في بطنك.

حين وصلنا إلى ميناء أوتوي أمرته أن يتوجه إلى نهر السين. وعلى جسر سيفر ترجلت وأخذت أتمشى على طول النهر، متجهاً صوب جسر أوتوي. كان النهر هنا بحجم جدول صغير والأشجار تصل حتى ضفة النهر. كانت المياه خضراء رقراقة، خاصة بالقرب من الجانب الآخر منه. وبين آن وآخر كان يمر أحد المواعين مصدراً صوتاً عالياً. وكان مستحمون بثياب ضيقة يقفون وسط العشب يتشمسون. كل شي كان قريباً نابضاً، خفاقاً بالضياء الساطع.

لدى مروري بإحد حدائق البيرة رأيت مجموعة من راكبي الدراجات جالسين على إحدى الطاولات. اتخذت مقعداً بالقرب منهم وطلبت نصف كأس. ولما رأيتهم يتعدون وهم يثرثرون تذكرت جينيت. تخيلتها تتمشى في طول الغرفة وعرضها تنتف شعرها، تنشج وتتغو، كالبهيمة. تخيلت قبعته معلقة على المشجب. وتساءلت إن كانت ملابسه تناسبني. كان لديه معطف راغلان يعجبني بشكل خاص. حسن، الآن هو في طريقه. وبعد قليل سيكون المركب يتهادى تحته. لغة إنكليزية! إذن يريد أن يسمع الكلام الإنكليزي. يا لها من فكرة!.

وفجأة، خطر لي أنه لو أردت لرحلت بدوري إلى أميركا. كانت المرة الأولى التي تخطر لي فيها الفكرة. وتساءلت ـ "هل تريد أن تذهب؟". لا جواب. وانسابت أفكاري، نحو البحر، نحو الجانب الآخر حيث رأيت، وأنا ألقي نظرة أخيرة إلى الماضي، ناطحات السحاب وهي تختفي في هبة من ندف الثلج، ورأيتها تلتئم من جديد، بالطريقة المرعبة نفسها تلك، وأنا أبتعد مغادراً البلاد. رأيت الأضواء تتسلل متغلغلة بين أضلعي. رأيت المدينة برمتها ممتدة، من هارلم إلى باتري، الشوارع غاصة بالنمل، والمرفهون يمرون مسرعين، والمسارح تفرغ روادها. تساءلت بطريقة مبهمة عما يمكن أن يكون حدث لزوجتي.

وبعد أن نخل كل شيء من رأسي غمرني سلام عظيم. هنا، حيث يتعرج النهر برفق مخترقاً نطاقاً من التلال، تمتد تربة مشبعة بالماضي الذي مهما نأى العقل عنه محوماً لا يمكن للمرء أن يفصله عن خلفيته الإنسانية. يا لله، يا للسلام الذهبي الذي يومض أما عيني ولا يمكن لعصابي أن يحلم بغض النظر عنه، ونهر السين يتدفق ببطء شديد حتى لا تكاد تلاحظ وجوده. إنه موجود دائماً، هادىء ومنسي، كشريان عظيم يجري عبر الجسم الإنساني. ووسط السلام الرائع الذي غمرني شعرت وكأني تسلقت قمة جبل شاهق، وخلال برهة قصيرة سأتمكن من أن أنظر حولي، أن أتشرب معنى المشهد العام.

الكائنات البشرية تشكل حيوانات ونباتات حُقَبية غريبة. من بعيد يبدون تافهين، وعن قرب هم أقرب للبشاعة والخبث. إنهم بحاجة أكثر من أي شيء آخر إلى أن يحاطوا بفراغ كاف ـ فراغ يتجاوز الزمن.

الشمس تنحدر نحو المغيب. أحس بهذا النهر يتدفق من خلالي ـ ماضيه، تربته العريقة، والمناخ المتقلب. التلال تطوقه من كل جانب: وقد تحدَّدَ مساره.



تصميم الغلاف : طالب الداوود
لوحـــة الغلاف : ايكون شيلي